

استمتع بحياتك

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي



3 ميدان عرابى - وسط البلد - القاهرة
+2 012 38 77 921 - +2 02 574 56 79

بســـــم الله الرحمن الرحيم

أسم الكتاب	أستمتع بحياتك
المؤلف	د . محمد عبد الرحمن العريفى
الناشر	الحرية للنشر والتوزيع
رقم الايداع	٢٠٠٨١٢٣٣
الترقيم الدولى	977 - 38 - 36 - 97-7



3 ميدان عرابى - وسط البلد - القاهرة
+2 012 38 77 921 - +2 02 25745679

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل..

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد..

لما كنت في السادسة عشرة من عمري وقع في يدي -كتاب «فن التعامل مع الناس» لمؤلفه «دايل كارنيجي» كان كتابًا رائعًا قرأته عدة مرات..

كان كاتبه اقترح أن يعيد الشخص قراءته كل شهر.. ففعلت ذلك.. جعلت أطبق قواعده عند تعاملي مع الناس فرأيت لذلك نتائج عجيبة..

كان كارنيجي يسوق القاعدة ويذكر تحتها أمثلة ووقائع لرجال تميزوا من قومه.. روزفلت.. لنكولن.. جوزف.. مايك.. فتأملت فوجدت أن الرجل يؤلف ويوجّه لأجل سعادة الدنيا فماذا لو عرف الإسلام وأخلاقه.. فحصّل سعادة الدارين!..

ماذا لو جعل مهارات التعامل عبادة يتقرب بها العبد إلى ربّه..

ثمّ اكتشفت أن كارنيجي مات منتحرًا فأيقنت أن كتابه على حسنه وروعته.. لم ينفعه..

فبحثت في تاريخنا فرأيت أن في سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه ومواقف المتميزين من رجال أمتنا ما يغنينا.. فبدأت من ذلك الحين أؤلف هذا الكتاب في فن التعامل مع الناس..

فهذا الكتاب الذي بين يديك ليس وليد شهر أو سنة.. بل هو نتيجة دراسات قمت بها لمدة عشرين عامًا.. ومع أن الله تعالى قد منّ عليّ بتأليف قرابة العشرين عنوانًا إلى الآن.. تجاوزت طبعات بعضها المليوني نسخة..

إلا أني أجد أن أحب كتبي إليّ وأغلاها إلى قلبي.. وأكثرها فائدة عملية – فيما أظن- هو هذا الكتاب الذي كتبت كلماته بمداد خلطته بدمي.. سكبت

روحي بين أسطره.. عصرت ذكرياتي فيه..

جعلتها كلمات من القلب إلى القلب.. وأقسم أنها خرجت من قلبي مشتاقة أن يكون مستقرها قلبك.. فرحماك بها..

ما أعظم سروري لو علمت أن قارئًا أو قارئة لهذه الورقات طبق ما فيه.. فشعر وشعر غيره بتطور مهاراته.. وازدادت متعته في حياته..

فسطر بيمينه الطاهرة - مشكورًا - رسالة عبر فيها عن رأيه.. وصوّر مشاعره بصدق وصراحة.. ثم أرسلها عبر بريد أو رسالة جوال SMS إلى كاتب هذه السطور.. لأكون للطفه شاكرًا.. وبظهر الغيب له داعيًا..

أسأل الله أن ينفع بهذه الورقات.. وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.. وأن يجزي الإخوة الكرام في شركة «موبايلي» خير الجزاء على دعمهم لنشر هذا الكتاب.

كتبه الداعي لك بالخير

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي

Arefe5@yahoo.com

ص. ب ١٥١٥٩٧ الرياض ١١٧٧٥

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٨٤٥١٤٠ فاكس: ٠٠٩٦٦١٢٤٤٠٠٦٢

بداية..

ليست الغاية أن تقرأ كتابًا.. بل الغاية أن تستفيد منه..

هؤلاء لن يستفيدوا..

أذكر أن رسالة جاءتني على هاتفي المحمول.. نصها: فضيلة الشيخ.. ما حكم الانتحار؟

فاتصلت بالسائل فأجاب شاب في عمر الزهور..

قلت له: عفواً لم أفهم سؤالك.. أعد السؤال!

فأجاب بكل تضجر: السؤال واضح.. ما حكم الانتحار؟

فأردت أن أفاجئه بجواب لا يتوقعه فضحكت وقلت: مستحب..

صرخ: ماذا؟!

قلت: ما رأيك أن نتعاون في تحديد الطريقة التي تنتحر بها؟

سكت الشاب..

فقلت: طيب.. لماذا تريد أن تنتحر؟

قال: لأني ما وجدت وظيفة.. والناس ما يحبونني.. وأصلاً أنا إنسان فاشل.. و.. وانطلق يروي لي قصة مطولة تحكي فشله في تطوير ذاته.. وعدم استعداده للاستفادة بما هو متاح بين يديه من قدرات..

وهذه آفة عند الكثيرين..

لماذا ينظر أحدنا إلى نفسه نظرة دونية؟

لماذا يلحظ ببصره إلى الواقفين على قمة الجبل ويرى نفسه أقل من أن يصل إلى القمة كما وصلوا..؟ أو على الأقل أن يصعد الجبل كما صعدوا..؟

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

تدري من الذي لن يستفيد من هذا الكتاب، ولا من أي كتاب آخر من كتب المهارات؟!

إنه الشخص المسكين الذي استسلم لأخطائه وقنع بقدراته، وقال: هذا طبعي الذي نشأت عليه..؟ وتعودت عليه، ولا يمكن أن أغير طريقتي..؟ والناس تعودوا عليّ بهذا الطبع.. أما أن أكون مثل خالد في طريقة إلقائه.. أو أحمد في

بشاشته.. أو زياد في محبة الناس له.. فهذا محال..

جلست يومًا مع شيخ كبير بلغ من الكبر عتيًا.. في مجلس عام، كل من فيه عوام متواضعو القدرات.. وكان الشيخ يتجاذب أحاديث عامة مع من بجانبه..

لم يكن يمثل بالنسبة لمن في المجلس إلا واحدًا منهم له حق الاحترام لكبر سنه.. فقط..

ألقيت كلمة يسيرة.. ذكرت خلالها فتوى للشيخ العلامة عبد العزيز بن باز.. فلما انتهيت.. قال لي الشيخ مفتخرًا: أنا والشيخ ابن باز كنا زملاء ندرس في المسجد عند الشيخ محمد بن إبراهيم.. قبل أربعين سنة..

التفت أنظر إليه.. فإذا هو قد انبلجت أساريره لهذه المعلومة.. كان فرحًا جدًا لأنه صاحب رجلاً ناجحًا يومًا من الدهر..

بينما جعلت أردد في نفسي: ولماذا يا مسكين ما صرت ناجحًا مثل ابن باز؟ ما دام أنك عرفت الطريق لماذا لم تواصل..؟

لماذا يموت ابن باز فتبكي عليه المنابر.. والمحاريب.. والمكتبات.. وتئن أقوام لفقده.. وأنت ستموت يومًا من الدهر.. ولعله لا يبكي عليك أحد.. إلا مجاملة.. أو عادة..!!

كلنا قد نقول يومًا من الأيام.. عرفنا فلانًا.. وزاملنا فلانًا.. وجالسنا فلانًا!! وليس هذا هو الفخر.. إنما الفخر أن تشمخ فوق القمة كما شمخ..

فكن بطلاً واعزم من الآن أن تطبق ما تقتنع بنفعه من قدرات.. كن ناجحًا.. اقلب عبوسك ابتسامة.. وكآبتك بشاشة.. وبخلك كرمًا.. وغضبك حلمًا.. اجعل المصائب أفراحًا.. والإيمان سلاحًا..

استمتع بحياتك.. فالحياة قصيرة لا وقت فيها للغم.. أما كيف تفعل ذلك.. فهذا ما ألفت الكتاب لأجله.. كن معي وسنصل إلى الغاية بإذن الله..

بقي معنا..

البطل الذي لديه العزيمة والإصرار على أن يطور مهاراته.. ويستفيد من قدراته..

ماذا ستتعلم؟

يشترك الناس غالبًا في أسباب الحزن والفرح..

فهم جميعًا يفرحون إذا كثرت أموالهم..

ويفرحون إذا ترقوا في أعمالهم..

ويفرحون إذا شفوا من أمراضهم..

ويفرحون إذا ابتسمت الدنيا لهم.. وتحقّقت لهم مراداتهم..

وفي الوقت نفسه.. هم جميعًا يحزنون إذا افتقروا..

ويحزنون إذا مرضوا..

ويحزنون إذا أهينوا..

فما دام ذلك كذلك.. فتعال نبحث عن طرق نديم بها أفراحنا.. نتغلب بها على أتراحنا..

نعم.. سنة الحياة أن يتقلب المرء بين حُلوةٍ ومُرة.. أنا معك في هذا..

ولكن لماذا نعطي المصائب والأحزان في أحيان كثيرة أكبر من حجمها.. فنغتم أيامًا.. مع إمكاننا أن نجعل غمنا ساعة.. ونحزن ساعات على ما لا يستحق الحزن.. لماذا؟!

أعلم أن الحزن والغم يهجمان على القلب ويدخلانه من غير استئذان.. ولكن كل باب هم يفتح فهناك ألف طريقة لإغلاقه..

هذا مما ستتعلمه..

تعالى إلى شيء آخر.. كما نرى من الناس المحبوبين.. الذين يفرح الآخرين بلقائهم.. ويأنسون بمجالستهم.. أفلم تفكر أن تكون واحدًا منهم..؟

لماذا ترضى أن تبقى دائمًا معجَبًا (بفتح الجيم) ولا تسعى لأن تكون معجبًا (بكسرها)!!

هنا ستتعلم كيف تصبح كذلك..

لماذا إذا تكلم ابن عمك في المجلس أنصت له الناس وملك أسماعهم.. وأعجبوا بأسلوب كلامه.. وإذا تكلمت أنت انصرفوا عنك.. وتنازعتهم الأحاديث الجانبية؟!

لماذا؟ مع أن معلوماتك قد تكون أكثر.. وشهادتك أعلى..

ومنصبك أرفع.. لماذا إذن استطاع ملك أسماعهم وعجزت أنت؟!!

لماذا ذاك الأب يحبه أولاده ويفرحون بمرافقته في كل ذهاب ومجيء.. وآخر لا يزال يلتمس من أولاده مرافقته وهم يعتذرون بصنوف الأعذار.. لماذا؟!

أليس كلاهما أب؟!!

ولماذا.. ولماذا..

سنتعلم هنا كيفية الاستمتاع بالحياة..

أساليب جذب الناس.. والتأثير فيهم.. تحمل أخطائهم..

التعامل مع أصحاب الأخلاقيات المؤذية.. إلى غير ذلك..

فمرحبًا بك..

كلمة..

ليس النجاح أن تكتشف ما يحب الآخرون..

إنما النجاح أن تمارس مهارات تكسب بها محبتهم..

لماذا نبحث عن المهارات؟

زرت إحدى المناطق الفقيرة لإلقاء محاضرة..

جاءني بعدها أحد المدرسين القادمين من خارج المنطقة..

قال لي: نود أن تساعدنا في كفالة بعض الطلاب..

قلت: عجبًا!! أليست المدارس حكومية.. مجانية؟!

قال: بلى.. لكننا نكفلهم للدراسة الجامعية..

قلت: كذلك الجامعة.. أليست حكومية.. بل تصرف للطلاب مكافآت..

قال: سأشرح لك القصة..

قلت: هات..

قال: يتخرج من الثانوية عندنا طلاب نسبتهم المئوية لا تقل عن ٩٩٪.. يملك من الذكاء والفهم قدرًا لو وُزِّع على أمة لكفاهم..

فإذا تخرج وعزم أن يسافر خارج قريته ليدرس في الطب أو الهندسة.. أو الشريعة.. أو الكمبيوتر.. أو غيرها.. منعه أبوه وقال: يكفي ما تعلمت.. فاجلس عندي لرعي الغنم..

صرخت من غير شعور: رعي غنم!!

قال: نعم.. رعي غنم..

وفعلاً يجلس المسكين عند أبيه يرعى الغنم.. وتموت هذه القدرات والمهارات.. وتمضي عليه السنين وهو راعي غنم.. بل قد يتزوج.. ويرزق بأولاد.. ويمارس معهم أسلوب أبيه.. فيرعون الغنم!!

قلت: والحل؟!

قال: الحل أننا نقنع الأب استخدام عامل موظف راعي غنم.. يستأجره ببضع مئات من الريالات.. ندفعها نحن له.. وولده النابغة يستثمر مواهبه وقدراته.. ونتكفل بمصاريف الولد أيضًا حتى يتخرج..

ثم خفض المدرس رأسه.. وقال: حرام أن تموت المواهب والقدرات في صدور أصحابها.. وهم يتحسرون عليها.. تفكرت في كلامه بعدها.. فرأيت أننا لا يمكن أن نصل إلى القمة إلا بممارسة مهارات.. أو اكتساب مهارات..

نعم.. أتحدى أن تجد أحدًا من الناجحين.. سواء في علم.. أو دعوة.. أو خطابة.. أو تجارة.. أو طب.. أو هندسة.. أو كسب محبة الناس..

أو الناجحين أسريًا.. كأب ناجح مع أولاده.. أو زوجة ناجحة مع زوجها..

أو اجتماعيًا.. كالناجح مع جيرانه وزملائه..

أعني الناجحين.. ولا أعني الصاعدين على أكتاف الآخرين..!!

أتحدى أن تجد أحدًا من هؤلاء بلغ مرتبة في النجاح.. إلا وهو يمارس مهارات معينة - شعر أو لم يشعر- استطاع بها أن يصل إلى النجاح..

قد يمارس بعض الناس مهارات ناجحة بطبيعته.. وقد يتعلم آخرون مهارات فيمارسونها.. فينجحون..

نحن هنا نبحث عن هؤلاء الناجحين.. وندرس حياتهم.. ونراقب طريقتهم.. لنعرف كيف نجحوا؟ وهل يمكن أن نسلك الطريق نفسه فننجح مثلهم..؟

استمعت قبل فترة إلى مقابلة مع أحد أثرياء العالم الشيخ سليمان الراجحي.. فوجدته جبلاً في خلقه وفكره..

رجل يملك المليارات.. آلاف العقارات.. بنى مئات المساجد.. كفل آلاف الأيتام.. رجل في قمة النجاح..

تكلم عن بداياته قبل خمسين سنة..

كان من عامة الناس.. لا يكاد يملك إلا قوت يومه وربما لا يجده أحيانًا!

ذكر أنه ربما نظف بيوت بعض الناس ليكسب رزقه.. وربما واصل ليله بنهاره عاملاً في دكان أو مصرف..

تكلم كيف كان في سفح الجبل.. ثم لا يزال يصعد حتى وصل القمة..

جعلت أتأمل مهاراته وقدراته.. فوجدت أن الكثير منا يمكن أن يكون مثله

بتوفيق الله..

لو تعلم مهارات وتدرب عليها.. وثابر وثبت.. نعم..

أمر آخر يدعونا إلى البحث عن المهارات.. هو أن بعضنا يكون عنده قدرات على الإبداع لكنه غافل عنها.. أو لم يساعده أحد على إذكائها.. كقدرة على الإلقاء.. أو فكر تجاري.. أو ذكاء معرفي..

قد يكتشف هذه القدرات بنفسه.. أو يذكي هذه المهارات مدرس.. أو مسئول وظيفي.. أو أخ ناصح..

وما أقلّهم..

وقد تبقى هذه المهارات حبيسة النفس حتى يغلبها الطبع السائر بين الناس.. وتموت في مهدها..

ونفقد عندها قائدًا أو خطيبًا أو عالمًا..

أو ربما زوجًا ناجحًا أو أبًا ناصحًا..

نحن هنا سنذكر مهارات متميزة نذكرك بها إن كانت عندك..

وندربك عليها إن كنت فاقدًا لها..

فهلمّ..

فكرة . .

إذا صعدت الجبل فانظر إلى القمة.. ولا تلتفت للصخور المتناثرة حولك..

اصعد بخطوات واثقة.. ولا تقفز فتزل قدمك..

طور نفسك..

تجلس مع بعض الناس وعمره عشرون سنة.. فترى له أسلوبًا ومنطقًا وفكرًا معينًا.. ثم تجلس معه وعمره ثلاثون.. فإذا قدراته هي هيَ.. لم يتطور فيه شيء.. بينما تجلس مع آخرين فتجدهم يستفيدون من حياتهم.. تجده كل يوم متطورًا عن اليوم الذي قبله..

بل ما تمر ساعة إلا ارتفع بها دينًا أو دنيا.. إذا أردت أن تعرف أنواع الناس في ذلك فتعال نتأمل في أحوالهم واهتماماتهم..

القنوات الفضائية مثلًا.. من الناس من يتابع ما ينمي فكره المعرفي.. ويطور ذكاءه..

ويستفيد من خبرات الآخرين من خلال متابعة الحوارات الهادفة.. يكتسب منها مهارات رائعة في النقاش.. واللغة.. والفهم.. وسرعة البديهة.. والقدرة على المناظرة.. وأساليب الإقناع..

ومن الناس من لا يكاد يفوته مسلسل يحكي قصة حب فاشلة.. أو مسرحية عاطفية.. أو فيلم خيالي مرعب.. أو أفلام لقصص افتراضية تافهة.. لا حقيقة لها..

تعال بالله عليك.. وانظر إلى حال الأول وحال الثاني بعد خمس سنوات.. أو عشر..

أيهما سيكون أكثر تطورًا في مهاراته؟

في القدرة على الاستيعاب؟

في سعة الثقافة؟

في القدرة على الإقناع؟

في أسلوب التعامل مع الأحداث؟

لا شك أنه الأول..

بل تجد أسلوب الأول مختلفًا.. فاستشهاداته بنصوص شرعية.. أو أرقام

وحقائق..

أما الثاني فاستشهاداته بأقوال الممثلين.. والمغنين.. حتى قال أحدهم يومًا في معرض كلامه.. والله يقول: اِسْعَ يا عبدي وأنا أسعى معاك!!

فنبهناه إلى أن هذه ليست آية.. فتغير وجهه وسكت.. ثم تأملت العبارة.. فإذا الذي ذكره هو مثل مصري انطبع في ذهنه من إحدى المسلسلات!!

نعم.. كل إناء بما فيه ينضح..

بل تعال إلى جانب آخر.. في قراءة الصحف والمجلات.. كم هم أولئك الذين يهتمون بقراءة الأخبار المفيدة والمعلومات النافعة التي تساعد على تطوير الذات.. وتنمية المهارات.. وزيادة المعارف.. بينما كم الذين لا يكادون يلتفتون إلى غير الصفحات الرياضية والفنية؟!

حتى صارت الجرائد تتنافس في تكثير الصفحات الرياضية والفنية.. على حساب غيرها.. قل مثل ذلك في مجالسنا التي نجلسها.. وأوقاتنا التي نصرفها..

فأنت إذا أردت أن تكون رأسًا لا ذيلاً.. احرص على تتبع المهارات أينما كانت.. درِّب نفسك عليها..

كان عبد الله رجلاً متحمسًا.. لكنه تنقصه بعض المهارات..

خرج يومًا من بيته إلى المسجد ليصلي الظهر..

يسوقه الحرص على الصلاة ويدفعه تعظيمه للدين.. كان يحث خطاه خوفًا من أن تقام الصلاة قبل وصوله إلى المسجد..

مر أثناء الطريق بنخلة في أعلاها رجل بلباس مهنته يشتغل بإصلاح التمر.. عجب عبد الله من هذا الذي ما اهتم بالصلاة.. وكأنه ما سمع أذانًا ولا ينتظر إقامة..!! فصاح به غاضبًا: انزل للصلاة..

فقال الرجل بكل برود: طيب.. طيب..

فقال: عجل.. صل يا حمار!!

فصرخ الرجل: أنا حمار..!! ثم انتزع عسيبًا من النخلة ونزل ليفلق به رأسه!! غطى عبد الله وجهه بطرف غترته لئلا يعرفه.. وانطلق يعدو إلى المسجد..

نزل الرجل من النخلة غاضبًا.. ومضى إلى بيته وصلى وارتاح قليلاً.. ثم خرج إلى نخلته ليكمل عمله..

دخل وقت العصر وخرج عبد الله إلى المسجد.. مرّ بالنخلة فإذا الرجل فوقها.. فغير أسلوب تعامله..

قال: السلام عليكم.. كيف الحال..

قال: الحمد لله بخير..

قال: بشر!! كيف الثمر هذه السنة..

قال: الحمد لله..

قال عبد الله: الله يوفقك ويرزقك.. ويوسع عليك.. ولا يحرمك أجر عملك وكدك لأولادك.. ابتهج الرجل لهذا الدعاء.. فأمن على الدعاء وشكر..

فقال عبد الله: لكن يبدو أنك لشدة انشغالك لم تنتبه إلى أذن العصر!!

قد أذن العصر.. والإقامة قريبة.. فلعلك تنزل لترتاح وتدرك الصلاة.. وبعد الصلاة أكمل عملك.. الله يحفظ عليك صحتك..

فقال الرجل: إن شاء الله.. إن شاء الله..

وبدأ ينزل برفق..

ثم أقبل على عبد الله وصافحه بحرارة..

وقال: أشكرك على هذه الأخلاق الرائعة.. أما الذي مر بي الظهر فيا ليتني أراه لأعلمه من الحمار!!

نتيجة . .

مهاراتك في التعامل مع الآخرين..

على أساسها تتحدد طريقة تعامل الناس معك..

لا تبك على اللبن المسكوب..

بعض الناس يعتبر طبعه الذي نشأ عليه.. وعرفه الناس به.. وتكونت في أذهانهم الصورة الذهنية عنه على أساسه.. يعتبره شيئًا لازمًا له لا يمكن تغييره.. فيستسلم له ويقنع.. كما يستسلم لطول جسمه أو لون بشرته.. إذ لا يمكنه تغيير ذلك..

مع أن الذكي يرى أن تغيير الطباع لعله أسهل من تغيير الملابس!! فطباعنا ليست كاللبن المسكوب الذي لا يمكن تداركه أو جمعه.. بل هي بين أيدينا.. بل نستطيع بأساليب معينة أن نغير طباع الناس.. بل عقولهم -ربما-!!

ذكر ابن حزم في كتابه طوق الحمامة: أنه كان في الأندلس تاجر مشهور.. وقع بينه وبين أربعة من التجار تنافس.. فأبغضوه.. وعزموا على أن يزعجوه..

فخرج ذات صباح من بيته متجهًا إلى متجره.. لابسًا قميصًا أبيض وعمامة بيضاء.. لقيه أولهم فحياه ثم نظر إلى عمامته وقال: ما أجمل هذه العمامة الصفراء..

فقال التاجر: أعميَ بصرك؟!! هذه عمامة بيضاء..

فقال: بل صفراء.. صفراء لكنها جميلة..

تركه التاجر ومضى.. فلما مشى خطوات لقيه الآخر.. فحياه ثم نظر إلى عمامته وقال: ما أجملك اليوم.. وما أحسن لباسك.. خاصة هذه العمامة الخضراء..

فقال التاجر: يا رجل العمامة بيضاء..

قال: بل خضراء..

قال: بيضاء.. اذهب عني.. ومضى المسكين يكلم نفسه.. وينظر بين الفينة والأخرى إلى طرف عمامته المتدلي على كتفه.. ليتأكد أنها بيضاء..

وصل إلى دكانه.. وحرك القفل ليفتحه.. فأقبل إليه الثالث: وقال: يا فلان.. ما أجمل هذا الصباح.. خاصة لباسك الجميل.. وزادت جمالك هذه العمامة الزرقاء..

نظر التاجر إلى عمامته ليتأكد من لونها.. ثم فرك عينيه..

وقال: يا أخي عمامتي بيضاااااء..

قال: بل زرقاء.. لكنها عمومًا جميلة.. لا تحزن..

ثم مضى.. فجعل التاجر يصيح به.. العمامة بيضاء.. وينظر إليها.. ويقلب أطرافها..

جلس في دكانه قليلاً.. وهو لا يكاد يصرف بصره عن طرف عمامته..

دخل عليه الرابع.. وقال: أهلاً يا فلان.. ما شاء الله!! من أين اشتريت هذه العمامة الحمراء؟!

فصاح التاجر: عمامتي زرقاء..

قال: بل حمراء..

قال التاجر: بل خضراء.. لا.. لا.. بل بيضاء.. لا.. زرقاء.. سوداء..

ثم ضحك.. ثم صرخ.. ثم بكى.. وقام يقفز!!

قال ابن حزم: فلقد كنت أراه بعدها في شوارع الأندلس مجنونًا يحذفه الصبيان بالحصى!![1]

فإذا كان هؤلاء بمهارات بدائية غيروا طبع رجل.. بل غيروا عقله..

فما بالك بمهارات مدروسة.. منورة بنصوص الوحيين.. يمارسها المرء تعبدًا لله تعالى بها..

فطبق ما تقف عليه من مهارات حسنة لتسعد..

وإن قلت لي: لا أستطيع..!

قلت: حاول..

وإن قلت: لا أعرف..!!

قلت: تعلم..

وقد قال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم»..

وجهة نظر..

البطل يتجاوز القدرة على تطوير مهاراته..

إلى القدرة على تطوير مهارات الناس.. وربما تغييرها!!

---

(١) القصة على ذمة ابن حزم.. رحمه الله.

كن متميزًا..

لماذا يتحاور اثنان في مجلس فينتهي حوارهما بخصومة.. بينما يتحاور آخران وينتهي الحوار بأنس ورضا.. إنها مهارات الحوار..

لماذا يخطب اثنان الخطبة نفسها بألفاظها نفسها.. فترى الحاضرين عند الأول ما بين متثائب ونائم.. أو عابث بسجاد المسجد.. أو مغير لجلسته مرارًا.. بينما الحاضرون عند الثاني منشدون متفاعلون.. لا تكاد ترمش لهم عين أو يغفل لهم قلب..؟ إنها مهارات الإلقاء..

لماذا إذا تحدث فلان في المجلس أنصت له السامعون.. ورموا إليه أبصارهم.. بينما إذا تحدث آخر انشغل الجالسون بالأحاديث الجانبية.. أو قراءة الرسائل من هواتفهم المحمولة..؟ إنها مهارات الكلام..

لماذا إذا مشى مدرس في ممرات مدرسته رأيت الطلاب حوله.. هذا يصافحه.. وذاك يستشيره.. وثالث يعرض عليه مشكلة.. ولو جلس في مكتبه وسمح للطلاب بالدخول لامتلأت غرفته في لحظات..

الكل يحب مجالسته..

بينما مدرس آخر.. أو مدرسون.. يمشي أحدهم في مدرسته وحده.. ويخرج من مسجد المدرسة وحده.. فلا طالب يقترب مبتهجًا مصافحًا.. أو شاكيًا مستشيرًا.. ولو فتح مكتبه من طلوع الشمس إلى غروبها.. وآناء الليل وأطراف النهار.. لما اقترب منه أحد أو رغب في مجالسته..

لماذا؟!!

إنها مهارات التعامل مع الناس..

لماذا إذا دخل شخص إلى مجلس عام هش الناس في وجهه وبشوا.. وفرحوا بلقائه.. وود كل واحد لو يجلس بجانبه.. بينما يدخل آخر.. فيصافحونه مصافحة باردة - عادة أو مجاملة- ثم يتلفت يبحث عن مكان يجلس فيه فلا يكاد أحد يوسع له أو يدعوه للجلوس إلى جانبه.. لماذا؟!!

إنها مهارات جذب القلوب والتأثير في الناس..

لماذا يدخل أب إلى بيته فيهش أولاده له.. ويقبلون إليه فرحين.. بينما يدخل الثاني على أولاده.. فلا يلتفتون إليه..؟ إنها مهارات التعامل مع الأبناء..

قل مثل ذلك في المسجد.. وفي الأعراس.. وغيرها..

يختلف الناس بقدراتهم ومهاراتهم في التعامل مع الآخرين.. وبالتالي يختلف الآخرون في طريقة الاحتفاء بهم أو معاملتهم.. والتأثير في الناس وكسب محبتهم أسهل مما تتصور..!

لا أبالغ في ذلك فقد جربته مرارًا.. فوجدت أن قلوب أكثر الناس يمكن صيدها بطرق ومهارات سهلة.. بشرط أن نصدق فيها ونتدرب عليها فنتقنها..

والناس يتأثرون بطريقة تعاملنا.. وإن لم نشعر..

أتولى منذ ثلاث عشرة سنة الإمامة والخطابة في جامع كلية عسكرية..

كان طريقي إلى المسجد يمر ببوابة يقف عندها حارس أمن يتولى فتحها وإغلاقها.. كنت أحرص إذا مررت به أن أمارس معه مهارة الابتسامة.. فأشير بيدي مسلمًا مبتسمًا ابتسامة واضحة.. وبعد الصلاة أركب سيارتي راجعًا للبيت..

وفي الغالب يكون هاتفي المحمول مليئًا باتصالات ورسائل مكتوبة وردت أثناء الصلاة.. فأكون مشغولاً بقراءة الرسائل فيفتح الحارس البوابة فأمر به وعيني على هاتفي وأغفل عن التبسم..

حتى تفاجأت به يومًا يوقفني وأنا خارج ويقول: يا شيخ..! أنت زعلان مني؟!

قلت: لماذا؟

قال: لأنك وأنت داخل تبتسم وتسلم وأنت فرحان.. أما وأنت خارج فتكون غير مبتسم ولا فرحان!! وكان رجلاً بسيطًا.. فبدأ المسكين يقسم لي أنه يحبني ويفرح برؤيتي.. فاعتذرت منه وبينت له سبب انشغالي..

ثم انتبهت فعلاً إلى أن هذه المهارات مع تعودنا عليها تصبح من طبعنا.. يلاحظها الناس إذا غفلنا عنها..

إضاءة..

لا تكسب المال وتفقد الناس.. فإن كسب الناس طريق لكسب المال..

أي الناس أحب إليك؟

تكون أقوى الناس قدرة على استعمال مهارات التعامل مع الآخرين عندما تتعامل مع كل أحد تعاملاً رائعًا يجعله يشعر أنه أحب الناس إليك.. فتتعامل مع أمك تعاملاً رائعًا مشبعًا بالتفاعل والأنس والاحتفاء إلى درجة أنها تشعر أن هذا التعامل الراقي لم يلقه أحد منك قبلها..

وقل مثل ذلك عند تعاملك مع أبيك.. مع زوجتك.. أولادك.. زملائك.. بل قل مثله عند تعاملك مع من تلقاهم مرة واحدة.. كبائع في دكان.. أو عامل في محطة وقود..

كل هؤلاء تستطيع أن تجعلهم يجمعون على أنك أحب الناس إليهم إذا أشعرتهم أنهم أحب الناس إليك.. وقد كان ﷺ قدوة في ذلك..

إذ إن من تتبع سيرته.. وجد أنه كان يتعامل بمهارات أخلاقية راقية.. فيعامل كل أحد يلقاه بمهارات من احتفاء وتفاعل وبشاشة.. حتى يشعر ذلك الشخص أنه أحب الناس إليه.. وبالتالي يكون هو أيضًا ﷺ أحب الناس إليهم.. لأنه أشعرهم بمحبته.. كان عمرو بن العاص رضي الله عنه داهية من دهاة العرب.. حكمة وفطنة وذكاء.. فأدهى العرب أربعة.. عمرو واحد منهم..

أسلم عمرو وكان رأسًا في قومه.. فكان إذا لقي النبي ﷺ في طريق رأى البشاشة والبشرة والمؤانسة.. وإذا دخل مجلسًا فيه النبي ﷺ رأى الاحتفاء والسعادة بمقدمه.. وإذا دعاه النبي ﷺ ناداه بأحب الأسماء إليه..

شعر عمرو بهذا التعامل الراقي.. ودوام الاهتمام والتبسم أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ.. فأراد أن يقطع الشك باليقين.. فأقبل يومًا إلى النبي ﷺ وجلس إليه.. ثم قال: يا رسول الله.. أي الناس أحب إليك؟

فقال ﷺ: «عائشة»..

قال عمرو: لا.. من الرجال يا رسول الله؟ لست أسألك عن أهلك..

فقال ﷺ: «أبوها»..

قال عمرو: ثم من؟

قال: «ثم عمر بن الخطاب»..

قال: ثم أي.. فجعل النبي ﷺ يعدد رجالاً.. يقول: فلان.. ثم فلان.. بحسب سبقهم إلى الإسلام.. وتضحيتهم من أجله..

قال عمرو: فسكتّ مخافة أن يجعلني في آخرهم..

فانظر كيف استطاع ﷺ أن يملك قلب عمرو بمهارات أخلاقية مارسها معه.. بل كان عليه الصلاة والسلام ينزل الناس منازلهم.. وقد يترك أشغاله لأجلهم.. لإشعارهم بمحبته لهم وقدرهم عنده..

لما توسع ﷺ بالفتوحات وبدأ ينتشر الإسلام.. جعل ﷺ يرسل الدعاة من عنده لدعوة القبائل إلى الإسلام.. وربما احتاج الأمر أن يرسل جيشًا.. وكان عدي ابن حاتم الطائي.. ملكًا ابن ملك.. أرسل النبي ﷺ جيشًا إلى قبيلة «طيء».. وكان عدي قد هرب من الحرب فلما يشهدها.. واحتمى بالروم في الشام..

وصل جيش المسلمين إلى ديار طيء.. كانت هزيمة طيء سهلة.. فلا ملك يقود.. ولا جيش مرتب.. وكان المسلمون في حروبهم.. يحسنون إلى الناس.. ويعطفون وهم في قتال.. كان المقصود صد كيد قوم عدي عن المسلمين.. وإظهار قوة المسلمين لهم..

أسر المسلمون بعض قوم عدي.. وكان من بينهم أخت لعدي بن حاتم.. مضوا بالأسرى إلى المدينة.. حيث رسول الله ﷺ.. وأخبروا النبي ﷺ بفرار عدي إلى الشام.. فعجب ﷺ من فراره!! كيف يفر من الدين؟ كيف يترك قومه؟

ولكن لم يكن إلى الوصول إلى عدي سبيل.. لم يطلب المقام لعدي في ديار الروم.. فاضطر للرجوع لديار العرب.. ثم لم يجد بدًا من أن يذهب إلى المدينة للقاء النبي ﷺ ومصالحته.. أو التفاهم على شيء يرضيهما.. (٢)

يقول عدي وهو يحكي قصة ذهابه إلى المدينة:

ما رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله ﷺ مني.. وكنت على دين النصرانية.. وكنت ملكًا في قومي لما كان يصنع بي.

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته كراهية شديدة.. فخرجت حتى قدمت الروم على قيصر..

---

(٢) وقيل إن أخته هي التي ذهبت إليه في الشام وردته إلى العرب.

قال: فكرهت مكاني ذلك..

فقلت: والله لو أتيت هذا الرجل.. فإن كان كاذبًا لم يضرني.. وإن كان صادقًا علمت.. فقدمت فأتيته..

فلما دخلت المدينة جعل الناس يقولون: هذا عدي بن حاتم.. هذا عدي بن حاتم.. فمشيت حتى أتيت فدخلت على رسول الله ﷺ في المسجد فقال لي: «عدي ابن حاتم؟»

قلت: عدي بن حاتم..

فرح النبي ﷺ بمقدمه.. واحتفى به.. مع أن عديًا محارب للمسلمين وفارّ من الحرب.. ومبغض للإسلام.. ولاجئ إلى النصارى..

ومع ذلك لقيه ﷺ بالبشاشة والبشر.. وأخذ بيده يسوقه معه إلى بيته.. عدي وهو يمشي بجانب النبي ﷺ يرى أن الرأسين متساويان..!!

فمحمد ﷺ ملك على المدينة وما حولها.. وعدي ملك على جبال طيء وما حولها..

ومحمد ﷺ على دين سماوي «الإسلام».. وعدي على دين سماوي «النصرانية»..

ومحمد ﷺ عنده كتاب منزل «القرآن».. وعدي عنده كتاب منزل «الإنجيل»..

كان عدي يشعر أنه لا فرق بينهما إلا في القوة والجيش..

في أثناء الطريق وقعت ثلاثة مواقف:

بينما هما يمشيان إذا بامرأة قد وقفت في وسط الطريق فجعلت تصيح: يا رسول الله.. لي إليك حاجة.. فانتزع النبي ﷺ يده من يد عدي ومضى إليها.. وجعل يستمع إلى حاجتها..

عدي بن حاتم.. الذي قد عرف الملوك والوزراء جعل ينظر إلى هذا المشهد.. ويقارن تعامل النبي ﷺ مع الناس بتعامل من رآهم من قبل من الرؤساء والسادة.. فتأمل طويلاً ثم قال: والله ما هذه بأخلاق الملوك.. هذه أخلاق الأنبيا!!!!ء..

وانتهت المرأة من حاجتها.. فعاد النبي ﷺ إلى عدي.. ومضيا يمشيان.. فبينما هما كذلك.. فإذا برجل يقبل على النبي ﷺ..

فماذا قال الرجل؟

هل قال: يا رسول الله عندي أموال زائدة أبحث لها عن فقير؟! أم قال: حصدت أرضي وزاد عندي الثمر.. فماذا أفعل به؟

يا ليته قال شيئًا من ذلك.. لعل عديًا إذا سمعه يشعر بغنى المسلمين وكثرة أموالهم..

قال الرجل: يا رسول الله.. أشكو إليك الفاقة والفقر..

ما يكاد هذا الرجل يجد طعامًا يسد به جوعة أولاده.. ومن حوله من المسلمين يعيشون على الكفاف ليس عندهم ما يساعدونه به..

قال الرجل هذه الكلمات وعدي يسمع.. فأجابه النبي ﷺ بكلمات ومضى.. فلما مشيا خطوات.. أقبل رجل آخر.. قال: يا رسول الله أشكو إليك قطع الطريق!!

يعني أننا يا رسول الله لكثرة أعدائنا حولنا لا نأمن أن نخرج عن بنيان المدينة لكثرة من يعترضنا من كفار أو لصوص..

أجابه النبي ﷺ بكلمات ومضى.. جعل عدي يقلب الأمر في نفسه.. هو في عز وشرف في قومه.. وليس له أعداء يتربصون به..

فلماذا يدخل هذا الدين الذي أهله في ضعف ومسكنة.. وفقر وحاجة..

وصلا إلى بيت النبي ﷺ.. فدخلا.. فإذا وسادة واحدة فدفعها النبي ﷺ إلى عدي إكرامًا له.. وقال: «خذ هذه فاجلس عليها».. فدفعها عدي إليه قال: بل اجلس عليها أنت.. فقال ﷺ: «بل أنت».. حتى استقرت عند عدي فجلس عليها..

عندها.. بدأ النبي ﷺ يحطم الحواجز بين عدي والإسلام.. «يا عدي أسلم.. تسلم.. أسلم تسلم.. أسلم تسلم»..

قال عدي: إني على دين..

فقال ﷺ: «أنا أعلم بدينك منك»..

قال: أنت أعلمُ بديني مني؟

قال: «نعم.. ألست من الركوسية»..

والركوسية ديانة نصرانية مشرَبة بشيء من المجوسية.. فمن مهارته ﷺ في الإقناع أنه لم يقل ألست نصرانيًا.. وإنما تجاوز هذه المعلومة إلى معلومة أدق منها فأخبره بمذهبه في النصرانية تحديدًا..

كما لو لقيك شخص في أحد بلاد أوروبا وقال لك: لماذا لا تتنصر؟

فقلت: إني على دين..

فلم يقل لك: ألست مسلمًا.. ولم يقل: ألست سنيًا.. وإنما قال: ألست شافعيًا.. أو حنبليًا.. عندها ستدرك أنه يعرف كل شيء عن دينك..

فهذا الذي فعله المعلم الأول ﷺ مع عدي.. قال: ألست من الركوسية..

فقال عدي: بلى..

فقال ﷺ: «فإنك إذا غزوت مع قومك تأكل فيهم المرباع؟»[٣]

قال: بلى..

فقال ﷺ: «فإن هذا لا يحل لك في دينك..»

فتضعضع لها عدي.. وقال: نعم..

فقال ﷺ: «أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام..

أنك تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم..

وقد رمتهم العرب..

يا عدي.. أتعرف الحيرة؟[٤] »

قلت: لم أرها وقد سمعت بها..

قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد»..

أي: سيقوى الإسلام إلى درجة أن المرأة المسلمة الحاجة تخرج من الحيرة حتى تصل إلى مكة ليس معها إلا محرم.. من غير أحد يحميها..

وتمر على مئات القبائل فلا يجرؤ أحد أن يعتدي عليها أو يسلبها مالها.. لأن المسلمين صارت لهم قوة وهيبة.. إلى درجة أن أحدًا لا يجرؤ على التعرض لمسلم خوفًا من انتصار المسلمين له..

فلما سمع عدي ذلك.. جعل يتصور المنظر في ذهنه.. امرأة تخرج من العراق حتى تصل إلى مكة.. معنى ذلك أنها ستمر بشمال الجزيرة.. يعني ستمر بجبال

---

(٣) المرباع: إذا غزت القبيلة قسم رئيسها الغنيمة أربعة أقسام فأخذ الربع له وحده، وهذا حرام في دين النصرانية، جائز عند العرب.

(٤) الحيرة: مدينة بالعراق.

طيء.. ديار قومه..

فتعجب عدي وقال في نفسه: فأين عنها دُعار طيء الذين سعروا البلاد!! ثم قال ﷺ: «وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز»..

قال: كنوز ابن هرمز؟

قال: «نعم كسرى بن هرمز.. ولتنفقن أمواله في سبيل الله»..

قال ﷺ: «ولئن طالت بك حياة لترين الترجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه»..

يعني: من كثرة المال يخرج الغني يطوف بصدقته لا يجد فقيرًا يعطيه إياها.. ثم بدأ ﷺ يعظ عديًا ويذكره بالآخرة..

فقال: «وليلقين الله أحدُكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جنهم»..

سكت عدي متفكرًا..

ففاجأه ﷺ قائلاً: «يا عدي.. فما يفرك أن تقول لا إله إلا الله؟.. أو تعلم من إله أعظم من الله؟!»

قال عدي: فإني حنيف مسلم.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. فتهلل وجه النبي ﷺ فرحًا مستبشرًا..

قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار.. ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى.. والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها..[٥]

فتأمل كيف كان هذا الأنس منه ﷺ لعدي.. وهذا الاحتفاء الذي قابله به.. حتى شعر به عدي.. تأمل كيف كان كل ذلك جاذبًا لعدي للدخول في الإسلام.. فلو مارسنا هذا الحب مع الناس.. مهما كانوا.. لملكنا قلوبهم..

فكرة..

بالرفق واستعمال مهارات التعامل والإقناع..

نستطيع أن نحقق ما نريد..

(٥) رواه مسلم وأحمد..

استمتع بالمهارات..

المهارات متعة حسية، لا أعني بها الأجر الأخروي فقط، لا وإنما هي متعة وفرح تشعر به حقيقة.. فاستمتع بها، ومارسها مع جميع الناس، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، قريبهم وبعيدهم.. كلهم.. مارس معهم هذه المهارات.. إما لاتقاء أذاهم.. أو لكسب محبتهم.. أو لإصلاحهم..

نعم إصلاحهم..

كان علي بن الجهم شاعرًا فصيحًا.. لكنه كان أعرابيًا جلفًا لا يعرف من الحياة إلا ما يراه في الصحراء.. وكان المتوكل خليفة متمكنًا.. يُغدى عليه ويراح بما يشتهي.. دخل علي بن الجهم بغداد يومًا فقيل له:

إن من مدح الخليفة حظى عنده ولقي منه الأعطيات..

فاستبشر علي ويمم جهة قصر الخلافة.. دخل على المتوكل..

فرأى الشعراء ينشدون ويربحون.. والمتوكل هو المتوكل.. سطوة وهيبة وجبروت.. فانطلق مادحًا الخليفة بقصيدة مطلعها:

يا أيها الخليفة..

أنت كالكلب في حفاظك للود ... وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدلو لا عدمتك دلوًا ... من كبار الدلا كثير الذَّنوب

ومضى يضرب للخليفة الأمثلة بالتيس والعنز والبئر والتراب.. بعدما كان يُشبه بالشمس والقمر والجبال!!

فثار الخليفة.. وانتفض الحراس.. واستل السياف سيفه.. وفرش النطع.. وتجهز للقتل.. فأدرك الخليفة أن علي بن الجهم قد غلبت عليه طبيعته..

فأراد أن يغيرها.. فأمر به فأسكنوه في قصر منيف.. تغدو عليه أجمل الجواري وتروح بما يلذ ويطيب..

ذاق علي بن جهم النعمة.. واتكأ على الأرائك.. وجالس أرق الشعراء..

وأغزل الأدباء.. ومكث على هذا الحال سبعة أشهر..

ثم جلس الخليفة مجلس سمر ليلة.. فتذكر علي بن الجهم.. فسأل عنه، فدعوه له..

فلما مثل بين يديه.. قال: أنشدني يا علي بن الجهم..

فانطلق منشدًا قصيدة مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر　جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن　سلوت ولكن زدن جمرًا على جمر

ومضى يحرك المشاعر بأرق الكلمات.. ثم شرع يصف الخليفة بالشمس والنجم والسيف..

فانظر كيف استطاع الخليفة أن يغير طباع ابن الجهم.. ونحن كم ضايقتنا طباع لأولادنا أو أصدقائنا فهل سعينا لتغييرها.. فغيرناها..

ومن باب أولى أن تقدر أنت على تغيير طباعك.. فتقلب العبوس تبسمًا .. والغضب حلمًا.. والبخل كرمًا.. وهذا ليس صعبًا.. لكنه يحتاج إلى عزيمة ومراس.. فكن بطلاً..

ومن نظر في سيرة محمد ﷺ وجد أنه كان يتعامل مع الناس بقدرات أخلاقية، ملك بها قلوبهم.. ولم يكن ﷺ يتصنع هذه الأخلاق أمام الناس.. فإذا خلا بأهل بيته.. انقلب حلمه غضبًا.. ولينه غلظًا..

لا.. ما كان بسامًا مع الناس عبوسًا مع أهل بيته..

ولا كريمًا مع الخلق إلا مع ولده وزوجه..

لا.. بل كانت أخلاقه سجية.. يتعبد لله تعالى بها.. كما يتعبد بصلاة الضحى وقيام الليل.. يحتسب ابتسامته قربة.. ورفقه عبادة.. وعفوه ولينه حسنات..

إن من اعتبر حسن الخلق عبادة.. تحلى بها في جميع أحواله.. في سلمه وحربه وجوعه وشبعه.. وصحته ومرضه.. بل وفرحه وحزنه..

نعم.. كم من الزوجات تسمع عن أخلاق زوجها.. وسعة صدره.. وابتسامته

وكرمه.. ولكنها لم تر من ذلك شيئًا.. فهو في بيته سيئ الخلق.. ضيقُ الصدر.. عابسُ الوجه.. صخاب لعان.. بخيل ومنان.

أما هو ﷺ فهو الذي قال: «خيركم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٦] وانظر كيف كان يتعامل مع أهله..

قال الأسود بن يزيد: سألت عائشة رضي الله عنها ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته؟

فقالت: يكون في مهنة أهله.. فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج للصلاة.. وقل مثل ذلك مع الوالدين..

فكم هم أولئك الذين نسمع عن حسن أخلاقهم.. وكرمهم وتبسمهم.. وجميل معاشرتهم للآخرين..

أما مع أقرب الناس إليهم.. وأعظم الناس حقًا عليهم.. مع الوالدين والزوجة والأولاد فجفاء وهجر..

نعم.. خيركم خيركم لأهله.. لوالديه.. لزوجه.. لخدمه.. بل ولأطفاله..

في يوم مليء بالمشاعر.. يجلس أبو ليلى رضي الله عنه عند رسول الله ﷺ. فيأتي الحسن أو الحسين يمشي إلى النبي ﷺ. فيأخذه ﷺ. فيقعده على بطنه..

فبال الصغير على بطن رسول الله ﷺ. قال أبو ليلى: حتى رأيت بوله على بطن رسول الله ﷺ أساريع..

قال: فوثبنا إليه.. فقال ﷺ «دعوا ابني.. لا تفزعوا ابني..»

فلما فرغ الصغير من بوله.. دعا ﷺ بماء فصبه عليه[٧].

فلله دره كيف تروضت نفسه على هذه الأخلاق..

فلا عجب إذن أن يملك قلوب الصغار والكبار..

رأي..

بدل أن تسب الظلام.. حاول إصلاح المصباح..

---

(٦) رواه الترمذي وابن ماجة (صحيح).

(٧) رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

مع الفقراء..

عدد من الناس اليوم أخلاقهم تجارية..

فالغني فقط هو الذي تكون نكته طريفة فيضحكون عند سماعها.. وأخطاؤه صغيرة.. فيتغاضون عنها..

أما الفقراء فنكتهم ثقيلة.. يسخر بهم عند سماعها.. وأخطاؤهم جسيمة.. يصرخ بهم عند وقوعها..

أما رسول الله ﷺ فكان عطفه على الغني والفقير سواء..

قال أنس رضي الله عنه: كان رجل من أهل البادية اسمه زاهر بن حرام..

وكان ربما جاء المدينة في حاجة فيهدي للنبي ﷺ من البادية شيئًا من أقط أو سمن.. فيُجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى أهله بشيء من تمر ونحوه..

وكان النبي ﷺ يحبه.. وكان يقول: «إن زاهرًا باديتنا.. ونحن حاضروه».. وكان زاهرًا دميمًا..

خرج زاهر رضي الله عنه يومًا من باديته.. فأتى بيت رسول الله ﷺ .. فلم يجده.. وكان معه متاع فذهب به إلى السوق..

فلما علم به النبي ﷺ مضى إلى السوق يبحث عنه.. فأتاه فإذا هو يبيع متاعه.. والعرق يتصبب منه.. وثيابه ثياب أهل البادية بشكلها ورائحتها..

فاحتضنه ﷺ من ورائه، وزاهر لا يُبصره.. ولا يدري من أمسكه..

ففزع زاهر وقال: أرسلني.. من هذا؟

فسكت النبي عليه الصلاة والسلام..

فحاول زاهر أن يتخلص من القبضة.. وجعل يلتفت وراءه.. فرأى النبي ﷺ فاطمأنت نفسه..

وسكن فزعه..

وصار يُلصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه.. فجعل النبي ﷺ يمازح زاهرًا.. ويصيح بالناس يقول:

«من يشتري العبد؟»..

«من يشتري العبد؟»..

فنظر زاهر في حاله.. فإذا هو فقير كسير.. لا مال.. ولا جمال..

فقال: إذاً والله تجدني كاسدًا يا رسول الله..

فقال ﷺ: «لكنك عند الله لست بكاسد.. أنت عند الله غال»..

فلا عجب أن تتعلق قلوب الفقراء به ﷺ وهو يملكهم بهذه الأخلاق..

كثير من الفقراء.. قد لا يعيب على الأغنياء البخل عليه بالمال والطعام.. لكنه يجد عليهم بخلهم باللطف وحسن المعاشرة..

وكم من فقير تبسمت في وجهه..

وأشعرته بقيمته واحترامه..

فرفع في ظلمة الليل يدًا داعية..

يستنزل بها لك الرحمات من السماء..

ورب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لا يؤبه له.. لو أقسم على الله لأبره.. فكن دائم البشر مع هؤلاء الضعفاء..

إشارة..

لعل ابتسامة في وجه فقير.. ترفعك عند الله درجات..

النساء..

كان جدي يستشهد بمثل قديم: «من غاب عن عنزه جابت تيس».. بمعنى أن من لم تجد عنده زوجته ما يشبع عاطفتها.. ويروي نفسها.. فقد تحدثها نفسها بالاستجابة لغيره.. ممن يملك معسول الكلام..

وليس مقصودهم بهذا المثل تشبيه الرجل والمرأة بالتيس والعنزة - معاذ الله- المرأة شقيقة الرجل.. ولئن كان الله قد وهب الرجل جسمًا قويًا.. فقد وهبها عاطفة قوية.. وكم رأينا سلاطين الرجال وشجعانهم تخور قواهم عند قوة عاطفة امرأة.. ومن مهارات التعامل مع المرأة أن تعرف المفتاح الذي تؤثر من خلاله فيها: العاطفة.. فتقاتلها بسلاحها..

كان النبي ﷺ يوصيك بالإحسان إلى المرأة.. واحترام عاطفتها.. لأجل أن تسعد معها.. وأوصى الأب بالإحسان إلى بناته.. فقال: «من عال جاريتين حتى تبلغا.. جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه».[8]

وأوصى بها أولادها فإنه لما سأله رجل فقال:

من أحق الناس بحسن صحابتي؟

قال: «أمك.. ثم أمك.. ثم أمك.. ثم أبوك».[9]

بل أوصى ﷺ بالمرأة زوجها.. وذمّ من غاضب زوجته أو أساء إليها..

وانظر إليه ﷺ وقد قام في حجة الوداع.. فإذا بين يديه مائة ألف حاج.. فيهم الأسود والأبيض.. والكبير والصغير.. والغني والفقير..

صاح ﷺ بهؤلاء جميعًا وقال لهم: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا.. ألا واستوصوا بالنساء خيرًا..»[10]

وفي يوم من الأيام أطاف بأزواج رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن..

فلما علم النبي ﷺ بذلك.. قام.. وقال للناس: «لقد طاف بآل محمد ﷺ

---

(٨) رواه مسلم.

(٩) متفق عليه.

(١٠) رواه مسلم والترمذي.

نساء كثير يشتكين أزواجهن.. ليس أولائك بخياركم».. (١١)

وقال ﷺ:«خيرُكم خيرُكم لأهله وأنا خيركم لأهلي».. (١٢)

بل.. قد بلغ من إكرام الدين للمرأة.. أنها كانت تقوم الحروب.. وتسحق الجماجم.. وتتطاير الرؤوس.. لأجل عرض امرأة واحدة..

كان اليهود يساكنون المسلمين في المدينة.. وكان يغيظهم نزولُ الأمر بالحجاب.. وتسترُ المسلمات.. ويحاولون أن يزرعوا الفساد والتكشف في صفوف المسلمات.. فما استطاعوا..

وفي أحد الأيام جاءت امرأة مسلمة إلى سوق يهود بني قينقاع.. وكانت عفيفة متسترة.. فجلست إلى صائغ هناك منهم..

فاغتاظ اليهود من تسترها وعفتها.. وودوا لو يتلذذون بالنظر إلى وجهها.. أو لمسها والعبث بها.. كما كانوا يفعلون ذلك قبل إكرامها بالإسلام..

فجعلوا يريدونها على كشف وجهها.. ويغرونها لتنزع حجابها.. فأبت.. وتمنعت.. فغافلها الصائغ وهي جالسة..

وأخذ طرف ثوبها من الأسفل وربطه إلى طرف خمارها المتدلي على ظهرها..

فلما قامت.. ارتفع ثوبها من ورائها.. وتكشفت أعضاؤها..

فضحك اليهود منها.. فصاحت المسلمة العفيفة.. وودت لو قتلوها ولم يكشفوا عورتها..

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين.. سلَّ سيفه.. ووثب على الصائغ فقتله.. فشد اليهود على المسلم فقتلوه..

فلما علم النبي ﷺ بذلك.. وأن اليهود قد نقضوا العهد، وتعرضوا للمسلمات.. حاصرهم.. حتى استسلموا ونزلوا على حكمه..

فلما أراد النبي ﷺ أن ينكل بهم.. ويثأر لعرض المسلمة العفيفة.. قام إليه جندي من جند الشيطان.. الذي لايهمهم عرض المسلمات.. ولا صيانة المكرمات.. وإنما هَمُّ أحدهم متعة بطنه وفرجه..

---

(١١) رواه أبو داود (صحيح).

(١٢) رواه الترمذي وابن ماجة (صحيح).

قام رأس المنافقين.. عبد الله بن أبيَ بن سلول.. فقال: يا محمد أحسن في موالي اليهود.. وكانوا أنصاره في الجاهلية.. فأعرض عنه النبيﷺ .. وأبى.. إذ كيف يطلب العفو عن أقوام يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا!!

فقام المنافق مرة أخرى وقال: يا محمد أحسن إليهم.. فأعرض عنه النبيﷺ .. صيانة لعرض المسلمات.. وغيرة على العفيفات..

فغضب ذلك المنافق.. وأدخل يده في جيب درع النبيﷺ .. وجرّه وهو يردد: أحسن إلى مواليّ.. أحسن إلى مواليّ.. فغضب النبيﷺ والتفت إليه وصاح به وقال: «أرسلني»..

فأبى المنافق.. وأخذ يناشد النبيﷺ العدول عن قتلهم..

فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «هم لك».. ثم عدل عن قتلهم.. لكنهﷺ أخرجهم من المدينة.. وطردهم من ديارهم.. نعم المرأة العفيفة تستحق أكثر من ذلك.. كانت خولة بنت ثعلبة ك من الصحابيات الصالحات..

وكان زوجها أوس بن الصامت شيخًا كبيرًا يسرع إليه الغضب.. دخل عليها يومًا راجعًا من مجلس قومه.. فكلمها في شيء فردت عليه.. فتخاصما..

فغضب وقال: أنت علي كظهر أمي.. وخرج غاضبًا.

كانت هذه الكلمة في الجاهلية إذا قالها الرجل لزوجته صارت طلاقًا.. أما في الإسلام فلا تعلم خولة حكمها..

رجع أوس إلى بيته.. فإذا امرأته تتباعد عنه..

وقالت له: والذي نفسي خويلة بيده لا تخلُصُ إليَّ وقد قلت ما قلت.. حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه..

ثم خرجت خولة إلى رسول اللهﷺ فذكرت له ما تلقى من زوجها.. وجعلت تشكو إليه ما تلقى من زوجها وسوء خلقه معها..

فجعل رسول الله ﷺ يصبرها ويقول: «يا خويلة ابن عمك.. شيخ كبير.. فاتقي الله فيه».. وهي تدافع عبراتها وتقول: يا رسول الله.. أكل شبابي.. ونثرت له بطني.. حتى إذا كبرت سني.. وانقطع ولدي.. ظاهر مني.. اللهم إني أشكو إليك..

وهوﷺ ينتظر أن ينزل الله تعالى فيهما حكمًا من عنده..

فبينما خولة عند رسول اللهﷺ إذ هبط جبريل من السماء على رسول اللهﷺ ..

بقرآن فيه حكمها وحكم زوجها..

فالتفت ﷺ إليها وقال: يا خويلة.. قد أنزل فيك وفي صاحبك قرآناً.. ثم قرأ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى آخر الآيات من أول سورة المجادلة..

ثم قال لها ﷺ: «مُريه فليعتق رقبة»..

فقالت: يا رسول الله.. ما عنده ما يعتق..

قال: «فليصم شهرين متتابعين»..

قالت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام..

قال: «فليطعم ستين مسكينًا وسقا من تمر»..

قالت: يا رسول الله.. ما ذاك عنده..

فقال ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر»..

قالت: والله يا رسول الله.. أنا سأعينه بعرق آخر..

فقال ﷺ: «قد أصبت وأحسنت.. فاذهبي فتصدقي به عنه.. ثم استوصي بابن عمك خيرًا»..[١٣] فسبحان من وهبه اللين والتحمل مع الجميع.. حتى في مشاكلهم الشخصية.. يتفاعل معهم.. وقد جربت بنفسي.. التعامل باللين والمهارات العاطفية مع البنت والزوجة.. وقبل ذلك الأم والأخت.. فوجدت لها من التأثير الكبير.. ما لا يتصوره إلا من مارسه.. فالمرأة لا يكرمها إلا كريم.. ولا يهينها إلا لئيم..

وقفة..

قد تصبر المرأة على..

فقر زوجها.. وقبحه.. وانشغاله..

لكنها قل أن تصبر على سوء خلقه..

---

(١٣) رواه أحمد وأبو داود، صحيح.

الصغار..

كم هي المواقف التي وقعت لنا في صغرنا ولا تزال مطبوعة في أذهاننا إلى اليوم.. سواء كانت مفرحة أو محزنة..

عُد بذاكرتك إلى أيام طفولتك.. ستذكر لا محالة جائزة كرمت بها في مدرستك.. أو ثناء أثناه عليك أحد في مجلس عام.. فهي مواقف تحضر صورتها في الذاكرة.. فلا تكاد تنسى..

وإلى جانب ذلك.. لا نزال نتذكر مواقف محزنة.. وقعت لنا في طفولتنا..

مدرس ضربنا..

أو خصومة مع زملاء في المرسة..

أو مواقف تعرضنا فيها للإهانة من أسرتنا..

أو تعرض لها أحدنا من زوجة أبيه.. أو نحو ذلك..

وكم صار الإحسان إلى الصغار طريقًا إلى التأثير ليس فيهم فقط.. بل في آبائهم وأهليهم.. وكسب محبتهم جميعًا..

يتكرر كثيرًا لمدرس المرحلة الابتدائية أن يتصل به أحد أبوي طالب صغير ويثني عليه وأنه أحبه لمحبة ولده له وكثرة ذكره له بالخير.. وقد يعبرون عن هذه المشاعر في لقاء عابر.. أو هدية أو رسالة..

إذن لا تحتقر الابتسامة في وجه الصغير.. وكسب قلبه.. وممارسة مهارات التعامل الرائع معه..

ألقيت يومًا محاضرة عن الصلاة لطلاب صغار في مدرسة..

فسألتهم عن حديث حول أهمية الصلاة.. فأجاب أحدهم: قال ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة»..

أعجبني جوابه.. ومن شدة الحماس نزعت ساعة يدي وأعطيته إياها.. وكانت - عمومًا ساعة عادية كساعات الطبقة الكادحة..!

كان هذا الموقف مشجعًا لذلك الغلام.. أحب العلم أكثر.. وتوجه لحفظ

القرآن.. وشعر بقيمته..

مضت الأيام.. بل السنين.. ثم في أحد المساجد تفاجأت

إن الإمام هو ذلك الغلام.. وقد صار شابًا متخرجًا من كلية الشريعة.. ويعمل في سلك القضاء بأحد المحاكم.. لم أذكره وإنما تذكرني هو..

فانظر كيف انطبعت في ذهنه المحبة والتقدير بموقف عاشه قبل سنين..

وأذكر أني دعيت ليلة لإحدى الولائم..

فإذا شاب مشرق الوجه يسلم علي بحرارة ويذكرني بموقف لطيف وقع له معي في محاضرة ألقيتها في مدرسته لما كان غلامًا صغيرًا..

وكم ترى من الناس الذين يحسنون التعامل مع الصغار من يخرج من المسجد.. فترى أبا يجره ولده الصغير بيده ليصل إلى هذا الرجل فيسلم عليه ويبلغه بمحبة ولده له..

وقد يقع مثل هذا الموقف في وليمة كبيرة أو عرس.. يكثر فيه المدعوون.. ولا أكتمك أنني أبالغ في إكرام الصغار والحفاوة بهم بعض الشيء.. بل والاستماع إلى أحاديثهم العذبة – وإن كانت في أكثر الأحيان غير مهمة – بل أزيد الحفاوة ببعضهم أحيانًا إكرامًا لوالده وكسبًا لمحبته..

أحد الأصدقاء كنت ألقاه أحيانًا مع ولده الصغير.. فكنت أحتفي بالصغير وألاطفه..

لقيني صديقي هذا يومًا في محفل كبير.. فأقبل إليّ بولده يسلم علي.. ثم قال: ماذا فعلت بولدي!

يسألهم مدرسهم قبل أيام عن أمنياتهم في المستقبل..

فمنهم من قال:أكون طبيبًا.. والآخر قال: أكون مهندسًا..

وولدي قال:أكون محمد العريفي!!

ويمكنك أن تلاحظ أنواع الناس في التعامل مع الصغار.. عندما يدخل رجل إلى مجلس عام ويطوف بالحاضرين مصافحًا.. وولده من خلفه يفعل كفعله.. فمن الناس من يتغافل عن الصغير.. ومنهم من يصافحه بطرف يده..

ومنهم من يهز يده مبتسمًا مرددًا: أهلاً يا بطل.. كيف حالك يا شاطر.. فهذا الذي تنطبع محبته في قلب الصغير..

بل وقلب أبيه وأمه..

كان المربي الأول ﷺ له أحسن التعامل مع الصغار..

كان لأنس بن مالك أخ صغير.. وكان ﷺ يمازحه ويكنيه بأبي عمير.. وكان للصغير طير صغير يلعب به.. فمات الطير..

فكان ﷺ يمازحه إذا لقيه.. ويقول: «يا أبا عمير.. ما فعل النغير؟» يعني: الطائر الصغير.. وكان يعطف على الصغار ويلاعبهم.

ويلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: «يا زوينب.. يا زوينب..»..

وكان إذا مر بصبيان يلعبون سلم عليهم.. وكان يزور الأنصار ويُسلم على صبيانهم.. ويمسح رؤوسهم..

وعند رجوعه ﷺ من المعركة كان يستقبله الأطفال فيركبهم معه..

فعند عودة المسلمين من مؤتة.. أقبل الجيش إلى المدينة راجعًا.. فتلقاهم النبي عليه الصلاة والسلام.. والمسلمون.. ولقيهم الصبيان يشتدون..

فلما رأى ﷺ الصبيان.. قال: «خذوا الصبيان فاحملوهم.. وأعطوني ابن جعفر»..

فأتي بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه..

وكان ﷺ يتوضأ يومًا من ماء.. فأقبل إليه محمود بن الربيع طفل عمره خمس سنوات.. فجعل ﷺ في فمه ماء ثم مجه في وجهه يمازحه..[(١٤)]

وعمومًا.. كان ﷺ ضحوكًا مزوحًا مع الناس.. يدخل السرور إلى قلوبهم.. خفيفًا على النفوس لا يمل أحد من مجالسته..

أقبل إليه رجل يومًا يريد دابة ليسافر عليها أو يغزو.. فقال ﷺ ممازحًا له: «إني حاملك على ولد ناقة»..

فعجب الرجل.. كيف يركب على جمل صغير.. لا يستطيع حمله..

فقال: يا رسول الله وما أصنع بولد الناقة؟

---

(١٤) رواه البخاري.

فقال ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق».. يعني سأعطيك بعيرًا كبيرًا.. لكنه – قطعًا – قد ولدته ناقة..

وقال ﷺ يومًا لأنس ممازحًا: «يا ذا الأذنين»..

وأقبلت إليه امرأة يومًا تشتكي زوجها.. فقال لها ﷺ: «زوجك الذي في عينه بياض؟ ففزعت المرأة وظنت أنه زوجها عمي بصره»..

كما قال الله عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أي: عمي..

فرجعت فزعة إلى زوجها وجعلت تنظر في عينيه.. وتدقق.. فسألها عن خبرها؟!

فقالت: قد قال رسول الله ﷺ إن في عينك بياضًا..

فقال لها: يا امرأة.. أما أخبرك أن بياضها أكثر من سوادها.. أي أن كل أحد في عينه بياض وسواد..

وكان ﷺ إذا مازحه أحد تفاعل معه.. وضحك وتبسم.

دخل عليه عمر وهو ﷺ غضبان على نسائه.. لما أكثرن عليه مطالبته بالنفقة..

فقال عمر: يارسول الله.. لو رأيتنا وكنا معشر قريش.. نغلب النساء.. فكنا إذا سألت أحدنا امرأته نفقة قام إليها فوجأ عنقها..

فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم.. فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.. يعني: فقويت علينا نساؤنا..

فتبسم النبي ﷺ .. ثم زاد عمر الكلام.. فازداد تبسم النبي ﷺ..

تلطفًا مع عمر رضي الله عنه ..

وتقرأ في أحاديث أنه تبسم حتى بدت نواجذه.. إذن كان لطيف المعشر.. أنيس المجلس..

فلو وطنا أنفسنا على مثل هذا التعامل مع الناس.. لشعرنا بطعم الحياة فعلاً..

فكرة . .

الطفل طينة لينة نشكلها بحسب تعاملنا معه..

المماليك والخدم..

كان ﷺ يحسن الدخول إلى قلوبهم بما يناسب..

لما توفي عم النبي ﷺ .. اشتد أذى قريش عليه ﷺ ..

فخرج ﷺ إلى الطائف.. يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه.. ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى.. خرج إليهم وحده..

وصل إلى الطائف.. وعمد إلى نفر ثلاثة من ثقيف وهم سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة.. عبد ياليل.. ومسعود.. وحبيب.. بنو عمرو بن عمير..

فجلس إليهم ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.. فردوا عليه ردًا قبيحًا..

فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك..

وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا أرسله غيرك؟

أما الثالث فقال متفلسفا:

والله لا أكلمك أبدًا! لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام.. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك..

فلما سمع ﷺ منهم هذا الرد القبيح.. قام من عندهم.. وقد يئس من خير ثقيف.. لكنه خاف أن تعلم قريش بخبر ثقيف معه فيجترئون عليه أكثر..

فقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي ..

فلم يفعلوا.. وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به..

حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة.. وشيبة بن ربيعة.. وهما فيه.. ورجع عنه من سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه..

فعمد ﷺ إلى ظل حبلة من عنب فجلس فيه..

وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف فلما رآه ابنا

ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما..

فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له عداس.. وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق.. ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه..

ففعل عداس..

وجاء بالعنب.. حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل.. فمد رسول الله ﷺ يده إليه وقال: «بسم الله» ثم أكل..

نظر عداس إليه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد..

فقال له ﷺ: «ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟»..

قال: نصراني.. وأنا رجل من أهل نينوى..

فقال ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟»..

فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

فقال ﷺ: «ذلك أخي.. كان نبيًا.. وأنا نبي».. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.. وابنا ربيعة ينظران إليهما.. فقال أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.. فلما رجع عداس لسيده.. وقد بدا عليه التأثر برؤية رسول الله ﷺ وسماع كلامه..

قال له سيده: ويلك يا عداس! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

فقال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا.. لقد أخبرني بأمر ما يعمله إلا نبي..

فقال سيده: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك.. فإن دينك خير من دينه.. فهل نستطيع نحن اليوم أن نجعل تعاملنا راقيًا مع الجميع.. مهما كانت طبقاتهم؟

لمحة..

عامل البشر على أنهم بشر..

لا على أشكالهم.. أو أموالهم.. أو وظائفهم..

مع المخالفين..

الكفار.. كان ﷺ يعاملهم بالعدل.. ويستميت في سبيل دعوتهم وإصلاحهم.. ويتحمل أذاهم.. ويتغاضى عن سوئهم..

كيف لا.. وقد قال له ربه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾..

لمن؟! للمؤمنين؟!

لا.. ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾..

وتأمل حال اليهود.. يذمونه ويبتدئون بالعداوة.. ومع ذلك يرفق بهم..

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن اليهود مروا ببيت النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم (أي: الموت عليك)..

فقال ﷺ: وعليكم..

فلم تصبر عائشة لما سمعتهم.. فقالت: السام عليكم.. ولعنكم الله وغضب عليكم..

فقال ﷺ: «مهلاً يا عائشة.. عليك بالرفق.. وإياك والعنف والفحش»..

فقالت: أو لم تسمع ما قالوا؟

فقال: «أو لم تسمعي ما قلت؟! رددت عليهم فيستجاب لي.. ولا يستجاب لهم في».. نعم.. ما الداعي إلى مقابلة السباب بالسباب! أليس الله قد قال له: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾..

وفي يوم.. خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة.. فلما كانوا في طريق عودتهم.. نزلوا في واد كثير الشجر.. فتفرق الصحابة تحت الشجر وناموا.. وأقبل ﷺ إلى شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها.. وفرش رداءه ونام..

في هذه الأثناء كان رجل من المشركين يتبعهم.. فلما رأى رسول الله ﷺ خاليًا.. أقبل يمشي بهدوء.. حتى التقط السيف من على الغصن..

وصاح بأعلى صوته: يا محمد.. من يمنعك مني؟

فاستيقظ رسول الله ﷺ.. والرجل قائم على رأسه..

والسيف في يده.. يلتمع منه الموت.. كان الرسول ﷺ وحيدًا.. ليس عليه إلا

إزار.. أصحابه متفرقون عنه.. نائمون.. والرجل يعيش نشوة القوة والانتصار..

ويردد: من يمنعك مني؟ من يمنعك مني؟

فقال ﷺ بكل ثقة: «الله»..

فانتفض الرجل وسقط السيف..

فقام ﷺ والتقط السيف وقال: «من يمنعك مني؟».

فتغير الرجل.. واضطرب.. وأخذ يسترحم النبي ﷺ.. ويقول: لا أحد.. كن خير آخذ..

فقال له ﷺ: «تسلم؟».

قال: لا.. ولكن لا أكون في قوم هم حرب لك.. فعفا عنه ﷺ. وأحسن إليه!! وكان الرجل ملكًا في قومه.. فانصرف إليهم فدعاهم إلى الإسلام.. فأسلموا.. نعم.. أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم.. بل حتى مع الأعداء الألداء كان ﷺ له خلق عظيم.. كسب به نفوسهم.. وهدى قلوبهم.. ودحر به كفرهم..

لما ظهر ﷺ بدعوته بين الناس.. جعلت قريش تحاول حربه بكل سبيل.. وكان مما بذلته أن تشاور كبارها في التعامل مع دعوته ﷺ.. وتسارع الناس للإيمان به..

فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا.. وشتت أمرنا.. وعاب ديننا.. فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه..

فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة..

فقالوا: أنت يا أبا الوليد.. وكان عتبة سيدًا حليمًا..

فقال: يا معشر قريش.. أترون أن أقوم إلى هذا فأكلمه.. فأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل منها بعضها..

قالوا: نعم يا أبا الوليد..

فقام عتبة وتوجه إلى رسول الله ﷺ. دخل عليه.. فإذا هو ﷺ جالس بكل سكينة.. فلما وقف عتبة بين يديه.. قال: يا محمد! أنت خير أم عبد الله؟!

فسكت رسول الله ﷺ. تأدبًا مع أبيه عبد الله..

فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟

فسكت ﷺ.. تأدبًا مع جده عبد المطلب..

فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ.. وإن كنت تزعم أنك خير منهم.. فتكلم حتى نسمع قولك..

وقبل أو يجيب النبي ﷺ بكلمة.. ثار عتبة وقال:

إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك!!.. فرقت جماعتنا.. وشتت أمرنا.. وعبت ديننا.. وفضحتنا في العرب.. حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا.. وأن في قريش كاهنًا.. والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى.. أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى..

كان عتبة متغيرًا غضبان.. والنبي ﷺ ساكت يستمع بكل أدب.. وبدأ عتبة يقدم إغراءات ليتخلى النبي ﷺ عن الدعوة..

فقال: أيها الرجل إن كنت جئت بالذي جئت به لأجل المال.. جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً..

وإن كنت إنما بك حب الرئاسة.. عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسًا ما بقيت.. وإن كان إنما بك الباه والرغبة في النساء.. فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا..!!

وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن تراه.. لا تستطيع رده عن نفسك.. طلبنا لك الطب.. وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.. فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه..

ومضى عتبة يتكلم بهذا الأسلوب السيئ مع رسول الله ﷺ.. ويعرض عليه عروضًا ويغريه.. والنبي عليه الصلاة والسلام ينصت إليه بكل هدوء.. وانتهت العروض.. ملك.. مال.. نساء.. علاج من جنون!!

سكت عتبة.. وهدأ.. ينتظر الجواب.. فرفع النبي عليه الصلاة والسلام بصره إليه وقال بكل هدوووء: «أفرغت يا أبا الوليد؟»

لم يستغرب عتبة هذا الأدب من الصادق الأمين.. بل قال باختصار: نعم..

فقال ﷺ: «فاسمع مني»..

قال: أفعل..

فقال ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾..

ومضى النبي عليه الصلاة والسلام.. يتلوا الآيات وعتبة يستمع.. وفجأة جلس عتبة على الأرض.. ثم اهتز جسمه.. فألقى يديه خلف ظهره.. واتكأ عليهما.. وهو يستمع.. ويستمع..

والنبي يتلو.. ويتلو.. حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾.

فانتفض عتبة لما سمع التهديد بالعذاب.. وقفز ووضع يديه على فم رسول الله ﷺ.. ليوقف القراءة..

فاستمر ﷺ يتلو الآيات.. حتى انتهى إلى الآية التي فيها سجدة التلاوة.. فسجد.. ثم رفع رأسه من سجوده.. ونظر إلى عتبة وقال: سمعت يا أبا الوليد؟

قال: نعم..

قال: فأنت وذاك..

فقام عتبة يمشي إلى أصحابه.. وهم ينتظرونه متشوقين..

فلما أقبل عليهم.. قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به..

فلما جلس إليهم.. قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟!

فقال: ورائي أني والله سمعت قولاً ما سمعت مثله قط.. والله ما هو بالشعر.. ولا السحر.. ولا الكهانة..

يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي.. خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه.. فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم.. يا قوم!!

قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حتى بلغ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكته بفيه.. وناشدته الرحم أن يكف.. وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب.. فخفت

أن ينزل بكم العذاب..

ثم سكت أبو الوليد قليلاً متفكرًا..

وقومه واجمون يحدون النظر إليه..

فقال: والله إن لقوله لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه ليعلو وما يعلى عليه.. وإنه ليحطم ما تحته.. وما يقول هذا بشر.. ما يقول هذا بشر..

قالوا: هذا شعر يا أبا الوليد.. شعر..

فقال: والله ما رجل أعلم بالأشعار مني.. ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني.. ولا بأشعار الجن.. والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئًا من هذا..

ومضى عتبة يناقش قومه في أمر رسول الله ﷺ.. صحيح أن عتبة لم يدخل في الإسلام.. لكن نفسه لانت للدين..

فتأمل كيف أثر هذا الخلق الرفيع.. ومهارة حسن الاستماع في عتبة مع أنه من أشد الأعداء..

وفي يوم آخر.. تجتمع قريش.. فينتدبون حصين بن المنذر الخزاعي... وهو أبو الصحابي الجليل عمران بن حصين.. ينتدبونه لنقاش النبي عليه الصلاة والسلام ورده عن دعوته..

يدخل أبو عمران على النبي ﷺ وحوله أصحابه.. فيردد عليه ما تردده قريش دومًا.. فرقت جماعتنا.. شتت شملنا.. والنبي ﷺ ينصت بلطف.. حتى إذا انتهى..

قال له ﷺ بكل أدب: «أفرغت يا أبا عمران»..

قال: نعم..

قال: «فأجبني عما أسألك عنه»..

قال: قل.. أسمع..

فقال ﷺ: «يا أبا عمران.. كم إلهًا تعبد اليوم؟».

قال: سبعة..!! ستة في الأرض.. وواحدًا في السماء..!!

قال: «فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟».

قال: الذي في السماء..

فقال ﷺ بكل لطف: «يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك»..

فما كان من حصين إلا أن أسلم في مكانه فورًا.. ثم قال: يا رسول الله.. علمني الكلمتين اللتين وعدتني.. فقالﷺ: «قل: اللهم ألهمني رشدي.. وأعذني من شر نفسي»..

آآآه ما أروع هذا التعامل الراقي! وشدة تأثيره في الناس عند مخالطتهم.. وهذا التعامل الإسلامي الدعوي يفيد في دعوة الكفار وجذبهم إلى الخير..

سافر أحد الشباب للدراسة في ألمانيا فسكن في شقة..

وكان يسكن أمامه شاب ألماني، ليس بينهما علاقة، لكنه جاره..

سافر الألماني فجأة.. وكان موزع الجرائد يضع الجريدة كل يوم عند بابه.. انتبه صاحبنا لكثرة الجرائد.. سأل عن جاره.. فعلم أنه مسافر.. لمّا لجرائد ووضعها في درج خاص.. وصار يجمعها كل يوم ويرتبها..

لما رجع صاحبه بعد شهرين أو ثلاثة.. سلم عليه وهنأه بسلامة الرجوع.. ثم ناوله الجرائد..

وقال له: خشيت أنك متابع لمقال.. أو مشترك في مسابقة.. فأردت أن لا يفوتك ذلك..

نظر الجار إليه متعجبًا من هذا الحرص.. وقال: هل تريد أجرًا أو مكافأة على هذا؟

قال صاحبنا: لا.. لكن ديننا يأمرنا بالإحسان إلى الجار.. وأنت جار فلابد من الإحسان إليك.. ثم ما زال صاحبنا محسنًا إلى ذلك الجار.. حتى دخل في الإسلام..

هذه والله هي المتعة الحقيقية بالحياة..

أن تشعر أنك رقم على اليمين.. لك بصمتك في الحياة.. تتعبد لله بكل شيء حتى بأخلاقك..

وكم صد أعدادًا كبيرة من الكفار عن الدخول في الإسلام تعاملات فريق من المسلمين معهم.. فيظلمونهم عمالاً.. ويغشونهم متسوقين.. ويؤذونهم جيرانًا.. فهلم نبدأ من جديد معهم..

إضاءة..

خير الداعين من يدعو بأفعاله قبل أقواله..

الحيوانات !!

من صارت المهارات الحسنة ديدنه.. تحولت إلى طبع يخالط دمه وعقله.. لا ينفك عنه أبدًا..

فتجده دائمًا لينًا هينًا رفيقا متحملا عطوفًا.. مع كل أحد.. حتى مع الحيوانات.. والجمادات..

كان رسول الله ﷺ في سفر.. فانطلق ليقضي حاجته.. فرأى بعض الصحابة حُمرة معها فرخان.. فأخذ بعضهم فرخيها..

فجاءت الحمرة.. فجعلت تحوم حولهم وترفرف بجناحيا.. فلما جاء النبي ﷺ ورآها..

التفت إلى أصحابه وقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»..

وفي يوم آخر.. رأى ﷺ قرية نمل قد أحرقت.. فقال: «من أحرق هذه؟».

قال بعض أصحابه: أنا..

فغضب وقال: «لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا رب النار»..

وكان ﷺ من رأفته.. أنه إذا توضأ وأقبلت إليه هرة.. أصغى لها الإناء.. فتشرب.. ثم يتوضأ بفضلها..

ومرَ ﷺ يومًا على رجل ملقيًا شاة على الأرض.. وقد وضع رجله على صفحة عنقها ممسكًا لها ليذبحها.. وهو يحد شفرته.. وهي تلحظ إليه ببصرها..

فغضب ﷺ لما رآه.. وقال: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟».

ومر يومًا برجلين يتحدثان.. وقد ركب كل منهما على بعيره.. فلما رآهما رحم البعيرين.. ونهى أن تتخذ الدواب كراسي..

يعني لا تركب البعير إلا وقت الحاجة فقط.. فإذا انتهت حاجتك فانزل ودعه يرتاح.. ونهى ﷺ عن وسم الدابة في الوجه..

ومن أطرف ما ذكر.. أنه كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء.. ثم إن نفرًا من المشركين أغاروا على إبل للمسلمين.. كانت ترعى في أطارف المدينة..

فذهبوا بها.. وكانت العضباء فيها.. وأسروا امرأة من المسلمين.. واستاقوها معهم.. وهرب المشركون.. بالمرأة والإبل.. وكانوا إذا نزلوا أثناء الطريق.. أطلقوا الإبل ترعى حولهم..

فنزلوا منزلاً فناموا.. فقامت المرأة بالليل لتهرب منهم.. فأقبلت إلى الإبل لتركب إحداها..

فجعلت كلما أتت على بعير رغا بأعلى صوته.. فتتركه خوفًا من استيقاظهم.. وجعلت تمر على الإبل واحدًا واحدًا.. حتى أتت على العضباء..

فحركتها فإذا ناقة ذلول مجرسة.. فركبتها المرأة.. ثم وجهتها نحو المدينة.. فانطلقت العضباء مسرعة..

فلما شعرت المرأة بالنجاة.. اشتد فرحها.. فقالت: اللهم إن لك علي نذرًا.. إن أنجيتني عليها أن أنحرها..!!

وصلت المرأة إلى المدينة.. فعرف الناس ناقة النبي ﷺ.. نزلت المرأة في بيتها ومضوا بالناقة إلى النبي ﷺ فجاءت المرأة تطلب الناقة لتنحرها!!

فقال ﷺ: «بئس ما جزيتيها.. أو: بئس ما جزتها.. إن أنجاها الله عليها لتحرنها!!».

ثم قال ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم».

فلماذا لا تحول مهاراتك في التعامل – كالرفق والبشر والكرم – إلى سجية تلازمك على جميع أحوالك.. مع كل شيء تتعامل معه.. حتى الحيوانات بل والجمادات والأشجار..!!

كان النبي ﷺ يقوم يوم الجمعة.. فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد فيخطب الناس..

فقالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله.. ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه.. فإن لي غلامًا نجارًا..

قال: «إن شئت»..

فعملت له المنبر..

فلما كان يوم الجمعة.. صعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له..

فلما قعد ﷺ على ذلك المنبر.. خار الجذع كخوار الثور.. وصاحت النخلة.. حتى كادت تنشق.. وارتج المسجد..

فنزل النبي ﷺ فضم الجذع إليه.. فجعلت النخلة تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت..

ثم قال ﷺ: «أما والذي نفس محمد بيده.. لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة..».

إشارة..

الله كرم الإنسان..

لكن ذلك لا يفتح المجال له لاضطهاد بقية المخلوقات..

١٠٠ طريقة لكسب قلوب الناس

كل صاحب هم يتفنن في صيد ما يريد..

عاشق المال يتفنن في جمعه وتنميته.. ويحرص على تعلم مهارات التجارة والربح..

القنوات الفضائية تتفنن في اصطياد الناس بتنويع البرامج واختيار الأساليب المتجددة..

وتدريب مقدمي البرامج على مهارات تجذب الناس لمتابعتها..

وقل مثل ذلك في وسائل الإعلام المقروءة.. والمسموعة..

ومثله مروجو البضائع المختلفة سواء كانت حلالا أم حرامًا..

كلهم يحرصون على إتقان المهارات التي تفيدهم في مجالهم الذي يحبونه..

وكسب القلوب فن من الفنون له طرقه وأساليبه.. هب أنك دخلت مجلسًا فيه أربعون رجلاً.. فمررت بالناس تصافحهم..

فالأول.. مددت يدك إليه مسلمًا فناولك طرف يده.. وقال ببرود: أهلاً.. أهلاً..

والثاني.. كان مشغولاً بحديث جانبي.. ففاجأته بالسلام.. فرد ببرود أيضًا وصافحك دون أن ينظر إليك..

والثالث.. كان يتحدث بهاتفه.. فمد يده إليك دون أن يتلفظ بكلمة ترحيب.. أو يبدي لك أي اهتمام..

أما الرابع.. فلما رآك مقبلاً قام مستعدًا للسلام..

فلما التقت عينك بعينه ابتسم وأظهر البشاشة بلقياك..

وصافحك بحرارة..

واحتفى بقدومك.. وأنت لا تعرفه ولا يعرفك!!

ثم أكملت سلامك على الناس.. وجلست.. بالله عليك!

ألا تشعر أن قلبك ينجذب نحو ذلك الشخص؟

بلى.. ينجذب إليه.. وأنت لا تعرفه.. ولا تدري عن اسمه.. ولا تعلم وظيفته ولا مركزه.. ومع ذلك استطاع أن يسلب قلبك.. لا بماله.. ولا بمنصبه.. ولا

بحسبه ونسبه.. وإنما بمهارات تعامله..

إذن القوب لا تكسب بالقوة ولا بالمال ولا بالجمال ولا بالوظيفة.. وإنما تكسب بأقل من ذلك وأسهل.. ومع ذلك فقيل من يستطيع كسبها..

أذكر أن أحد طلابي في الكلية أصيب بمرض نفسي.. كان نوعًا صعبًا من الاكتئاب.. كان والده ضابطًا يشغل منصبًا عاليًا.. جاء مرارًا إلى الكلية وقابلني وتعاونًا على علاج ابنه..

كنت أذهب إلى بيتهم أحيانًا فأراه قصرًا منيفًا.. وأرى مجلس الأب مليئًا بالضيوف.. لا تكاد تجد فيه مكانًا فارغًا..

كنت أعجب من محبة الناس لهذا الرجل وإقبالهم عليه..

مضت سنوات وتقاعد الأب من منصبه.. فذهبت إليه زائرًا.. دخلت القصر.. ثم دلفت إلى المجلس وفيه أكثر من خمسين كرسيًا.. فلم أر في المجلس إلا الرجل يتابع برنامجًا في التلفاز.. وخادمًا يخدمه بالقهوة والشاي.. جلست معه قليلاً..

فلما خرجت جعلت أتذكر حاله لما كان في وظيفته.. وحاله الآن..

ما الذي كان يجمع الناس فيما مضى؟ ما الذي كان يجعلهم يلتمون عليه مؤانسين متحببين؟!

أدركت عندها أن الرجل لم يكسب الناس بأخلاقه ولطفه وحسن تعامله.. وإنما كسبهم بمنصبه ووجاهته وسعة علاقاته.. فلما زال المنصب زالت معه المحبة..

فخذ من صاحبنا درسًا..

وتعامل مع الناس بمهارات تجعلهم يحبونك لشخصك.. يحبون أحاديثك وابتسامتك ورفقك وحسن معشرك..

يحبون تغاضيك عن أخطائهم..

ووقوفك معهم في مصائبهم..

لا تجعل قلوبهم معلقة بكرسيك وجيبك!!

الذي يوفر لأولاده وزوجته المال والطعام والشراب لم يكسب قلوبهم.. وإنما كسب بطونهم.. والذي يغدق على أهله الأموال.. مع سوء التعامل.. لم يكسب

قلوبهم.. إنما كسب جيوبهم..

لذلك لا تستغرب إذا وجدت شابًا تقع له مشكلة فيشكوها إلى صديق أو إمام مسجد أو مدرس.. ويترك أباه.. لأن الأب لم يكسب قلبه.. ولم يحطم الأسوار بينهما.. بينما كسب هذا القلب مدرس أو صديق.. وربما كسبه عدو حاقد!!

وأمر آخر مهم.. ألا تلاحظ معي أن بعض الناس إذا دخل مجلسًا مزدحمًا.. وجعل يتلفت باحثًا عن مكان يجلس فيه.. رأيت الجالسين يتسابقون عليه كل يناديه ليجلس بجانبه!.. لماذا؟

هل دعيت يومًا إلى عشاء.. وكان بنظام (البوفيه المفتوح).. بحيث إن كل شخص يأخذ طعامه في طبق ويجلس على إحدى الطاولات الدائرية.. ألم تر بعض الناس ما إن يملأ طبقه بالطعام حتى يتهافت عدد من الناس يشيرون إليه بوجود مكان فارغ.. ليجلس معهم..

بينما آخر يملأ طبقه بالطعام.. ويتلفت ولا أحد يناديه أو يقبل عليه.. حتى تسوقه قدماه إلى إحدى الطاولات..

لماذا حرص الناس على الأول دون الثاني..

ألا تشعر أن بعض الناس تقبل عليه القلوب أينما كان.. وكأن في يده مغناطيسيًا يجذبها به جذبًا!!

عجبًا!

كيف استطاع هؤلاء جميعًا كسب الناس؟!

إنها طرق ذكية يستطيع بها الشخص أن يصيد بها القلوب..

قرار..

قدرتنا على أسر قلوب الآخرين..

وكسب محبتهم الصادقة..

تمنحنا جانبًا كبيرًا من المتعة بالحياة..

أحسن النية.. لوجه الله..

جعلت أتأمل أساليب تعامل بعض الأشخاص.. وعشت معهم سنين.. لا أذكر أني رأيت منهم ابتسامة.. بل ولا حتى مجاملة بضحك على طرفة.. أو تفاعل مع متحدث.. كنت أظن أنهم نشئوا هكذا ولا يستطيعون غيره.. ثم تفاجأت برؤيتهم في مواطن معينة.. ومع بعض الناس - من الأغنياء وأصحاب النفوذ تحديدًا - يحسنون الضحك والتلطف.. فأدركت أنهم ما يفعلون ذلك إلا لمصلحة.. فيفوتهم بذلك أجر عظيم.. إذ إن المؤمن يتعبد لله تعالى بأخلاقه ومهارات تعامله.. مع جميع الناس.. لا لأجل منصب أو مال.. ولا لأجل أن يمدحه الناس.. ولا لأجل أن يزوج أو يسلف مالاً.. وإنما ليحبه الله ويحببه إلى خلقه.. نعم.. من اعتبر حسن الخلق عبادة.. صار يتعامل بأحسن المهارات مع الغني والفقير.. والمدير والفراش.. لو مررت يومًا بعامل مسكين يكنس الشارع.. ومد يده إليك مصافحًا؟ ودخلت يومًا آخر على مسئول كبير فمد يده.. هل هما متساويان؟ في احتفائك بهما.. وتبسمك وبشاشتك؟ لا أدري!! . أما رسول الله ﷺ فكانا عنده متساويين في الاحتفاء والنصح والشفقة.. وما يدريك لعل من تزدريه وتتكبر عليه يكون عند الله خيرًا من ملء الأرض من مثل الذي تكرمه وتقبل عليه..

قال ﷺ «إن من أحبك إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»(١٥) ..

وقال للأشج بن عبد قيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله».. فما هما الخصلتان: قيام الليل، صيام النهار..

استبشر الأشج رضي الله عنه وقال: ما هما يا رسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام «الحلم.. والأناة»..(١٦)

وسئل ﷺ عن البر؟.. فقال: «البر حسن الخلق»..(١٧)

(١٥) رواه الترمذي (صحيح).
(١٦) رواه أحمد ومسلم.
(١٧) رواه مسلم.

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق».. [١٨]

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحاسنهم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».. [١٩]

وقال ﷺ: «ما شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق».. [٢٠]

وقال ﷺ: «إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار».. [٢١]

ومن حَسُنَ خلقه ربح في الدارين.. وإن شئت فانظر إلى أم سلمة رضي الله عنها.. وقد جلست مع رسول الله ﷺ.. فتذكرت الآخرة وما أعد الله فيها..

فقالت: يا رسول الله.. المرأة يكون لها زوجان في الدنيا.. فإذا ماتت وماتا ودخلوا جميعًا إلى الجنة.. فلمن تكون؟ فماذا قال؟ تكون لأطولهما قيامًا؟ أم لأكثرهما صيامًا؟ أم لأوسعهما علمًا؟ كلا..

وإنما قال: «تكون لأحسنهما خلقًا».. فعجبت أم سلمة.. فلما رأى دهشتها قال عليه الصلاة والسلام: «يا!!! أم سلمة.. ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة»..

نعم ذهب بخيري الدنيا والآخرة.. أما خير الدنيا فهو ما يكون له من محبة في قلوب الخلق.. وأما خير الآخرة فهو ما يكون له من الأجر العظيم.. ومهما أكثر الإنسان من الأعمال الصالحات.. فإنها قد تفسد عليه إذا كان سيئ الخلق..

ذُكر للنبي ﷺ حالُ امرأة.. وذكر له أنها تصلي وتصوم وتتصدق وتفعل.. لكنها تؤذي جيرانها بلسانها.. (يعني: سيئة الخلق).. فقال ﷺ: «هي في النار»..

وقد كان النبي ﷺ الأسوة الحسنة.. في كل خلق حميد.. كان أكرم الناس.. وأشجعهم.. وأحلمهم.. كان أشد حياءً من العذراء في خدرها.. كان أمينًا صادقًا.. يشهد له الكفار بذلك قبل المؤمنين.. والفساقُ قبل الصالحين..

حتى قالت خديجة رضي الله عنها أول ما نزل عليه الوحي.. لما رأت تغير حاله.. قالت: والله لا يخزيك الله أبدًا.. (لماذا؟؟).. إنك لتصل الرحم.. وتحمل الكل.. وتكسب

---

(١٨) رواه الترمذي (صحيح).

(١٩) رواه الترمذي (صحيح).

(٢٠) رواه أبو داود (صحيح).

(٢١) رواه الترمذي (صحيح).

المعدوم.. وتقري الضيف.. وتعين على نوائب الحق.. وتصدق الحديث.. وتؤدي الأمانة..

بل أثنى الله عليه ثناء تتلوه إلى يوم القيامة.. فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾..

وكان ﷺ خلقه القرآن.. نعم خلقه القرآن.. فإذا قرأ ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.. أحسن.. نعم أحسن إلى الكبير والصغير.. والغني والفقير.. إلى شرفاء الناس ووضعائهم.. وكبارهم وصغارهم.. وإذا سمع قول الله: ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ ﴾..

عفا وصفح.. وإذا تلا: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.. تكلم بأحسن الكلام..

فما دام أنه ﷺ قدوتنا.. ومنهجه منهجنا..

تأمل حياته ﷺ.. كيف كان يتعامل مع الناس.. كيف كان يعالج أخطاءهم.. ويتحمل أذاهم.. كيف كان يتعب لراحتهم.. وينصب لدعوتهم..

فيومًا تراه يسعى في حاجة مسكين.. ويومًا يفصل خصومة بين المؤمنين.. ويومًا يدعو الكافرين.. حتى كبرت سنه.. ورق عظمه.. ووصفت عائشة حاله فقالت: كان أكثر صلاة النبي ﷺ بعدما كبر جالسًا.. (لماذا؟؟)..

بعدما حطمه الناس.. نعم.. حطمه الناس..

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

بل بلغ من حرصه ﷺ على الخلق الحسن.. أنه كان يدعو الله فيقول: «اللهم كما أحسنت خَلقي فأحسن خُلقي» [٢٢]..

وكان يقول: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وأصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» [٢٣]

فنحن نحتاج إلى أن نقتدي به ﷺ في أخلاقه.. مع المسلمين لكسبهم ودعوتهم.. ومع الكافرين ليعرفوا حقيقة الإسلام..

إشارة..

أحسن النية.. لتكون مهارات تعاملك مع

الآخرين عبادة تتقرب بها إلى الله..

---

(٢٢) رواه أحمد (صحيح).

(٢٣) رواه مسلم.

استعمل الطعم المناسب!!

الناس بطبيعتهم يتفقون في أشياء كلهم يحبونها ويفرحون بها.. ويتفقون في أشياء أخرى كلهم يكرهونها.. ويختلفون في أشياء منهم من يفرح بها.. ومنهم من يستثقلها.. فكل الناس يحبون التبسم في وجوههم.. ويكرهون العبوس والكآبة.. لكنهم إلى جانب ذلك.. منهم من يحب المرح والمزاح.. ومنهم من يستثقله.. منهم من يحب أن يزوره الناس ويدعونه.. ومنهم الانطوائي.. ومنهم من يحب الأحاديث وكثرة الكلام.. ومنهم من يبغض ذلك.. وكل واحد في الغالب يرتاح لمن وافق طباعه.. فلماذا لا توافق طباع الجميع عند مجالستهم.. وتعامل كل واحد بما يصلح له؟ ليرتاح إليك..

ذكروا أن رجلاً رأى صقرًا يطير بجانب غراب!! فعجب.. كيف يطير ملك الطيور مع غراب!! فجزم أن بينهما شيئًا مشتركًا جعلهما يتوافقان.. فجعل يتبعهما ببصره.. حتى تعبا من الطيران فحطا على الأرض فإذا كلاهما أعرج!!

فإذا علم الولد أن أباه يؤثر السكوت ولا يحب كثرة الكلام.. فليتعامل معه بمثل ذلك ليحبه ويأنس بقربه.. وإذا علمت الزوجة أن زوجها يحب المزاح.. فلتمازحه..

فإن علمت أنه ضد ذلك فلتتجنب.. وقل مثل ذلك عند تعامل الشخص مع زملائه.. أو جيرانه.. أو إخوانه.. لا تحسب الناس طبعًا واحدًا فلهم طبائع لست تحصيهن ألوان..

أذكر أن عجوزًا صالحة – وهي أم لأحد الأصدقاء – كانت تمدح أحد أولادها كثيرًا.. وترتاح إذا زارها أو تحدث معها.. مع أن بقية أولادها يبرون بها ويحسنون إليها.. لكن قلبها مقبل على ذلك الولد..

كنت أبحث عن السر.. حتى جلست معه مرة فسألته عن ذلك.. فقال لي: المشكلة أن إخواني لا يعرفون طبيعة أمي.. فإذا جلسوا معها صاروا عليها ثقلاء..

فقلت له مداعبًا: وهل اكتشف معاليكم طبيعتها..!!

ضحك صاحبي وقال: نعم.. سأخبرك بالسر.. أمي كبقية العجائز.. تحب الحديث حول النساء وأخبار من تزوجت وطلقت.. وكم عدد أبناء فلانة.. وأيهم أكبر.. ومتى تزوج فلان فلانة؟ وما اسم أول أولادهما..

إلى غير ذلك من الأحاديث التي أعتبرها أنا غير مفيدة.. لكنها تجد سعادتها في تكرارها.. وتشعر بقيمة المعلومات التي تذكرها.. لأننا لن نقرأها في كتاب ولن نسمعها في شريط.. ولا تجدها – قطعًا – في شبكة الإنترنت!!

فتشعر أمي وأنا أسألها عنها أنها تأتي بما لم يأت به الأولون.. فتفرح وتنبسط.. فإذا جالستها حركت فيها هذه المواضيع فابتهجت.. ومضى الوقت وهي تتحدث.. وإخواني لا يتحملون سماع هذه الأخبار.. فيشغلونها بأخبار لا تهما.. وبالتالي تستثقل مجلسهم.. وتفرح بي!! هذا كل ما هنالك..

نعم أنت إذا عرفت طبيعة من أمامك.. وماذا يحب وماذا يكره.. استطعت أن تأسر قلبه.. ومن تأمل في تعامل النبي ﷺ.. مع الناس وجد أنه كان يعامل كل شخص بما يتناسب مع طبيعته.. في تعامله مع زوجاته كان يعامل كل واحدة بالأسلوب الذي يصلح لها..

عائشة كانت شخصيتها انفتاحية.. فكان يمزح معها.. ويلاطفها.. ذهبت معه مرة في سفر.. فلما قفلوا راجعين واقتربوا من المدينة.. قال ﷺ للناس: «تقدموا عنا».. فتقدم الناس عنه.. حتى بقي مع عائشة.. وكانت جارية حديثة السن.. نشيطة البدن.. فالتفت إليها وقال: «تعالي حتى أسابقك».. فسابقته.. وركضت وركضت.. حتى سبقته..

وبعدها بزمان..خرجت معه ﷺ في سفر.. بعدما كبرت وسمنت.. وحملت اللحم وبدنت.. فقال ﷺ للناس: «تقدموا».. فتقدموا.. ثم قال لعائشة: «تعالي حتى أسابقك».. فسابقته.. فسبقها.. فلما رأى ذلك.. جعل يمازحها ويضرب بين كتفيها..

ويقول: «هذه بتلك.. هذه بتلك».. بينما كان يتعامل مع خديجة تعاملاً آخر.. فقد كانت تكبره في السن بخمس عشرة سنة..

حتى مع أصحابه.. كان يراعي ذلك.. فلم يلبس أبا هريرة عباءة خالد..

ولم يعامل أبا بكر كما يعامل طلحة.. وكان يتعامل مع عمر تعاملاً خاصًا.. ويسند إليه أشياء لا يسندها إلى غيره..

انظر إليه ﷺ وقد خرج مع أصحابه إلى بدر.. فلما سمع بخروج قريش.. عرف أن رجالاً من قريش سيحضرون إلى ساحة المعركة كرهًا.. ولن يقع منهم قتال على المسلمين..

فقام ﷺ في أصحابه وقال: «إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا.. لا حاجة لهم بقتالنا.. فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله.. ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله.. ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله.. فإنه إنما خرج مستكرهًا».

وقيل إن العباس كان مسلمًا يكتم إسلامه.. وينقل أخبار قريش إلى رسول الله ﷺ.. فلم يحب النبي ﷺ أن يقتله المسلمون.. ولم يحب كذلك أن يظهر أمر إسلامه.. كانت هذه المعركة أول معركة تقوم بين الفريقين.. المسلمين وكفار قريش.. وكانت نفوس المسلمين مشدودة.. فهم لم يستعدوا لقتال.. وسيقاتلون أقرباء وأبناء وآباء.. وهذا رسول الله ﷺ يمنعهم من قتل البعض..

وكان عتبة بن ربيعة من كبار كفار قريش.. ومن قادة الحرب.. وكان ابنه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.. مع المسلمين.. فلم يصبر أبو حذيفة..

بل قال: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس!! والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف.. فبلغت كلمته رسول الله ﷺ.. فالتفت النبي عليه الصلاة والسلام.. فإذا حوله أكثر من ثلاثمائة بطل..

فوجه نظره فورًا إلى عمر.. ولم يلتفت إلى غيره.. وقال: يا أبا حفص.. «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟!».

قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص.. وكان عمر رهن إشارة النبي ﷺ.. ويعلم أنهم في ساحة قتال لا مجال فيها للتساهل في التعامل مع من يخالف أمر القائد.. أو يعترض أمام الجيش..

فاختار عمر حلاً صارمًا فقال: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف.. فمنعه النبي ﷺ.. ورأى أن هذا التهديد كاف في تهدئة الوضع.. كان

أبو حذيفة ﵁ رجلاً صالحًا.. فكان بعدها يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ.. ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة.. فقتل يوم اليمامة شهيدًا ﵁.. هذا عمر.. كان ﷺ يعلم بنوع الأعمال التي يسندها إليه.. فليس الأمر متعلقًا بجمع صدقات.. ولا بإصلاح متخاصمين.. ولا بتعليم جاهل..

وإنما هم في ساحة قتال فكانت الحاجة إلى الرجل الحازم المهيب أكثر منها إلى غيره.. لذا اختار عمر.. واستثاره: «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟!»

وفي موقف آخر.. يقبل النبي ﷺ على خيبر.. ويقاتل أهلها قتالاً يسيرًا.. ثم يصالحهم ويدخلها.. واشترط عليهم أن لا يكتموا شيئًا من الأموال.. ولا يغيبوا شيئًا.. ولا يخبئوا ذهبًا ولا فضة.. بل يظهرون ذلك كله ويحكم فيه.. وتوعدهم إن كتموا شيئًا أن لا ذمة لهم ولا عهد..

وكان حيي بن أخطب من رؤوسهم.. وكان جاء من المدينة بجلد تيس مدبوغ ومخيط ومملوء ذهبًا وحليًا.. وقد مات حيي وترك المال.. فخبؤوه عن رسول الله ﷺ..

فقال ﷺ لعم حيي بن أخطب: «ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟»

أي: الجلد المملوء ذهبًا..

فقال: أذهبته النفقات والحروب..

فتفكر ﷺ في الجواب.. فإذا موت حيي قريب والمال كثير.. ولم تقع حروب قريبة تضطرهم إلى إنفاقه..

فقال ﷺ: «العهد قريب.. والمال أكثر من ذلك»..

فقال اليهودي: المال والحلي قد ذهب كله..

فعلم النبي ﷺ أنه يكذب.. فنظر ﷺ إلى أصحابه فإذا هم كثير بين يديه.. وكلهم رهن إشارته.. فالتفت إلى الزبير بن العوام وقال: «يا زبير.. مسه بعذاب.. فأقبل إليه الزبير مت[illegible]»..

فانتفض اليهودي.. وعلم أن الأمر جد.. فقال: قد رأيت حُييًا يطوف في خربة ها هنا.. وأشار إلى بيت قد[illegible].. فذهبوا فطافوا فوجدوا المال مخبئًا في الخربة.. هذا في حاله ﷺ مع [illegible]ير.. يعطي القوس باريها..

وكان الصحابة يتعامل بعضهم مع بعض على هذا الأساس..

لما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت.. واشتد عليه الوجع.. لم يستطع القيام ليصلي بالناس.. فقال وهو على فراشه: مروا أبا بكر فليصل بالناس..

وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً.. وهو صاحب رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته.. وهو صديقه في الجاهلية والإسلام.. وهو أبو زوجة النبي ﷺ عائشة.. وهو.. وكان يحمل في صدره جبلاً من الحزن بسبب مرض النبي ﷺ..

فلما أمر النبي ﷺ أن يبلغوا أبا بكر ليصلي بالناس.. قال بعض الحاضرين عند النبي ﷺ: إن أبا بكر رجل أسيف.. أي: رقيق.. إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس.. أي: من شدة التأثر والبكاء.. خاصة في هذا الموطن..

لكنه ﷺ كان يشير إلى أحقية أبي بكر بالخلافة من بعده.. يعني: إذا أنا غير موجود فأبو بكر يتولى المسؤولية.. فأعاد ﷺ الأمر: مروا أبا بكر فليصل بالناس.. حتى صلى أبو بكر.. ومع رقة أبي بكر.. إلا أنه كان ذا هيبة.. وله حدة غضب أحياناً تكسوه جلالاً.. وكان رفيق دربه عمر رضي الله عنه يراعي ذلك منه.. انظر إليهم جميعاً رضي الله عنهم.. وقد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة.. بعد وفاة النبي ﷺ.. ليتفقوا على خليفة.. اجتمع المهاجرون والأنصار.. وانطلق عمر إلى أبي بكر واصطحبا إلى السقيفة..

قال عمر: فأتيناهم في سقيفة بني ساعدة.. فلما جلسنا تشهد خطيب الأنصار.. وأثنى على الله بما هو له أهل ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله.. وكتيبة الإسلام.. وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا.. وقد دفت دافة من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا.. ويغصبونا الأمر..

فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر.. وكنت أداري منه بعض الحدة..

فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر.. فكرهت أن أغضبه..

فتكلم وهو كان أعلم مني وأوقر.. فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته.. أو قال مثلها.. أو أفضل منها حتى سكت.

قال أبو بكر: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل..

ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش.. هم أوسط العرب نسبًا ودارًا.. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم..

وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا..

ولم أكره شيئًا مما قاله غيرها.. كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم.. أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر..

سكت الناس.. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك.. وعذيقها المُرجّب.. منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش..

قال عمر: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف..

فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار.. نعم.. كل واحد من الناس له مفتاح تستطيع به فتح أبواب قلبه.. وكسب محبته والتأثير عليه.. وهذا تلاحظه في حياة الناس.. أفلم تسمع زملاء عملك يومًا يقولون: المدير.. مفتاحه فلان.. إذا أردتم شيئًا فاجعلوا فلانًا يطلبه لكم.. أو يقنع المدير به.. فلماذا لا تجعل مهاراتك مفاتيح لقلوب الناس.. فتكون رأسًا لا ذيلاً.. نعم كن متميزًا.. وابحث عن مفتاح قلب أمك وأبيك وزوجتك وولدك.. اعرف مفتاح قلب مديرك في العمل.. زملائك.. ومعرفة هذه المفاتيح تفيدنا حتى في جعلهم يتقلبون النصح الذي يصدر منا لهم.. إذا أحسنا تقديم هذا النصح بأسلوب مناسب.. فهم ليسوا سواء في طريقة النصح.. بل حتى في إنكار الخطأ إذا وقع منهم..

وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد جلس يومًا في مجلسه المبارك يحدث أصحابه.. فبينما هم على ذلك.. فإذا برجل يدخل إلى المسجد.. يتلفت يمينًا ويسارًا.. فبدل أن يأتي ويجلس في حلقة النبي ﷺ.. توجه إلى زاوية من زوايا المسجد.. ثم جعل يحرك إزاره!! . عجبًا!! ماذا سيفعل؟!

رفع طرف إزاره من الأمام ثم جلس بكل هدوء.. يبووول..!!

عجب الصحابة.. وثاروا.. يبول في المسجد!! وجعلوا يتقافزون ليتوجهوا إليه.. والنبي ﷺ يهدئهم.. ويسكن غضبهم.. ويردد: «لا تزرموه».. لا تعجلوا عليه.. لا تقطعوا عليه بوله.. والصحابة يلتفتون إليه.. وهو لعله لم يدرعنهم.. لا يزال يبول..

والنبي ﷺ يرى هذا المنظر.. بول في المسجد.. ويدئ أصحابه!! آآه ما!!!!! أحلمه!! حتى إذا انتهى الأعرابي من بوله.. وقام يشد على وسطه إزاره.. دعاه النبي ﷺ بكل رفق.. أقبل يمشي حتى إذا وقف بين يديه..

قال له ﷺ بكل رفق: «إن هذه المساجد لم تُبْن لهذا.. إنما بُنيت للصلاة وقراءة القرآن».. انتهى.. نصيحة باختصار..

فهم الرجل ذلك ومضى.. فلما جاء وقت الصلاة أقبل ذلك الأعرابي وصلى معهم..

كبر النبي ﷺ بأصحابه مصليًا.. فقرأ ثم ركع.. فلما رفع ﷺ من ركوعه قال: «سمع الله لمن حمده»..

فقال المأمومون: ربنا ولك الحمد.. إلا هذا الرجل قالها وزاد بعدها: اللهم أرحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا!! وسمعه النبي ﷺ..

فلما انتهت الصلاة.. التفت ﷺ إليهم وسألهم عن القائل.. فأشاروا إليه.. فناداه النبي ﷺ فلما وقف بين يديه فإذا هو الأعرابي نفسه.. وقد تمكن حب النبي ﷺ من قلبه حتى ود لو أن الرحمة تصيبهما دون غيرهما..

فقال له ﷺ معلمًا: «لقد تحجرت واسعًا»!! أي: إن رحمة الله تعالى تسعنا جميعًا وتسع الناس.. فلا تضيقها علي وعليك.. فانظر كيف ملك عليه قلبه.. لأنه عرف كيف يتصرف معه.. فهو أعرابي أقبل من باديته.. لم يبلغ من العلم رتبة أبي بكر وعمر.. ولا معاذ وعمار.. فلا يؤاخذ كغيره..

وإن شئت فانظر أيضًا إلى معاوية بن الحكم رضي الله عنه كان من عامة الصحابة.. لم يكن يسكن المدينة.. ولم يكن مجالسًا للنبي عليه الصلاة والسلام.. وإنما كان له غنم في الصحراء يتتبع بها الخضراء.. أقبل معاوية يومًا إلى المدينة فدخل المسجد.. وجلس إلى رسول الله ﷺ وأصحابه.. فسمعه يتكلم عن العطاس..

وكان مما علم أصحابه أن إذا سمع المسلم أخاه عطس فحمد الله فإنه يقول له: يرحمك الله.. حفظها معاوية.. وذهب بها.. وبعد أيام جاء إلى المدينة في حاجة.. فدخل المسجد فإذا النبي عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه.. فدخل معهم في الصلاة..

فبينما هم على ذلك إذ عطس رجل من المصلين.. فما كاد يحمد الله.. حتى تذكر معاوية أنه تعلم أن المسلم إذا عطس فقال الحمد لله.. فإن أخاه يقول له يرحمك الله.. فبادر معاوية العاطس قائلاً بصوت عال: يرحمك الله!!..

فاضطرب المصلون.. وجعلوا يلتفتون إليه منكرين.. فلما رأى دهشتهم.. اضطرب وقال: واااثكل أمّياه!!.. ما شأنكم تنظرون إلي؟..

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ليسكت.. فلما رآهم يصمتونه صمت..

فلما انتهت الصلاة.. التفتﷺ إلى الناس.. وقد سمع جلبتهم وأصواتهم.. وسمع صوت من تكلم..

لكنه صوت جديد لم يعتد عليه.. فلم يعرفه.. فسألهم: «من المتكلم».. فأشاروا إلى معاوية.. فدعاه النبي عليه الصلاة والسلام إليه.. فأقبل عليه معاوية فزعًا لا يدري بماذا سيستقبله.. وهو الذي أشغلهم في صلاتهم.. وقطع عليهم خشوعهم..

قال معاوية رضي الله عنه: فبأبي هو وأميﷺ .. والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه.. والله ما كهرني.. ولا ضربني.. ولا شتمني..

وإنما قال: يا معاوية.. إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس.. إنما هي التسبيح والتكبير.. وقراءة القرآن.. انتهى.. نصيحة باختصار..

ففهمها معاوية.. ثم ارتاحت نفسه.. واطمأن قلبه.. فجعل يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن خواص أموره..

فقال: يا رسول الله.. إني حديث عهد بجاهلية.. وقد جاء الله بالإسلام.. وإن منا رجالاً يأتون الكهان (وهم الذين يدّعون علم الغيب).. يعني: فيسألونهم عن الغيب..

فقال ﷺ: «فلا تأتهم.. يعني: لأنك مسلم.. والغيب لا يعلمه إلا الله».. قال معاوية: ومنا رجال يتطيرون (أي: يتشاءمون بالنظر إلى الطير)..

فقال ﷺ: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم.. فلا يصدنهم» (أي لا يمنعهم ذلك عن وجهتهم.. فإن ذلك لا يؤثر نفعًا ولا ضرًا)..

هذا تعاملهﷺ مع أعرابي بال في المسجد.. ورجل تكلم في الصلاة.. عاملهم مراعيًا أحوالهم.. لأن الخطأ من مثلهم لا يتغرب.. أما معاذ بن جبل فقد كان من

أقرب الصحابة إلى رسول الله ﷺ. ومن أكثرهم حرصًا على طلب العلم.

فكان تعامل النبي ﷺ مع أخطائه مختلفًا عن تعامله مع أخطاء غيره.. كان معاذ يصلي مع رسول الله ﷺ العشاء.. ثم يرجع فيصلي بقومه العشاء إمامًا بهم في مسجدهم.. فتكون الصلاة له نافلة ولهم فريضة..

رجع معاذ ذات ليلة لقومه ودخل مسجدهم فكبر مصليًا بهم.. أقبل فتى من قومه ودخل معه في الصلاة.. فلما أتم معاذ الفاتحة قال ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقالوا آمين.. ثم افتتح معاذ سورة البقرة!! كان الناس في تلك الأيام يتعبون في العمل في مزارعهم ورعيهم دوابهم طوال النهار.. ثم لا يكادون يصلون العشاء حتى يأوون إلى فرشهم..

هذا الشاب.. وقف في الصلاة.. ومعاذ يقرأ ويقرأ.. فلما طالت الصلاة على الفتى.. أتم صلاته وحده.. وخرج من المسجد وانطلق إلى بيته..

انتهى معاذ من الصلاة.. فقال له بعض القوم: يا معاذ.. فلان دخل معنا في الصلاة.. ثم خرج منها لما أطلت.. فغضب معاذ وقال: إن هذا به لنفاق.. لأخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع..

فأبلغوا ذلك الشاب بكلام معاذ.. فقال الفتى: وأنا لأخبرن رسول الله ﷺ بالذي صنع.. فغدوا على رسول الله ﷺ فأخبره معاذ بالذي صنع الفتى..

فقال الفتى: يا رسول الله.. يطيل المكث عندك ثم يرجع فيطيل علينا الصلاة.. والله يا رسول الله إنا لنتأخر عن صلاة العشاء مما يطول بنا معاذ..

فسأل الله النبي ﷺ معاذًا: «ماذا تقرأ»؟!

فإذا بمعاذ يخبره أنه يقرأ بالبقرة.. و.. وجعل يعدد السور الطوال.. فغضب النبي ﷺ لما علم أن الناس يتأخرون عن الصلاة بسبب الإطالة.. وكيف صارت الصلاة ثقيلة عليهم.. فالتفت إلى معاذ وقال: «أفتان أنت يا معاذ..؟!» يعني تريد أن تفتن الناس وتبغضهم في دينهم..

اقرأ بـ «السماء والطارق»، «والسماء ذات البروج»، «والشمس وضحاها»، «والليل إذا يغشى» .. ثم التفت ﷺ إلى الفتى وقال له متلطفًا: «كيف تصنع أنت يا بن أخي إذا صليت؟».

قال: أقرأ بفاتحة الكتاب.. وأسأل الله الجنة.. وأعوذ به من النار..

ثم تذكر الفتى أنه يرى النبي ﷺ يدعو ويكثر.. ويرى معاذًا كذلك..

فقال في آخر كلامه: واني لا أدري ما دندنتك ودندنة معاذ.. أي: دعاؤكما الطويل لا أعرف مثله!!

فقال ﷺ: «إني ومعاذ حول هاتين ندندن».. يعني: دعاؤنا هو فيما تدعو به.. حول الجنة والنار..

كان الشاب متأثرًا من اتهام معاذ له بالنفاق فقال: ولكن سيعلم معاذ إذا قدم القوم وقد خبروا أن العدو قد أتوا.. ما أصنع.. يعني: في الجهاد في سبيل الله.. سيتبين لمعاذ إيماني وهو الذي يصفني بالنفاق!

فما لبثوا أيامًا.. حتى قامت معركة فقاتل فيها الشاب.. فاستشهد رضي الله عنه.. فلما علم به ﷺ.. قال لمعاذ: «ما فعل خصمي وخصمك؟» يعني: الذي اتهمته يا معاذ بالنفاق..

قال معاذ: يا رسول الله، صدق الله وكذبت.. لقد استشهد..

فتأمل الفرق في طبائع الرجال.. ومقاماتهم.. وكيف أدى إلى اختلاف تعامل النبي ﷺ معهم.. بل.. انظر إلى تعامله ﷺ مع أسامة بن زيد.. وهو حبيب رسول الله ﷺ.. وقد تربى في بيته..

بعث النبي ﷺ أصحابه إلى الحرقات من قبيلة جهينة.. وكان أسامة بن زيد رضي الله عنه من ضمن المقاتلين بالجيش..

ابتدأ القتال.. في الصباح.. انتصر المسلمون وهرب مقاتلو العدو.. كان من بين جيش العدو رجل يقاتل..

فلما رأى أصحابه منهزمين.. ألقى سلاحه وهرب.. فلحقه أسامة ومعه رجل من الأنصار.. ركض الرجل وركضوا خلفه.. وهو يشتد فزعًا.. حتى عرضت لهم شجرة فاحتمى الرجل بها..

فأحاط به أسامة والأنصاري.. ورفعا عليه السيف.. فلما رأى الرجل السيفين يلتمعان فوق رأسه.. وأحسَّ الموت يهجم عليه.. انتفض وجعل يجمع ما تبقى من ريقه في فمه.. ويردد فزعًا: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده

ورسوله.. تحير الأنصاري وأسامة.. هل أسلم الرجل فعلاً.. أم أنها حيلة افتعلها.. كانوا في ساحة قتال.. والأمور مضطربة.. يتلفتون حولهم فلا يرون إلا أجسادًا ممزقة.. وأيدي مقطعة.. قد اختلط بعضها ببعض.. الدماء تسيل.. النفوس ترتجف.. الرجل بين أيديهما ينظران إليه.. لابد من الإسراع باتخاذ القرار.. ففي أي لحظة قد يأتي سهم طائش أو غير طائش.. فيرديهما قتيلين..

لم يكن هناك مجال للتفكير الهادئ.. فأما الأنصاري فكف سيفه.. وأما أسامة فظن أنها حيلة.. فضربه بالسيف حتى قتله..

عادوا إلى المدينة تداعب قلوبهم نشوة الانتصار..

وقف أسامة بين يدي النبي ﷺ. وحكى له قصة المعركة.. وأخبره بخبر الرجل وما كان منه..

كانت قصة المعركة تحكي انتصارًا للمسلمين.. وكان ﷺيستمع مبتهجًا..

لكن أسامة قال: ثم قتلته..

فتغير النبي ﷺ.. وقال: «قال لا إله إلا الله.. ثم قتلته؟!!».

قال: يا رسول الله لم يقلها من قبل نفسه.. إنما قالها فرقًا من السلاح..

فقال ﷺ: «قال لا إله إلا الله.. ثم قتلته!!

هلا شققت عن قلبه حتى تعلم أنه إنما قالها فرقًا من السلاح»..

وجعل ﷺ يحد بصره إلى أسامة ويكرر: «قال لا إله إلا الله ثم قتلته..!!

قال لا إله إلا الله ثم قتلته..!! ثم قتلته..!!

كيف لك بلا إله إلا الله إذا جاءت تحاجك يوم القيامة!!»

وما زال ﷺيكرر ذلك على أسامة..

قال أسامة: فما زال يكررها عليَّ حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ..

رأي..

لا تحسب الناس نوعًا واحدًا..

فلهم طبائع لست تحصيهن ألوان..

اختر الكلام المناسب..

يتبع ما سبق أيضًا طريقة الكلام مع الناس ونوعية الأحاديث التي تثار معهم..فإذا جلست مع أحد فأثر الأحاديث المناسبة له.. وهذا من طبيعة البشر..

فالأحاديث التي تثيرها مع شاب تختلف عن الأحاديث مع الشيخ.. ومع العالم تختلف عن الجاهل.. ومع الزوجة تختلف عن الأخت.. لا أعني الاختلاف التام.. بحيث إن القصة التي تحكيها للأخت لا يصح أن تحكيها للزوجة!! أو التي تذكرها للشاب لا يصح أن يسمعها الشيخ!! لا.. وإنما أعني الاختلاف اليسير الذي يطرأ على أسلوب عرض القصة وربما كيانها كله.. وبالمثال يتضح المقال.. لو جلست مع ضيوف كبار في السن جاوزت أعمارهم الثمانين أقبلوا زائرين لجدك.. فهل من المناسب أن تقص عليهم وأنت ضاحك مستبشر قصتك لما ذهبت مع زملائك للبر؟! وكيف أن فلانًا سجل هدفًا أثناء لعب الكرة.. وكيف ثبت الكرة برأسه ثم ضربها بركبته.. لا شك أن غير مناسب.. وكذلك لو تحدثت مع أطفال صغار.. من غير المناسب أن تذكر لهم قصصًا تتعلق بتعامل الأزواج مع زوجاتهم.. أظننا نتفق على ذلك.. إذن من أساليب جذب الناس اختيار الأحاديث التي يحبونها.. وإثارتها.. كأب له ولد متفوق.. من المناسب أن تسأله عنه.. لأنه بلا شك يفخر به ويحب أن يذكره دائمًا.. أو رجل فتح دكانًا وكسب منه أرباحًا.. فمن المناسب أن تسأله عن دكانه وإقبال الناس عليه.. لأن هذا يفرحه.. وبالتالي يحبك ويحب مجالستك.. وقد كان النبي ﷺ يراعي ذلك.. فحديثه مع الشاب يختلف عن حديثه مع الشيخ.. أو المرأة.. أو الطفل.. جابر بن عبد الله رضي الله عنه الصحابي الجليل.. قتل أبوه في معركة أحد.. وخلف عنده تسع أخوات ليس لهن عائل غيره.. وخلف دينًا كثيرًا.. على ظهر هذا الشاب الذي لا يزال في أول شبابه.. فكان جابر دائمًا ساهم الفكر.. منشغل البال بأمر دينه وأخواته.. والغرماء يطالبونه صباحًا ومساءً.. خرج حابر مع النبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع.. وكان لشدة فقره على جمل كليل ضعيف ما يكاد يسير.. ولم يجد جابر ما

يشتري به جملاً.. فسبقه الناس وصار هو في آخر القافلة.. وكان النبي ﷺ يسير في آخر الجيش.. فأدرك جابرًا وجمله يدبُّ به دبيبًا.. والناس قد سبقوه..

فقال النبي ﷺ: «ما لك يا جابر؟».

قال: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا..

فقال النبي ﷺ: «أنخه..» فأناخه جابر وأناخ النبي ﷺ ناقته..

ثم قال: «أعطني العصا من يدك أو اقطع لي عصا من شجرة».. فناوله جابر العصا.. برَكَ الجمل على الأرض كليلاً ضعيفًا.. فأقبل ﷺ إلى الجمل وضربه بالعصا شيئًا يسيرًا.. فنهض الجمل يجري قد امتلأ نشاطًا.. فتعلق به جابر وركب على ظهره.. مشى جابر بجانب النبي ﷺ.. فرحًا مستبشرًا.. وقد صار جمله نشيطًا سابقًا.. التفت ﷺ إلى جابر.. وأراد أن يتحدث معه.. فما هي الأحاديث التي اختارها النبي ﷺ ليثيرها مع جابر..

جابر كان شابًا في أول شبابه.. هموم الشباب في الغالب تدور حول الزواج.. وطلب الرزق..

قال ﷺ: «يا جابر.. هل تزوجت..؟».

قال جابر: نعم..

قال: «بكرًا.. أم ثيبًا»..

قال: بل ثيبًا..

فعجب النبي ﷺ كيف أن شابًا بكرًا في أول زواج له.. يتزوج ثيبًا.. فقال ملاطفًا لجابر: «هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك»..

فقال جابر: يا رسول الله.. إن أبي قتل في أحد.. وترك تسع أخوات ليس لهن راع غيري.. فكرهت أن أتزوج فتاة مثلهن فتكثر بينهن الخلافات.. فتزوجت امرأة أكبر منهن لتكون مثل أمهن.. هذا معنى كلام جابر..

رأى النبي ﷺ أن أمامه شاب ضحى بمتعته الخاصة لأجل أخواته.. فأراد ﷺ أن يمازحه بكلمات تصلح للشباب..

فقال له: «لعلنا إذا أقبلنا إلى المدينة أن ننزل في صرار[٢٤].. فتسمع بنا

(٢٤) موضع على بعد ٥ كم من المدينة.

زوجتك فتفرش لك النمارك».. يعني: وإن كنت تزوجت ثيبًا إلا أنها لا تزال عروسًا تفرح بك إذا قدمت وتبسط فراشها.. وتصف عليه الوسائد..

فتذكر جابر فقره وفقر أخواته.. فقال: نمارق!! والله يا رسول الله ما عندنا نمارق..

فقال ﷺ: «إنه ستكون لكم نمارق إن شاء الله».. ثم مشيا.. فأراد ﷺ أن يهب لجابر مالاً.. فالتفت إليه وقال: «يا جابر»..

قال: لبيك يا رسول الله..

فقال: «أتبيعني جملك؟».

تفكر جابر فإذا جمله هو رأسماله.. هكذا كان وهو كليل ضعيف.. فكيف وقد صار قويًا جلدًا!!!

لكنه رأى أنه لا مجال لرد طلب رسول الله ﷺ..

قال جابر: سُمه يا رسول الله.. بكم؟

فقال ﷺ: «بدرهم!!».

قال جابر: درهم!! تغبنني يا رسول الله..

فقال ﷺ: «بدرهمين»..

قال: لا.. تغبنني يا رسول الله..

فما زالا يتزايدان حتى بلغا به أربعين درهمًا.. أو قية من ذهب..

فقال جابر: نعم.. ولكن أشترط عليك أن أبقى عليه إلى المدينة..

قال ﷺ: «نعم»..

فلما وصلوا إلى المدينة.. مضى جابر إلى منزله وأنزل متاعه من على الجمل ومضى ليصلي مع النبي ﷺ وربط الجمل عند المسجد.. فلما خرج النبي ﷺ قال جابر: يا رسول الله هذا جملك.. فقال ﷺ: «يا بلال.. أعط جابرًا أربعين درهمًا وزده»..

فناول بلال جابرًا أربعين درهمًا وزاده.. فحمل جابر المال ومضى به يقلبه بين يديه.. متفكرًا في حاله!! ماذا يفعل بهذا المال؟!

أيشتري به جملاً.. أم يبتاع به متاعًا لبيته.. أم..

وفجأة التفت رسول الله ﷺ إلى بلال وقال: «يا بلال.. خذ الجمل وأعطه جابرًا».. جبذ بلال الجمل ومضى به إلى جابر.. فلما وصل به إليه.. تعجب جابر.. هل ألغيت الصفقة؟!

قال بلال: خذ الجمل يا جابر..

قال جابر: ما الخبر؟!..

قال بلال: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أعطيك الجمل.. والمال..

فرجع جابر إلى رسول الله ﷺ وسأله عن الخبر.. أما تريد الجمل؟!

فقال ﷺ: «أتراني ماكستك لآخذ جملك».. يعني: أنا لم أكن أطالبك بخفض السعر لأجل أن آخذ الجمل وإنما لأجل أن أقدر كم أعطيك من المال معونة لك على أمورك.. فما أرفع هذه الأخلاق..

يختار ما يناسب الشاب من أحاديث.. ثم لما أراد أن يحسن إليه ويتصدق عليه.. غلّف ذلك باللطف والأدب..وفي أحد الأيام يجلس إلى النبي ﷺ شاب اسمه جليبيب.. من خيار شباب الصحابة.. لكنه كان فقيرًا معدمًا..

وكان رضي الله عنه في وجهه دمامة.. جلس يومًا عند رسول الله ﷺ.. فما هي الأحاديث التي حرص النبي ﷺ على إثارتها معه؟ شاب في ريعان شبابه.. أعزب..

هل يتحدث معه عن أنساب العرب والرفيع منها والوضيع؟ أم يتحدث عن الأسواق وأحكام البيوع؟ لا.. فهذا شاب له نوع خاص من الأحاديث يفضله على غيره.. أثار معه ﷺ موضوع الزواج والحديث حوله.. فلطالما طرب الشباب لهذه المواضيع.. ثم عرض عليه رسول الله التزويج..

فقال: إذن تجدني كاسدًا..

فقال: «غير أنك عند الله لست بكاسد»..

فلم يزال النبي ﷺ يتحين الفرص لتزويج جليبيب.. حتى جاء رجل من الأنصار يومًا يعرض ابنته الثيب على رسول الله ﷺ.. ليتزوجها.. فقال ﷺ: «نعم يا فلان.. زوجني ابنتك»..

قال: نعم ونعمين.. يا رسول الله..

فقال ﷺ: «إني لست أريدها لنفسي»..

قال: فلمن؟!

قال: لجليبيب..

قال الرجل متفاجئًا: جليبيب!! جليبيب!! يا رسول الله!! حتى استأمر أمها..

أتى الرجل زوجته فقال: إن رسول الله يخطب ابنتك..

قالت: نعم.. ونعمين.. زوّج رسول الله ﷺ..

قال: إنه ليس يريدها لنفسه..

قالت: فلمن؟

قال: يريدها لجليبيب..

فتفاجأت المرأة أن تزف ابنتها إلى رجل فقير دميم.. فقالت: حَلْقَى!! لجليبيب..؟ لا لعمر الله لا أزوج جليبيبًا.. وقد منعناها فلانًا وفلانًا.. فاغتم أبوها لذلك.. وقام ليأتي رسول الله ﷺ.. فصاحت الفتاة من خدرها بأبويها: من خطبني إليكما؟

قالا: رسول الله ﷺ..

قالت: أتردان على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعاني إلى رسول الله ﷺ.. فإنه لن يضيعني.. فكأنما جلّت عنهما.. واطمأنا.. فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. شأنك بها فزوّجها جليبيبًا.. فزوجها النبي ﷺ جليبيبًا..

ودعا لها وقال: «اللهم صب عليهما الخير صبًا.. ولا تجعل عيشهما كدًا كدًا».. فلم يمض على زواجه أيام.. حتى خرج النبي ﷺ في غزوة.. وخرج معه جليبيب.. فلما انتهى القتال.. وبدأ الناس يتفقد بعضهم بعضًا.. سألهم النبي ﷺ: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا.. فسكت قليلاً ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا..

فسكت ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟».

قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا..

قال: «ولكني أفقد جليبيبًا»..

فقاموا يبحثون عنه.. ويطلبونه في القتلى.. فلم يجدوه في ساحة القتال.. ثم وجدوه في مكان قريب.. إلى جنب سبعة من المشركين قد قتلهم ثم قتلوه..

فوقف النبي ﷺ ينظر إلى جثته.. ثم قال: «قتل سبعة ثم قتلوه».. سبعة ثم قتلوه.. «هذا مني وأنا منه».. ثم حمله رسول الله ﷺ على ساعديه.. وأمرهم أن يحفروا له قبره..

قال أنس: فمكثنا نحفر القبر.. وجليبيب ما له سرير غير ساعدي رسول الله ﷺ.. حتى حفر له ثم وضعه في لحده..

قال أنس: فوالله ما كان في الأنصار أيّم أنفقُ منها.. أي: تسابق الرجال إليها كلهم يخطبها بعد جليبيب.. هكذا كان ﷺ يختار لكل أحد ما يناسبه من أحاديث.. حتى لا تُمَلّ مجالسه.. جلس ﷺ يومًا مع زوجه عائشة..

فما الأحاديث المناسب إثارتها بين الزوجين..؟

هل كلمها عن غزو الروم؟ ونوع الأسلحة التي استخدمت في القتال؟

كلا فليست هي أبو بكر!! أم حدثها عن فقر بعض المسلمين وحاجتهم؟

كلا فليست عثمان!!

إنما قال لها بعاطفة الزوجية: «إني لأعرف إن كنت راضية عني.. وإذا كنت غضبى..!!».

قالت: كيف؟

قال: «إذا كنت راضية قلت: لا ورب محمد ﷺ.. وإذا كُنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم ﷺ»..

فقالت: نعم.. والله يا رسول الله لا أهجر إلا اسمك..

فهل نراعي هذا نحن اليوم؟

وجهة نظر..

تحدث مع الناس بما يستمتعون هم باستماعه..

لا بما تستمتع أنت بحكايته..

كن لطيفًا عند أول لقاء..

انتشر في بعض أرياف مصر قديمًا أن الرجل العروس قبيل ليلة عرسه يخبئ في غرفته قطًا.. فإذا دخل بزوجته إلى مكان فراش الزوجية.. حرك كرسيًا ليخرج ذلك القط.. فإذا خرج أقبل العروس يستعرض قواه أمام زوجته.. وقبض على القط المسكين.. ثم خنقه وعصره.. حتى يموت بين يديه..!! أتدري لماذا؟!

لأجل أن يطبع صورة الرعب والهيبة منه في ذهن زوجته من أول لقاء..

وأذكر أني لما تخرجت من الجامعة.. وتعينت معيدًا في إحدى الكليات.. أوصاني معلم قديم قائلاً: في أول محاضرة لك عند الطلاب.. شُدَّ عليهم.. وانظر إليهم بعين حمراء!! حتى يخافوا منك وتفرض قوة شخصيتك من البداية..

تذكرت هذا.. وأنا أكتب هذا الباب.. فأيقنت أن من الأمور المقررة عند جميع الناس أن اللقاء الأول في الغالب يطبع أكثر من ٧٠٪ من الصورة عنك.. وهي ما يسمى بالصورة الذهنية.. أذكر أن مجموعة من الضباط سافروا إلى أمريكا في دورة تدريبية.. كانت الدورة في التعامل الوظيفي.. في أول يوم.. حضروا إلى القاعة مبكرين.. جعلوا يتحدثون.. ويتعارفون.. دخل عليهم المدرس فجأة فسكتوا.. فوقعت عين المدرس على طالب لا يزال متبسمًا..

فصرخ به: لماذا تضحك؟

قال: عذرًا.. ما ضحكت..

قال: بلى تضحك..

ثم جعل يؤنبه: أنت إنسان غير جاد.. المفروض أن تعود لأهلك على أول رحلة طيران.. لا أتشرف بتدريس مثلك.. والطالب المسكين قد تلون وجهه.. وجعل ينظر إلى مدرسه.. ويلتفت إلى زملائه.. ويحاول حفظ ما تبقى من ماء وجهه..

ثم حدق المدرس فيه النظر عابسًا وأشار إلى الباب وقال: اخرج.. قام الطالب مضطربًا.. وخرج..

نظر المدرس إلى بقية الطلاب وقال: أنا الدكتور فلان.. سأدرسكم مادة

كذا.. ولكن قبل أن أبدأ في الشرح.. أريدكم أن تعبئوا هذه الاستمارة.. دون كتابة الاسم.. ثم وزع عليهم استمارة تقييم للمدرس.. فيها خمسة أسئلة:

١-ما رأيك بأخلاق مدرسك؟

٢-ما رأيك بطريقة شرحه؟

٣-هل يقبل الرأي الآخر؟

٤-ما مدى رغبتك في الدراسة لديه مرة أخرى؟

٥-هل تفرح بمقابلته خارج المعهد؟

كان أمام كل سؤال منها.. اختيارات: ممتاز.. جيد.. مقبول.. ضعيف.. عبأ الطلاب الاستمارة وأعادوها إليه.. وضعها جانبًا.. وبدأ يشرح تأثير فن التعامل في الجو الوظيفي.. ثم قال: أوه!.. لماذا نحرم زميلكم من الاستفادة.. فخرج إليه.. وصافحه وابتسم له.. وأدخله القاعة..

ثم قال:يبدو أنني غضبت عليك قبل قليل من غير سبب حقيقي.. لكني كنت أعاني من مشكلة خاصة.. أدت بي أن أصب غضبي عليك.. فأنا أعتذر إليك.. فأنت طالب حريص.. يكفي في الدلالة على حرصك تركك لأهلك وولدك ومجيئك هنا.. أشكرك.. بل أشكركم جميعًا على حرصكم.. ومن أعظم الشرف لي أن أدرس مثلكم.. ثم تلطف معهم وضحك قليلاً.. ثم أخذ مجموعة جديدة من الاستمارات وقال: ما دام أن زميلكم فاته تعبئة الاستمارة فما رأيكم أن تعبئوها كلكم من جديد.. ووزع عليهم الأوراق.. فعبؤوها وأعادوها إليه.. فأخرج الاستمارات التي عبؤوها في البداية.. وأخرج الأخيرة وجعل يقارن بينها.. فإذا الخانة الخاصة بـ ضعيف في التعبئة الأولى كلها مليئة.. أما الثانية فليس فيها ضعيف ولا مقبول.. أبدًا.. فضحك وقال لهم: كان ما رأيتم دليلاً عمليًا على تأثير التعامل السيئ على بيئة العمل بين المدير وموظفيه.. وما فعلته بزميلكم كان تمثيلاً أردت أن أجريه أمامكم.. لكن المسكين صار ضحية..

فانظروا كيف تغيرت نظرتكم بمجرد تغير تعاملي معكم.. هذا من طبيعة الإنسان.. فلابد من مراعاته.. خاصة مع من تلتقي بهم لمرة واحدة فقط.. كان المعلم الأول ﷺ يأسر قلوب الناس من أول لقاء.. بعد فتح مكة.. تمكن

الإسلام.. وبدأت الوفود تتسابق إلى رسول الله ﷺ في المدينة.. قدم وفد عبد القيس.. على رسول الله ﷺ.. فلما رآهم وهم على رحالهم قبل أن ينزلوا.. بادرهم قائلاً: مرحبًا بالقوم.. غير خزايا.. ولا ندامى».. فاستبشروا.. وتواثبوا من رحالهم.. وأقبلوا إليه يتسابقون للسلام عليه..

ثم قالوا: يا رسول الله.. إن بيننا وبينك هذا الحي من المشركين من قبيلة مضر.. وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام.. حين يقف القتال.. فحدثنا بجميل من الأمر.. إن عملنا به دخلنا الجنة.. وندعو به من وراءنا..

فقال ﷺ: «آمركم بأربع.. وأنهاكم عن أربع.. آمركم بالإيمان بالله.. وهل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم..

قال: شهادة أن لا إله إلا الله.. وإقام الصلاة.. وإيتاء الزكاة.. وأن تعطوا الخمس من الغنائم.. وأنهاكم عن أربع: عن نبيذ في الدباء.. والنقير والحنتم.. والمزفت»[٢٥].. وفي موقف آخر.. كان ﷺ مسافرًا مع أصحابه ليلة.. فساروا في ليلهم مسيرًا طويلاً.. حتى إذا كان آخر الليل.. نزلوا في طرف الطريق ليناموا.. فغلبتهم أعينهم حتى طلعت الشمس وارتفعت.. فكان أول من استيقظ من منامه أبو بكر.. ثم استيقظ عمر.. فقعد أبو بكر عند رأسه ﷺ.. فجعل يكبر ويرفع صوته.. حتى استيقظ النبي ﷺ.. فنزل وصلى بهم الفجر.. فلما انتهى من صلاته التفت فرأى رجلاً من القوم لم يصل معهم..

فقال: «يا فلان.. ما يمنعك أن تصلي معنا؟».

قال: أصابتني جنابة.. ولا ماء.. فأمره ﷺ أن يتيمم بالصعيد.. ثم صلى.. ثم أمر ﷺ أصحابه بالارتحال.. وليس معهم ماء.. فعطشوا عطشًا شديدًا.. ولم يقفوا على بئر ولا ماء..

قال عمران بن حصين: فبينما نحن نسير فإذا نحن بامرأة على بعير.. ومعها مزادتان (قربتان).. فقلنا لها: أين الماء؟!

قالت: إنه لا ماء..

---

(٢٥) رواه البخاري.

فقلنا: كم بين أهلك وبين الماء؟

قالت: يوم وليلة..

فقلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ..

قالت: وما رسول الله..؟!

فسقناها معنا طمعًا أن تدلنا على الماء.. حتى أقبلنا بها إلى النبي ﷺ .. فسألها عن الماء.. فحدثته بمثل الذي حدثتنا به.. غير أنها شكت إليه أنها أم أيتام..

فتناول ﷺ مزادتها.. فسمى الله.. ومسح عليها.. ثم جعل ﷺ يفرغ من قربتيها في آنيتنا.. فشربنا عطاشًا أربعين رجلاً.. حتى روينا.. وملأنا كل قربة معنا.. ثم تركنا قربتيها.. وهما أكثر ما تكون امتلاءً..

ثم قال ﷺ: «هاتوا ما عندكم».. أي: طعام.. فجمع لها من كسر الخبز والتمر..

فقال لها: «اذهبي بهذا معك لعيالك.. واعلمي أنا لم نرزأك من مائك شيئًا.. غير أن الله سقانا».. ثم ركبت المرأة بعيرها.. مستبشرة بما حصلت من طعام.. حتى وصلت أهلها..

فقالت: أتيت أسحرَ الناس.. أو هو نبي كما زعموا.. فعجب قومها من قصتها مع رسول الله ﷺ.. فلم يمر عليهم زمن حتى أسلمت وأسلموا.. [٢٦] نعم.. أعجبت بتعامله وكرمه معها من أول لقاء.. وفي يوم أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ.. فسأله مالاً.. فأعطاه النبي ﷺ قطيعًا من غنم بين جبلين.. فرجع الرجل إلى قومه.. فقال: يا قوم.. أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة..

قال أنس: وقد كان الرجل يجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا.. فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه.. وأعز عليه.. من الدنيا وما فيها[٢٧]..

اقتراح..

أول لقاء يطبع ٧٠٪ من الصورة عنك..

فعامل كل إنسان على أن هذا هو اللقاء الأول والأخير بينكما..

---

(٢٦) متفق عليه.

(٢٧) رواه مسلم..

الناس كمعادن الأرض..

لو تأملت في الناس لوجدت أن لهم طبائع كطبائع الأرض.. فمنهم الرفيق اللين.. ومنهم الصلب الخشن.. ومنهم الكريم كالأرض المنبتة الكريمة.. ومنهم البخيل كالأرض الجدباء التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ.. إذن الناس أنواع.. ولو تأملت لوجدت أنك عند تعاملك مع أنواع الأرض تراعي حال الأرض وطبيعتها.. فطريقة مشيك على الأرض الصلبة..

تختلف عن طريقتك في المشي على الأرض اللينة.. فأنت حذر متأنٍ في الأولى.. بينما أنت مرتاح مطمئن في الثانية.. وهكذا.. الناس..

قال ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم: الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب»(٢٨) .. فعند تعاملك مع الناس انتبه إلى هذا - وانتبهي- سواء تعاملت مع: قريب كأب وأم وزوجة وولد.. أو بعيد كجار وزميل وبائع.. ولعلك تلاحظ أن طبائع الناس تؤثر فيهم حتى عند اتخاذ قراراتهم.. وحتى تتيقن ذلك.. اعمل هذه التجربة: إذا وقعت بينك وبين زوجتك مشكلة.. فاستشر أحد زملائك ممن تعلم أنه صلب خشن.. قل له: زوجتي كثيرة المشاكل معي.. قليلة الاحترام لي.. فأشر عليّ..

كأني به سيقول: الحريم ما يصلح معهن إلا العين الحمراء!! دُقَّ خشمها! خل شخصيتك قوية عليها!! كن رجلاً!!

وبالتالي قد تثور أنت ويخرب عليك بيتك بهذه الكلمات.. أكمل التجربة.. اذهب إلى صديق آخر تعرف أنه هين لين لطيف.. وقل له ما قلت للأول.. ستجد حتمًا أنه يقول: (يا أخي هذه أم عيالك.. وما فيه زواج يخلو من مشاكل.. اصبر عليها.. وحاول أن تتحملها.. وهذه مهما صار فهي زوجتك.. وشريكتك في الحياة).. فانظر كيف صارت طبيعة الشخص تؤثر في آرائه وقراراته..

(٢٨) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

لذلك نهى النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو عطشان! أو جوعان! أو حابس لبول أو غائط! لأن هذه الأمور قد تغير نفسيته.. وبالتالي قد تؤثر عليه في اتخاذ قراره في الحكم.. كان في الأمم السابقة رجل سفاح!! سفاح؟! نعم سفاح.. لم يقتل رجلاً واحدًا ولا اثنين.. ولا عشرة.. وإنما قتل تسعًا وتسعين نفسًا..لا أدري كيف نجا من الناس وانتقامهم.. لعله كان مخيفًا جدًا إلى درجة أنه لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه..

أو أنه كان يتخفى في البراري والمغارات.. لا أدري بالضبط.. المهم أنه ارتكب ٩٩ جريمة قتل!!

ثم حدثته نفسه بالتوبة.. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على عابد في صومعته.. لا يكاد يفارق مصلاه.. يمضي وقته ما بين بكاء ودعاء.. هين لين عاطفته جياشة..

دخل هذا الرجل على العابد.. وقف بين يديه ثم فجعه بقوله: أنا قتلت تسعًا وتسعين نفسًا.. فهل لي من توبة؟

هذا العابد.. أظنه لو قتل نملة من غير قصد لقضى بقية يومه باكيًا متأسفًا.. فكيف سيكون جوابه لرجل قتل بيده ٩٩ نفسًا؟!..

انتفض العابد.. ولم يتخيل ٩٩ جثة بين يديه يمثلها هذا الرجل الواقف أمامه.. صاح العابد: لا.. ليس لك توبة.. ليس لك توبة..

ولا تعجب أن يصدر هذا الجواب من عابد قليل العلم.. يحكم في الأمور بعاطفته.. هذا القاتل لما سمع الجواب.. وهو الرجل الصلب الخشن..

غضب واحمرت عيناه.. وتناول سكينه ثم انهال طعنًا في جسد العابد حتى مزقه.. ثم خرج ثائرًا من الصومعة..

ومضت الأيام.. فحدثته نفسه بالتوبة مرة أخرى.. فسأل عن أعلم أهل الأرض.. فدله الناس على رجل عالم.. مضى يمشي حتى دخل على العالم.. فلما وقف بين يديه فإذا به يرى رجلاً رزينًا يزينه وقار العالم والخشية..

فأقبل القاتل إليه سائلاً بكل جرأة: إني قتلت مائة نفس!! فهل لي من توبة؟!

فأجابه العالم فورًا: سبحاااان الله..!! ومن يحول بينك وبين التوبة؟!!

جواب رائع!! فعلاً من يحول بينه وبين التوبة؟! فالخالق في السماء لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحول بينك وبين الإنابة إليه والانكسار بين يديه..

ثم قال العالم: الذي كان يتخذ قراراته بناء على العلم والشر.. لا بناء على طبيعته ومشاعره.. أو قل على عاطفته وأحاسيسه..

قال العالم: لكنك بأرض سوء.. عجبًا! كيف علم؟! عرف ذلك بناء على كبر الجرائم وقلة المُدافع له المُنكر عليه..

فعلم أن البلد أصلاً ينتشر فيها القتل والظلم إلى درجة أنه لا أحد ينتصر للمظلوم..

قال: «إنك بأرض سوء.. فاذهب إلى بلد كذا وكذا فإن بها قومًا يعبدون الله فاعبد الله معهم».. ذهب الرجل يمشي تائبًا منيبًا.. فمات قبل أن يصل إلى البلد المقصود.. نزلت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.. فأما ملائكة الرحمة فقالت: أقبل تائبًا منيبًا.. وأما ملائكة العذاب فقالت: لم يعمل خيرًا قط.. فبعث الله إليهم ملكًا في صورة رجل ليحكم بينهما.. فكان الحكم أن يقيسوا ما بين البلدين.. بلد الطاعة وبلد المعصية.. فإلى أيتهما كان أقرب.. فإنه لها..

وأوحى الله تعالى إلى بلد الرحمة أن تقاربي.. وإلى بلد المعصية أن تباعدي.. فكان أقرب إلى بلد الطاعة فأخذته ملائكة الرحمة.. حتى المفتين في المسائل الشرعية تجد مع الأسف أن بعضهم تغلبه عاطفته أحيانًا..

أذكر أن أحد جيراني كان كثير الخلافات مع زوجته.. اشتد الخلاف يومًا فطلقها تطليقة.. ثم راجعها.. ثم اشتد أخرى.. فطلقها ثانية.. ثم رجعها..

وكنت كلما قابلته أحذره وأوصيه.. وأذكره بأبنائه الصغار.. وأهمية اعتبارهم والعناية بهم.. وأكرر عليه: لم يبق لك إلا طلقة واحدة -الثالثة- فإن أوقعتها لم تحل لك مراجعتها إلا بعد زواجها من آخر وتطليقه لها.. فاتق الله.. ولا تخرب بيتك..

حتى جاءني يومًا متغير الوجه وقال: يا شيخ تخاصمنا وطلقتها الثالثة!! وهذا الكلام منه ليس غريبًا.. إنما الغريب أنه قال بعدها: ما تعرف لي شيخًا

حبيبًا يفتيني أن أراجعها!!

فعجبت منه.. ثم تأملت في الحال فاكتشفت ما تقرر قبل قليل أن كثيرًا من الناس تختلف آراؤهم - وربما اختياراتهم الفقهية - تأثرًا بعاطفته وطبيعته..

وبعض الناس تعلم من طبيعته أنه شديد الحب للمال.. فلا تعجب إذا رأيته يذل نفسه لأرباب الأموال.. يهمل أولاده وبيته لأجل جمعه.. يقتر على من يعول.. لا تعجب فهو طماع.. بل إن اتخاذه لقراراته وتبنيه لقناعاته ينبني كثيرًا على هذه الطبيعة.. فإذا أردت أن تتعامل معه أو تطلب منه شيئًا فضع في نفسك قبل أن تتكلم أنه محب للمال.. فحاول أن لا تعارض هذه الطبيعة فيه حتى تحصل على ما تريد منه..

ولأن الأمثلة مفاتيح الفهوم..خذ مثالاً: نفرض أنك زرت مستشفى وقابلت مصادفة صديقًا قديمًا كان زميلاً لك أيام الجامعة.. فدعوته إلى وليمة غداء في بيتك.. فوافق.. فذهبت إلى السوق واشتريت حاجات ثم رجعت إلى البيت لتستعد وجعلت تتصل بعدد من زملائكم السابقين تدعوهم لمشاركتكم الوليمة ورؤية صاحبك.. من بين هؤلاء صديق -من البخلاء الذين استولى حب المال على قلوبهم- اتصلت به فرحب وحيّا.. فلما أخبرته عن الوليمة.. قال: آه.. يا ليتني أستطيع الحضور ورؤية فلان.. لكني مرتبط بشغل هاااام.. فبلغه سلامي.. ولعلي أراه في وقت آخر.. فأدركت أنت من معرفتك بطبيعته أنه يخشى أن يجيء.. فيضطر إلى أن يدعو الضيف إلى بيته ويصنع له وليمة تكلفه مبلغًا وقدره..!! وهو يريد التوفير..

فقلت له: عمومًا هذا الضيف لن يبقى في البلد سيسافر بعد الغداء مباشرة.. فقال: آآآ.. إذن سأؤجل شغلي وآتي لرؤيته!!

وبعض من تخالطهم من الناس يكون اجتماعيًا أسريًا.. يحب أسرته.. لا يصبر على فراقهم.. اطلب منه أي شيء إلا أن يبتعد عن أولاده بسفر أو نحوه.. فلا تكلفه ما لا يطيق..

إلى غير ذلك من طبائع الناس..

يعجبني بعض الناس الذي يملك فن اصطياد جميع القلوب.. فإذا سافر مع

بخلاء اقتصد حتى لا يحرجهم فأحبوه..

وإن جالس عاطفيين زاد من نسبة عاطفته فأحبوه.. وإن مشى مع فكاهيين مرحين ضحك ومزح وجاملهم فأحبوه..

يلبس لكل حالة لوسها.. إما نعيمها وإما بؤسها.. وعُد بذاكرتك قليلاً معي.. وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد أقبل بالكتائب لفتح مكة..

كان أبو سفيان قد خرج إلى النبي ﷺ قبل أن يدخل مكة.. فأسلم..

في قصة طويلة.. الشاهد منها أنه لما أسلم قال العباس: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا.. فقال ﷺ:

«نعم.. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..

ومن أغلق عليه بابه فهو آمن..

ومن دخل المسجد فهو آمن..»

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف إلى مكة.. نظر إليه رسول الله ﷺ.. فإذا هو الذي استنفر قريشًا لحربه في بدر.. واستنفرها لحربه في أحد.. ثم استنفرها لحربه في الخندق..

وإذا رجل قائد.. قد طحنته الحرب وطحنها.. وإذا هو حديث عهد بإسلام.. فأراد رسول الله ﷺأن يريه قوة الإسلام..

فقال ﷺ: «يا عباس».. قال: لبيك يا رسول الله..

قال: «احبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها».. أي: أوقفه على طريق الجيش وهو يدخل مكة..

فخرج العباس بأبي سفيان.. حتى وقف معه بمضيق الوادي.. حيث تتدفق الكتائب كالسيل إلى مكة..

وجعلت الكتائب تمر عليه براياتها.. فلما مرت الكتيبة الأولى قال: يا عباس من هؤلاء؟

قال العباس:سليم..

قال:ما لي ولسليم..!! ثم مرت به الثانية..

قال:يا عباس من هؤلاء؟

قال: مزينة..

قال: ما لي ولمزينة..!! حتى نفدت الكتائب.. وما تمر كتيبة إلا سأل العباس عنها.. فإذا أخبره.. قال: ما لي ولبني فلان..

حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء.. وفيها المهاجرون والأنصار.. قد غطوا أجسادهم بالحديد.. فلا يرى منهم إلا عيونهم..

فقال: سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء؟

فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار..

قال: هذا الموت الأحمر.. والله ما لأحد بهؤلاء من قبلٍ ولا طاقة..

ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيمًا !

قال العباس: يا أبا سفيان.. إنها النبوة..

فقال أبو سفيان: فنعم إذن..

فلما تجاوزتهم الخيل.. صاح به العباس.. النجاءَ إلى قومك.. فمضى أبو سفيان سريعًا إلى مكة.. وجعل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش.. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به.. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن..

قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.. ومن دخل المسجد فهو آمن..

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.. فلله در نبيه ﷺ كيف أثر في نفس أبي سفيان بما يصلح له..

ومما يحسن هنا.. أن تعرف طبيعة الشخص ونفسيته قبل أن تتكلم معه.. فإن معرفة طبيعته.. وماذا يناسبه.. يفيدك عند التعامل أو الكلام معه..

في غزوة الحديبية.. خرج رسول الله ﷺ.. بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب.. كانوا ألفًا وأربعمائة..

ساقوا معهم الهدي وأحرموا بالعمرة ليعلم الناس أنهم إنما خرجوا زائرين لهذا البيت معظمين له..

وساق ﷺ معه سبعين من الإبل.. هديًا إلى البيت الحرام.. وصلوا مكة.. فمنعتهم قريش من دخولها.. عسكر النبي ﷺ بأصحابه في موضع اسمه

الحديبية.. جعلت قريش ترسل إليه الرجل تلو الرجل للتفاوض معه..

فبعثوا إليه أولاً مكرز بن حفص.. كان مكرز رجلاً من قريش.. لكنه لا يلتزم بعهد ولا ميثاق.. بل هو فاجر غادر.. فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر».. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ.. كلمه بما يصلح لمثله.. وأخبره أنه ما جاء يريد حربًا.. إنما جاء معتمرًا.. ولم يكتب معه عهدًا لأنه يعلم أنه ليس أهلاً لذلك..

رجع مكرز إلى قريش كما ذهب من غير نتيجة.. فبعثوا حليس بن علقمة.. سيد الأحابيش.. وكان الأحابيش قوم من العرب سكنوا مكة تعظيمًا للحرم وعناية بالكعبة..

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون».. أي: يتعبدون.. فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه.. فلما رأى الهدي من إبل وغنم.. تسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وحباله مربوطًا مهيئًا ليذبح في الحرم.. قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله.. قد أضناه الجوع والعطش.. لما رأى سيد الأحابيش ذلك.. انتفض.. ولم يقابل رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى.. وكيف يمنع المعتمرون عن البيت الحرام!! رجع إلى قريش.. فقال لهم ذلك..

فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك..

فغضب الحليس.. وقال: يا معشر قريش.. والله ما على هذا حالفناكم.. ولا على هذا عاهدناكم.. أيصد عن بيت الله من جاءه معظمًا له؟

والذي نفس الحليس بيده.. لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له من العمرة.. أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد..

قالوا: مَهْ.. كُفَّ عنا.. حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.. ثم أرادوا.. أن يبعثوا رجلاً شريفًا فاختاروا عروة بن مسعود الثقفي..

فقال: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم.. من التعنيف وسوء اللفظ.. وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد..

قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم..

فخرج عروة.. وكان ملكًا في قومه.. له شرف ومكانة.. وله ترفُّع على الناس.. فلما أتى رسول الله ﷺ جلس بين يديه ثم قال:

يا محمد!! أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش.. قد خرجت معها العوذ المطافيل.. قد لبسوا جلود النمور.. يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا.. وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا..

وكان أبو بكر خلف النبي ﷺ.. واقفًا..

فقال أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟

تفاجأ مَلِكُ قومه بهذا الجواب.. فلم يتعود على مثله.. لكنه في الحقيقة كان يحتاج إلى جرعة كهذه تخفض ما في رأسه من كبرياء..

فقال عروة متأثرًا: من هذا يا محمد؟

قال: «هذا ابن أبي قحافة»..

قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكفأتك بها.. ولكن هذه بهذه..

وجعل عروة يلين العبارات بعدها.. ويكلم النبي ﷺ.. ويلمس لحية النبي.. والمغيرة بن شعبة الثقفي واقف وراء رأس رسول الله ﷺ.. قد غطى وجهه الحديد.. فكان كلما قرب عروة يده من لحية رسول الله ﷺ.. قرعها شعبة بطرف السيف.. ثم يمدها ثانية.. فيقرعها شعبة بطرف السيف..

فلما مدها الثالثة.. قال شعبة: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك يدك.. أي أقطعها!!

فقال عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك! ومن هذا يا محمد؟

فتبسم رسول الله ﷺ.. وقال «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة الثقفي»..

فقال عروة: أيْ غُدَرُ وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس! ثم قام عروة من عند النبي ﷺ.. وعاد إلى قريش..

فاسمع ما قال:

قال: يا معشر قريش.. والله لقد رأيت كسرى وقيصر والنجاشي.. والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدًا..

فوقع في قلب قريش من الرهبة ما لم يقع من قبل.. فأرسلت قريش سهيل بن عمرو..

فمضى يمشي إلى رسول الله ﷺ..

فلما رآه رسول الله ﷺ.. قال: «سهل أمركم».. ثم كتبوا بينهم صلح الحديبية..

هذا جانب من معرفته ﷺ لأنواع الناس.. واستعمال المفتاح المناسب في التعامل مع كل أحد..

وهذه الأنواع من طباع الناس تلاحظها حتى في إلقاء الكلمات أو السواليف معهم.. ويمكنك أن تشاهد دليل ذلك بنفسك..

حاول أن تلقي قصة مبكية أمام جمع من الناس.. وانظر إلى أنواع تأثرهم.. أذكر أني ألقيت يومًا خطبة ضَمّنتها قصة مقتل عمر رضي الله عنه..

ولما وصلتُ إلى كيفية طعن أبي لؤلؤة المجوسي لعمر رضي الله عنه.. قلت -بصوت عالٍ-: وفجأة خرج أبو لؤلؤة من المحراب على عمر.. ثم طعنه ثلاث طعنات..

وقعت الأولى في صدره والثانية في بطنه.. ثم استجمع قوته وطعن بالخنجر تحت سرته.. ثم جررررر الخنجر حتى خرجت بعض أمعائه.. لاحظتُ وأنا أنظر في الوجوه أن الناس تنوعوا في كيفية تأثرهم..

فمنهم من أغمض عينيه فجأة وكأنه يرى الجريمة أمامه.. ومنهم من بكى.. ومنهم من كان يستمع دون أدنى تأثر وكأنه ينصت إلى حكاية ما قبل النوم!!

قل مثل ذلك لو عرضت قصة حمزة رضي الله عنه لما وقع شهيدًا في معركة أحد.. وكيف شقوا بطنه فأخرجوا كبده.. وقطعوا أذنيه.. وجدعوا أنفه.. وهو سيد الشهداء وأسد الله ورسوله..

وعمومًا.. علمتني الحياة أن الناس لا يخلون من أن يوجد من بينهم غليظ غبي..!! لا يحسن ضبط عباراته.. ولا مجاملة السامعين..

أذكر أن رجلاً من هذا الصنف جلس مرة في مجلس عام.. فذكر قصة وقعت له مع أحد البائعين.. فقال في معرض حديثه:

وهذا البائع ضخم جدًا كأنه حمار.. ثم قال: يشبه خالد!!

وأشار إلى رجل بجانبه!!

فلا أدري كيف صار يشبه خالدًا.. وهو كأنه حمار!!

وقبل الختام.. هنا سؤال كبير.. هل يمكنك تغيير طباعك لتتناسب مع طباع من تخالطه..؟

نعم..

كان عمر ﷺ مشهورًا بين الناس بقوته وصرامته.. وفي يوم من الأيام.. اختلف رجل مع زوجته.. وجاء يسأل عمر كيف يتعامل معها..

فلما وقف عند بيت عمر ومدّ يده ليطرق الباب سمع زوجة عمر تصرخ به.. وعمر ساكت.. لم يصرخ.. لم يضرب..

فولى الرجل ظهره للباب وكرّ راجعًا متعجبًا..

أحس عمر بصوت عند الباب فخرج ونادى الرجل: .. ما خبرك؟

قال: يا أمير المؤمنين.. جئت أشتكي إليك امرأتي فسمعت امرأتك تصرخ بك!!

فقال عمر: يا رجل إنها امرأتي.. حليلة فراشي.. وصانعة طعامي.. وغاسلة ثيابي.. أفلا أصبر منها على بعض السوء..

وعمومًا: بعض الناس لا علاج له فلابد من التكيف معه.. يشتكي إليّ بعض الناس من شدة غضب أبيه.. أو بخل زوجته.. أو..

فأعرضُ عليه بعض طرق العلاج فيفيدني أنه جربها كلها ولم تنفع.. فما الحل؟!

الحل أن يصبر على أخلاقهم.. ويغمرَ سيئ أخلاقهم في بحر حَسَنِها.. ويتكيف مع واقعه قدر المستطاع..

فبعض المشاكل ليس لها حل..

نتيجة . .

معرفتك بطبيعة الشخص الذي تخالطه

تجعلك قادرًا على كسب محبته..

شعرة معاوية!!

كان يُدَرّس مادة الرياضيات لطلاب المرحلة الثانوية.. السنة الأخيرة.. كان يلاحظ على عدد منهم الإهمال وعدم المتابعة.. فأراد أن يؤدبهم..

دخل عليهم يومًا.. وأول ما استقر على كرسيه فاجأهم بقوله: كل واحد يضع كتابه جانبًا ويخرج ورقة وقلمًا!!

قالوا: لماذا يا أستاذ؟!

قال: اختبار.. اختبار مفاجئ..

بدأ الطلاب بنوع من التذمر ينفذون ما طلب.. ويتهامسون باستياء.. كان من بينهم طالب كبير الجسم صغير العقل..

مشاكس كثير المشاكل سريع الغضب متهور.. صاح بأستاذه: يا أستاذ.. لا نريد أن نختبر.. نحن بالكاد نجيب ونحن مذاكرون.. بالله كيف إذا كنا ما ذاكرنا؟!!

قالها الطالب بنبرة حادة.. ثار المدرس وهاج..

وقال: ليس على كيفك.. تختبر غصبًا عنك.. فاهم؟!

إذا ما هو عاجبك اطلع بَرّا!!

ثار الطالب.. وصاح: أنت اللي تطلع بَرّا..

توجه المدرس إلى الطالب وهو يصيح ويردد: يا قليل الأدب.. يا عديم التربية.. يا.. ويقترب أكثر وأكثر..

نهض الطالب واقفًا..

ثم.. كان ما كان مما لست أذكره فظن شرًا، ولا تسأل عن الخبر!!

وصل الأمر إلى إدارة المدرسة.. عوقب الطالب بخصم درجتين وكتابة تعهد بالتزام الأدب..

أما المدرس فصار حديث القاصي والداني.. وأصبح مضرب الأمثال.. ومثار

أحاديث الطلاب في كل المدرسة.. يمشي في ممراتها ويسمع التعليقات والهمسات.. حتى انتقل بعدها إلى مدرسة أخرى..

بينما مدرس آخر وقع له الموقف نفسه لكنه أحسن التصرف معه.. دخل على طلابه.. وفاجأهم بقوله: أخرج ورقة وقلمًا.. اختبار مفاجئ..

وكان من بينهم طالب كذاك الطالب.. صاح: يا أستاذ!! ليس على كيفك..

كان المدرس جبلاً يحس بثقل الرجل التي تحاول أن تصعد عليه!!..

يفهم أن العصبي لا يقابل بعصبية.. ابتسم ونظر إلى الطالب وقال: يعني يا خالد ما تريد أن تختبر؟

فقال -صارخًا-: لا..

فقال المدرس بكل هدوووء: خلاص.. الذي ما يريد أن يختبر نتعامل معه بالنظام..

اكتبوا يا شباب: السؤال الأول: أوجد نتيجة هذه المعادلة: س + ص = ع + ١٥.. ومضى يسوق الأسئلة..

لم يصبر الطالب المشاكس وقال: أقول لك ما أريد أن أختبر.. نظر إليه المدرس وابتسم بهدوووء..

وقال: وهل ألزمتك أن تختبر.. أنت رجل ومسئول عن تصرفاتك..

لم يجد الطالب ما يثير غضبه أكثر.. فهدأ وأخرج ورقة وقلمًا.. وبدأ يكتب الأسئلة مع زملائه.. ثم بعدها تمت محاسبته على سوء أدبه عن طريق إدارة المدرسة.. تذكرت هذه القصة الافتراضية وتذكرتُ المفارقة في القدرة على التعامل مع المواقف وأنا أتأمل في مهارات الناس على إذكاء النيران وإخمادها..

فالتعامل مع العصبي بعصبية يؤدي إلى تفجر الموقف واحتدام الخلاف.. فمن الأمور المسلّمة عند العقلاء.. أن من يلاقي النار بالنار يزدها شررًا واحتدامًا.. وفي الجهة المقابلة تجد أحيانًا أن من يقابل البرود -دائمًا- ببرود.. لا تستقيم له الأمور.. فليكن رابطك مع الناس شعرة معاوية..

فقد سئل معاوية رضي الله عنه كيف استطعت أن تحكم الناس أميرًا عشرين سنة.. ثم تحكمهم خليفة عشرين سنة؟

فقال: جعلت بيني وبينهم شعرة.. أحد طرفيها في يدي والآخر في أيديهم..

فإذا شدوها من جهتهم أرخيت من جهتي حتى لا تنقطع.. وإذا أرخوا من جهتهم شددت من جهتي.. صدق رضي الله عنه.. ما أحكمه!!

أظن من المسلّمات في حياتنا أنه لا يمكن أن يهنأ بالعيش زوجان كلاهما عصبي غضوب.. كما لا يمكن أن تطول علاقة صاحبين كلاهما كذلك..

أذكر أني ألقيت محاضرة في أحد السجون.. وكان قدَري أن تكون المحاضرة في العنبر الخاص بمرتكبي جرائم القتل..

لما انتهيت من محاضرتي.. تفرقوا إلى مهاجعهم وأقبل إليَّ أحدهم شاكرًا.. وعرفني بنفسه وأنه المسئول عن الأنشطة الثقافية في العنبر..

سألته عن سبب ارتكاب جريمة القتل عند أكثر هؤلاء.. فقال: الغضب.. الغضب.. والله يا شيخ إن بعضهم قتل لأجل حفنة ريالات تخاصم عليها مع عامل في بقالة أو محطة وقود..

تذكرت عندها قول النبي ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرَعَة.. إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (٢٩)..

نعم ليس البطل هو قوي البدن الذي ما يصارع أحدًا إلا غلبه.. لا.. فلو كان هذا هو مقياس البطولة لأصبحت الحيوانات والوحوش أفخر من الآدميين..

إنما البطل هو العاقل الذي يعرف كيف يتعامل مع المواقف بمهارة.. يتعامل مع زوجته.. أولاده.. مديره.. زملائه.. دون أن يفقدهم..

وفي الحديث: «لا يقضي القاضي وهو غضبان» (٣٠).. وأمر ﷺ بتدريب النفس على الحلم فقال: «إنما الحلم بالتحلم» (٣١)..

---

(٢٩) متفق عليه.

(٣٠) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣١) رواه الدارقطني في الأفراد وهو حسن.

نعم بالتحلم.. يعني: عند كظم الغضب في المرة الأولى ستتعب ١٠٠٪ ولكن في الثانية ستتعب ٩٠٪ ثم في الثالثة إذا كظمت غضبك ستتعب ٨٠٪ وهكذا حتى تتدرب ويصبح الحلم والهدوء عندك طبيعة..

ومن طرائف قصص الغضب أني ذهبت يومًا لمدينة أملج (٣٠٠ ك جنوب جدة) لإلقاء محاضرة.. كان من بين الحاضرين شاب سريع الغضب ثائر الأعصاب جدًا.. هذا الشاب سافر مرة بسيارته ولم يكن مستعجلاً فكان يمشي ببطء..

كان وراءه سيارة مسرعة تريده أن يفسح لها الطريق.. وهو يزداد بطئًا ويشير لهم بيده أن خففوا السرعة..

ضاق صاحب السيارة الأخرى بصاحبنا ذرعًا.. وتعداه بسرعة وانحرف عليه بسيارته مؤدبًا.. ثم مضى.. ولم يصب أحد منهما بضرر..

ثارت أعصاب صاحبنا - وهي تثور على أقل من ذلك بكثيييير - فزاد سرعة سيارته.. وأخذ يصرخ ويزمجر.. ويشير لهم بأضواء السيارة مرارًا حتى توقفوا..

فألقى غترته جانبًا.. وتناول قطعة حديد - هي في الأصل مفك لفتح براغي العجلات عند الحاجة -.. ونزل من السيارة متوجهًا إليهم.. والغضب باد عليه وقطعة الحديد في يده.. فإذا بالسيارة المقابلة ينزل منها ثلاثة شباب قد ضاقت ملابسهم بعضلاتهم.. وتباعدت أيديهم عن جنوبهم من عرض أكتافهم..

أقبلوا يركضون بانفعال إلى صاحبنا.. وقد رأوه تهيأ للقتال!!

فلما رآهم انتفض.. وغص بريقه.. وهم ينظرون إليه وإلى ما في يده..

فلما لاحظ أنهم يحدون النظر إلى قطعة الحديد..

رفعها برفق وقال: عفوًا.. أردت أن أنبهكم إلى أن هذه سقطت منكم..!!

فتناولها أحدهم بانفعال.. وولوا إلى سيارتهم.. وهو يشير بيده إليهم مودعًا..!!

معادلة..

عصبي + عصبي = انفجار

مفاتيح القلوب..

كل باب له مفتاح.. والمفتاح المناسب لفتح قلوب الناس هو معرفة طبائعهم.. حل مشاكل الناس.. الإصلاح بينهم.. الاستفادة منهم.. اتقاء شرورهم.. كل ذلك تصبح فيه بارعًا إذا عرفت طبائعهم..

افرض أن شابًا وقع بينه وبين أبيه خلاف.. اشتد الخلاف حتى طرده أبوه من البيت.. حاول الابن العودة مرارًا لكن الأب كان عنيدًا مصرًا..

دخلت للإصلاح بينهما.. حدثت الأب بالنصوص الشرعية.. خوفته من إثم القطيعة..

لم يلتفت إليك.. كان مشحونًا غاضبًا جدًا.. أردت أن تستعمل أساليب أخرى للإصلاح.. عرفت من طبيعة هذا الأب أنه عاطفي جدًا..

جئت إليه وقلت: يا فلان.. أما ترحم ولدك.. يفترش الأرض.. ويلتحف السماء..!! أنت تأكل وتشرب.. والمسكين يبيت طاويًا ويصبح جائعًا..

أما تذكره إذا رفعت كسرة الخبز إلى فمك.. أما تذكر مشيه في حر الشمس.. أما تذكر لما كنت تحمله صغيرًا.. وتضمه إلى صدرك.. وتشمه وتقبله..

أيرضيك أن يستجدي الناس وأبوه حي!!.. تجد أن عاطفة الأب تهيج بهذه الكلام.. ويقترب أكثر من نقطة الالتقاء.. وإن كان أبوه بخيلاً محبًا للمال..

قلت له: يا فلان انتبه لا تورط نفسك.. أرجع الولد تحت نظرك وتصرفك.. أخشى أن يسرق أو يعتدي.. فتلزمك المحكمة بسداد ما أخذ.. وإصلاح ما خرب.. فأنت أبوه على كل حال..

انتبه.. تجد أن الأب البخيل سيبدأ يعيد موازينه من جديد.. وإن كان كلامك موجهًا إلى الابن.. وكان جشعًا محبًا للمال..

قلت له: يا فلان.. لن ينفعك إلا أبوك.. غدًا ستحتاج أن تتزوج.. من يسدد مهرك؟

لو تعطلت سيارتك من يصلحها؟

لو مرضت.. من سيحاسب المستشفى؟

إخوانك يستفيدون كما شاءوا.. مصروف.. هدايا.. وأنت جالس هكذا.. ما يضرك أن تصلح ذلك كله بقبلة تطبعها على جبين أبيك.. أو كلمة أسف تهمس بها في أذنه..

وكذلك لو دخلت للإصلاح بين زوجة وزوجها.. فعلت مثل ذلك.. وفتحت باب كل واحد منهما بالمفتاح المناسب..

ومثله لو أردت إجازة من مديرك في العمل.. وعرفت أنه لا يلتفت إلى العواطف ولا الأمور الاجتماعية..

وإنما عمل (وبس!)..

فقلت له: أحتاج إلى إجازة ثلاثة أيام أجدد فيها نشاطي.. وأستعيد حيويتي.. أشعر أن إنتاجيتي مع ضغط العمل تنحدر تدريجيًا.. أعطني فرصة لإراحة (رأسي) فقط ثلاثة أيام.. لأعود أنشط وأقدر..

وإن كان اجتماعيًا.. تلحظ من خلال تعاملاته.. أنه حريص على الأسرة والعائلة..

قلت له: أريد إجازة لأرى والديَّ.. أولادي.. أشعر أنهم في واد وأنا في واد آخر.. إلى غير ذلك..

أتقن هذه المهارة.. وستسمع الناس غدًا يقولون: ما رأينا أبرع فلانًا في القدرة على الإقناع..!!

نتيجة..

كل إنسان له مفتاح..

ومعرفة طبيعة الإنسان تدلك على معرفة مفتاحه المناسب..

مراعاة النفسيات..

تتقلب أمزجة الناس في حياتهم بين حزن وفرح.. وصحة ومرض.. وغنى وفقر.. واستقرار واضطراب.. وبالتالي يتنوع تقبلهم لبعض الأنواع من التعاملات.. أو ردهم لها بحسب حالتهم الشعورية وقت التعامل.. فقد يقبل منك النكتة والطرفة ويتقبل المزاح في وقت استقراره وراحة باله.. لكنه لا يتقبل ذلك في وقت حزنه.. فمن غير المناسب أن تطلق ضحكة مدوية في عزاء..!! لكنها تحتمل منك في نزهة برية.. وهذا أمر مقرر عند جميع العقلاء وليس هو المقصود بحديثي هنا.. إنما المقصود هو مراعاة النفسيات والمشاعر الشخصية عند الحديث مع الناس أو التصرف معهم..

افرض أن امرأة طلقها زوجها وليس لها أب ولا أم.. قد ماتا.. وجعلت تجمع أغراضها لتعيش مع أخيها وزوجته..

فبينما هي كذلك إذا دخلت عليها جارتها في الضحى زائرة.. فرحبت المطلقة بها.. ووضعت لها القهوة والشاي.. فجعلت الزائرة تبحث عن أحاديث لتؤانسها.. فسألتها المطلقة: بالأمس رأيتكم خارجين من المنزل..

فقالت الجارة: إي والله.. أبو فلان - تعني زوجها- أصرّ على أن نتعشى خارج البيت فذهبت معه.. ثم مر السوق واشترى لي فستانًا لعرس أختي.. ثم وقف عند محل ذهب ونزل واشترى لي سوارًا ألبسه في العرس..

ولما رجعنا إلى البيت رأى الأولاد في ملل فوعدهم آخر الأسبوع أن يسافر بهم.. والمطلقة المسكينة تستمع إلى ذلك وتتخيل حالها بعد قليل في بيت زوجة أخيها!!

السؤال: هل يناسب إثارة هذا النوع من الأحاديث مع امرأة فشلت في مشروع الزواج؟!! هل تظن أن هذه المطلقة ستزداد محبة لهذه الجارة؟.. ورغبة في مجالستها دائمًا؟.. وفرحًا بزيارتها لها؟.. نتفق جميعًا على جواب واحد نصرخ به قائلين: لا!!!!!.. بل سيمتلئ قلبها حقدًا وقهرًا..

إذا ما الحل؟ هل تكذب عليها؟

لا.. ولكن تتكلم باختصار.. كأن تقول: والله كان عندنا بعض الأشغال

قضيناها.. ثم تصرف الكلام إلى موضوع آخر تصبرها به على كربتها..

أو افرض.. أن صديقين اختبرا نهاية المرحلة الثانوية.. فنجح أحدهما وتخرج بتفوق.. والثاني رسب في عدد من المواد.. أو تخرج بنسبة ضعيفة لا تؤهله للقبول في شيء من الجامعات.. فهل ترى من المناسب عندما يزور المتفوق صاحبه أن يسهب في الحديث حول الجامعات التي تم قبوله فيها.. والميزات التي ستمنح له..؟

قطعًا جوابنا جميعًا: لا.. إذًا ما الحل؟

الحل أن يذكر له عموميات يخفف بها عنه.. كأن يشتكي من كثرة الزحام في الجامعات.. وقلة القبول.. وخوف كثير من المتقدمين إليها من عدم القبول.. حتى يخفف عن صاحبه مصابه.. فيرغب عند ذلك في مجالسته أكثر.. ويحبه ويأنس بقربه.. ويشعر أنه قريب من قلبه..

وقل مثل ذلك لو التقى شابان أحدهما أبوه كريم يغدق عليه الأموال.. والآخر أبوه بخيل لا يكاد يعطيه ما يكفيه.. فمن غير المناسب أن يتحدث ابن الكريم بإغداق أبيه عليه.. وكثرة المال لديه.. و.. لأن هذا النوع من الكلام يضيق به صدر صديقه.. ويذكره بمأساته مع أبيه.. ويستثقل الجلوس مع هذا الصديق ويشعر ببعده عنه في همه..

لذلك نبه النبي ﷺ إلى مراعاة مشاعر الآخرين ونفسياتهم.. فقال: «لا تطيلوا النظر إلى المجذوم»[٣٢] .. والمجذوم هو المصاب بمرض ظاهر في جلده قد جعله مشوهًا في منظره.. فمن غير المناسب أنه إذا مر بقوم أن يطيلوا النظر إلى جلده.. لأن هذا يذكره بمصيبته فيحزن..

وفي موقف غاية في المراعاة واللطف يتعامل ﷺ مع والد أبي بكر رضي الله عنه.. فإنه ﷺ لما أقبل بجيوش المسلمين إلى مكة لفتحها..

قال أبو قحافة أبو أبي بكر رضي الله عنه.. وكان شيخًا كبيرًا.. أعمى.. قال لابنة له من أصغر ولده: أي بنية.. اظهري بي على جبل أبي قبيس لأنظر صدق ما يقولون.. هل جاء محمد؟.. فأشرفت به ابنته فوق الجبل.. فقال: أي بنية ماذا ترين؟

قالت: أرى سوادًا مجتمعًا مقبلاً.

(٣٢) رواه ابن ماجة وهو صحيح.

قال: تلك الخيل..

قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومدبرًا.

قال: أي بنية ذلك الوازع الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها..

ثم قالت: قد والله يا أبت انتشر السواد..

فقال: قد والله إذًا دفعت الخيل ووصلت مكة.. فأسرعي بي إلى بيتي.. فإنهم يقولون من دخل داره فهو آمن..

فانحطت الفتاة به مسرعة من الجبل.. فتلقته خيل المسلمين.. قبل أن يصل إلى بيته.. فأقبل أبو بكر إليه.. فاحتفى به مرحبًا.. ثم أخذ بيده يقوده.. حتى أتى به رسول الله ﷺ في المسجد..

فلما رآه رسول الله ﷺ.. فإذا شيخ كبير.. قد ضعف جسمه.. ورق عظمه.. واقتربت منيته.. وإذا أبو بكر رضي الله عنه ينظر إلى أبيه.. وقد فارقه منذ سنين.. وانشغل عنه بخدمة هذا الدين..

التفت إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال مطيبًا لنفسه.. ومبينًا قدره الرفيع عنده: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟!

كان أبو بكر يعلم أنهم في حرب.. قائدهم رسول الله ﷺ. وأن وقته أضيق.. وأشغاله أكثر من أن يتفرغ للذهاب لبيت شيخ يدعوه للإسلام..

فقال أبو بكر شاكرًا: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك.. من أن تمشي أنت إليه.. فأجلس النبي عليه الصلاة والسلام.. أبا قحافة بين يديه.. بكل لطف وحنان.. ثم مسح على صدره.. ثم قال: «أسلم»..

فأشرق وجه أبي قحافة.. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. انتفض أبو بكر منتشيًا مسرورًا.. لم تسعه الدنيا فرحًا.. تأمل النبي ﷺ في وجه الشيخ.. فإذا الشيب يكسوه بياضًا.. فقال ﷺ غيروا هذا من شعره.. ولا تقربوه سوادًا.. نعم كان يراعي النفسيات في تعامله.. بل إنه ﷺ لما دخل مكة قسم جيشه إلى كتائب.. وأعطى راية إحدى الكتائب.. إلى الصحابي البطل سعد بن عبادة رضي الله عنه.. كانت الراية مفخرة لمن يحملها.. ليس له فقط بل له ولقومه.. جعل سعد ينظر إلى

مكة وسكانها.. فإذا هم الذين حاربوا رسول الله ﷺ.. وضيقوا عليه.. وصدوا عنه الناس.. وإذا هم الذين قتلوا سمية وياسر.. وعذبوا بلالاً وخبابًا.. كانوا يستحقون التأديب فعلاً.. هز سعد الراية.. وهو يقول:

اليوم يوم الملحمة — اليوم تستحل الحرمة..

سمعته قريش فشق ذلك عليهم.. وكبر في أنفسهم.. وخافوا أن يفنيهم بقتالهم.. فعارضت امرأة رسول الله ﷺ وهو يسير.. فشكت إليه خوفهم من سعد.. وقالت:

يا نبي الهدى إليك لجائيُّ قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء
إن سعدًا يريد قاسمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجي لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر والعواء
فانهينه إنه الأسد الأسود والليث والغ في الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش بقعة القاع في أكف الإماء
إنه مصلت يريد لها القتل صموت كالحية الصماء

فلما سمع رسول الله ﷺ.. هذا الشعر.. دخله رحمة ورأفة بهم.. وأحب ألا يخيبها إذ رغبت إليه.. وأحب ألا يغضب سعدًا بأخذ الراية منه بعد أن شرفه بها..

فأمر سعدًا فناول الراية لابنه قيس بن سعد.. فدخل بها مكة.. وأبوه سعد يمشي بجانبه.. فرضيت المرأة وقريش لما رأت يد سعد خالية من الراية.. ولم يغضب سعد لأنه بقي قائدًا لكنه أريح من عناء حمل الراية وحملها عنه ابنه.. فما أجمل أن نصيد عدة عصافير بحجر واحد..

حاول أن لا تفقد أحدًا.. كن ناجحًا واكسب الجميع.. وإن تعارضت مطالبهم..

اتفاق..

نحن نتعامل مع القلوب.. لا مع الأبدان..

اهتم بالآخرين..

الناس عمومًا يحبون أن يشعروا بقيمتهم.. لذا تجدهم أحيانًا يقومون ببعض التصرفات ليلفتوا النظر إليهم..! وقد يخترعون قصصًا وبطولات لأجل أن يهتم الناس بهم أو يعجبوا بهم أكثر..

لو رجع رجل إلى بيته قادمًا من عمله متعبًا.. فلما دخل صالة البيت رأى أولاده الأربعة كل منهم على حال.. أكبرهم عمره إحدى عشرة سنة.. يتابع برنامجًا في التلفاز.. والثاني يأكل طعامًا بين يديه.. والثالث يعبث بألعابه.. والرابع يكتب في دفاتره..

فسلم الأب بصوت مسموع.. السلام عليكم.. فلم يلتفت إليه أحد.. ذاك منهمك مع برنامجه.. والثاني مأخوذ بألعابه.. والثالث مشغول بطعامه.. إلا الرابع.. فإنه لما التفت فرأى أباه.. نفض يده من دفاتره وأقبل مُرحِّبًا ضاحكًا.. وقبل يد أبيه.. ثم رجع إلى دفاتره..

أي هؤلاء الأربعة سيكون أحب إلى الأب؟

أجزم أن جوابنا سيكون واحدًا: أحبهم إليه الرابع.. ليس لأنه يفوقهم جمالاً أو ذكاءً.. وإنما لأنه أشعر أباه بأنه إنسان مهمٌ عنده.. كلما أظهرت الاهتمام بالناس أكثر.. كلما ازدادوا لك حبًّا وتقديرًا..

كان سيد الخلق ﷺ يراعي ذلك في الناس.. يشعر كل إنسان أن قضيته قضيته.. وهمه همه.. قام ﷺ على منبره يومًا يخطب الناس.. فدخل رجل من باب المسجد.. ونظر إلى رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله.. رجل يسأل عن دينه.. ما يدري ما دينه؟!

فالتفت ﷺ إليه.. فإذا رجل أعرابي.. قد لا يكون مستعدًا أن ينتظر حتى تنتهي الخطبة.. ويتفرغ له النبي ﷺ ليحدثه عن دينه.. وقد يخرج الرجل من المسجد ولا يعود إليه..

وقد بلغ الأمر عند الرجل أهمية عالية.. لدرجة أنه يقطع الخطبة ليسأل

عن أحكام الدين!! كان ﷺ يفكر من وجهة نظر الآخر لا من وجهة نظره الشخصية فقط..

نزل من على منبره الشريف.. ودعا بكرسي فجلس أمام الرجل.. وجعل يلقنه ويفهمه أحكام الدين.. حتى فهم.. ثم قام من عنده.. ورجع إلى منبره وأكمل خطبته.. آآآه ما أعظمه وأحلمه.. تربى أصحابه في مدرسته.. فكانوا يظهرون الاهتمام بالآخرين.. والاحتفاء بهم.. ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم..

ومن ذلك ما فعله طلحة مع كعب رضي الله عنه.. كعب بن مالك رضي الله عنه شيخ كبير.. نجلس إليه.. بعدما كبر سنه.. ورق عظمه.. وكف بصره.. وهو يحكي ذكريات شبابه.. في تخلفه عن غزوة تبوك..

وكانت آخر غزوة غزاها النبي ﷺ.. آذن النبي ﷺ الناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم.. وجمع منهم النفقات لتجهيز الجيش.. حتى بلغ عدد الجيش ثلاثين ألفًا.. وذلك حين طابت الظلال الثمار.. في حر شديد.. وسفر بعيد.. وعدو قوي عنيد.. كان عدد المسلمين كثيرًا.. ولم تكن أسماؤهم مجموعة في كتاب..

قال كعب: وأنا أيسر ما كنت.. قد جمعت راحلتين.. وأنا أقدَرُ شيء في نفسي على الجهاد..

وأنا في ذلك أصغي إلى الظلال.. وطيب الثمار.. فلم أزل كذلك.. حتى قام رسول ﷺ غاديًا بالغداة..

فقلت: أنطلق غدًا إلى السوق فأشتري جهازي.. ثم ألحق بهم.. فانطلقت إلى السوق من الغد.. فعسر علي بعض شأني.. فرجعت..

فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله فألحق بهم.. فعسر عليَّ بعض شأني أيضًا..

فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله.. فلم أزل كذلك.. حتى مضت الأيام.. وتخلفت عن رسول الله ﷺ.. فجعلت أمشي في الأسواق.. وأطوف بالمدينة.. فلا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق.. أو رجلاً قد عذره الله..

نعم تخلف كعب في المدينة.. أما رسول الله ﷺ فقد مضى بأصحابه الثلاثين ألفًا.. حتى إذا وصل تبوك.. نظر في وجوه أصحابه.. فإذا هو يفقد رجلاً

صالحًا ممن شهدوا بيعة العقبة..

فيقول ﷺ: «ما فعل كعب بن مالك؟!»

فقال رجل: يا رسول الله.. خلّفه برداه والنظر في عطفيه..

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت.. والله يا نبي الله ما علمنا عليه إلا خيرًا.. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب: فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك.. وأقبل راجعًا إلى المدينة.. جعلت أتذكر.. بماذا أخرج به من سخطه.. وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.. حتى إذا وصل المدينة.. عرفتُ أني لا أنجو إلا بالصدق..

فدخل النبي ﷺ المدينة.. فبدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين.. ثم جلس للناس.. فجاءه المخلفون.. فطفقوا يعتذرون إليه.. ويحلفون له.. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً.. فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم.. واستغفر لهم.. ووكل سرائرهم إلى الله..

وجاءه كعب بن مالك.. فلما سلم عليه.. نظر إليه النبي ﷺ.. ثم تبسّم تبسُّم المغضب.. أقبل كعب يمشي إليه ﷺ.. فلما جلس بين يديه..

فقال له ﷺ: «ما خلفك.. ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» يعني: اشتريت دابتك..

قال: بلى..

قال: «فما خلفك؟!».

فقال كعب: يا رسول الله.. إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا.. لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر.. ولقد أعطيت جدلاً.. ولكني والله لقد علمت.. أني إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي.. ليوشكن الله أن يسخطك علي.. ولئن حدثتك حديث صدق.. تجد عليَّ فيه.. إني لأرجو فيه عفوَ الله عني.. يا رسول الله.. والله ما كان لي من عذر.. والله ما كنت قط أقوى.. ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.. ثم سكت كعب.. فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه.. وقال: «أما هذا.. فقد صدقكم الحديث.. فقم.. حتى يقضي الله فيك».. قام كعب يجر خطاه.. وخرج من المسجد.. مهمومًا مكروبًا.. لا يدري ما يقضي الله فيه..

فلما رأى قومه ذلك.. تبعه رجال منهم.. وأخذوا يلومونه.. ويقولون: والله ما

نعلمك أذنبت ذنبًا قط قبل هذا.. إنك رجل شاعر أعجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون؟!.. هلا اعتذرت بعذر يرضى عنك فيه.. ثم يستغفر لك.. فيغفر الله لك..

قال كعب: فلم يزالوا يؤنبونني.. حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي..

فقلت: هل لقي معي أحد؟

قالوا: نعم.. رجلان قالا مثل ما قلت.. فقيل لهما مثل ما قيل لك..

قلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن الربيع.. وهلال بن أمية..

فإذا هما رجلان صالحان قد شهدا بدرًا.. لي فيهما أسوة..

فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبدًا.. ولا أكذب نفسي..

ثم مضى كعب رضي الله عنه يسير حزينًا.. كسير النفس.. وقعد في بيته.. فلم يمض وقت.. حتى نهى النبي ﷺ الناس عن كلام كعب وصاحبيه..

قال كعب: فاجتنبنا الناس.. وتغيروا لنا.. فجعلت أخرج إلى السوق.. فلا يكلمني أحد.. وتنكر لنا الناس.. حتى ما هم بالذين نعرف.. وتنكرت لنا الحيطان.. حتى ما هي بالحيطان التي نعرف.. وتنكرت لنا الأرض.. حتى ما هي بالأرض التي نعرف.. فأما صاحباي فجلسا في بيوتهما يبكيان.. جعلا يبكيان الليل والنهار.. ولا يطلعان رؤوسهما.. ويتعبدان كأنهما الرهبان.. وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم.. فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.. وأطوف في الأسواق.. ولا يكلمني أحد..

وآتي المسجد فأدخل.. وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه.. فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه.. فأسارقه النظر.. فإذا أقبلت على صلاتي.. أقبل إليَّ.. وإذا التفتُّ نحوه.. أعرض عني..

ومضت على كعب الأيام.. والآلام تلد الآلام.. وهو الرجل الشريف في قومه.. بل هو من أبلغ الشعراء.. عرفه الملوك والأمراء.. وسارت أشعاره عند العظماء.. حتى تمنوا لقياه..

ثم هو اليوم.. في المدينة.. بين قومه.. لا أحد يكلمه.. ولا ينظر إليه..

حتى.. إذا اشتدت عليه الغربة.. وضاقت عليه الكربة..

نزل به امتحان آخر: فبينما هو يطوف في السوق يومًا.. إذا رجل نصراني جاء من الشام.. فإذا هو يقول: من يدلني على كعب بن مالك..؟

فطفق الناس يشيرون له إلى كعب.. فأتاه.. فناوله صحيفة من ملك غسان.. عجبًا!! من ملك غسان..!! إذا قد وصل خبره إلى بلاد الشام.. واهتم به ملك الغساسنة.. عجبًا!! فماذا يريد الملك؟!!

فتح كعب الرسالة فإذا فيها: «أما بعد.. يا كعب بن مالك.. إنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك.. ولست بدار مضيعة ولا هوان.. فالحق بنا نواسك».. فلما أتم قراءة الرسالة.. قال ﷺ: إنا لله.. قد طمع فيَّ أهل الكفر..!! هذا أيضًا من البلاء والشر..

ثم مضى بالرسالة فورًا إلى التنور.. فأشعله ثم أحرقها فيه.. ولم يلتفت كعب إلى إغراء الملك.. نعم فُتح له باب إلى بلاط الملوك.. وقصور العظماء.. يدعونه إلى الكرامة والصحبة.. والمدينة من حوله تتجهمه.. والوجوه تعبس في وجهه.. يسلم فلا يرد عليه السلام.. ويسأل فلا يسمع الجواب.. ومع ذلك لم يلتفت إلى الكفار.. ولم يفلح الشيطان في زعزعته.. أو تعبيده لشهوته.. ألقى الرسالة في النار.. وأحرقها.. ومضت الأيام تتلوها الأيام.. وانقضى شهر كامل.. وكعب على هذا الحال.. والحصار يشتد خناقه.. والضيق يزداد ثقله.. فلا الرسول ﷺ يُمضي.. ولا الوحي بالحكم يقضي..

فلما اكتملت أربعون يومًا.. فإذا رسول من النبي ﷺ يأتي إلى كعب.. فيطرق عليه الباب.. فيخرج كعب إليه.. لعله جاء بالفرج.. فإذا الرسول يقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك..

قال: أطلّقها.. أم ماذا؟

قال: لا.. ولكن اعتزلها ولا تقربها..

فدخل كعب على امرأته وقال: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر..

وأرسل النبي ﷺ إلى صاحبي كعب بمثل ذلك..

فجاءت امرأة هلال بن أمية.. فقالت: يا رسول الله.. إن هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف.. فهل تأذن لي أن أخدمه..؟

قال: «نعم.. ولكن لا يقربنك»..

فقالت المرأة: يا نبي الله.. والله ما به من حركة لشيء.. ما زال مكتئبًا.. يبكي الليل والنهار.. منذ كان من أمره ما كان..

ومرت الأيام ثقيلة على كعب.. واشتدت الجفوة عليه.. حتى صار يراجع إيمانه.. يكلم المسلمين ولا يكلمونه.. ويسلم على رسول الله ﷺ فلا يسمع ردّ السلام.. فإلى أين يذهب..!! ومن يستشير؟!

قال كعب رضي الله عنه: فلما طال عليّ البلاء.. ذهبت إلى أبي قتادة.. وهو ابن عمي.. وأحب الناس إليَّ.. فإذا هو في حائط بستانه.. فتسورت الجدار عليه.. ودخلت.. فسلمت عليه.. فوالله ما رد علي السلام..

فقلت: أنشدك الله.. يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟

فسكت.. فقلت: يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟

فسكت.. فقلت: أنشدك الله.. يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟

فقال: الله ورسوله أعلم..

سمع كعب هذا الجواب.. من ابن عمه وأحب الناس إليه.. لا يدري أهو مؤمن أم لا؟ فلم يستطع أن يتجلد لما سمعه.. وفاضت عيناه بالدموع.. ثم اقتحم الحائط خارجًا.. وذهب إلى منزله.. وجلس فيه.. يقلب طرفه بين جدرانه.. لا زوجة تجالسه.. ولا قريب يؤانسه.. وقد مضت عليهم خمسون ليلة.. من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامهم..

وفي الليلة الخمسين.. نزلت توبتهم على النبي ﷺ في ثلث الليل.. وكان ﷺ في بيت أم سلمة.. فتلا الآيات.. فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله.. ألا نبشر كعب بن مالك..

قال: «إذا يحطمكم الناس.. ويمنعونكم النوم سائر الليلة»..

فلما صلى النبي ﷺ الفجر.. آذن الناس بتوبة الله عليهم.. فانطلق الناس يبشرونهم..

قال كعب: وكنت قد صليت الفجر على سطح بيت من بيوتنا..

فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى... قد ضاقت عليَّ نفسي.. وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت.. وما من شيء أهم إليّ.. من أن أموت.. فلا يصلي عليَّ رسولُ الله ﷺ.. أو يموت.. فأكون من الناس بتلك المنزلة.. فلا يكلمني أحد منهم.. ولا يصلي عليَّ..

فبينما أنا على ذلك.. إذا سمعت صوت صارخ.. على جبل سلع بأعلى صوته يقول: يا!!!!! كعب بن مالك!.. أبشر..

فخررت ساجدًا.. وعرفت أن قد جاء فرج من الله.. وأقبل إليَّ رجل على فرس.. والآخر صاح من فوق جبل.. وكان الصوت أسرع من الفرس..

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني.. نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه.. والله ما أملك غيرهما.. واستعرت ثوبين.. فلبستهما.. وانطلقت إلى رسول الله ﷺ.. فتلقاني الناس فوجًا.. فوجًا..

يهنئوني بالتوبة.. يقولون: ليهنك توبة الله عليك.. حتى دخلت المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ جالس بين أصحابه..

فلما رأوني والله ما قام منهم إليَّ إلا طلحة بن عبيد الله.. قام فاعتنقني وهنأني.. ثم رجع إلى مجلسه.. فوالله ما أنساها لطلحة..

فمشيت حتى وقفت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه.. وهو يبرق وجهه من السرور.. وكان إذا سُرَّ استنار وجهه.. حتى كأنه قطعة قمر..

فلما رآني قال: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»..

قلت: أمن عندك يا رسول الله.. أم من عند الله؟

قال: «لا.. بل من عند الله».. ثم تلا الآيات..

فجلست بين يديه.. فقلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله.. وإلى رسوله..

فقال: «أمسك عليك بعض مالك.. فهو خير لك»..

فقلت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق.. وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت.. نعم.. تاب الله على كعب وصاحبيه.. وأنزل في ذلك قرآنًا يتلى..

قال الله عز وجل: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ والشاهد من هذه القصة.. أن طلحة ﷺ لما رأى كعبًا قام إليه واعتنقه وهنأه.. فزادت محبة كعب له.. حتى كان يقول بعد موت طلحة.. وهو يحكي القصة بعدها بسنين: فوالله لا أنساها لطلحة.. وماذا فعل طلحة حتى يأسر قلب كعب؟ فعل مهارة رائدة.. اهتمَّ به.. شاركه فرحته.. فصار له عنده حظوة..

الاهتمام بالناس ومشاركتهم في مشاعرهم يأسر قلوبهم.. لو كنت في زحمة الامتحانات.. ووصلت إلى هاتفك المحمول رسالة مكتوب فيها.. بشرني عن امتحاناتك والله إن بالي مشغول عليك وأدعو لك، صديقك إبراهيم..

أليس ستزداد محبتك لهذا الصديق؟ بلى..

ولو كان أبوك مريضًا في المستشفى.. فبقيت معه في غرفته وأنت مشغول البال عليه.. واتصل بك صديق وسألك عنه..

وقال: تحتاج مساعدة؟ نحن في خدمتك.. فشكرته..

ثم في المساء اتصل وقال: إذا الأهل يحتاجون أي شيء أشتريه لهم.. فأخبرني.. فشكرته ودعوت له.. ألا تشعر أن قلبك ينجذب إليه أكثر..؟

بينما لو اتصل بك آخر وقال: فلان.. نحن خارجون إلى نزهة في البحر.. هاه تذهب معنا؟

فقلت: والله والدي مريض ولا أستطيع..

فبدل أن يدعو له ويعتذر أن لم يسأل عن حاله.. قال لك: أدري أنه مريض لكن هو في المستشفى وعنده ممرضون ولن يستفيد من بقائك تعال معنا استمتع واسبح و.. قالها وهو يمازحك ضاحكًا.. وكأن مرض والدك لا يعنيه..

كيف ستكون نظرتك إليه؟

بلا شك أن قدره في قلبك ينخفض لأنه لم يهتم بهمومك..

من أحرج ما وقع لي من مواقف..

أني كنت مسافرًا إلى جدة لعدة أيام.. كنت مشغولاً جدًا.. وصلتني رسالة خلالها على هاتفي من أخي سعود كتب فيها: أحسن الله عزاءك في ابن عمنا فلان توفي في ألمانيا.. اتصلت بأخي فأخبرني أن ابن عمنا هذا - وهو شيخ كبير- ذهب قبل يومين لعلاج القلب في ألمانيا وتوفى أثناء إجراء العملية.. وأن جثمانه سيصل قريبًا إلى مطار الرياض.. دعوت له وترحمت عليه.. وأنهيت المكالمة.. بعدها بيومين انتهت أعمالي في جدة وذهبت إلى المطار أنتظر وقت إقلاع رحلتي للرياض.. في هذه الأثناء كان يمر بي عدد من الشباب فإذا رأوني عرفوني وأقبلوا يُسلّمون وكانوا أحيانًا من الشباب المراهقين لهم قصات شعر غريبة.. ومع ذلك كنت أمازحهم وأطلق التعليقات عليهم تحببًا وتلطفًا..

انشغلت بمكالمة هاتفية.. فلما أنهيتها فإذا شاب يلبس بنطالاً وقميصًا.. يراني فيقبل مسلّمًا مصافحًا.. رحبت به وقلت مازحًا: ما هذه الأناقة.. أنت اليوم كأنك عريس.. ونحو هذه العبارات..

سكت الشاب قليلاً ثم قال: ما عرفتني.. أنا فلان.. الآن وصلت من ألمانيا معي جثمان أبي.. وأنا متوجه إلى الرياض الآن على أقرب رحلة..

في الحقيقة.. كأنما صب عليّ برميل ماء بارد.. صرت محرجًا جدًا.. أبوه مات.. وجثمانه معه في الطائرة وأنا أمازحه وأضحك.. إن هذا لشيء عجاب!!

سكتُ قليلاً ثم قلت: آآآسف.. والله ما انتبهت إليك.. فأنا هنا منذ أيام.. فأحسن الله عزاءك وغفر لوالدك..

وإن كنتُ في الحقيقة معذورًا في عدم انتباهي إلى شخصه.. فقد كنت لا أقابله إلا قليلا.. وأراه بثوبه وغترته..

فلما لبس البنطال وجاءني فجأة في زحمة شباب من جدة.. لم يقع في نفسي أنه فلان.. فمن الاهتمام بالناس مشاركتهم في مشاعرهم وإشعارهم أن همهم هو همك.. وأنك تحب الخير لهم..

ومن هذا المنطلق تجد أن الشركات المتطورة يكون عندها إدارة للعلاقات العامة.. مهمتها إرسال التهاني والتبريكات في المناسبات.. وتقديم الهدايا.. ونحو

ذلك.. الناس كلما أشعرتهم بقيمتهم وأظهرت الاهتمام بهم ملكت قلوبهم وأحبوك..

خذ أمثلة سريعة من الواقع: لو دخل شخص إلى مكان مليء بالناس فلم يجد مكانا يجلس فيه..

فتفسحت قليلاً.. وأوسعت له مكانا وقلت: تفضل يا فلان.. تعال هنا.. لشعر باهتمامك وأحبك.. أو لو كنتم في حفل عشاء.. وأقبل يحمل طعامه يتلفت يبحث عن طاولة فيها مكان فارغ.. فجهزت له كرسيا وقلت: حياك الله يا فلان.. تفضل هنا.. لشعر باهتمامك أيضًا.. عمومًا أشعر الناس بقيمتهم.. يحبوك.. كان رسول الله ﷺ يحرص على ذلك أيما حرص.. انظر إليه وقد قام يخطب على منبره يوم جمعه.. وفجأة فإذا بأعرابي يدخل إلى المسجد ويتخطى الصفوف.. وينظر إلى رسول الله ﷺ.. ويصيح قائلاً: يا رسول الله.. رجل لا يدري ما دينه! فعلمه دينه.. فنزل النبي ﷺ من منبره.. وتوجه إلى الرجل وطلب كرسيا فجلس عليه.. ثم جعل يتحدث مع الرجل ويشرح له الدين إلى أن فهم..

ثم عاد إلى منبره.. قمة الاهتمام بالناس.. ومن يدري ربما لو أهمله لخرج الرجل وبقي جاهلاً بدينه إلى أن يموت..

ولو نظرت في شمائله ﷺ.. لوجدت من بينها أنه كان إذا صافحه أحد لم ينزع ﷺ يده من يد المصافح.. حتى ينزع ذلك يده أولاً..

وكان ﷺ إذا كلمه أحد التفت إليه جميعًا.. أي: التفت بوجهه وجسمه إليه يستمع وينصت..

تجربة..

الناس كلما أشعرتهم بقيمتهم وأظهرت الاهتمام بهم..
ملكت قلوبهم.. وأحبوك..

أشعرهم أنك تحب الخير لهم..

كلما كان قلبك مملوءًا بالمحبة والنصح للآخرين.. كلما صرت صادقا في مهاراتك في التعامل معهم.. وكلما أحس الناس بحبك لهم.. ازدادوا هم أيضًا لك محبة وقبولاً..

كانت إحدى الطبيبات تمتلئ عيادتها الخاصة دائمًا بالمراجعات.. وكانت المريضات يرغبن في المجيء إليها دائمًا وكل واحدة تشعر أنها صديقة خاصة لهذه الطبيبة.. كانت هذه الطبيبة تمارس مهارات متعددة تسحر بها قلوب الآخرين..

من ذلك.. أنها اتفقت مع السكرتيرة أنها إذا اتصلت إحدى المريضات تريد أن تتحدث مع الطبيبة أو تسألها عن شيء يخص المرض.. فإن السكرتيرة تسألها عن اسمها.. وترحب بها.. ثم تطلب منها التكرم بالاتصال بعد خمس دقائق..

ثم تأخذ السكرتيرة الملف الخاص بهذه المريضة.. وتناوله للطبيبة.. فتقرأ الطبيبة معلومات المريضة.. وتنظر إلى بطاقتها الخاصة.. ومعلوماتها.. الكاملة بما فيها وظيفتها وأسماء أولادها.. فإذا اتصلت المريضة.. رحبت بها الطبيبة.. وسألتها عن مرضها.. وعن فلان ولدها الصغير.. وأخبار وظيفتها.. و..

فتشعر المريضة أن هذه الطبيبة تحبها جدًا لدرجة أنها تحفظ أسماء أولادها وتتذكر مرضها.. ولم تنس مكان عملها.. فترغب في المجيء إليها دائمًا.. أرأيت أن امتلاك القلوب وأسرها سهل جدًا..

ولا بأس أن تعبر عن محبتك للآخرين بكل صراحة.. سواء كانوا أبًا أو أمًا.. أو زوجة أو أبناء.. أو زملاء وجيران.. لا تكتم مشاعرك نحوهم.. قل لمن تحبه: أنا أحبك.. أنت غالٍ إلى قلبي.. حتى لو كان عاصيًا قل له: إنك أحب إلي من أناس كثيييير.. ولم تكذب فهو أحب إليك من ملايين اليهود.. أليس كذلك.. كن ذكيًا..

أذكر أني ذهبت مرة لأداء العمرة.. وكنت خلال الطواف والسَّعي أدعو للمسلمين جميعًا.. بالحفظ والنصر والتمكين.. وربما قلت: اللهم اغفر لي واغفر لأحبابي وأصحابي.. وبعد انتهائي من شعائرها.. حمدت الله على التيسير..

ثم اكتريت فندقا لأبيت فيه.. فلما وضعت رأسي على وسادتي كتبت رسالة عبر الهاتف المحمول أقول فيها: «الآن أنهيت العمرة وتذكرت أحبابي وأنت منهم فلم أنساك من الدعاء الله يحفظك ويوفقك».. انتهت الرسالة..

أرسلتها إلى الأسماء المخزنة في ذاكرة الهاتف.. كانت خمسمائة اسم.. لم أكن أتصور التأثير العجيب لهذه الرسالة في قلوب الآخرين..

منهم من أرسل إليّ: والله إني أبكي وأنا أقرأ رسالتك.. أشكرك أنك ذكرتني بدعائك..

وآخر كتب: والله يا أبا عبد الرحمن ما أدري بم أرد عليك! ولكن جزاك الله خيرًا..

والثالث كتب: أسأل الله أن يستجيب دعاءك.. ونحن والله لا ننساك..

نحن في الحقيقة نحتاج بين الفينة والأخرى أن نُذَكِّر الناس بأننا نحبهم.. وأن كثرة مشاغل الدنيا لم تنسنا إياهم.. ولا بأس أن يكون ذلك بمثل هذه الرسائل.. يمكن أن تكتب إلى أحبابك: دعوت لكم بين الأذان والإقامة.. أو في ساعة الجمعة الأخيرة.. وإذا كانت نيتك صالحة فلن يكون في هذا إظهار للعمل أو رياء.. وإنما زيادة ألفة ومحبة بين المسلمين..

أذكر أني ألقيت محاضرة في مخيم دعوي صيفي في مدينة الطايف.. في جبال الشفا وهي متنزه يجتمع فيه أعداد كبيرة من الشباب.. كان أكثر الحاضرين هم من الشباب الذين يظهر عليهم الخير والصلاح.. أما الشباب الآخرون فقد بقوا في أطراف المتنزهات ما بين لهو وطرب..

انتهت المحاضرة.. أقبل جمع من الشباب يسلمون.. كان من بينهم شاب له قصة شعر غريبة ويلبس بنطال جينز ضيق.. أقبل يصافح ويشكر.. فسلمت عليه بحرارة.. وشكرته على حضوره وهززت يده وقلت: وجهك وجه داعية.. تبسم وانصرف.. بعدها بأسبوعين تفاجأت باتصال يقول: هاه ما عرفتني.. يا شيخ أنا الذي قلت لي وجهك وجه داعية.. والله لأصبحن داعية إن شاء الله.. ثم صار يشرح لي مشاعره بعد تلك الكلمات..

أرأيت كيف يتأثر الناس بصدق العبارة.. والمحبة..!

أما رسول الله ﷺ فقد كان يأسر قلوب الناس بروعة أخلاقه.. وقدرته على إظهار محبته الصادقة لهم.. كان أبو بكر وعمر.. أجلّ الصحابة.. وكان يتنافسان في الخير دومًا.. وكان أبو بكر يسبق غالبًا.. فإن بكّر عمرُ للصلاة وجد أبا بكر سبقه.. وإن أطعم مسكينًا وجد أبا بكر سبقه.. وإن صلى ليلة.. وجد أبا بكر قبله..

وفي يوم أمر النبي ﷺ الناس بالصدقة لسد حاجة نازلة نزلت بالمسلمين.. وافق ذلك الوقت أن عمر عنده سعة من المال.. فقال: اليوم أسبق أبا بكر.. إن سبقته يومًا.. ذهب عمر فجاء بنصف ماله.. فدفعه إلى رسول الله ﷺ.. فما أول كلمة قالها ﷺ لعمر لما رأى المال؟ هل سأله عن مقدار المال؟ أم سأله عن نوعه ذهب أم فضة؟

لا.. بل لما رأى ﷺ كثرة المال.. تكلم بكلمات يستنتج منها عمر أنه محبوب عند رسول الله ﷺ.. قال لعمر: «ما أبقيت لأهلك يا عمر؟»..

قال عمر: يا رسول الله.. أبقيت لهم مثله..

ويجلس عمر عند رسول الله ﷺ منتشيًا.. ينتظر أبا بكر..

فيأتي أبو بكر رضي الله عنه بمال كثير فيدفعه إلى رسول الله ﷺ وعمر واقف مكانه.. يرى العطاء ويسمع الحوار.. فإذا بالنبي ﷺ قبل أن يلتفت إلى ما يحتاجه من مال.. يسأل أبا بكر: «يا أبا بكر.. ما أبقيت لأهلك؟»..

نعم فهو يحب أبا بكر.. ويحب أهله.. ولا يرضى بالضرر عليه..

قال أبو بكر: يا رسول الله.. أبقيت لهم الله ورسوله..

أما المال فقد أتيت به جميعًا.. لم يأت بنصفه.. ولا بربعه.. وإنما أتى به كله.. فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن قال: «لا جرَم.. لا سابقت أبا بكر أبدًا»..

كان الناس يشعرون أنه ﷺ يحبهم.. فكانوا يهيمون به حبًّا.. صلى بهم ﷺ إحدى الصلوات.. فكأنه عجل بصلاته قليلا حتى بدت أقصر من مثيلاتها.. فلما انقضت الصلاة.. رأى ﷺ تعجب أصحابه.. فقال لهم: «لعلكم عجبتم من تخفيفي للصلاة؟».

قالوا: نعم!..

فقال ﷺ: إني سمعت بكاء صبي فرحمت أمه..!!

أرأيت كيف يحب الآخرين.. ويظهر لهم هذه المحبة من خلال تعامله..
لست وحدك..
أظهر عواطفك.. كن صريحًا: أنا أحبك.. فرحت بلقياك.. أنت غالٍ إلى قلبي..

احفظ الأسماء..

وهذا من الاهتمام بالناس.. ما أجمل أن تقابل شخصًا ما في موقف عارض.. كلقاء عند بنك.. أو في طائرة.. أو في وليمة عامة.. فتتعرف على اسمه.. ثم تراه في موقف آخر.. فتقبل عليه قائلاً: مرحبًا يا فلان.. لا شك أن ذلك يطبع في قلبه لك محبة وتقديرًا..

حفظك لاسم الشخص الذي أمامك يشعره باهتمامك به.. فرق بين المدرس الذي يحفظ أسماء طلابه.. والذي لا يحفظ.. قولك للطالب: قم يا فلان.. أحسن من: قم يا طالب..

حتى في الرد على الهاتف.. أيهما أحب إليك.. أن يجيبك من تتصل به بقوله: نعم.. أو ألو.. أو يقول محتفيًا: مرحبًا يا خالد!.. هلا أبو عبد الله.. بلا شك أن استماعك لاسمك له في القلب رنة قبل الأذن..

جرت العادة بعد المحاضرات العامة أن يزدحم علي بعض الشباب يصافحون ويشكرون.. كنت أحرص على ترديد كلمة: ما الاسم الكريم؟ حياك الله من الأخ؟..

أقولها لكل واحد أسلم عليه لأبدي له اهتمامي به.. فكان كل واحد يجيبني مستبشرًا: أخوك زياد.. ابنك ياسر..

وأذكر يومًا أنه بعدما سلم عدد كبير منهم ومضوا.. عاد أحدهم ليسأل.. فأول ما أقبل عليَّ قلت له: حياك الله يا خالد.. فابتهج وقال: ما شاء الله!! تعرف اسمي!! الناس عمومًا يحبون مناداتهم بأسمائهم..

من المعروف أن الموظف العسكري يعلق لوحة صغيرة على صدره فيها اسمه.. فأذكر أني ألقيت محاضرة في إحدى المناطق العسكرية.. فازدحم أكثرهم مسلمًا بعد المحاضرة.. كان أحدهم يقترب ويبتعد.. وكأنه يريد

السلام لكنه يخجل من مزاحمة الآخرين..

التفت إليه ولمحت لوحة اسمه.. فمددت يدي إليه وقلت: مرحبًا فلان!! فتغير وجهه وتعجب.. ومد يده مصافحًا وهو يبتسم ويقول: هاه!! كيف عرفت اسمي؟

فقلت: يا أخي الذين نحبهم.. لازم نعرف أسماءهم.. فكان لهذا تأثير كبير عليه.. كثير من الناس يقتنع بهذا ويتمنى لو استطاع حفظ أسماء الآخرين..

أما أسباب عدم حفظ الأسماء.. فهي كثيرة.. منها.. عدم الاهتمام بالأشخاص أثناء مقابلتهم.. ومنها.. التشاغل وقت التعارف وعدم التركيز أثناء استماع الاسم.. ومنها.. موقفك تجاه الشخص المقابل..

كاعتقادك بأنك لن تقابله مرة أخرى.. فتقول في نفسك: لا داعي لحفظ الاسم.. أو كان إنسانًا بسيطا لا يستثير اهتمامك..

أو عندما لا تسمع الاسم جيدًا وتشعر بحرج من طلب إعادة اسمه.. فهذه أسباب تجعل الناس لا يحفظون الأسماء..

أما العلاج لحفظ الأسماء.. فله طرق.. منها: الاقتناع بأهمية تذكر الاسم واستشعارك أنك بسماعك له ستسأل عنه بعد دقائق.. ومنها.. التركيز على وجه الشخص أثناء الاستماع إلى اسمه..

حاول أن تلاحظ الشخص المقابل وطبيعة حديثه وابتسامته لينطبع في ذاكرتك.. أثناء حديثك معه ناده باسمه مرارًا.. صحيح يا فلان..؟ سمعت يا فلان..؟ أنت معي يا فلان..؟ وكرره أكثر من مرة..

هذا مهم.. ولو تأملت في القرآن لوجدت الله جلّ جلاله ينادي أنبياءه بأسمائهم..

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ ﴾..

﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ ﴾..

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

باختصار..

أشعرني باهتمامك بي..

بحفظك اسمي.. وناديني به.. لأحبك..

كن لماحًا..

قسم كبير من الأشياء التي نمارسها في الحياة.. نفعلها لأجل الناس لا لأجل أنفسنا.. عندما تُدعى لوليمة عرس.. فتلبس أحسن ثيابك.. إنما تفعل ذلك لأجل لفت انتباه الناس وجذب إعجابهم.. لا لأجل لفت انتباه نفسك..

وتفرح إذا لاحظت أنهم أعجبوا بجمال هيئتك.. أو رونق ثيابك.. وعندما تؤثث مجلس ضيوفك.. وتتكلف في تزويقه والعناية به.. إنما تفعل ذلك أيضًا لأجل نظر الناس.. لا لأجل نظر نفسك.. بدليل أنك تعتني بغرفة استقبال الضيوف أكثر من عنايتك بالصالة الداخلية.. أو بحمام أطفالك!!

عندما تدعو أصحابك إلى طعام.. ألا ترى أن زوجتك - وربما أنت - تعتني بترتيب الطعام وتنويعه أكثر من العادة..

بلى.. وكلما زادت أهمية هؤلاء الأصحاب.. زادت العناية بالطعام.. وكم تكون سعادتنا غامرة عندما يثني أحد على لباسنا أو ديكورات بيوتنا.. أو لذة طعامنا.. وقد قال ﷺ «وليأت إلى الناس الذي يحب أن يأتوا إليه» أي: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.. كيف..؟!

رأيت على صاحبك ثوبًا جميلا.. انتبه له.. أثن عليه.. أسمعه كلمات رنانة.. ما شاء الله!! ما هذا الجمال!! اليوم كأنك عريس!!

زارك رجل يومًا فشممت من ثيابه عطرًا فواحًا جميلا.. أثن عليه.. تفاعل معه.. كن لماحًا.. فهو ما وضع الطيب إلا لأجلك.. ردد عبارات جميلة: ما هذه الروائح.. ما أحسن ذوقك..

دعاك شخص لطعام.. أثن على طعامه.. فإنك تعلم أن أمه أو زوجته أو أخته وقفت ساعات في المطبخ لأجلك.. أو لأجل المدعوين عمومًا.. وأنت منهم.. أو أنه على الأقل تعب في إحضاره من المطعم ومحل الحلويات.. و.. فأسمعه كلمات تجعله يشعر أنك ممتن له بما قدم لك.. وأن تعبه لم يذهب سُدًى..

دخلتَ بيت أحد أصدقائك – أو دخلتِ بيت إحدى صديقاتك- فرأيت أثاثًا

جميلا.. فأثن على الأثاث.. والذوق الرفيع.. (لكن انتبه لا تبالغ حتى لا يشعر أنه استهزاء)..

حضرت في مجلس عام.. فسمعت حمد يتكلم مع الحاضرين بانطلاق.. وقد أحيا المجلس.. وأسعد الحاضرين.. أثن عليه.. خذ بيده إذا قمتم.. قل له: ما شاء الله..!! ما هذه القدرات!! بصراحة ما ملّح المجلس إلا حضورُك.. جرب افعل ذلك.. فسوف يحبك..

رأيت موقفًا جميلا لولد مع أبيه.. قبّل يدَه.. قرّبَ إليه نعليه.. أثن على الولد.. كن لماحًا.. لبسَ ثوبًا جديدًا.. أثن عليه.. كن لماحًا..

زرت أختك.. رأيت عنايتها بأولادها.. كُن لماحًا.. أثن عليها.. رأيت عناية صاحبك بأولاده.. أو روعة ترحيبه بضيوفه..

كُن جريئًا.. لماحًا.. أثن عليه.. أخرج ما في صدرك من الإعجاب به.. ركبت مع شخص في سيارته.. أو استأجرت تاكسي.. لاحظت نظافة سيارته.. حُسنَ قيادته.. كن لماحًا.. أثن عليه..

قد تقول:هذه أمور عادية.. صحيح لكنها مؤثرة.. لقد جربت ذلك بنفسي.. ومارست هذه المهارة مع أعداد من الناس.. كبارًا وصغارًا.. وعمالاً بسطاء.. ومدرسين.. بل مارستها مع أشخاص يشغلون مناصب عليا.. ورأيت من تأثرهم أعاجيب.. خاصة في الأشياء التي ينتظرها الناس منك.. كيف؟

عريس.. رأيته بعد زواجه بأسبوع.. رجل حصل على شهادة عليا.. شخص سكن بيتا جديدًا.. كلهم بلا شك ينتظرون منك كلمات.. كن كما يتوقعون..

كان عبد المجيد - ابن عمي- شابًا في المرحلة الثانوية.. بعد تخرجه طلب مني الذهاب معه للجامعة لتسجيله فيها.. اتصلت به ذات صباح ومررت على بيته بسيارتي ليرافقني للجامعة..

كانت المشاعر تتزاحم في قلبه.. فهو ينتقل إلى مرحلة جديدة.. ويفكر في الكلية التي ستقبله..أول ما ركب سيارتي شممت رائحة عطره.. كانت رائحة نفاثة جدًا.. ويبدو أنه قد أفرغ العلبة كلها ذلك اليوم على ملابسه..

بصراحة خنقني بالرائحة.. فتحت النوافذ لأتنفس.. شعرت أن المسكين

تكلف في تزويق ثيابه.. وتطييبها.. ثم التفت إليه وابتسمت وقلت: مااا شاااء الله!!.. إيش هالروائح الحلوة!! أخاف عميد الكلية أول ما يشم هالرائحة الحلوة يصرخ بأعلى صوته يقول: مقبووووول..

لا تتصور مدى السرور الذي غطى على قلبه.. والبشر الذي طفح على وجهه.. التفت إليّ.. وقال بحماس: أشكرك يا أبا عبد الرحمن.. أشكرك.. والله إنه عطر غااال.. وأضعه دائمًا والناس ما يلاحظونه..

ثم بدأ يشمه من طرف غترته ويقول: بالله عليك: ذوقي حلو..؟!

آآآه.. مر على هذا الموقف أكثر من خمس عشرة سنة.. فقد تخرج عبد المجيد من الجامعة وتعين في وظيفة منذ سنوات.. إلا أن ذلك الموقف لا يزال عالقا في أذنه.. ربما ذكرني به مازحًا في بعض اللقاءات..

نعم.. كن لماحًا.. التحكم بعواطف الناس وكسب محبتهم سهل جدًا.. لكننا في أحيان كثيرة نغفل عن ممارسة مهارات عادية نكسبهم بها.. ولا تعجب إن قلت إن صاحب الخلق العظيم ﷺ كان يمارس هذه المهارات.. وأحسن منها..

في أول سنين الإسلام.. لما ضُيّق على المسلمين في دينهم بمكة.. هاجروا إلى المدينة.. تركوا ديارهم وأموالهم.. قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة مهاجرًا..

وكان عبد الرحمن في مكة تاجرًا ممكنًا.. لكنه جاء المدينة فقيرًا معدمًا.. كحل سريع للمشكلة.. آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.. آخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع الأنصاري..

كانت نفوسهم سليمة.. وقلوبهم صافية.. فقال سعد لعبد الرحمن: أي أخيّ.. أن أكثر أهل المدينة مالاً..

فأقسم مالي نصفين.. فخذ نصفه وأبق لي نصفه.. ثم خشي سعد أن عبد الرحمن يريد أن يتزوج.. ولا يجد زوجة.. فعرض عليه أن يزوجه..

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك.. دُلني على السوق..!!

صحيح.. عبد الرحمن ترك ماله في مكة واستولى عليه الكفار.. لكنه كان ذا عقل راجح.. وخبرة تجارية واسعة..

دله سعد على السوق.. فذهب فاشترى وباع فربح.. يعني اشترى بضاعة

بالآجل ثم باعها حالة.. فصار عنده رأسمال تاجر فيه.. وكان يتقن فن البيع والشراء والمماكسة.. حتى جمع مالاً فتزوج..

ثم جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام.. وعليه أثر ودْعُ زعفران.. أي أثر طيب نساء..!! ليس غريبًا فهو (عريس)..

النبي ﷺ طبيبُ النفوس.. كان لماحًا.. يترقب الفرص لاصطياد القلوب.. أول ما رآه.. انتبه لهذا التغير.. وجعل ينظر إلى أثر الطيب ويقول لعبد الرحمن: «مهيم؟».. أي ما الخبر؟

ابتهج عبد الرحمن.. وقال: يا رسول الله.. تزوجت امرأة من الأنصار.. عجب النبي ﷺ.. كيف استطاع أن يتزوج وهو حديث عهد بهجرة..!!

فقال: «فما أصدقتها.»

فقال: وزن نواة من ذهب..

فأراد ﷺ أن يزيد من فرحته.. فقال: «أَوْلِم ولو بشاة».. - يعني اصنع وليمة لنا بمناسبة زواجك -.. ثم دعا له النبي ﷺ.. بالبركة في ماله وتجارته.. فحلت البركة عليه..

قال عبد الرحمن وهو يصفُ كسبه وتجارته: فلقد رأيتني ولو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب ذهبًا وفضة..

وكان ﷺ لماحًا حتى مع الضعفاء والمساكين.. يشعرهم بقيمتهم.. يجعلهم يحسون أنه منتبه لهم.. وأنهم مهمون عنده.. وأنه يقدر لهم أعمالهم التي يقومون بها مهما كانت متواضعة.. فإذا افتقدهم.. ذكَرهم بالخير.. وتلمّح أعمالهم.. فتشجع الآخرون أن يفعلوا كفعلهم..

كان في المدينة امرأة سوداء.. مؤمنة صالحة.. كانت تكنس المسجد.. كان ﷺ يراها أحيانًا.. فيعجب بحرصها.. مرت أيام.. ففقدها رسول الله ﷺ..

فسأل عنها؟ فقالوا: ماتت يا رسول الله..

فقال: «أفلا كنتم آذنتموني»..

فصغّروا أمرها.. وأنها مسكينة مغمورة لا تستحق أن يخبر عنها رسول الله ﷺ.. وقالوا أيضًا: ماتت بليل.. فكرهنا أن نوقظك..

فحرص ﷺ على أن يصلي عليها.. فعملها وإن رآه الناس صغيرًا فهو عند الله كبير.. ولكن كيف يصلي عليها وقد ماتت ودفنت؟!

فقال ﷺ: «دلوني على قبرها».. فمشوا معه حتى أوقفوه على قبرها.. فصلى عليها..

ثم قال ﷺ: «إن هذه القبور.. مملوءة ظلمة على أهلها.. وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم.. فبالله عليك.. ما هو شعور من رآه ﷺ ينتبه إلى هذا العمل الصغير من امرأة ضعيفة.. كيف سيكون حماسهم للقيام بمثل فعلها وأعظم..

دعني أهمس في أذنك: نحن في مجتمع لا يقدر أحيانًا مثل هذه المهارات.. فانتبه!! لا يطفئ حماسك فريق من الثقلاء الغلاظ الذين مهما لمحت ما عندهم من لطائف.. وأثنيت عليهم بالكلمات الرقيقة الرنانة.. لم يتأثروا.. أو ردوا على تلطفك بكلمات سامجة ممجوجة.. لا طعم لها.. ولا لون ولا رائحة!!

ومن لطائف هؤلاء.. أن شابًا - أعرفه - دُعي إلى وليمة كبيرة.. فيها أشخاص مهمون.. مر على السوق في طريقه..

ودخل محل عطور وأظهر أنه سيشتري فجعل الموظف يحتفي به.. ويرش عليه من أنواع العطور ما غلا ثمنه وزكا ريحه.. ليختار من بينها ما يناسبه..

فلما امتلأت ثياب صحابنا طيبًا.. قال للبائع بلطف: أشكرك.. وإن اعجبني شيء منها فقد أعود إليك..

ذهب سريعًا إلى الوليمة متداركًا رائحة العطر قبل أن تزول.. جلس على العشاء بجانب صديقه خالد.. لم يلاحظ خالد الرائحة.. ولم يعلق بكلمة..

فقال له صاحبنا باستغراب: ما تشم رائحة عطر جميلة؟!

قال خالد: لا..

فقال صاحبنا: أكيد أنفك مسدود..!!

فأجاب خالد فورًا: .. لو كان أنفي مسدودًا.. ما شممت رائحة عرقك..!!

اعتراف..

مهما بلغ الشخص من النجاح..

إلا أنه يبقى بشرًا يطرب للثناء..

انتبه: كن لماحًا للجمال فقط..

بعض الناس يتحمس كثيرًا لأن يكون لماحًا.. فلا يكاد يسكت عن الملاحظة والثناء.. لكنهم قالوا قديمًا: الشيء إذا زاد عن حده.. انقلب إلى ضده.. ومن تعجل الشيء قبل أوانه.. عوقب بحرمانه..

فكن لماحًا للأشياء الجميلة الرائعة.. التي يفرح الشخص برؤية الناس لها.. وينتظر ثناءهم عليها.. ويطرب لسماع ألفاظ الإعجاب بها.. أما الأشياء التي يستحي من رؤيتها.. أو يخجل من ملاحظتها فحاول أن تتعامى عنها..

مثلاً: دخلت بيت صاحبك فرأيت الكراسي قديمة.. فانتبه من أن تكون من الثقلاء الذي لا يكفون عن تقديم اقتراحات لم تطلب منهم..

انتبه من أن يفرط لسانك بقول: لماذا ما تغير الكراسي؟!.. الثريات نصفها ما يشتغل..!! لماذا لا تشتري ثريات جديدة!! دهان الجدار قديييييم.. لماذا لا تدهنه بألوان جديدة!! يا أخي! هو لم يطلب منك اقتراحات.. ولست مهندس ديكور اتفق معك على أن يستفيد من آرائك.. ابق ساكتا.. لعله لا يستطيع تغييرها.. لعله يمر بضائقة مالية.. لعله.. ليس أثقل على الناس ممن يحرجهم بالنظر إلى ما يستحون منه.. ثم يثيره ويبدأ في التعليق عليه..

ومثل ذلك.. لو كان ثوبه قديمًا.. أو مكيف سيارته متعطلا.. قل خيرًا أو اصمت.. ذكروا أن رجلاً زار صاحبًا له فوضع له خبزًا وزيتا.. فقال الضيف: لو كان مع هذا الخبز زعتر!! فدخل صاحب الدار وطلب من أهله زعترًا للضيف فلم يجد..

فخرج ليشتري ولم يكن معه مال..! فأبى صاحب الدكان أن يبيعه بالآجل.. فرجع وأخذ مطهرته -وهي الإناء الذي يضع فيه الماء ليتوضأ منه- فخرج بها ودفعها إلى صاحب الدكان -رهنًا- حتى إذا لم يسدد له قيمة الزعتر يبيع صاحب الدكان المطهرة ويستوفي الثمن لنفسه.. ثم أخذ الزعتر ورجع به إلى ضيفه.. فأكل..

فلما انتهى الضيف من الطعام قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا.. وقنعنا بما آتانا..

فتأوه صاحب الدار تأوه الحزين وقال: لو قنّعك الله بما آتاك.. ما كانت مطهرتي مرهونة!!

وكذلك لو زرت مريضًا فلا تردد عليه: أووووه.. وجهك أصفر.. عيناك زائغتان..جلدك يابس.. عجبًا!! هل أنت طبيبه؟ قل خيرًا أو اصمت..

ذكروا أن رجلاً زار مريضًا.. فجلس عنده قليلاً. ثم سأله عن علته.. فأخبره المريض بها.. وكانت علة خطيرة..

فصرخ الزائر: آآآ.. هذه العلة أصابت فلانًا صاحبي فمات منها.. وأصابت فلانًا صديق أخي ولا يزال مُقْعَدًا منها حتى مات.. وأصابت فلانًا جار زوج أختي ومات.. والمريض يستمع إليه ويكاد أن ينفجر..

فلما أنهى الزائر كلامه وأراد الخروج التفت إلى المريض وقال: هاه.. توصيني بشيء؟

قال المريض: نعم.. إذا خرجت فلا ترجع إليَّ.. وإذا زرت مريضًا فلا تذكر عنده الموتى.. وذكروا كذلك أن امرأة عجوزًا مرضت عجوز صديقة لها.. فجعلت هذه العجوز تلتمس من أبنائها واحدًا واحدًا أن يذهبوا بها لتلك المريضة لزيارتها وهم يتعللون ويعتذرون.. حتى رضى أحد أبنائها على مضض.. وذهب بها بسيارته..

فلما وصل بيت العجوز المريضة نزلت أمه وجعل ينتظرها في سيارته.. دخلت الأم على المريضة فإذا هي قد تمكن منها المرض.. فسلمت عليها ودعت لها.. فلما مشت خارجة مرت ببنات المريضة وهن يبكين في صالة البيت..

فقالت بكل براءة: أنا لا يتيسر لي المجيء إليكن كلما أردت.. وأمكم مريضة ويبدو لي أنها ستموت.. فأحسن الله عزاءكم من الآن..!!

فانتبه يا لبيب!. كن لماحًا لما يفرح ويسر.. لا لما يحزن..

مشكلة..

إذا اضطررت للمح سيء..

كوسخ ثوبه.. او رائحة سيئة..

فأحسن التنبيه.. كن لطيفا ذكيًا..

لا تتدخل فيما لا يعنيك..

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه..

ما أجمل هذه العبارة وأنت تسمعها من الفم الزكي الطاهر.. فم رسول الله ﷺ.. صحيح.. تركه ما لا يعنيه.. كم هم ثقلاء أولئك الذين يزعجونك بالتدخل فيما لا يعنيهم.. يشغلك إذا رأى ساعتك.. بكم اشتريتها..

فتقول: جاءتني هدية..

فيقول: هدية!! ممن؟

فتجيب: من أحد الأصدقاء..

فيقول: صديقك في الجامعة.. أم في الحارة.. أم أين؟!

فتقول: والله..آآآ.. صديقي في الجامعة..

فيقول: طيب.. ما المناسبة؟!

فتقول: آآآ.. يعني.. مناسبة أيام الجامعة..

فيقول: مناسبة إيش؟!! نجاح.. أم كنتم في رحلة.. أو يمكن.. أأ..

ويستمر في استجوابه لك على قضية تافهة..!! بالله عليك! ألا تحدثك نفسك أن تصرخ به: لاااا تتدخل فيما لا يعنيييييك!!.. وقد يزداد الأمر سوءًا لو أحرجك بالسؤال في مجلس عام فسبب لك إحراجًا..

أذكر أني كنت في مجلس مع عدد من الزملاء.. بعد صلاة المغرب.. رن هاتف أحدهم.. كان جالسًا بجانبي.. أجاب: نعم؟

زوجته: ألو.. وينك يا حمار؟! كان صوتها عاليًا لدرجة أني سمعت حوارهما..

قال: بخير.. الله يسلمك !!!.. -يبدو أنه كان قد وعدها أن يذهب بها بعد المغرب لبيت أهلها وانشغل بنا-.. غضبت الزوجة: الله لايسلمك.. أنت مبسوط أنك مع أصحابك وأنا أنتظر.. والله انك ثور !!..

قال: الله يرضى عليكِ.. أمرُك بعد العشاء..

لاحظتُ أن كلامه لا يتوافق مع كلامها.. فأدركت أنه يفعل ذلك لكيلا يحرج نفسه.. انتهت مكالمته..

جعلت ألتفت إلى الحاضرين وأتخيل أن واحدًا منهم سأله: من كلمك؟ وماذا يريد منك؟ ولماذا تغير وجهك بعد المكالمة..؟!! لكن الله رحمه لأن أحدًا لم يتدخل فيما لا يعنيه..

ومثله لو زرت مريضًا.. فسألته عن مرضه.. فأجابك بكلمات عامة: الحمد لله.. شيء بسيط.. مرض صغير وانتهى.. أو نحوها من العبارات التي لا تحمل جوابًا صريحًا..

فلا تحرجه بالتدقيق عليه: عفوًا.. يعني ما هو المرض بالضبط؟ وضح أكثر..!! ماذا تعني..!! ونحو ذلك..

عجبًا!! ما الداعي لإحراجه..؟

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.. يعني.. تنتظر أن يقول لك: أنا مريض بالبواسير.. أو مصاب بجرح في.. أو..

ما دام أنه أجاب إجابة عامة فلا داعي للتطويل معه.. ولا أعني بهذا عدم سؤال المريض عن مرضه؟ إنما أعني عدم التدقيق في الأسئلة..

ومثله.. الذي ينادي طالبًا أمام الناس في مجلس عام.. ويسأله بصوت عال: هاه يا أحمد.. نجحت؟.. فيقول: نعم..

فيسأله: كم نسبتك؟ كم ترتيبك في الفصل؟

إن كنت صادقا في اهتمامك به فاسأله على انفراد بينك وبينه.. ثم لا داعي للتدقيق.. كم نسبتك.. لماذا لم تذاكر.. لماذا لم تقبل في الجامعة.. إن كنت مستعدًا لإعانته فقف معه جانبًا وحدثه بما تريد.. أما نشر غسيله أمام الناس.. فلا..

قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»..

لكن انتبه!! لا تعط الموضوع أكبر من حجمه..

سافرت إلى المدينة النبوية قبل مدة.. كنت مشغولاً بعدد من المحاضرات.. فاتفقت مع شاب فاضل أن يأخذ وَلَدَيَّ عبد الرحمن وابراهيم بعد العصر إلى حلقة

تحفيظ أو مركز صيفي ترفيهي.. ويعيدهم بعد العشاء..

كان عبد الرحمن في العاشرة من عمره.. خشيت أن يسأله ذلك الشاب من باب الفضول أسئلة لا داعي لها.. ما اسم أمك؟ أين بيتكم؟ كم عدد إخوانك؟ كم يعطيك أبوك من المال؟

فنبهت عبد الرحمن قائلاً: إذا سألك سؤالاً غير مناسب.. فقل له: قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».. وكررت عليه الحديث حتى حفظه..

ركب عبد الرحمن وأخوه.. مع الشاب.. كان عبد الرحمن مشدودًا متهيِّبًا..

قال الشاب متلطفًا: حياك الله يا عبد الرحمن..

فأجابه بحزم: الله يحييك..

أراد الشاب المسكين أن يلطف الجو.. فقال: الشيخ عنده محاضرة اليوم؟!

حاول عبد الرَحمن أن يتذكر الحديث فلم تسعفه ذاكرته.. فصرخ قائلاً: لا تتدخل فيما لا يعنيك!!

قال الشاب: لا.. أقصد.. بل حتى أحضر وأستفيد..

فظن عبد الرحمن أنه يتذاكى عليه: فأعاد الجواب: لا تتدخل فيما لا يعنيك..

قال الشاب: عفوًا عبد الرحمن أعني..

فصرخ عبد الرحمن: لا!!!! تتدخل فيما لا يعنيك!!

ولم يزال هذا حالهما حتى رجعا!! فأخبرني عبد الرحمن بالقصة مفتخرًا.. فضحكت وفهمته الأمر مرة أخرى..

ورشة عمل:.

مجاهدة النفس على التحرر من التدخل في شؤون الآخرين..
متعبة في البداية.. لكنها مريحة في النهاية..

كيف تتعامل مع «الملاقيف»(٣٣)

أحيانًا يتناول بعض الناس هاتفك الجوال -بدون استئذان- ويقرأ الرسائل التي فيه.. كان صاحبي في دعوة عامة.. وليمة عشاء عند أحد القضاة.. كل من في المجلس مشايخ فضلاء..

جلس صاحبي بينهم.. يتجاذب أطراف الحديث معهم.. ضايقه وجود هاتفه الجوال في جيبه فأخرجه ووضعه على الطاولة التي بجانبه..

كان الشيخ الذي بجانبه متفاعلاً في الحديث معه..

من باب العادة أخذ الشيخ الهاتف الجوال.. رفع إليه.. فلما نظر إلى الشاشة تغير وجهه.. وأرجعه مكانه..

كتم صاحبي ضحكة مدوية.. لما خرج ركبت معه في سيارته.. وقد وضع هاتفه الجوال بجانبه.. فرفعته إليَّ -كما فعل الشيخ- فلما نظرت إلى الشاشة ضحكت.. بل غرقت في الضحك..

تدري لماذا؟

جرت عادة بعضهم أن يكتب عبارات على شاشة الهاتف.. يكتب اسمه.. أو اذكر الله.. أو غيرها.. أما صاحبي فقد كتب: أرجع الجهاز يا ملقوف..

كثير من الناس من هذا النوع يتدخلون في أمور الآخرين الشخصية.. فمن الطبيعي أن يركب معك في سيارتك ثم يفتح الدُّرج الذي أمامه.. وينظر ما بداخله..!!

وامرأة تفتح حقيبة امرأة أخرى لتأخذ أحمر الشفاه أو ظل العينين.. وقد يتصل بك فيسألك أين أنت فتقول طالع مشوار فيقول: أين..؟ من معك؟ مجموعة من الناس نخالطهم يعاملوننا بمثل هذا الأسلوب.. فكيف نتعامل معهم؟

أهم شيء أن لا تفقده.. حاول أن تتجنب المصادمة معه.. حاول أن لا (يزعل) منك أحد.. كن ذكيًا في الخروج من الموقف.. دون أن يحدث بينك وبينه

---

(٣٣) ملاقيف: لفظة عامية، جمع «ملقوف» وهو المتدخل فيما لا يعنيه.. ويسميه بعضهم حشري متطفل..

مشكلة.. لا تتساهل بكسب الأعداء أو فقدان الأصدقاء.. مهما كانت الأسباب..

ومن أحسن الأساليب للتعامل مع الطفيليين.. هو إجابة السؤال بسؤال.. أو الانتقال إلى موضوع آخر تمامًا لينسى سؤاله الأول.. فلو سألك مثلاً: كم مرتبك الشهري؟

قل له بلطف وتبسم: لماذا هل وجدت لي وظيفة مغرية؟..

سيقول: لا.. لكن أريد أن أعرف..

قل: المرتبات هذه الأيام مشاكل.. ويبدو أن ذلك بسبب ارتفاع أسعار البترول!!

سيقول: ما دخل البترول..

فقل: البترول هو الذي يتحكم في الأسعار.. ألا تلاحظ أن الحروب تقوم لأجله..

سيقول: لا.. ليس صحيحًا..

فالحروب لها أسباب أخرى.. والعالم اليوم مليء بالحروب.. و.. وينسى سؤاله الأول.. (هاه.. ما رأيك؟ ألم تخرج من الموقف بذكاء؟)..

وكذلك لو سألك عن وظيفتك.. أو أين ستسافر..

اسأله: لماذا.. هل ستسافر معي..

سيقول: لا أدري!! لكن أخبرني..

قل: لكن إن سافرت معي.. فالتذاكر عليك..

عندها سيدخل في موضوع التذاكر وينسى الموضوع الأصلي.. وهكذا.. نستطيع الخروج من مثل هذه المواقف من غير وقوع مشاكل بيننا وبين الآخرين..

ومضة..

إذا ابتليت بمتدخل فيما لا يعنيه.. فكن خيرًا منه..
أحسن الخروج من الموقف من غير أن تجرحه..

لا تنتقد!!

ركب سيارة صاحبه.. فكانت أول كلمة قالها: ياااه!! ما أقدم سيارتك!!
ولما دخل بيته.. رأى الأثاث فقال: أووووه.. ما غيرت أثاثك؟!
ولما رأى أولاده.. قال: ما شاء الله.. حلوين.. لكن لماذا لا تلبسهم ملابس أحسن من هذه!!
ولما قدّمت له زوجته طعامه.. وقد وقفت المسكينة في المطبخ ساعات.. رأى أنواعه فقال: يااا الله.. لماذا ما طبخت رز؟ أوووه.. الملح قليل! لم أكن أشتهي هذا النوع!! دخل محلاً لبيع الفاكهة.. فإذا المحل مليء بأصناف الفواكه..
فقال عندك مانجو؟
قال صاحب المحل: لا.. هذه في الصيف فقط..
قال: عندك بطيخ؟
قال: لا..
فتغير وجهه وقال: ما عندك شيء.. فلماذا تفتح محلاً! وخرج..
ونسي أن في المحل أكثر من أربعين نوعًا من الفواكه..
نعم.. بعض الناس يزعجك بكثرة انتقاده.. ولا يكاد يعجبه شيء.. فلا يرى في الطعام اللذيذ إلا الشعرة التي سقطت فيه سهوًا.. ولا في الثوب النظيف إلا نقطة الحبر التي سالت عليه خطئًا.. ولا في الكتاب المفيد إلا خطئًا مطبعيًا وقع سهوًا.. فلا يكاد يسلم أحد من انتقاده.. دائم الملاحظات.. يدقق على الكبيرة والصغيرة..
أعرف أحد الناس.. زاملته طويلاً في أيام الثانوية والجامعة.. ولا تزال علاقتنا مستمرة.. إلا أني لا أذكر أنه أثنى على شيء..
أسأله عن كتاب ألفته وقد أثنى عليه أناس كثيرًا وطبع منه مئات الآلاف فيقول ببرود: والله جيد.. ولكن فيه قصة غير مناسبة.. وحجم الخط ما أعجبني.. ونوعية الطباعة أيضًا سيئة.. و..

وأسأله يومًا عن أداء فلان في خطبته.. فلا يكاد يذكر جانبًا مشرقا.. حتى صار أثقل علي من الجبل.. وصرت لا أسأله أبدًا عن رأيه في شيء لأني أعرفه سلفًا..

قل مثل ذلك فيمن يفترض المثالية في جميع الناس.. فيريد من زوجته أن يكون بيتها نظيفًا ٢٤ ساعة ١٠٠٪..

ويريدها أيضًا أن يبقى أطفالها نظيفين متزينين على مدى اليوم.. وإن زاره ضيوف افترض أن تطبخ أحسن الطعام..

وإن جالسها افترض أن تحدثه بأجمل الأحاديث.. وكذلك هو مع أولاده.. يريدهم ١٠٠٪ في كل شيء.. ومع زملائه.. ومع كل من يخالطه في الشارع والسوق.. و..

وإن قصّر أحد من هؤلاء أكله بلسانه وأكثر عليه الانتقاد وكرر الملاحظات.. حتى يمل الناس منه.. لأنه لا يرى في الصفحة البيضاء إلا الأسودَ..

من كان هذا حاله عذب نفسه في الحقيقة.. وكرهه أقرب الناس إليه واستثقلوا مجالسته..

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذا ... ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه؟!

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا ... رفيقك لن تلق الذي ستعاتبه

سبحان الله!! والله يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾..

قالت أمنا عائشة رضي الله عنها وهي تصف حال تعامله ﷺ معهم: ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط.. إن اشتهاه أكله وإلا تركه[٣٤].. نعم ما كان يصنع مشكلة من كل شيء..

وقال أنس رضي الله عنه: والله لقد خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين.. ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب عليّ شيئًا قط.. ووالله ما قال لي أفٍّ قط.. هكذا كان.. وهكذا ينبغي أن نكون..

وأنا بذلك لا أدعو إلى ترك النصيحة أو السكوت عن الأخطاء.. ولكن لا

---

(٣٤) متفق عليه.

تكن مدققًا في كل شيء.. خاصة في الأمور الدنيوية.. تعود أن تمشّي الأمور..

لو طرق بابك ضيف فرحبت به وأدخلته غرفة الضيوف فلما أحضرت الشاي تناول الفنجان.. فلما نظر إلى الشاي بداخله قال: لمَ لم تملأ الفنجان؟

فقلت: أزيدك؟

قال: لا.. لا.. يكفي..

فطلب ماء فأحضرت له كأس ماء فشربه.. فلما انتهى قال: ماؤكم حار.. ثم التفت إلى المكيف وقال: مكيفكم لا يبرد!! وجعل يشتكي الحر.. ثم.. ألا تشعر بثقل هذا الإنسان.. وتتمنى لو يخرج من بيتك ولا يعود..

إذن الناس يكرهون الانتقاد الكثير.. لكن إن احتجت إليه فغلّفه بغلاف جميل ثم قدمه للآخرين.. قدّمه في صورة اقتراح.. أو بأسلوب غير مباشر.. أو بألفاظ عامة..

كان رسول الله ﷺ إذا لاحظ خطئًا على أحد لم يواجهه به وإنما يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»..

يعني: إياك أعني واسمعي يا جارة..

في يوم من الدهر أقبل ثلاثة شباب متحمسين.. إلى المدينة النبوية.. كانوا يريدون معرفة كيفية عبادة النبي ﷺ وصلاته..

سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر.. فأخبرتهم زوجات النبي ﷺ أنه يصوم أحيانًا ويفطر أحيانًا.. وينام بعضًا من الليل ويصلي بعضه..

فقال بعضهم لبعض: هذا رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه.. ثم اتخذ كل واحد منهم قرارًا..!

فقال أحدهم: أنا لن أتزوج.. أي سأبقى عزبًا.. متفرغًا للعبادة..

وقال الآخر: وأنا سأصوم دائمًا.. كل يوم..

وقال الثالث: وأنا لا أنام الليل.. أي: سأقوم الليل كله..

فبلغ النبي ﷺ ما قالوه.. فقام على منبره.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام!! -هكذا مبهمًا، لم يقل ما بال فلان وفلان-.. ما بال أقوام قالوا: كذا

وكذا.. لكني أصلي وأنام.. وأصوم وأفطر.. وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٣٥)

وفي يوم آخر.. لاحظ النبي ﷺ أن رجالاً من المصلين معه.. يرفعون أبصارهم إلى السماء في أثناء صلاتهم.. وهذا خطأ فالأصل أن ينظر أحدهم إلى موضع سجوده..

فقال ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم.. -فلم ينتهوا عن ذلك واستمروا يفعلونه.. فلم يفضحهم أو يُسَمّهم بأسمائهم.. وإنما قال-: لينتهُنّ عن ذلك.. أو لتخطفن أبصارهم»(٣٦)..

وكانت بريرة جارية أمة مملوكة في المدينة.. أرادت أن تعتق من الرق.. فطلبت ذلك من سيدها.. فاشترط عليها مالاً تدفعه إليه.. فجاءت بريرة.. إلى عائشة تلتمس منها أن تعينها بمال..

فقالت عائشة: إن شئت أعطيت أهلك ثمنك.. فتعتقين.. لن يكون الولاء لي(٣٧)..

فأخبرت الجارية أهلها فأبوا ذلك.. وأرادوا أن يربحوا الأمرين.. ثمن عتقها.. وولاءها!! فسألت عائشة النبي ﷺ.. فعجب ﷺ من حرصهم على المال.. ومَنعهم للمسكينة من الحرية!!

فقال لعائشة: «ابتاعيها.. فأعتقيها.. فإنما الولاء لمن أعتق».. أي الولاء لك ما دام أنك دفعت المال.. ولا تلتفتي إلى شروطهم فهي ظالمة..

ثم قام رسول الله ﷺ **على المنبر فقال**: «ما بال أقوام -ولم يقل آل فلان-.. يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله.. من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله.. فليس له.. وإن اشترط مائة شرط»(٣٨).. نعم هكذا.. لوّح بالعصا من بعيد ولا تضرب بها..

---

(٣٥) متفق عليه.
(٣٦) رواه البخاري.
(٣٧) الولاء: هو إذا أعتق الشخص عبدًا مملوكًا صار الولاء للمعتق، بمعنى أن المعتق يدخل ضمن ورثة هذا العبد المملوك بعد موته، فيشارك أهل العبد في ورثه.
(٣٨) متفق عليه.

فما أجمل أن تقول لزوجتك المهملة في نظافة بيتها: البارحة تعشينا عند صاحبي فلان.. وكان الجميع يثني على نظافة منزله.. أو تقول لولدك المهمل للصلاة في المسجد..: أنا أعجب من فلان ابن جيراننا ما نكاد نفقده في المسجد أبدًا..!!

يعني.. إياك أعني واسمعي يا جارة!!

ويحق لك أن تسأل: لماذا يكره الناس الانتقاد؟

فأقول: لأنه يشعرهم بالنقص.. فكل الناس يحبون الكمال..

ذكروا أن رجلاً بسيطًا أراد أن يكون له شيء من التحكم.. فعمد إلى ثِرْمُسَيْ ماء أحدهما أخضر والثاني أحمر..

وعبأهما بالماء البارد.. ثم جلس للناس في طريقهم.. وجعل يصيح: ماء بارد مجانًا..

فكان العطشان يُقبل عليه ويتناول الكأس ليصب لنفسه ويشرب.. فإذا رآه صاحبنا قد توجه للترمس الأخضر..

قال له: لا.. اشرب من الأحمر.. فيشرب من الأحمر..

وإذا أقبل آخر.. وأراد أن يشرب من الأحمر.. قال له: لا.. اشرب من الأخضر..

فإذا اعتراض أحدهم.. وقال: ما الفرق؟!

قال: أنا المسؤول عن الماء.. يعجبك هذا النظام أو دبر لنفسك ماءً.. إنه شعور الإنسان الدائم بالحاجة إلى اعتباره والاهتمام به..

نحلة.. وذباب!!

كن كالنَّحلة تقع على الطيب وتتجاوز الخبيث..

ولا تك كالذباب يتتبع الجروح!!

لا تكن أستاذيًا!!

قارن بين ثلاثة آباء.. رأى كل واحد ولده جالسًا عند التلفاز في أيام الامتحانات..

فقال الأول لولده: يا محمد.. ذاكر دروسك..

وقال الثاني: ماجد.. إذا لم تذاكر دروسك.. فوالله لأضربك.. وأحرمك من المصروف.. و..

أما الثالث فقال: صالح.. لو تذاكر دروسك.. أحسن لك من التلفاز.. صح؟!! أيهم أحسن أسلوبًا..؟

لا شك أنه الثالث.. لأنه قدم أمره على شكل اقتراح..

وكذلك في التعامل مع زوجتك.. سارة ليتك تعملين شايًا.. هند أتمنى أن أتغدى مبكرًا اليوم..

وكذلك.. عندما يخطئ إنسان.. عالج خطأه بأسلوب يجعله يشعر أن الفكرة فكرته هو.. ولدك يغيب عن الصلاة في المسجد..

قل له -مثلاً-: سعد.. أما تريد أن تدخل الجنة.. بلى.. إذن حافظ على صلاتك..

في يوم من الأيام.. وفي خيمة أعرابي في الصحراء.. جعلت امرأة تتأوه تلد.. وزوجها عند رأسها ينتظر خروج المولود..

اشتد المخاض بالمرأة حتى انتهت شدتها وولدت.. لكنها ولدت غلامًا أسود!! نظر الرجل إلى نفسه.. ونظر إلى امرأته فإذا هما أبيضان.. فعجبَ كيف صار الغلام أسود!!

أوقع الشيطان في نفسه الوساوس.. لعل هذا الولد من غيرك!! لعلها زنى بها رجل أسود فحملت منه!! لعل..

اضطرب الرجل وذهب إلى المدينة النبوية.. حتى دخل على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه.. فقال: يا رسول الله.. إن امرأتي ولدت على فراشي غلامًا أسود!! وإنا أهل بيت لم يكن فينا أسود قط!!

نظر النبي ﷺ إليه.. وكان قادرًا على أن يسمعه موعظة حول حسن الظن بالآخرين ..وعدم اتهام امرأته..لكنه أراد أن يمارس معه في الحل أسلوبا آخر.. أراد أن يجعل الرجل يحل مشكلته بنفسه..

فبدأ يضرب لهم مثلا يقرب له الجواب..فما المثل المناسب له؟

هل يضرب له مثلا بالأشجار؟أم بالنخل؟أم بالفرس والروم؟

نظر إليه ﷺ إذا الرجل عليه أثار البادية..وإذا هو مضطرب تتزاحم الأفكار في رأسه حول امرأته..

فقال له ﷺ: «هل لك من إبل؟».

قال: نعـم..

قال: فما ألوانها؟

قال: حمـر.

قال: هل فيها أسود؟

قال: لا..

قال: فيها أورق؟

قال: نعـم..

قال: فأنى كان ذلك؟!

يعني: ما دام أنها كلها حمر ذكورًا وإناثا..وليس فيها أي لون آخر.. فكيف ولدت الناقة الحمراء ولدا أورق؟!.. يختلف عن لونها ولون الأب(الفحل)..

فكر الرجل قليلا ..ثم قال: عسى أن يكون نزعه عرق..يعني قد يكون من أجداده من هو أورق..فلا زال الشبه باقيًا في السلالة..فظهر في هذا الولد

فقال ﷺ: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق»[٣٩] ..

سمع الرجل هذا الجواب..فكر قليلا فإذا هو جوابه هو.. والفكرة فكرته..فاقتنع وأيقن..ومضى إلى امرأته..

---

(٣٩) رواه مسلم وابن ماجة واللفظ له.

وفي يوم آخر.. جلس ﷺ مع أصحابه ..فجعل يحدثهم عن أبواب الخير..

وكان مما ذكره..أن قال: «وفي بضع أحدكم صدقة».. أي وطء أحدكم امرأته له فيه أجر..

فعجب الصحابة وقالوا: يا رسول الله.. يأتي أحدنا شهوته..ويكون له أجر؟!!

فأجابهم ﷺ بجواب يشعرون به أن الفكرة فكرتهم.. فلا يحتاجون لنقاش لا قناعهم بها..فقال ﷺ «أرأيتم لو وضعها في حرام .. أكان عليه وزر»..

قالوا: نعم.. قال: «فكذلك لو وضعها في حلال كان له أجر»..

بل حتى أثناء الحوار مع الآخر..تدرج معه عند النصح في الأشياء التي أنتما متفقان عليها..

خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا في ألف وأربعمائة من أصحابه..فمنعتهم قريش من دخول مكة..ووقعت أحداث قصه الحديبية المشهورة..في آخر الأمر وبعد مشاورات طويلة بين النبي ﷺ وقريش.. اتفقوا على صلح..

كان الذي تولى الاتفاق على بنود الصلح من جانب قريش هو سهيل بن عمرو.. اتفق النبي ﷺ مع سهيل على شروط..منها:

أن يعود المسلمون أدراجهم إلى المدينة من غير عمرة..

وأن من دخل في الإسلام من أهل مكة وأراد أن يهاجر إلى المدينة فإن المسلمين في المدينة لا يقبلونه..

أما من ارتد عن إسلامه وأراد الذهاب إلى المشركين في مكة فإنه يقبل..!!

إلى غير ذلك من الشروط التي في ظاهرها أنها هزيمة للمسلمين وإذلال لهم..

كانت قريش في الواقع خائفة من هذا العدد الكبير من المسلمين.. وتعلم أن المسلمين لو شاؤوا لفتحوا مكة..

ولهذا كانت قريش تضطر إلى التلطف والمصانعة.. وكأني بهم.. ما كانوا يحلمون أن يظفروا ولا بربع هذه الشروط.. كان أكثر الصحابة متضايقًا من شروط العقد.. لكن أني لهم أن يعترضوا.. والذي يكتب العقد ويمضيه رجل لا ينطق عن الهوى..

كان عمر متحفزًا.. ينظر يمينًا وشمالا.. يتمنى لو يستطيع عمل شيء.. فلم يصبر.. وثب عمر فأتى أبا بكر.. وأراد أن يناقشه..

فمن حكمته.. لم يبدأ بالاعتراض.. وإنما بدأ بالأشياء التي هما متفقان عليها.. وجعل يسأل أبا بكر أسئلة جوابها.. بلى.. نعم.. صحيح..

فقال: يا أبا بكر.. أليس برسول الله..؟!

قال: بلى..

قال: أولسنا بالمسلمين؟!

قال: بلى..

قال: أوليسوا بالمشركين؟!

قال: بلى..

قال: أولسنا على الحق؟

قال: بلى..

قال: أوليسوا على الباطل؟

قال: بلى..

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟!

فقال أبو بكر: يا عمر.. أليس هو رسول الله.؟

قال: بلى..

قال: فالزم غرزه.. فإني أشهد أنه رسول الله.. أي كن وراءه تابعًا لا تخالفه أبدًا.. كما أن غرزات الخيط في الثوب تكون متتابعة..

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله..

مضى عمر.. حاول أن يصبر.. فلم يستطع.. فذهب إلى رسول الله ﷺ..

فقال: يا رسول الله.. ألست برسول الله؟!

قال: «بلى»..

قال: أولسنا بالمسلمين..؟

قال: «بلى»..

قال: أوليسوا بالمشركين..

قال: «بلى»..

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟!

فقال ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله.. لن أخالف أمره.. ولن يضيعني»..

سكت عمر.. ومضى الكتاب.. ورجع المسلمون إلى المدينة.. ومضت الأيام.. ونقضت قريش العهد.. وأقبل رسول الله ﷺ فاتحًا مكة.. مطهرًا البيت الحرام من الأصنام.. وأدرك عمر أنه كان في اعتراضه حينذاك على غير السبيل..

فكان ﷺ يقول: ما زلت أصوم.. وأتصدق.. وأصلي.. وأعتق.. من الذي صنعت يومئذ.. مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ.. حتى رجوت أن يكون خيرًا.. فلله در عمر.. ودر رسول الله ﷺ قبله..

كيف نستفيد أكثر من هذه المهارة؟

لو كان ولدك لا يعتني بحفظ القرآن.. وتريده أن يزداد حرصًا.. ابدأ بالأشياء التي أنتما متفقان عليها..

ألا تريد أن يحبك الله..

ألا تريد أن ترتقي في درجات الجنة..

سيجيبك حتمًا: بلى..

عندها قدم النصيحة على شكل اقتراح: إذن فلو أنك شاركت في حلقة تحفيظ القرآن..

وكذلك أنت لو رأيت امرأة لا تعتني بحجابها..

ابدئي معها بالأشياء التي أنتما متفقتان عليها.. أنا أعلم أنك مسلمة.. وحريصة على الخير.. ستقول: صحيح.. الحمد لله.. وامرأة عفيفة.. وتحبين الله.. ستقول: إي والله.. الحمد لله.. عندها قدمي النصيحة على شكل اقتراح: فلو أنك اعتنيت بحجابك أكثر.. وحرصت على الستر..

هكذا يمكننا أن نحصل على ما نريد من الناس من غير أن يشعروا..

بارقة..

تستطيع أن تأكل العسل دون تحطيم الخلية..

أمسك العصا من النصف!!

أشكرك على اختيارك مهنة التدريس..وقد آتاك الله أسلوبًا حسنًا..وطلابك يحبونك كثيرًا..و..ولكن: أتمنى أنْ لا تتأخر على الدوام صباحًا..

أنت جميلة..والبيت مرتب..ولا أنكر أن الأولاد متعبون..و..ولكن: أتمنى أن تهتمي بملابسهم أكثر..

هكذا كان أسلوب صالح مع الناس..يذكر الجوانب المشرقة عند المخطئ ثم ينبهه على أخطائه.. ليكون عادلا..

عندما تنتقد حاول أن تذكر جوانب الصواب في المخطئ..قبل غيرها..حاول دائمًا أن تشعر الذي أمامك أن نظرتك إليه مشرقة..

وأنك عندما تنبهه على أخطائه لا يعني ذلك أنه سقط من عينك..أو أنك نسيت حسناته ولا تذكر إلا سيئاته..

لا..بل أشعره أن ملاحظاتك عليه تغوص في بحر حسناته..كان النبي ﷺ محبوبًا بين أصحابه..وكان يمارس أساليب رائعة في التعامل معهم..

وقف مرة بينهم..فشخص ببصره إلى السماء..كأنه يفكر أو يترقب شيئًا..ثم قال: «هذا أوانُ يختلس العلم من الناس..حتى لا يقدروا منه على شيء»..

أي: يُعرض الناس عن القرآن وتعلمه..وعن العلم الشرعي..فلا يحرصون عليه ولا يفهمونه.. فيُختلسُ منهم..أي: يرفع عنهم. فقام صحابي جليل..هو زياد بن لبيد الأنصاري وقال بكل حماس: يا رسول الله، وكيف يختلس منا؟! وقد قرأنا القرآن! فوالله لنقرأنه، ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا..

فنظر إليه النبي ﷺ ..فإذا شاب يتفجر حماسًا وغيرة على الدين..فأراد أن ينبهه على فهمه..

فقال: «ثكلتك أمك يا زياد، إنْ كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة»..
وهذا ثناء على زياد..أن يقول له رسول الله ﷺ أمام الناس إنه من فقهاء

المدينة..هذا ذكر لجوانب الصواب والصفحات المشرقة لزياد..

ثم قال ﷺ: «هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم؟!»(٤٠)..

أي ليست العبرة يا زياد بوجود القرآن..وإنما العبرة بقراءته ومعرفة معانيه والعمل بأحكامه..هكذا كان تعامله رائعًا..

وفي يوم آخر..يمر ﷺ ببعض قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام..وكان يختار أحسن العبارات لأجل ترغيبهم في الاستجابة له والدخول في الإسلام..

فمر بقبيلة منهم..اسمهم: بنو عبد الله..فدعاهم إلى الله..وعرض عليهم نفسه..وجعل يقول لهم: «يا بني عبد الله..إن الله قد أحسن اسم أبيكم».. يعني لستم ببني عبد العزى..أو بني عبد اللات..وإنما أنتم بنو عبد الله..فليس في اسمكم شرك فادخلوا في الإسلام..

بل كان من براعته ﷺ أنه كان يرسل رسائل غير مباشرة إلى الناس..يذكر فيها إعجابه بهم..ومحبته الخير لهم..فإذا بلغتهم هذه الرسائل..عملت فيهم من التأثير أكثر مما تعمله - ربّما - الدعوة المباشرة..

كان خالد بن الوليد ﷺ بطلا..ولم يكن بطلا عاديًا..بل كان بطلا مغوارًا..يضرب له ألف حساب..وكان النبي ﷺ يتشوق لإسلامه..لكن أنى له ذلك..وخالد ما ترك حربًا ضد المسلمين إلا خاضها..بل كان هو من أكبر أسباب هزيمة المسلمين في معركة أحد..

قال فيه النبي ﷺ يومًا.. «لو جاءنا لأكرمناه..وقدمناه على غيره»..

فكيف كان تأثير ذلك؟

خذ القصة من أولها.. كان خالد من أشداء الكفار وقادتهم..لا يكاد يفوت فرصة إلا حارب فيها رسول الله ﷺ أو ترصّد له..فلما أقبل رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى الحديبية..وأرادوا العمرة..

خرج خالد في خيل من المشركين..فلقوا النبي ﷺ وأصحابه بموضع يقال

---

(٤٠) رواه الترمذي والحاكم وهو صحيح.

له: عسفان..فقام خالد قريبًا منهم يتحين الفرصة ليصيب رسول الله ﷺ برمية سهم أو ضربة سيف..

جعل يترصد ويترقب..فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أمامهم..فهموا أن يهجموا عليهم..فلم يتيسر لهم..فكأن النبي ﷺ علم بهم..فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف..

أي قسم أصحابه إلى فريقين..فريق يصلي معه وفريق يحرس..فوقع ذلك من خالد وأصحابه موقعًا..وقال في نفسه: الرجل ممنوع عنا..أي هناك من يحميه ويمنع عنه الأذى!!

ثم ارتحل ﷺ وأصحابه..وسلكوا طريقًا ذات اليمين..لئلا يمروا بخالد وأصحابه..وصل ﷺ إلى الحديبية..صالح قريشًا على أن يعتمر في العام القادم..ورجع إلى المدينة..

رأى خالد أن قريشًا لا يزال شأنها ينخفض في العرب يومًا بعد يوم..

فقال في نفسه:أي شيء بقي؟ أين أذهب؟

إلى النجاشي؟..لا..فقد اتبع محمدًا وأصحابُه عنده آمنون..

فأخرج إلى هرقل؟..لا..أخرج من ديني إلى نصرانية؟..أو يهودية؟ وأقيم في عَجَم؟..

فبينما خالد يفكر في شأنه..ويتردد..والأيام الشهور تمضي عليه..حتى انقضت سنة كاملة..وجاء موعد عمرة المسلمين..فأقبلوا إلى المدينة..

دخل ﷺ مكة معتمرًا..فلم يحتمل خالد رؤية المسلمين محرمين..فخرج من مكة..وغاب أربعة أيام وهي الأيام التي قضاها النبي ﷺ في مكة..قضى النبي ﷺ عمرته..وجعل ينظر في طرقات مكة وبيوتها..ويستعيد الذكريات..

تذكر البطل خالد بن الوليد..فالتفت إلى الوليد بن الوليد..وهو أخو خالد..

وكان الوليد مسلمًا قد دخل مع النبي ﷺ معتمرًا..

وأراد ﷺ أن يبعث إلى خالد رسالة غير مباشرة.. يرغبه فيها بالدخول في الإسلام..

قال ﷺ للوليد:«أين خالد؟».

فوجئ الوليد بالسؤال.. وقال: يأتي الله به يا رسول الله..

فقال ﷺ: «مثله يجهل الإسلام!! ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين.. كان خيرًا له»..

ثم قال: «ولو جاءنا لأكرمناه.. وقدمناه على غيره»..

استبشر الوليد.. وجعل يطلب خالدًا ويبحث عنه في مكة.. فلم يجده.. فلما عزموا على الرجوع للمدينة..

كتب الوليد كتابًا إلى أخيه: بسم الله الرحمن الرحيم.. أما بعد.. فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام.. وعقلك عقلك! ومثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك وقال: «أين خالد؟».

فقلت: يأتي الله به.. فقال: «مثله جهل الإسلام!! ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين.. كان خيرًا له.. ولو جاءنا لأكرمناه.. وقدمناه على غيره».. فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة..

قال خالد: فلما جاءني كتابه.. نشطت للخروج.. وزادني رغبة في الإسلام.. وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني.. وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة.. فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة.. فقلت: إن هذه لرؤيا حق..

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟! فلقيت صفوان بن أمية.. فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه؟

إنما نحن كأضراس يطحن بعضها بعضًا.. وقد ظهر محمد على العرب والعجم.. فلو قدمنا على محمد واتبعناه.. فإن شرف محمد لنا شرف؟

فأبى أشد الإباء.. وقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبدًا..

فافترقنا.. وقلت في نفسي: هذا رجل مصاب.. قتل أخوه وأبوه بمعركة بدر.. فلقيت عكرمة بن أبي جهل.. فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية..

فقال لي مثل ما قال لي صفوان بن أمية.

قلت: فاكتم علي خروجي إلى محمد..

قال: لا أذكره لأحد.. فخرجت إلى منزلي.. فأمرت براحلتي فخرجت بها.. إلى أن لقيت عثمان بن طلحة..

فقلت: إن هذا لي صديق.. فلو ذكرت له ما أرجو.. ثم ذكرت من قتل من آبائه في حربنا مع المسلمين.. فكرهت أن أذكره..

ثم قلت: وما علي أن أخبره.. وأنا راحل في ساعتي هذه!..

فذكرت له ما صار أمر قريش إليه.. وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر.. لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج.. وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبي.. فأسرع الاستجابة وعزم على الخروج معي للمدينة!..

فقلت له: إني خرجت هذا اليوم.. وأنا أريد أن أمضي للمدينة.. وهذه راحلتي مجهزة لي على الطريق..

قال: فتواعدنا أنا وهو في موضع يقال له «يأجج».. إن سبقني أقام ينتظرني.. وإن سبقته أقمت أنتظره..

فخرجت من بيتي آخر الليل سحرًا.. خوفًا من أن تعلم قريش بخروجنا.. فلم يطلع الفجر حتى التقينا في «يأجج».. فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة.. فوجدنا عمرو بن العاص على بعيره..

قال: مرحبًا بالقوم.. إلى أين مسيركم؟

فقلنا: وما أخرجك؟

فقال: وما أخرجكم؟

قلنا: الدخولُ في الإسلام.. واتباع محمد ﷺ.

قال: وذاك الذي أقدمني.

فاصطحبنا جميعًا حتى دخلنا المدينة.. فأنخنا بظهر الحرة ركابنا.. فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا.. فلبست من صالح ثيابي..

ثم توجهت إلى رسول الله ﷺ.. فلقيني أخي فقال: أسرع.. فإن رسول الله ﷺ. قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم.. فأسرعنا السير..

فأقبلت إلى رسول الله أمشي.. فلما رآني من بعيد تبسم..

فما زال يتبسم إلي حتى وقفت عليه.. فسلمت عليه بالنبوة.. فرد علي السلام بوجه طلق..

فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله.. وأنك رسول الله..

فقال: «الحمد لله الذي هداك.. قد كنت أرى لك عقلاً.. رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير»..

قلت: يا رسول الله.. إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك.. معاندًا للحق.. فادع الله أن يغفرها لي..

فقال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله»..

قلت: يا رسول الله.. على ذلك.. فاستغفر لي..

قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد.. كل ما أوضع فيه.. من صد عن سبيل الله»..

ومن بعدها كان خالد رأسًا من رؤوس هذا الدين..

أما إسلامه فكان برسالة غير مباشرة وصلت إليه من رسول الله ﷺ.. فما أحلمه ﷺ وأحكمه.. فلنتتبع مثل هذه المهارات في التأثير في الناس..

فلو رأيت شخصًا يبيع سجائر في بقالة فأردت تنبيهه.. فأثن أولاً على بقالته ونظافتها.. وادعُ له بالبركة في الربح.. ثم نبهه على أهمية الكسب الحلال.. ليشعر أنك لم تنظر إليه بمنظار أسود.. بل أمسكت العصا من النصف..

كن ذكيًا.. ابحث عن أي حسنات فيمن أمامك تغمر فيها سيئاته.. أحسن الظن بالآخرين.. ليشعروا بعدلك معهم فيحبوك..

لمحة..

عندما يقتنع الناس أننا نلحظ حسناتهم..

كما نلحظ سيئاتهم.. يقبلون منا التوجيه..

اجعل معالجة الخطأ سهلة..

تتنوع الأخطاء التي تقع من الناس كبرًا وصغرًا.. ومهما كان حجم الخطأ فإنه يمكن علاجه.. نعم قد لا يفيد العلاج في إصلاح ما أفسده الخطأ ١٠٠٪ لكنه على الأقل يصلح أكثر الفاسد.. عدد غير قليل من الناس لا يسعى إلى إصلاح أخطائه لشكه في قدرته أصلاً على علاجها..

وأحيانًا تكون طريقتنا في التعامل مع الأخطاء هي جزء من الخطأ نفسه.. يقع ولدي في خطأ فألومه وأحقره وأعظم عليه الخطأ حتى يشعر بأنه سقط في بئر ليس له قاع!! فييأس من الإصلاح.. ويبقى على ما هو عليه..

وقد تقع في الخطأ زوجتي أو يقع فيه صديقي.. فإذا أشعرته أنه أخطأ ولكن الطريق لم ينقطع بعد فمعالجة الخطأ سهلة.. والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.. كان هذا أكثر إصلاحًا له..

جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة.. وقال: إني جئت أبايعك على الهجرة.. وتركت أبواي يبكيان.. فلم يعنفه ﷺ أو يحقر فعله.. أو يصغر عقله.. فالرجل جاء بنية صالحة ويرى أنه فعل الأصلح.. أشعره ﷺ أن معالجة الخطأ سهلة فقال له بكل بساطة: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»[41].. وانتهى الأمر..

كان ﷺ يتعامل مع الناس بأساليب تربي فيهم الرغبة في الخير وتشعرهم أنهم إلى الخير أقرب.. حتى وإن وقعوا في أخطاء..

وبين يدي حادثة مروعة.. الشاهد منها آخرها.. لكني سأوردها من أولها رغبة في الفائدة.. كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين نسائه.. فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.. فلما أراد الخروج إلى غزوة بني المصطلق.. أقرع بينهن فخرج سهم عائشة.. فخرجت مع رسول الله ﷺ.. وذلك بعدما أنزل الحجاب.. وكانت تحمل في هودج.. فإذا نزلوا نزلت من هودجها..

(٤١) روه أبو داود والنسائي وهو صحيح.

وقضت حاجاتها.. فإذا أرادوا الارتحال ركبت فيه..

فلما فرغ رسول الله ﷺ من غزوته.. توجه قافلاً إلى المدينة.. حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل.. ثم آذن الناس بالرحيل..

فبدأ الناس يجمعون متاعهم للرحيل.. فخرجت عائشة لبعض حاجتها.. وفي عنقها عقد لها فيه جزع ظفار..

فلما فرغت من حاجتها.. انسل العقد من عنقها وسقط وهي لا تدري.. فلما رجعت العسكر.. وأرادت الدخول في هودجها.. لمست عنقها فلم تجد العقد.. وقد بدأ الناس في الرحيل..

فرجعت سريعًا إلى مكانها الذي قضت فيه حاجتها.. فأخذت تبحث عنه.. وأبطأت.. وجاء القوم فحملوا هودجها وهم يظنون أنها فيه.. فاحتملوه.. فشدوه على البعير.. ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.. وسار الجيش..

أما عائشة فبعد بحث طويل.. وجدت العقد.. فعادت إلى مكان الجيش..

قالت عائشة: فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب.. قد انطلق الناس.. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.. فتلففت بجلبابي..

فبينما أنا جالسة في منزلي إذ غلبتني عيني فنمت.. فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل.. وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته.. فلم يبت مع الناس..

فرأى سواد إنسان نائم.. فأتاني فعرفني حين رآني.. وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علينا.. فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ظعينة رسول الله ﷺ؟

فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي.. ووالله ما كلمني كلمة.. ولا سمعت منه غير استرجاعه.. حتى أناخ راحلته.. فوطئ على يديها.. فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس..

فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدوني حتى أصبحنا.. فوجدناهم نازلين..

فبينما هم كذلك.. إذ طلع الرجل يقود بي البعير.. فقال أهل الإفك ما قالوا.. وارتج العسكر.. ووالله ما أعلم بشيء من ذلك..

ثم قدمنا المدينة.. فلم ألبث أن مرضت واشتكيت شكوى شديدة..وأنا لا يبلغني من كلام الناس شيء..

وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي.. وهو لا يذكرون لي منه قليلا ولا كثيرًا.. إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي..

كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي.. فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك.. بل كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك.. حتى وجدت في نفسي.. فلما رأيت جفاءه لي قلت: يا رسول الله.. لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني..

قال: «لا عليك».. فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان.. حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة..

فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت خالة أبي بكر رضي الله عنه.. فوالله إنها لتمشي معي إذ تعثرت في مرطها.. وسقطت أو كادت..

فقالت: تعس مسطح..

قلت: بئس لعمر الله ما قلت.. تسبين رجلاً قد شهد بدرًا؟

فقالت: أي هنتاه.. أولم تسمعي ما قال؟ أوما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر..

قلت: وما الخبر؟

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك..

قلت: أوقد كان هذا؟

قالت: نعم والله لقد كان..

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ورجعت.. فازددت مرضًا إلى مرضي.. فوالله ما زلت أبكي..حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي.. وقلت لأمي: يغفر الله لك.. تحدث الناس بما تحدثوا به.. ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا..

قالت: أي بنية خفضي عليك الشأن.. فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها.. ولها ضرائر إلا كثرن.. وكثر الناس عليها..

قلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت.. لا يرقأ لي دمع.. ولا أكتحل بنوم.. ثم أصبحت أبكي..

هذا حال عائشة.. تتهم بذلك وهي الفتاة التي لم يتجاوز عمرها خمس عشرة سنة.. تتهم بالزنا.. وهي العفيفة الشريفة.. زوجة أطهر الناس.. التي ما كشفت سترها.. ولا هتكت عرضها.. هذا حالها تبكي في بيت أبويها..

أما حال رسول الله ﷺ.. فلا يبعد حزنًا وهمًا.. عن عائشة.. فلا جبريل يرسل.. ولا القرآن ينزل.. ويبقى ﷺ متحيرًا في أمره.. وقد كبر عليه اتهام المنافقين.. وكلام الناس في عرضه زوجه..

فلما طال الأمر عليه.. قام ﷺ في الناس فخطبهم.. فحمد الله.. وأثنى عليه.. ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي.. ويقولون عليهم غير الحق..

والله ما علمت عليهم إلا خيرًا.. ويقولون ذلك لرجل.. والله ما علمت منه إلا خيرًا ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي»..

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة.. قام أمير الأوس سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفك إياهم.. وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم..

فلما سمع ذلك أمير الخزرج سعد بن عبادة قام.. وكان رجلاً صالحًا.. لكن أخذته الحمية..

قام فقال: كذبت لعمر الله.. ما تضرب أعناقهم.. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج؟ ولو كانوا من قومك ما قلت هذا..

فقال أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله.. والله لنقتلنه.. ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.. ثم ثار الناس بعضهم إلى بعض.. حتى كادوا أن يقتتلوا.. ورسوله الله ﷺ قائم على المنبر.. فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا.. وسكت.. فلما رأى ﷺ ذلك.. نزل فدخل بيته..

ولما رأى أن الأمر لا يمكن حله من جهة عموم الناس.. أراد أن يجد حلاً من جهة أهل بيته.. وأخص الناس به.. فدعا عليًا وأسامة بن زيد.. فاستشارهما..

فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرًا وقال: يا رسول الله.. أهلك وما نعلم منهم إلا خيرًا.. وهذا الكذب والباطل..

وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير.. وإنك لقادر على أن تستخلف.. وسل الجارية فإنها ستصدقك.. فدعا رسول الله ﷺ بريرة..

فقال: «أي بريرة.. هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟».

فقالت بريرة: لا.. والذي بعثك بالحق نبيًا.. والله ما أعلم إلا خيرًا.. وما كنت أعيب على عائشة شيئًا.. إلا أنها جارية حديثة السن.. فكنت أعجن عجيني.. فآمرها أن تحفظه فتنام عنه.. فتأتي الشاة فتأكله..

نعم.. كيف ترى الجارية على عائشة ريبة.. وهي الفتاة الصالحة التي رباها صدّيق الأمة أبو بكر.. وتزوجها سيد ولد آدم..

بل كيف تقع في ريبة..؟! وهي أحب الناس إلى رسول الله.. ولم يكن ﷺ يحب إلا طيبًا.. فهي البريئة المبرأة.. ولكن الله يبتليها ليعظم أجرها.. ويرفع ذكرها..

وتمضي على عائشة الأيام.. والآلام تلد الآلام.. وهي تتقلب على فراش مرضها.. لا تهنأ بطعام ولا شراب..

وقد حاول رسول الله ﷺ أن يحل المشكلة.. بخطبة على رؤوس الناس فكادت الحرب تقع بين المسلمين.. وحاول أن يحلها في بيته ويسأل عليًا وزيدًا.. فلم يخرج بشيء.. فلما رأى ذلك.. أراد أن ينهي الأمر من جهة عائشة..

قالت ﵂: وبكيت يومي ذلك لا ترقأ لي دمعة.. ولا أكتحل بنوم..ثم بكيت ليلتي المقبلة لا ترقأ لي دمعة ولا أكتحل بنوم.. وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي..

فأقبل يحث الخطى إلى بيت أبي بكر.. فاستأذن.. ودخل عليها وعندها أبوها وأمها.. وامرأة من الأنصار.. وهي أول مرة يدخل فيها بيت أبي بكر.. منذ قال الناس ما قالوا.. وما رأى عائشة منذ قرابة الشهر.. وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شيء في شأن عائشة..

دخل ﷺ على عائشة.. فإذا طريحة الفراش.. وكأنها فرخ منتوف من شدة البكاء والهم..

وإذا هي تبكي.. والمرأة تبكي معها.. لا يملكان من الأمر شيئًا.. فجلس رسول الله ﷺ.. فحمد الله وأثنى عليه.. ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني

عنك كذا وكذا».. وذكر ﷺ خبر الإفك.. وما أشيع من وقوعها في خطأ كبير.. ثم أراد ﷺ أن يبين لها أن الإنسان مهما وقع في خطأ فإن معالجة هذا الخطأ ليست صعبة.. فقال لها: «فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل.. وإن كنت ألممت بذنب.. فاستغفري الله عز وجل وتوبي إليه.. فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب.. تاب الله عليه».. هكذا..حل سهل للخطأ – إن كان قد وقع – دون تعقيد وتطويل..

قالت عائشة: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته.. قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة.. وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما..

فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال..

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ..

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ

ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام .. فلما استعجما علي.. استعبرت فبكيت؟

ثم قلت: لا.. والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا..

إني والله قد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرّ في أنفسكم وصدقتم به.. ولئن قلت لكم إني بريئة – والله عز وجل يعلم أني بريئة – لا تصدقوني.. وإن اعترفت لكم بأمر – والله عز وجل يعلم أني منه بريئة – لا تصدقوني.. وإني والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.. قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.. وأنا والله أعلم أني بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي.. ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى.. ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى.. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله عز وجل بها..

فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه.. ولا خرج من أهل البيت أحد.. حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه.. وأنزل الله على نبيه.. فأما أنا حين رأيته يوحى

إليه.. فوالله ما فزعت.. وما باليت.. قد عرفت أني بريئة.. وأن الله غير ظالمي..

وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده.. ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما.. فرقًا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.. فلما سري عنه ﷺ.. فإذا هو يضحك.. فجعل يمسح العرق عن وجهه..

وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك..

فقلت: الحمد لله.. وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١١-١٣]..

وتوعد الله أولئك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]..

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس.. فخطبهم.. وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن في ذلك.. ثم أقام حد القذف على من قذف..

إذن.. ينبغي أن تتعامل مع المخطئ على أنه مريض يحتاج إلى علاج.. لا أن تبالغ في كبته وتعنيفه.. لأنه قد يصل إلى درجة يشعر معها أنك فرحٌ بهذا الخطأ.. والطبيب الناصح هو الذي يهتم بصحة مرضاه أكثر من اهتمامهم هم بأنفسهم.. قال ﷺ: إنما مثلي ومثل الناس..كمثل رجل استوقد نارًا.. فلما أضاءت ما حوله.. جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها..

فجعل ينزعهن.. ويغلبنه فيقتحمن فيها!!

فأنا آخذ بحجزكم عن النار.. وأنتم تقحمون فيها..

رأي..

أحيانًا تكون طريقتنا في التعامل مع الأخطاء
أكبر من الخطأ نفسه..

الرأي الآخر

كما أن الناس يختلفون في طباعهم وأشكالهم.. كذلك هم يختلفون في وجهات نظرهم.. وفي قناعاتهم وتصرفاتهم.. فإذا شعرت أن أحدًا خالف الصواب.. ونصحته وحاولت إصلاح خطئه ولم يقتنع.. فلا تصنف اسمه من بين أعدائك.. وخذ الأمور بأريحية قدر المستطاع..

فلو حاولت إصلاح خطأ عند أحد زملائك فلم يستجب.. فلا تقلب الصداقة عداوة.. وإنما استمر في التلطف فلعله أن يبقى على خطئه ولا يزيد..

وقد قيل: حنانيك بعض الشر أهون من بعض.. إذا تعاملت مع الناس بهذه الأريحية.. فلم تغضب على كل صغيرة وكبيرة.. عشت سعيدًا..

قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط..

وما ضرب شيئًا قط بيده.. ولا امرأة.. ولا خادمًا.. إلا أن يجاهد في سبيل الله..

وما نيل منه شيء قط.. فينتقم من صاحبه.. إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله..[٤٢]

إذن.. كان ﷺ يغضب.. لكنه غضبه لله.. لا يغضب لنفسه.. وحتى نفهم الفرق بين الغضبين: افرض أن ولدك الصغير جاءك ذات صباح وطلب ريالاً أو ريالين مصروفًا للمدرسة.. فبحثت في محفظة نقودك.. فلم تجد إلا فئة الخمسمائة ريال.. فأعطيتها له.. وقلت: هذه خمسمائة ريال.. اصرف منها ريالين.. وأرجع الباقي.. وأكدت عليه وكررت..

فلما رجع بعد الظهر فإذا المال كله قد صرفه.. فماذا ستفعل؟.. وكيف سيكون غضبك..؟ قد تضرب وتعنف وتمنعه من مصروفه أيامًا..

ولكن لو رجعت مرة من صلاة العصر ووجدته يلعب بالكمبيوتر.. أو عند التلفاز.. ولم يصل في المسجد.. فهل ستغضب كغضبك الأول؟

أظننا نتفق أن غضبنا الأول سيكون أشد وأطول وأكثر تأثيرًا من غضبنا الثاني..

أما رسول الله ﷺ فكان غضبه لله.. وكان يعرض النصيحة أحيانًا ولا

(٤٢) رواه مسلم.

تقبل.. فيأخذ الأمر بهدوووء.. فالهداية بيد الله..

قدم رسول الله ﷺ إلى تبوك على حدود الشام.. اقترب من مملكة الروم.. فبعث دحية الكلبي رضي الله عنه رسولاً إلى هرقل ملك الروم..

وصل دحية رضي الله عنه إلى هرقل.. دخل عليه.. ناوله كتاب رسول الله ﷺ. فلما أن رأى هرقل الكتاب دعا قسيسي الروم وبطارقتها.. ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم.. وقد أرسل إلي أن يدعوني إلى ثلاث خصال..

يدعوني: ١-أن أتبعه على دينه..

٢-أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا..

٣-أو نلقي إليه الحرب..

ثم قال هرقل: والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب ليأخذن أرضنا.. فهلم فلنتبعه على دينه.. أو نعطيه مالنا على أرضنا.. فلما سمع القساوسة ذلك.. ورأوا أنه يدعوهم لترك دينهم! غضبوا.. ونخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم.. أي سقطت أرديتهم من شدة الغضب والانتفاض!!

وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية.. أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز!! أسقط في يد هرقل.. وأيقن أنه تورط بعرضه عليهم.. وكان هؤلاء القساوسة لهم سطوة وجمهور قوي.. فعلم هرقل أنهم إن خرجوا من عنده.. أفسدوا عليه الروم.. فجعل يهدئهم.. ويقول: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم..

كان هرقل يعلم أن النبي ﷺ هو الرسول الذي بشر به عيسى ﷺ. فأراد أن يتأكد من ذلك.. دعا هرقل رجلاً من عرب قبيلة «تجيب».. كان من نصارى العرب..

وقال له: ادع لي رجلاً حافظًا للحديث.. عربي اللسان.. أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه.. مضى ذاك التجيبي.. وجاء برجل من بني تنوخ.. من نصارى العرب.. دفع هرقل كتابًا لهذا التنوخي ليوصله لرسول الله ﷺ. وقال له: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل..

فما سمعت من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال:

١- انظر هل يذكر صحيفته إلى التي كتب بشيء..؟

٢- وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل؟

٣- وانظر في ظهره هل به شيء يريبك؟

مضى التنوخي كفارقا للشام..حتى وصل إلى تبوك.. فإذا رسول الله ﷺ جالس بين ظهراني أصحابه.. محتبيًا على الماء.. فوقف التنوخي عليهم.. وقال: أين صاحبكم؟

قيل: ها هو ذا.. فأقبل يمشي حتى جلس بين يديه.. فناوله كتاب هرقل.. فأخذه ﷺ.. فوضعه في حجره.. ثم قال: «ممن أنت»..؟

قال: أنا أخو تنوخ..

فقال ﷺ: «هل لك إلى الإسلام.. الحنيفية.. ملة أبيك إبراهيم؟» كان ﷺ راغبًا في دخول هذا الرجل في الإسلام..

في الحقيقة لم يكن هناك ما يمنع التنوخي من اتباع الحق.. إلا التعصب للدين قومه.. فحسب!!

فقال التنوخي بكل صراحة: إني رسول قوم.. وعلى دين قومي.. لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم..

فلما رأى ﷺ هذا التعصب.. لم يغضب.. ولم يعمل مشكلة.. وإنما ضحك وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»..

ثم قال ﷺ بكل هدوء: «يا أخا تنوخ..

إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه..

وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مخرق ملكه..

وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها.. فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام في العيش خير»..

تذكر التنوخي وصية هرقل.. وقال في نفسه: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي.. فخشي أن ينساها..

فأخذ سهمًا من جعبته فكتبها في جنب سيفه.. ثم إن رسول الله ﷺ ناول الصحيفة رجلاً عن يساره..

فقال التنوخي: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟

قالوا: معاوية..

بدأ معاوية رضي الله عنه يقرأ.. فإذا هرقل قد كتب إلى النبي ﷺ: تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين!! فأين النار؟

فقال ﷺ: «سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار». فانتبه التنوخي أن هذه الثانية التي أمره هرقل بترقبها.. فأخذ سهمًا من جعبته فكتبه في جلد سيفه..

فلما أن فرغ معاوية من قراءة الكتاب.. التفت ﷺ إلى التنوخي.. الذي لم يقبل النصح.. ولم يدخل في الدين..

وقال له متلطفا: «إن لك حقًا وإنك لرسول.. فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها.. إنا سفر مرملون».. يعني أتمنى أن أعطيك هدية..

لكننا كما ترانا مسافرين جالسين على الرمال!!

فقال عثمان رضي الله عنه: أنا أجوزه يا رسول الله.. ثم قام عثمان ففتح رحله.. فأتى بحلة ولباس فوضعها في حجر التنوخي..

ثم قال ﷺ الكريم: «أيكم ينزل هذا الرجل؟».. يعني يقوم بحق ضيافته!! فقال فتى من الأنصار: أنا..

فقام الأنصاري وقام التنوخي يمشي معه.. وباله مشغول بالأمر الثالث الذي أمره هرقل أن يتأكد له منه.. وهو خاتم النبوة بين كتفي النبي ﷺ. مشى التنوخي خطوات.. وفجأة.. إذا برسول الله ﷺ يصيح به: «تعال يا أخا تنوخ»..!!

فأقبل التنوخي يهوي مسرعًا.. حتى قام بين يدي النبي ﷺ. فحلّ ﷺ حبوته.. ثم أسقط رداءه عن ظهره.. فانكشف ظهره للتنوخي.. فقال ﷺ «هاهنا امض لما أمرت به»..

قال التنوخي: فنظرت في ظهره.. فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف مثل الحجمة الضخمة..[٤٣]

فكرة..

المقصود أن يدرك الناس أخطاءهم.. وليس شرطًا أن يصححوها أمامك.. فلا تغضب..

---

(٤٣) في مسند أحمد.. بإسناد قال فيه ابن كثير لا بأس به.. سير ابن كثر ٤/٢٧.

قابل الإساءة بالإحسان..

عندما تتعامل مع الناس فإنهم يعاملونك في الغالب على ما يريدون هم.. لا على ما تريد أنت.. فليس كل من قابلته ببشاشة بادلك بشاشة مثلها.. فبعضهم قد يغضب ويسيء الظن ويسألك: مم تضحك؟!

ولا كل من أهديت له هدية.. رد لك مثلها.. فبعضهم قد تهدي إليه ثم يغتابك في المجالس ويتهمك بالسفه وتضييع المال..!!

ولا كل من تفاعلت معه في كلامه.. أو أثنيت عليه وتلطفت معه في عباراتك قابلك بمثلها.. فإن الله قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق.. والمنهج الرباني هو: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾..

وبعض الناس لا حل له ولا إصلاح إلا أن تتعامل معه بما هو عليه.. فتصبر عليه أو تفارقه..

ذكر أن أشعب سافر مع رجل من التجار.. وكان هذا الرجل يقوم بكل شيء من خدمة وإنزال متاع وسقي دواب.. حتى تعب وضجر..

وفي طريق رجوعهما.. نزلا للغداء.. فأناخا بعيريهما ونزلا.. فأما أشعب فتمدد على الأرض.. وأما صاحبه فوضع الفرش.. وأنزل المتاع.. ثم التفت إلى أشعب وقال: قم اجمع الحطب وأنا أقطع اللحم..

فقال أشعب: أنا والله متعب من طول ركوب الدابة.. فقام الرجل وجمع الحطب.. ثم قال: يا أشعب! قم أشعل الحطب..

فقال: يؤذيني الدخان في صدري إن اقتربت منه.. فأشعلها الرجل..

ثم قال: يا أشعب! قم ساعدني لأقطع اللحم..

فقال: أخشى أن تصيب السكين يدي.. فقطع الرجل اللحم وحده..

ثم قال: يا أشعب! قم ضع اللحم في القدر واطبخ الطعام..

فقال: يتعبني كثرة النظر إلى الطعام قبل نضوجه..

فتولى الرجل الطبخ والنفخ.. حتى جهز الطعام وقد تعب..

فاضجع على الأرض.. وقال: يا أشعب! قم جهز سفرة الطعام.. وضع الطعام في الصحن..

فقال أشعب: جسمي ثقيل ولا أنشط لذلك..

فقام الرجل وجهز الطعام ووضعه على السفرة..

ثم قال: يا أشعب! قم شاركني في أكل الطعام..

فقال أشعب: قد استحييت والله من كثرة اعتذاري وها أنا أطيعك الآن.. ثم قام وأكل!!

فقد تلاقي من الناس من هو مثل أشعب.. فلا تحزن.. وكن جبلا..

كان المربي الأول ﷺ يتعامل مع الناس بعقله لا بعاطفته.. كان يتحمل أخطاء الآخرين ويرفق بهم..

وانظر إليه ﷺ وقد جلس في مجلس مبارك يحيط به أصحابه.. فيأتيه أعرابي يستعينه في دية قتيل.. أي: هذا الرجل قد قتل - هو أو غيره - رجلا.. فأقبل يريد من النبي ﷺ أن يعنيه بمال يؤديه إلى أولياء المقتول..

فأعطاه رسول الله ﷺ شيئًا.. ثم قال تلطفًا معه: «أحسنت إليك؟».

قال الأعرابي: لا.. لا أحسنت ولا أجملت..

فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه.. فأشار النبي ﷺ إليهم أن كفوا.. ثم قام ﷺ إلى منزله.. ودعا الأعرابي إلى البيت فقال له: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك».. فقلت ما قلت..

ثم زاده ﷺ شيئًا من مال وجده في بيته.. فقال: «أحسنت إليك؟».

فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا..

فأعجبه ﷺ هذا الرضا منه.. لكنه خشي أن يبقى في قلوب أصحابه على الرجل شيء.. فيراه أحدهم في طريق أو سوق.. فلا يزال حاقدًا عليه.. فأراد أن يسل ما في صدورهم..

فقال له ﷺ: إنك كنت جئتنا فأعطيناك.. فقلت ما قلت.. وفي نفس

أصحابي عليك من ذلك شيء.. فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي.. حتى يذهب عن صدورهم..

فلما جاء الأعرابي.. قال ﷺ: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال.. وإنا قد دعوناه فأعطيناه..

فزعم أنه قد رضي»..

ثم التفت إلى الأعرابي وقال: «أكذاك؟».

قال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا..

فلما هم الأعرابي أن يخرج إلى أهله.. أراد ﷺ أن يعطي أصحابه درسًا في كسب القلوب.. فقال لهم:

«إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه.. فاتبعها الناس.. يعني: يركضون وراءها ليمسكوها.. وهي تهرب منهم فزعًا.. ولم يزيدوها إلا نفورًا..

فقال صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي.. فأنا أرفق بها وأعلم بها..

فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قشام الأرض.. ودعاها.. حتى جاءت واستجابت.. وشد عليها رحلها.. واستوى عليها..

ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال.. دخل النار.. يعني: لو طردتموه.. لعله يرتد عن الدين.. فيدخل النار.[٤٤]

وما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه.. ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾..

ذكر أنه ﷺ لما فتح مكة.. جعل يطوف بالبيت.. فأقبل فضالة بن عمير.. رجل يظهر الإسلام.. فجعل يطوف خلف النبي ﷺ.. ينتظر منه غفلة.. ليقتله..!!

فلما دنا من النبي ﷺ.. انتبه إليه.. فالتفت إليه وقال: «أفضالة!!».

قال: نعم.. فضالة يا رسول الله..

قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟

---

(٤٤) الحديث رواه البزار وفي سنده مقال.

قال: لاشيء.. كنت أذكر الله.. !!

فضحك النبي ﷺ.. ثم قال: «استغفر الله»..

قال فضالة..: ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدري..

فسكن قلبي.. فوالله ما رفع رسول الله ﷺ يده عن صدري.. حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه..

ثم رجله فضالة إلى أهله.. فمر بامرأة كان يجالسها.. ويتحدث إليها.. فلما رأته.. قالت: هلم إلى الحديث..

فقال: لا..ثم قال..

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيّنًا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان فضالة بعدها من صالحي المسلمين..

كان ﷺ يملك قلوب الناس بالعفو عنهم..

يتحمل الأذى في سبيل التأثير فيهم.. وجرهم إلى الخير..

كان أبو طالب يكف عن النبي ﷺ كثيرًا من أذى قريش.. فلما مات أبو طالب.. ضيقت قريش كثيرًا على النبي ﷺ في مكة..

ونالت من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب..

فجعل ﷺ يفكر في مكان آخر يلجأ إليه.. يجد فيه النصرة والتأييد..

فخرج إلى الطائف يلتمس من قبيلة ثقيف النصرة والمنعة..

دخل الطائف.. فتوجه إلى ثلاثة رجال هم سادة ثقيف وأشرافهم.. وهم إخوة ثلاثة: عبد يا ليل بن عمرو.. وأخوه مسعود.. وحبيب..

جلس إليهم.. دعاهم إلى الله.. كلمهم لما جاءهم لهمن نصرته على الإسلام.. والقيام معه على من خالفه من قومه.. فكان ردهم بذيئًا !!

أما أحدهم فقال: أنا أمرط ثياب الكعبة.. إن كان الله أرسلك!!

وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟!

وجعل الثالث يبحث متحذلقا عن عبارة يرد بها.. حرص على أن تكون أبلغ من كلام صاحبيه..

فقال: والله لا أرد عليك أبدًا.. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول..

لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام.. ولئن كنت تكذب على الله.. فما ينبغي لي أن أكلمك..

فقام ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف.. وخشي أن تعلم قريش أنهم ردوه.. فيزدادون أذى له..

فقال لهم: إن فعلتم ما فعلتم .. فاكتموا علي..

فلم يفعلوا.. بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم.. فجعلوا يركضون وراء رسول الله ﷺ.. يسبونه ويصيحون به..

وقد اصطفوا صفين.. وهو يسرع الخطي بينهم.. وكلما رفع رجلا رضخوها بالحجارة.. وهو ﷺ يحاول.. أن يسرع في خطاه ليتقي ما يرمونه به من حجارة..

وجعلت قدماه الشريفتان ﷺ تسيلان بالدماء.. وهو الكهل الذي جاوز الأربعين..

فأبعد عنهم.. ومشى.. ومشى.. حتى جلس في موضع آمن يستريح.. تحت ظل نخلة.. وهو منشغل البال.. كيف ستستقبله قريش.. كيف سيدخل مكة..

فرفع طرفه إلى السماء وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي.. وقلة حيلتي.. وهواني على الناس..

يا أرحم الراحمين.. أنت رب المستضعفين.. وأنت ربي..

إلى من تكلني! إلى بعيد يتجهمني.. أم إلى عدو ملكته أمري!

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.. ولكن عافيتك هي أوسع لي..

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات.. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.. من أن تنزل بي غضبك.. أو تحل علي سخطك..

لك العتبى حتى ترضى.. ولا حول ولا قوة إلا بك»..

فبينما هو كذلك.. فإذ بسحابة تظله ﷺ.. وإذا فيها جبريل عليه السلام..

فناداه: يا محمد.. إن الله قد سمع قول قومك لك.. وما ردوا عليك..

وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم..

وقبل أن ينطق ﷺ بكلمة.. ناداه ملك الجبال:

السلام عليك يا رسول الله.. يا محمد.. إن الله قد سمع قول قومك لك.. وأنا ملك الجبال.. قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت..

ثم قبل أن ينطق ﷺ أو يختار.. جعل ملك الجبال يعرض عليه.. ويقول:

إن شئت تطبق عليهم الأخشبين. -وهما جبلان عظيمان في جانبي مكة-..

وجعل ملك الجبال ينتظر الأمر.. فإذا به ﷺ يطأ على حظوط النفس.. وشهوة الانتقام.. ويقول: «بل.. أستأني بهم..

فإني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا»..

كن بطلا

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدًا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا

وليسوا إلى نصري سراعًا ... وإن هم دعوني إلى نصر أتيتهم شدًا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

أقنعه بخطئه ليقبل النصح..

بعض الناس يشغل الآخرين بكثرة التوجيهات والملاحظات حتى يوصلهم إلى مرحلة الملل والاستثقال.. خاصة إذا كانت النصائح والتوجيهات مبنية على آراء وأمزجة شخصية..

كمن ينصحك بعد وليمة دعوت الناس إليها وتعبت في إعدادها وتعب معك أهلك ومالك!

ثم يقول لك هذا الناصح: يا أخي الوليمة ما كانت مناسبة.. وتعبك ذهب هدرًا.. وكنت أظن أنها ستكون بمستوى أعلى من هذا..

فتقول لماذا؟

فيقول: يا أخي أكثر اللحم كان مشويًا.. وأنا أحب اللحم المسلوق!!

والسلطات كانت حامضة بسبب الليمون.. وأنا لا أحب ذلك.. وكذلك الحلويات كانت مزينة بالكريمة.. وهذا يجعل طعمها غير مقبول..

ثم يقول لك: وعمومًا أكثر الناس أيضًا تضايقوا.. وما أكلوا إلا مجاملة.. أو لأنهم اضطروا إليه!!

قطعًا.. أنت هنا ستنظر إلى هذا الناصح نظرة ازدراء وإعراض.. ولن تقبل منه نصيحته؛ لأنها مبنية على آراء وأمزجة شخصية..!!

قل مثل ذلك فيمن ينصح آخر ويعنف عليه حول طريقة تعامله مع أولاده.. أو مع زوجته.. أو طريقة بنائه لبيته.. أو نوع سيارته.. بناء على ذوقه الخاص..

انتبه دائمًا أن تكون هذه النصائح والانتقادات مبنية على مجرد أمزجة شخصية.. نعم لو طلب رأيك.. أبده له واعرضه عليه.. أما أن تتكلم معه وتنصح كما تنصح المخطئ.. فلا..

وأحيانًا...المنصوح لا يشعر أنه مخطئ فلابد أن تكون حجتك قوية عند نصحه..

جلس أعرابي صلف مع قوم صالحين.. فتكلموا حول بر الوالدين..

والأعرابي يسمع.. فالتفت إليه أحدهم وقال: يا فلان.. كيف برك بأمك..

فقال الأعرابي: أنا بها بار..

قال: ما بلغ من برك بها؟

قال: والله ما قرعتها بسوط قط!!

يعني إن احتاج إلى ضربها.. ضربها بيده أو عمامته.. أما السوط فلا يضربها به.. من شدة البر!!

فالمسكين ما كان ميزان الخطأ والصواب عنده مستقيمًا..

فكن رفيقًا لطيفًا.. حتى يقتنع الذي أمامك بخطئه..

كان في عهده ﷺ امرأة من بني مخزوم تستلف المتاع من النساء.. وتتغافل عن رده فإذا سألوها عنه جحدته.. وأنكرت أنها أخذت شيئًا.. حتى زاد أذاها في الجحد والسرقة فرفع أمرها إلى رسول الله ﷺ.. فقضى فيها أن تقطع يدها..

فشق على قريش أن تقطع يدها وهي من قبيلة من كبار قبائل قريش.. فأرادوا أن يكلموا النبي ﷺ ليخفف هذا الحكم إلى حكم آخر.. كجلد أو غرامة مال.. أو نحو ذلك.. وكلما توجه رجل منهم لنقاش النبي ﷺ في هذا الأمر.. تردد ورجع..

فقالوا: لن يجترئ على رسول الله ﷺ إلا أسامة بن زيد.. حب رسول الله ﷺ وابن حبه.. تربى هو وأبوه في بيت النبي ﷺ حتى صار كولده.. فكلموا أسامة..

أقبل أسامة إلى رسول الله ﷺ.. فرحب به وأجلسه عنده..

جعل أسامة يكلم النبي ﷺ ليخفف الحكم.. ويبين أن هذه المرأة من أشراف الناس.. وأسامة يواصل الكلام والنبي ﷺ يستمع.. كان أسامة يحاول إقناع النبي ﷺ برأيه..

نظر النبي ﷺ إلى أسامة.. فإذا هو يحاول ويناقش.. بكل قناعة.. ولا يدري أنه يطلب منه ما لا يجوز..!!

فتغير النبي وغضب ﷺ وكان أول كلمة قالها أن بين له خطأه فقال: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟».

فكأنه يبين سبب غضبه لأسامة.. وأن حدود الله تعالى التي أوجب على عباده إقامتها لا تجوز الشفاعة فيها.. فانتبه أسامة.. وقال فورًا: استغفر لي يا رسول الله..

فلما كان الليل.. قام ﷺ فخطب في الناس وأثنى على الله بما هو أهله.. ثم قال:

أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه..

وإذا سرق فيهم الضعيف.. أقاموا عليه الحد.. وإني والذي نفسي بيده.. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها..

ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها..

قالت عائشة رضي الله عنها: فحسنت توبتها بعدُ.. وتزوجت.. وكانت تأتيني بعد ذلك.. فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ (٤٥) ..

أسامة بن زيد رضي الله عنهما له مواقف متعددة مع رسول الله ﷺ .. كلها تفيض الرحمة والتعامل الراقي..

قال أسامة: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقات من جهينة.. فهزمناهم وخرجنا في آثارهم.. فلحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم.. فلاذ منا بشجرة.. فلما أدركناه.. ورفعنا عليه السيف.. قال: لا إله إلا الله..

فأما صاحبي الأنصاري فخفض سيفه.. وأما أنا فظننت أنه يقولها فرقًا من السلاح.. فحملت عليه فقتلته.. فعرض في نفسي من أمره شيء.. فأتيت النبي ﷺ .. فأخبرته..

فقال لي: «أقال لا إله إلا الله.. ثم قتلته؟!».

قلت: إنه لم يقلها من قبل نفسه.. إنما قالها فرقًا من السلاح..

فأعاد علي: «أقال لا إله إلا الله.. ثم قتلته؟! فهلا شققت عن قلبه.. حتى تعلم أنه إنما قالها فرقًا من السلاح»..

---

(٤٥) متفق عليه.

سكت أسامة.. فهو لم يشق عن قلب الرجل فعلا..!! لكنه كان في ساحة حرب.. والرجل مقاتل!!

فأعاد عليه ﷺ السؤال مستنكرًا: «أقال لا إله إلا الله.. ثم قتلته؟!».

«يا أسامة قتلت رجلا بعد أن قال لا إله إلا الله!! كيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟!» فما زال يقول ذلك حتى وددت إني لم أكن أسلمت إلا يومئذ [٤٦]..

فتأمل كيف تدرج معه ببيان الخطأ واقناعه به.. ثم وعظه ونصحه..

ولأجل أن يقتنع المنصوح بما تقول.. ناقشه بأفكاره ومبادئه هو قدر المستطاع.. نعم فكر من وجهة نظره..

بينما رسول الله ﷺ في مجلسه المبارك.. يحيط به أصحابه الأطهار.. إذ دخل شاب إلى المسجد وجعل يتلفت يمينًا وشمالاً كأنه يبحث عن أحد.. وقعت عيناه على رسول الله ﷺ. فأقبل يمشي إليه..

كان المتوقع أن يجلس الشاب في الحلقة ويستمع إلى الذكر.. لكنه لم يفعل..! إنما نظر الشاب إلى رسول الله ﷺ وأصحابه حوله..

ثم قال بكل جرأة: يا رسول الله.. ائذن لي؟؟.. بطلب العلم؟! لا.. لم يقلها.. ويا ليته قالها.. ائذن لي بالجهاد.. لا.. ويا ليته قالها..

أتدري ماذا قال؟

قال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا..

عجبًا!! هكذا بكل صراحة؟!!

نعم.. هكذا ائذن لي بالزنا..

نظر النبي ﷺ إلى الشاب.. كان يستطيع أن يعظه بآيات يقرؤها عليه.. أو نصيحة مختصرة يحرك بها الإيمان في قلبه.. لكنه ﷺ سلك أسلوبًا آخر..

قال له ﷺ بكل هدوء: «أترضاه لأمك؟».

فانتفض الشاب وقد مر في خاطره أن أمه تزني.. فقال: لا.. لا أرضاه لأمي..

فقال له ﷺ بكل هدوء: «كذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم»..

---

(٤٦) متفق عليه.

ثم فاجأه سائلاً: «أترضاه لأختك؟!».

فانتفض الشاب مرة أخرى.. وقد تخيل أخته العفيفة تزني.. وقال مبادرًا: لا.. لا أرضاه لأختي..

فقال ﷺ: «كذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم»..

ثم سأله: «أترضاه لعمتك؟! أترضاه لخالتك؟!».

والشاب يردد: لا.. لا..

فقال ﷺ «فأحب للناس ما تحب لنفسك.. واكره للناس ما تكره لنفسك»..

أدرك الشاب عند ذلك أنه كان مخطئًا..

فقال بكل خضوع: يا رسول الله.. ادع الله أن يطهر قلبي..

فدعاه ﷺ. فجعل الشاب يقترب.. ويقترب.. حتى جلس بين يديه.. ثم وضع يده على صدره..

وقال: «اللهم اهد قلبه.. واغفر ذنبه.. وحصن فرجه»..

فخرج الشاب وهو يقول: والله لقد دخلت على رسول الله ﷺ. وما شيء أحب إلي من الزنا.. وخرجت من عنده وما شيء أبغض إلي من الزنا..

ثم انظر إلى استعمال العواطف.. دعاه.. وضع يده على صدره.. دعا له.. يعني استعمل جميع الأساليب لإصلاح من أمامه..

بعدما جعله يقتنع بشناعة الفعل ليتركه عن قناعة.. فلا يفعله أبدًا.. لا أمامه ولا خلفه..

قاعدة..

إذا شعر المخطئ ببشاعة خطئه اقتنع بحاجته للنصيحة..

وصار قبوله أكثر.. وقناعته أكبر..

لا تلمني!! انتهى الأمر..؟

يظن بعض الناس أنه عندما يلوم الآخرين على أخطائهم التي ربما تكون لا ترى إلا بالمجهر.. يظن أنه يتقرب منهم أكثر.. أو أنه يقوي شخصيته بذلك..

والحق أنه ليس الذكاء والفطنة أن تستطيع اللوم.. وإنما هو أن تتجنبه قدر المستطاع.. وتسعى إلى إصلاح الأشخاص بأساليب لا تجرح.. ولا تحرج..

أحيانًا تحتاج في بعض الأمور إلى أن تتعامى.. خاصة الأشياء الدنيوية.. والحقوق الخاصة..

ليس الغبي بسيد في قومه ... لكن سيد قومه المتغابي

والملوم يعتبر اللوم سهمًا حادًا يوجه إليه.. لأنه يشعره بنقصه.. -هذا أولاً..

ثانيًا: تجنب النصح في الملإ قدر المستطاع..

تغمدني بنصحك في انفرادي ... وجنبني النصيحة في الجماعه

فإن النصح بين الناس ... نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

بل إذا انتشر خطأ معين.. واضطررت إلى النصح العام.. فاعمل بقاعدة: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.. كما تقدم معنا..

إذن.. اللوم كالسوط الذي يجلد به اللائم ظهر الملوم..

وبعض الناس ينفر الآخرين: إما بكثرة لومهم.. أو بلومهم على أمور انتهت ولا يقدم اللوم أو يؤخر فيها شيئًا..

أذكر أن رجلاً فقيرًا.. تغرب عن أهله إلى بلد آخر.. واشتغل سائق شاحنة.. كان في أحد الأيام متعبًا لكنه ركب الشاحنة ومضى بها في طريق طويل بين مدينتين..

غلبه النوم أثناء الطريق.. فجعل يصارعه وأسرع قليلاً.. فتجاوز سيارة أمامه دون أن ينتبه إلى الطريق فإذا أمامه سيارة صغيرة فيها ثلاثة أشخاص..

حاول أن يتفاداها.. لم يستطع.. فاصطدم بها وجهًا لوجه.. ثار الغبار.. وجعل المارة يوقفون سياراتهم ويتفرجون على الحادث..

نزل سائق الشاحنة.. ونظر إلى السيارة المصدومة..

وإلى من بداخلها فإذا هم موتى.. أنزلهم الناس واتصلوا بالإسعاف..

جلس سائق الشاحنة ينتظر وصول الإسعاف.. ويفكر فيما سيحصل له بعد الحادث من سجن ودية .. ويفكر في أولاده الصغار .. وزوجته .. مسكين .. هموم انهدت عليه كالجبال ..!!

جعل الناس يمرون به ويلومونه ..

عجبًا ..!! أهذا وقت اللوم .. ألا يمكن أن يؤجل قليلاً؟

قال أحدهم: لماذا تسرع؟ هذه عواقب السرعة ..

وقال آخر: (أكيد أنك كنت نعسان ومع ذلك استمريت في القيادة ..! لم توقف سيارتك وتنام) ..

وقال ثالث: (المفروض أن مثلك لا تصرف لهم رخصة قيادة!!)

كانوا يقولون هذه العبارات بأسلوب حاد .. فيه تعنيف وصراخ ..

كان الرجل واجمًا .. جالسًا على صخرة ساكتا.. متكئًا برأسه على يديه .. وفجأة هوى على جنبه .. و.. و.. مااات .. قتلوه بلومهم .. ولو صبروا قليلا لكان خيرًا له ولهم ..

ضع نفسك موضع الملوم .. المخطئ .. وفكر من وجهة نظره .. فأحيانًا لو كنت مكانه قد تقع في خطإ أكبر من خطئه ..

كان رسول الله ﷺ يراعي ذلك كثيرًا ..

لما انصرف ﷺ من خيبر .. أطالوا المسير حتى تعبوا .. فلما أقبل الليل .. نزلوا في موضع في الطريقليناموا .. فقال ﷺ «من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟».

كان بلال رضي الله عنه متحمسًا فقال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك؟

فاضطجع رسول الله ﷺ.. ونزل الناس فناموا .. وقام بلال يصلي حتى تعب .. وقد كان متعبًا من طول الطريق قبل ذلك-.. فقعد واستند إلى بعيره مستريحًا .. واستقبل الفجر يرمقه .. فغلبته عينه .. فنااام ..

كان الجميع في تعب شديد .. فطال نومه ونومهم .. ومضى الليل .. وطلع الصبح .. والكل نيام .. ولم يوقظهم إلا حر الشمس ..

استيقظ رسول الله ﷺ.. وهب الناس من نومهم .. فلما رأوا الشمس اضطربوا .. وكثر لغطهم .. الكل ينظر إلى بلال ..

التفت ﷺ إلى بلال وقال: «ماذا صنعت بنا يا بلال؟».

فأجاب بلال بجواب مختصر .. لكنه موضح للواقع تمامًا .. قال: يا رسول الله! .. أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك ..

يعني أنا بشر.. حاولت أن أقاوم النوم.. فلم أستطع.. غلبني النوم كما غلبكم!!

فقال ﷺ: «صدقت».. وسكت عنه .. نعم فما فائدة اللوم هنا؟!!..

فلما رأى ﷺ اضطراب الناس .. قال ﷺ: «ارتحلوا».. فارتحلوا.. فمشى شيئًا يسيرًا .. ثم نزل ونزلوا .. فتوضأ وتوضؤوا .. ثم صلى بالناس.. فلما سلم .. أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتم الصلاة .. فصلوها إذا ذكرتموها»..

فلله دره ما أعقله وأحكمه ﷺ ..

كان مدرسة لكل قائد .. ليس مثل بعض الرؤساء اليوم لا تكاد عصا اللوم والتقريع تنزل من يده .. بل كان ﷺ يضع نفسه مكان من تحته ويفكر بعقولهم .. ويتعامل مع القلوب قبل الأجساد .. يعلم أنهم بشر .. وليسوا آلات!!

في السنة الثامنة من الهجرة .. جمع الروم جيشًا .. وأقبل من جهة الشام .. لقتال النبي ﷺ وأصحابه .. وقيل: إنه ﷺ جمع جيشًا لغزوهم ابتداء ..

بدأ ﷺ يجهز جيشًا لإرساله إليهم .. فلم يزل يحث الناس حتى جمع ثلاثة آلاف .. فزودهم بما وجد من سلاح وعتاد ..

قال لهم: «أميركم زيد بن حارثة .. فإن أصيب زيد .. فجعفر بن أبي طالب على الناس .. فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة»..

وخرج معهم ﷺ يودعهم .. وخرج الناس يودعون الجيش .. ويقولون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين ..

كان عبد الله بن رواحة مشتاقًا إلى الشهادة .. فقال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي ... يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

ثم مضى الجيش إلى معركة مؤتة حتى نزلوا «معان» من أرض الشام ..

فبلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم .. وانضم إليه من القبائل حوله مائة ألف .. فصار جيش الروم مائتي ألف ..

فلما تيقن المسلمون من ذلك.. أقاموا في «معان» ليلتين ينظرون في أمرهم..

فقال بعضهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال .. أو يأمرنا بما يشاء فنمضي له .. وكثر كلام الناس في ذلك ..

فقام عبد الله بن رواحة .. ثم صاح بالناس وقال: يا قوم.. والله إن التي تكرهون هي التي خرجتم تطلبون .. الشهادة في سبيل الله .. تفرون منها!! وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة .. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة ..

فمضى الناس .. يسيرون .. حتى إذا دنوا من جيش الروم .. في موقعة «مؤتة» فإذا أعداد عظيمة لا قبل لأحد بها ..

قال أبو هريرة رضي الله عنه: شهدت يوم مؤتة .. فلما دنا منا المشركون .. رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة .. والسلاح .. والكراع .. والديباج .. والذهب فبرق بصري .. فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة .. كأنك ترى جموعًا كثيرة؟

قلت: نعم.

قال: إنك لم تشهد بدرًا معنا .. إنا لم ننصر بالكثرة ..

ثم التقى الناس فاقتتلوا .. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى كثرت عليه الرماح وسقط صريعًا شهيدًا رضي الله عنه .. فأخذ الراية جعفر بكل بطولة .. فاقتحم عن فرس له شقراء فجعل يقاتل القوم .. وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

علي إن لاقيتها ضرابها

ثم إن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت .. فأخذ اللواء بشماله فقطعت .. فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ..

قال ابن عمر: وقفت على جعفر يومئذ.. وهو قتيل .. فعددت به خمسين بين

طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره .. فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء ..

ثم إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعته نصفين ..

فلما قتل جعفر .. أخذ عبد الله بن رواحة الراية .. ثم تقدم بها وهو على فرسه .. فجعل يستنزل نفسه .. ويتردد بعض التردد .. ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي أراك تكرهين الجنه

ثم تذكر صاحبيه زيدًا وجعفر فقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

ثم نزل من على فرسه .. فلما استقر على قدميه أتاه ابن عم له بعرق من لحم .. شدَّ بهذا صلبك .. فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت .. فأخذه من يده فانتهش منه نهشة .. ثم سمع الحطمة في ناحية الناس ..

فنظر إلى عرق اللحم وقال: وأنت في الدنيا! فألقاه من يده .. ثم أخذ سيفه ثم تقدم .. فقاتل حتى قتل ﷺ .. فوقعت الراية .. واضطرب المسلمون .. وابتهج الكافرون .. والراية تطؤها الخيل .. ويعلوها الغبار ..

فأقبل البطل ثابت بن أرقم .. ثم رفعها .. وصاح .. يا معاشر المسلمين .. هذه الراية .. فاصطلحوا على رجل منكم ..

فتصايح من سمعه وقالوا: أنت .. أنت ..

قال: ما أنا بفاعل ..

فأشاروا إلى خالد بن الوليد .. فلما أخذ الراية .. قاتل بقوة .. حتى إنه كان يقول: لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية .. ثم انحاز خالد بالجيش .. وانحاز الروم إلى معسكرهم ..

خشي خالد أن يرجع بالجيش إلى المدينة من ليلته .. فيتبعهم الروم .. فلما أصبحوا .. غير خالد مواقع الجيش .. فجعل مقدمة الجيش .. في المؤخرة وجعل

مؤخرة الجيش في مقدمة ..

ومن كانوا يقاتلون في يمين الجيش .. أمرهم بالانتقال إلى يساره .. وأمر من في الميسرة أن يذهبوا للميمنة ..

فلما ابتدأ القتال.. وأقبل الروم.. فإذا كل سرية منهم ترى رايات جديدة.. ووجوهًا جديدة.. فاضطرب الروم.. وقالوا: قد جاءهم في الليل مدد.. فرعبوا في القتال..

فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة .. ولم يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلاً.. وانسحب خالد بالجيش آخر النهار من ساحة القتال.. ثم واصل مسيره نحو المدينة..

فلما أقبلوا إلى المدينة .. لقيهم الصبيان يتراكضون إليهم .. ولقيتهم النساء .. فجعلوا يحثون التراب في وجوه الجيش .. ويقولون: يا فرار .. فررتم في سبيل الله؟!

فلما سمع النبي ﷺ ذلك علم أنهم لم يكن أمامهم إلا ذلك .. وأنهم فعلوا ما بوسعهم ..

فقال ﷺ مدافعًا عنهم: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار .. إن شاء الله عز وجل»..

نعم انتهى الأمر .. وهم أبطال ما قصروا .. لكنهم بشر والأمر كان فوق طاقتهم ..

إذن الصلاة على الميت الحاضر .. أحيانًا انتهى الأمر فلا فائدة من اللوم ..

كان هذا منهجه ﷺ دائمًا ..

لما سمع الكفار برسول الله ﷺ قادمًا بجيشه إلى مكة فاتحًا .. دخلهم الرعب .. فأرسل إليهم رسول الله ﷺ من يقول لهم:

- «من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن»..
- «ومن دخل المسجد فهو آمن»..
- «ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»..

فبدأ الناس يفرون من بين يديه ﷺ.. فاجتمع بعض فرسان قريش.. وأرادوا أن يحاربوا .. فأبى عليهم قومهم ..

فاجتمع نفر منهم في مكان يقال له الخندمة .. اجتمع صفوان بن أمية .. وعكرمة بن أبي جهل.. وسهيل بن عمرو.. وجمعوا ناسًا معهم بالخندمة ليقاتلوا..

وكان حماس بن قيس .. يعد سلاحًا قبل قدوم النبي ﷺ.. ويصلحه ..

فقالت له امرأته: لماذا تُعِدّ ما أرى؟

قال: لمحمد وأصحابه ..!!

كانت امرأته تعلم بقوة المسلمين .. فقالت: والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء!

قال: والله إني لأرجو أن أخدِمَكِ بعضَهم .. يعني: يأسر بعضهم ويجيء بهم إليها خدمًا ..

ثم قال مفتخرًا:

إن يقبلوا اليوم فما لي علة   هذا سلاح كامل وألة

وذو غرارين سريع السلة

ثم خرج من عندها .. إلى موقع «الخندمة» .. حيث اجتمع أصحابه .. فما هو إلا أن لقيهم المسلمون .. يتقدمهم سيف الله خالد بن الوليد .. فابتدأ القتال .. وصال الأبطال .. فقتل في لحظة واحدة .. أكثر من اثني عشر أو ثلاثة عشر .. من الكفار..

فلما رأى حماس بن قيس ذلك .. التفت إلى صفوان وعكرمة .. فإذا هما يفران إلى بيوتهما .. فانهزم معهم .. وذهب يعدو إلى بيته .. فدخله سريعًا ..

وأخذ يصيح بامرأته فزعًا: أغلقي علي بابي .. فإنهم يقولون من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ..!!

فقالت: فأين ما كنت تقول؟ أن تهزمهم .. وتخدمني بعضهم ..!! فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة   واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة   ضربًا فلا يسمع إلا غمغمة

لهم نهيت خلفنا وهمهمة   لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

صحيح .. لو رأت امرأته ما رأى من شدة القتال .. ما نطقت في لومه كلمة ..

وفي موقف آخر .. لما دخل النبي ﷺ .. مكة فاتحًا .. فقد كان يعلم عظمة البلد الحرام .. فقاتل قتالا يسيرًا .. ثم قال: لأن الله حرم هذا البلد يوم خلق السماوات والأرض .. وإنما حلّ لي ساعة من نهار» ..

فقيل له: يا رسول الله .. أنت تنهى عن القتل .. وهذا خالد بن الوليد في كتيبته .. يقتل من لقيه من المشركين؟

فقال ﷺ: «قم يا فلان .. فائت خالد بن الوليد .. فقل له: فليرفع يده من القتل».

هذا الرجل يعلم أنهم الآن يعيشون حالة حرب .. وأن النبي ﷺ أمر قريشا بالبقاء في بيوتهم لئلا يقتلوا .. فمن كان في غير بيته استحق المقاتلة ..

ففهم من قول النبي ﷺ: «يرفع يده من القتل».. أي يقتل كل من وقف أمامه .. حتى يرفع يده بالسيف لأنه لا يجد من يقتل ..!!

فأتى الرجل خالدًا فصاح به: يا خالد .. إن رسول الله ﷺ .. يقول: اقتل من قدرت عليه! فقتل خالد سبعين إنسانًا ..

فأتى رجل النبي ﷺ .. قال: يا رسول الله .. هذا خالد يقتل.. فعجب النبي ﷺ .. كيف يقتل خالد وقد نهاه..؟! فأرسل إلى خالد ليأتيه.. فأتاه.. فقال ﷺ: «ألم أنهك عن القتل؟».. فعجب خالد وقال: يا رسول الله جاءني فلان فأمرني أن أقتل من قدرت عليه ..

فأرسل النبي ﷺ إلى ذاك الرجل .. فجاء ورأى خالدا ..

فقال له ﷺ: «ألم أقل يرفع يده من القتل؟»

فأدرك الرجل خطأه .. لكن الأمر انتهى ..

فقال: يا رسول الله .. أردت أمرًا .. وأراد الله أمرًا .. فكان أمرُ الله فوق أمرك .. وما استطعتُ إلا الذي كان ..

فسكت عنه النبي ﷺ وما ردّ عليه شيئًا ..

من تأمل في مسيرة الحياة .. وجد هذا الأمر ظاهرًا .. أحيانًا يكون الشخص قد فعل أحسن ما يستطيع ..

ركبت مع أحد الشباب في سيارته .. فإذا قيادته جيدة .. وكنت أعلم أنه وقع له حادث تصادم قبل أسبوع ..

فسألته:ألاحظ أن قيادتك جيدة .. فلماذا صدمت قبل أسبوع؟!

قال:كان لا بد أن أصدم!!

قلت:عجبًا!!

قال:نعم .. كان لا بد أن أصدم .. أتدري لماذا؟

قلت:لماذا؟!

قال:أقبلت بسيارتي على جسر .. وكنت مسرعًا .. فلما نزلت منه فإذا السيارات أمامي متوقفة صفوفًا .. لا أدري ما السبب .. حادث في الأمام .. أو نقطة تفتيش .. لا أدري ..

المهم أني تفاجأت بها .. كان أمامي أربعة مسارات كلها مليئة بالسيارات .. وكنت مخيرًا بين أن أنحرف عنها كلها وأسقط من فوق الجسر .. أو أمسك فرامل بأقوى ما أستطيع وعندها ستلعب بي السيارة في الطريق ..

أو الاختيار الثالث .. وهو أهونها ..

قلت:وما هو؟!

قال:أن أصدم إحدى السيارات الأربع الواقفة أمامي ..

ضحكت .. وقلت:.. هاه!! وماذا فعلت؟

قال:خففت سرعتي قدر استطاعتي .. واخترت أرخص السيارات التي أمامي .. و.. و.. صدمتها!!

ثمَ ضحك بقوة وضحكت لكني فكرت بعدها فيما قال .. فرأيت أنه لا يستحق اللوم كثيرًا .. وذلك أن الاختيارات التي كانت أمامه محدودة ..

يعني بعض المشاكل ليس لها حل .. شخص أبوه عصبي .. نصحه بجميع الأساليب .. ما نفع .. ماذا يفعل؟

لفتة ..

ضع نفسك موضع اللوم وفكر من وجهة نظره .. ثم احكم عليه ..

تأكد من الخطأ قبل النصيحة ..

كان واضحًا من نبرة صوته لما اتصل بي.. أنه كان غضبان يكتم غيظه قدر المستطاع.. ليست هذه هي النبرة التي تعودت عليها من فهد.. شعرت أن عنده شيئًا..

بدأ كلامه .. متحدثًا عن الفتن وتعرض الناس لها .. ثم احتدت النبرة .. وجعل يكرر: أنت داعية .. وطالب علم .. وأفعالك محسوبة عليك ..

قلت: أبا عبد الله ليتك تدخل في الموضوع مباشرة ..

قال: المحاضرة التي ألقيتها في .. وقلت ..

تعجبت .. قلت: متى كان ذلك؟

قال: قبل ثلاثة أسابيع ..

قلت: لم أذهب لتلك المنطقة منذ سنة ..

قال: بلى .. وتحدثت عن كذا ..

ثم تبين لي أن صاحبي.. بلغته إشاعة فصدقها.. وبنى على أساسها مناصحته..

وموقفه .. وكلامه .. صحيح أنني لا أزال أحبه .. لكن نظرتي إليه قصرت .. لأنني اكتشفت أنه متسرع .. ومثل ما يقولون (يطير في العجّة) ..!!

كم هم أولئك الذين يبنون مواقفهم ونظراتهم على إشاعات .. كثير منهم من يأتيك مناصحًا .. ليكتشف بعدها أنه كان يجري وراء إشاعة ..

وكثير منهم من تنطبع هذه الإشاعة في قلبه .. ويكون على أساسه تصوره عنك .. وهي كذبة ..

أحيانًا يشاع أن فلانًا فعل كذا وكذا .. فلأجل أن تحتفظ بقدرك عنده .. تأكد من الخبر قبل الكلام عنه .. وهذا منهج النبي ﷺ ..

أتى رجل إلى النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إليه .. فإذا رجل رث الهيئة .. مغبر الشعر .. فأراد ﷺ أن ينصحه ليصلح من هيئته .. لكنه خشي أن يكون الرجل فقيرًا أصلا .. ليس ذا مال ..

فقال له: «هل لك من مال؟».

قال الرجل: نعم..

قال: «من أي المال؟»..

قال الرجل: من كل المال .. من الإبل .. والرقيق .. والخيل .. والغنم ..

قال: «فإذا آتاك الله مالا .. فليُر عليك».

ثم قال: «تنتج إبل قومك صحاح آذانها .. فتعمد إلى الموسى.. فتقطع آذانها..

فتقول: هذه بحيرة .. وتشقها .. أو تشق جلودها ..

وتقول: هذه صرم .. فتحرمها عليك وعلى أهلك»..

قال الرجل: نعم ..

قال: «فإن ما أعطاك الله لك حل .. موسى الله أحد».. (٤٧)

وفي عام الوفود .. كان بعض الناس يأتي مسلمًا .. ويبايع النبي ﷺ .. وبعضهم يأتي كافرًا .. ويسلم أو يعاهد .. فبينما رسول الله ﷺ مع أصحابه يومًا .. إذ جاء وفد الصَّدِف .. وهم بضعة عشر راكبًا .. فأقبلوا إلى مجلس النبي ﷺ .. فجلسوا ولم يسلموا ..

فسألهم: «أمسلمون أنتم؟»

قالوا: نعم ..

قال: «فهلا سلمتم؟» ..

فقاموا قيامًا فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ..

فقال: «وعليكم السلام.. اجلسوا» فجلسوا ثم سألوه ﷺ عن أوقات الصلوات..

وفي عهد عمر رضي الله عنه توسعت بلاد الإسلام .. فعين عمر سعد بن أبي وقاص أميرًا على الكوفة ..

كان أهل الكوفة حينذاك مشاغبين على ولاتهم .. أرسل نفر منهم رسالة إلى الخليفة عمر رضي الله عنه .. يشتكون إليه من سعد .. وذكروا عيوبًا كثيرة .. حتى إنهم قالوا: ولا يحسن أن يصلي!!

فلما قرأ عمر الكتاب .. لم يتسرع باتخاذ قرار.. ولا كتابة نصيحة .. وإنما أرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة معه كتاب إلى سعد .. وأمره أن يسير مع سعد ويسأل الناس عنه ..

---

(٤٧) أخرجه الحاكم وصحح إسناده.

وصل محمد بن مسلمة وأخبر سعدًا الخبر .. ثم جعل يصلي مع سعد في المساجد .. ويسأل الناس عن سعد ..

ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه .. ولا يذكرون عن سعد إلا معروفًا ..

حتى دخلا مسجدًا لبني عبس .. فقام محمد بن مسلمة .. وسأل الناس عن أميرهم سعد؟؟ فأثنوا عليه خيرًا ..

فقال محمد: أنشدكم بالله .. هل تعلمون منه غير ذلك؟

قالوا: لا نعلم إلا خيرًا ..

فكرر عليهم السؤال.. عندها قام رجل في آخر المسجد.. اسمه أسامة بن قتادة..

فقال: أما إذ نشدتنا بالله .. فاسمع: إن سعدًا كان لا يسير بالسوية .. ولا يعدل في القضية ..

فعجب سعد وقال: أنا كذلك؟

قال الرجل: نعم ..

فقال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا .. وقد قام رياء وسمعة .. اللهم ف: أطل عمره .. وأطل فقره .. وعرضه للفتن ..

ثم خرج سعد من المسجد .. ومضى إلى المدينة ومات بعدها بسنوات .. أما ذلك الرجل فلا زالت دعوة سعد تلاحقه .. حتى كبرت سنه .. ورق عظمه .. واحدودب ظهره .. وطال عمره حتى مل من حياته .. واشتد فقره .. فكان يجلس وسط الطريق يسأل الناس .. وقد سقط حاجباه على عينيه من شدة الكبر ..

فإذا مرت به النساء مد يده يغمزهن ويتعرض لهن!!

فكان الناس يصيحون به .. ويسبونه ..

فيقول: وماذا أفعل!!

شيخ كبير مفتون .. أصابتني دعوة الرجل الصالح سعد بن أبي وقاص ..

حديث ..

بئس مطية الرجل زعموا ..

وكفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع ..

اجلدني برفق!!

لا يعني ما تقدم من كلام عدمُ اللوم أبدًا .. كلا .. فقد تحتاج في أحيان متكررة أن تلوم الآخرين .. ولدك .. زوجتك .. صديقك .. لكن يمكن تأجيله قليلًا .. أو استخدام أساليب أخف ..

دع الملوم يحتفظ بماء وجهه ..

بعدما فتح ﷺ مكة .. وقد قوي شأنه عند العرب .. وكثر الداخلون في الإسلام.. غزا ﷺ بالناس حنينًا.. فجاء المشركون بأحسن صفوف.. فصفت الخيل .. ثم صفت المقاتلة.. ثم صفت النساء من وراء ذلك.. ثم صفت الغنم.. ثم النعم.. والمسلمون بشر كثير .. قد بلغوا اثني عشر ألفًا ..

وكان المشركون قد سبقوا إلى وادي حنين .. واختبأت كتائب منهم في جانبيه بين الصخور .. فما هو إلا أن ابتدأ القتال .. ودخلت جموع المسلمين في الوادي .. حتى تفجر عليهم الكفار من كل جانب .. وجعلوا يرمون جيش المسلمين من كل جانب بالحجارة والنبال ..

واضطرب الناس.. وجعلت خيل المسلمين.. تلوذ خلف ظهورهم.. فلم يلبث المسلمون أن انكشفت خيلهم.. وكان أول من فرَّ الأعرابُ.. وتسلط الكفار وظهروا ..

فالتفت رسول الله ﷺ .. فإذا الجموع تفر .. والدماء تسيل .. والخيل يضرب بعضها في بعض .. فجعل يأمر العباس بأن ينادي: يا للمهاجرين يا للأنصار؟ فرجعوا حتى ثبت ﷺ في ثمانين أو مائة رجل .. ثم نصر الله المسلمين .. وانتهى القتال ..

فلما جمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ .. فإذا الذين فروا من القتال .. وخافوا من الرماح والنبال .. هم أول من اجتمع على رسول الله ﷺ .. يريد الغنائم !!

تعلقت الأعراب .. برسول الله ﷺ يقولون له: اقسم علينا فيئنا .. اقسم علينا فيئنا .. يريدون الغنائم ..

عجبًا ..!! يقسم فيئكم!؟ متى صار فيؤكم وأنتم لم تقاتلوا!؟

كيف تطلبون من الغنيمة .. وهو الذي كان يصرخ بكم لتعودوا وأنتم لا تستجيبون؟!!

لكنه ﷺ لم يكن يدقق على مثل هذا .. فالدنيا لا تساوي عنده شيئًا ..

جعلوا يتبعونه ويرددون: اقسم علينا فيئنا.. حتى تزاحموا عليه.. وضيقوا الطريق بين يديه.. واضطروه إلى شجرة.. فمر من شدة الزحام ملاصقًا لها.. فتعلق رداؤه بأغصانها حتى سقط عن منكبيه.. وصار بطنه وظهره مكشوفًا.. فلم يغضب.. وإنما التفت إليهم وقال بكل هدوء: أيها الناس.. ردوا علي ردائي.. فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا .. لقسمته عليكم.. ثم لا تجدوني بخيلا.. ولا جبانًا.. ولا كذابًا.. نعم.. لأنه لو كان بخيلًا لأمسك الأموال لنفسه..

ولو كان جبانًا لفر مع الفارين .. ولو كان كذابًا لما نصره رب العالمين ..

مواقفه ﷺ الرائعة كثيرة ..

كان ﷺ يمشي مع بعض أصحابه.. فمر بامرأة تبكي عند قبر.. على صبي لها..

فقال لها ﷺ: «اتقي الله واصبري»..

كانت المرأة باكية مهمومة .. فلم تعرف النبي ﷺ .. فقالت: إليك عني .. وما تبالي أنت بمصيبتي ..؟!

فسكت النبي ﷺ .. وذهب وتركها .. فقد أدى ما عليه .. وأدرك أن المرأة الآن في وضع نفسي قد لا يناسب أن يزاد عليها في النصح أكثر مما سمعت ..

التفت بعض الصحابة إليها وقالوا: هذا رسول الله ﷺ ..!!

فندمت المرأة على ما قالت: وقامت تحاول أن تلحق بالنبي ﷺ .. حتى وصلت بيته .. فلم تجد على بابه بوابين ..

فقالت معتذرة: يا رسول الله .. لم أعرفك .. الآن أصبر .. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».. (٤٨)

اقتل برفق ..

إن الله كتب الإحسان على كل شيء .. فإذا قتلتم
فأحسنوا القتلة .. وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح .. وليحد
أحدكم شفرته .. وليرح ذبيحته .. حديث رواه مسلم

(٤٨) متفق عليه.

فر من المشاكل!!

أظنه لو أجرى تحليلا في مستشفى بدائي لاكتشف في جسمه عشرة أنواع من الأمراض .. أهونها الضغط والسكر!!

كان المسكين يعذب نفسه كثيرًا لأنه يطالب الناس بالمثالية التامة ..

دائمًا تجده متضايقًا من زوجته .. كسرت الصحن الجديد ..

نسيت كنس الصالة ..

أحرقت ثوبي الجديد بالمكواة ..

وأولاده .. خالد إلى الآن لم يحفظ جدول الضرب ..

وسعد .. لم يظفر بتقدير ممتاز .. وسارة .. وهند..

هذا حاله في بيته .. أما بين زملائه .. فأعظم ..

أبو عبد الله قصدني لما ذكر قصة البخيل ..!

والبارحة أبو أحمد يعنيني لما تكلم عن السيارات القديمة .. نعم يقصد سيارتي .. نعم .. كان ينظر إليَّ .. إلى آخر مواقف وتفكيرات هذا الرجل المسكين ..

قديمًا قالوا في المثل: إن أطاعك الزمان وإلا أطعه ..

أذكر أن أعرابيًا - من أصدقائي - كان يردد مثلًا حفظه من جَدِّه .. كان يسمعني إياه كثيرًا إذا بدأت أتفلسف عليه ببعض المعلومات ..

فكان يخرج زفيرًا طوييييلا من صدره ثم يقول: يااااشيخ .. اليد اللي ما تقدر تلويها صافحها ..!!

وإذا تفكرت في هذا وجدته صحيحًا .. فنحن إذا لم نعود أنفسنا على التسامح وتمشية الأمور .. أو بمعنى آخر التغابي .. وعدم الإغراق في التفسيرات والظنون .. وإلا فسوف نتعب كثيرًا ..

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

أقبل شاب نضر إلى شيخه يلتمس منه أن يساعده في اختيار زوجة تكون

رفيقة دربه حتى الممات ..

فقال الشيخ: ما هي الصفات التي ترغب وجودها في زوجتك؟

فقال: منظرها جميل .. وقوامها طويل .. وشعرها حرير .. ورائحتها عبير .. لذيذة الطعام .. عذبة الكلام .. إن نظرت إليها سرتني .. وإن غبت عنها حفظتني .. لا تخالف لي أمرًا .. ولا أخشى منها شرًّا .. لها دين يرفعها .. وحكمة تنفعها!!

وراح يسرد من صفات الكمال المتفرقة في النساء ويجمعها في امرأة واحدة ..

فلما أكثر على الشيخ .. قال له: يا ولدي .. عندي طلبك ..

قال: أين؟

قال: في الجنة بإذن الله .. أما في الدنيا فعود نفسك التسامح ..

نعم في الدنيا عود نفسك التسامح .. لا تعذب نفسك بالبحث عن مشاكل لإثارتها .. والنقاش حولها .. فيومًا تصرخ في وجه جليس: أنت تقصدني بكلامك؟

ويومًا في وجه ولدك: أنت تريد أن تحزنني بكسلك؟

ويومًا في وجه زوجتك: أنت تتعمدين إهمال بيتك؟ ...

وقد كان منهج النبي ﷺ .. التسامح عمومًا .. فكان يستمتع بحياته ..

كان يدخل ﷺ على أهله أحيانًا .. في الضحى .. وهو جائع فيسألهم: «هل عندكم من شيء .. عندكم طعام؟».

فيقولون: لا ..

فيقول ﷺ: إني إذًا صائم» [٤٩]..

ولم يكن يصنع لأجل ذلك مشاكل .. ما كان يقول: لمَ لم تصنعوا طعامًا .. لم لم تخبروني لأشتري .. إني إذًا صائم .. وانتهى الأمر ..

وكان في تعامله مع الناس .. يتعامل بكل سماحة ..

كلثوم بن الحصين .. كان من خيار الصحابة .. قال: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك .. فسرت ذات ليلة معه ونحن بوادي «الأخضر» .. وذكر كلثوم

(٤٩) رواه مسلم.

القصة وفيها أنهم أطالوا المشي .. فجعل يغلبه النعاس .. وجعلت ناقته تقترب من ناقة النبي ﷺ .. ويستيقظ فجأة .. فيبعدها .. خوفًا من أن يصيب رحل ناقته رجل النبي ﷺ ..

حتى غلبته عينه في بعض الطريق .. فزاحمت راحلته راحلة النبي ﷺ .. وضرب رحله رجل النبي ﷺ .. فآلمه .. فقال النبي ﷺ من حر ما يجد: «حس».

فاستيقظ كلثوم .. فاضطرب وقال: يا رسول الله .. استغفر لي ..

فقال ﷺ بكل سماحة: «سرْ .. سرْ ..».

نعم: سرْ .. ولم يعمل قضية .. لماذا تضايقني؟ الطريق واسع! ما الذي جاء بك بجانبي؟! لا .. لم يتعب نفسه .. ضربة رجل .. وانتهت ..

كان هذا أسلوبه ﷺ دائمًا ..

جلس يومًا بين أصحابه .. فأقبلت إليه امرأة ببردة .. قطعة قماش ..

فقالت: يا رسول الله .. إني نسجت هذه بيدي .. أكسوكها .. فأخذها النبي ﷺ .. وكان محتاجًا إليها .. وقام ودخل بيته .. فلبسها .. ثم خرج إلى أصحابه وهي إزاره ..

فقال رجل من القوم: يا رسول الله .. اكسنيها ..

فقال ﷺ: «نعم»..

ورجع ﷺ .. فورًا إلى بيته فخلعها وطواها .. ولبس إزارًا قديمًا .. ثم أرسل بها إلى الرجل .. فقال الناس للرجل: ما أحسنت .. سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلا؟!

فقال الرجل: والله ماسألته .. إلا لتكون كفني يوم أموت .. فلما مات الرجل .. كفنه أهله فيها (٥٠).

ما أجمل احتواء الناس بهذه التعاملات ..

قام ﷺ يومًا يؤم أصحابه في صلاة العشاء .. فدخل المسجد طفلان .. الحسن والحسين .. ابنا فاطمة رضي الله عنها ..

---

(٥٠) رواه البخاري.

فأقبلا إلى جدهما رسول الله ﷺ .. وهو يصلي .. فكان إذا سجد .. وثب الحسن والحسين على ظهره ..

فإذا أراد ﷺ أن يرفع رأسه .. تناولهما بيديه من خلفه تناولًا رفيقًا .. ووضعهما عن ظهره .. فجلسا جانبًا ..

فإذا عاد لسجوده .. عادا فوثبا على ظهره .. حتى قضى ﷺ صلاته .. فأخذهما بكل رفق .. وأقعدهما على فخذيه ..

فقام أبو هريرة ﷺ .. فقال: يا رسول الله .. أردُّهما ..؟ يعني أعيدهما لأمهما ..؟ فلم يعجل ﷺ عليهما ..

ثم لبث قليلا .. فبرقت برقة من السماء .. فقال لهما ﷺ: «الحقا بأمكما .. فقاما فدخلا على أمهما»..(٥١)

وفي يوم آخر .. خرج النبي ﷺ .. على أصحابه في إحدى صلاتي الظهر أو العصر .. وهو حامل الحسن أو الحسين ..

فتقدم إلى موضع صلاته.. فوضعه.. ثم كبر مصليًا بالناس.. فسجد رسول الله ﷺ سجدة .. أطالها .. حتى خشي عليه أصحابه أن يكون قد أصابه شيء..

ثم رفع من سجوده .. وبعد انتهاء الصلاة .. سأله أصحابه .. قالوا: يا رسول الله .. لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها ..!! أشيء أمرت به؟ أو كان يوحى إليك؟

فقال ﷺ: «كل ذلك لم يكن .. ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .. حتى يقضي حاجته»(٥٢) ..

ودخل ﷺ يومًا على أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها .. وكان جائعًا ..

فقال: «هل عندك من طعام نأكله؟».

فقالت: ليس عندي إلا كسر يابسة .. وإني لأستحي أن أقدمها إليك ..

فقال: «هلمي بهن»..

فأتته بهن .. فكسرهن في ماء .. وجاءت بملح فذرته عليه .. فجعل ﷺ ..

---

(٥١) رواه أحمد وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٥٢) الحاكم في المستدرك (صحيح).

يأكل هذا الخبز مخلوطًا بالماء .. فالتفت إلى أم هانئ وقال: «هل من إدام؟».
فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شيء من «خل» ..
فقال: «هلميه».. فجاءته به .. فصبه على طعامه .. فأكل منه .. ثم حمد الله عز وجل .. ثم قال: «نعم الإدام الخل» (٥٣)..
نعم .. كان يعيش حياته كما هي .. يتقبل الأمور بحسب ما هي عليه ..
وفي رحلة الحج .. خرج ﷺ مع أصحابه .. فنزلوا منزلا .. فذهب النبي ﷺ فقضى حاجته .. ثم جاء إلى حوض ماء فتوضأ منه .. ثم قام ﷺ يصلي ..
جاء جابر بن عبد الله رضي الله عنه .. فوقف عن يسار رسول الله ﷺ.. وكبرّ مصليًا معه .. فأخذ النبي ﷺ بيده .. فأداره بهدوء حتى أقامه عن يمينه .. ومضيا في صلاتهما ..
فجاء جبار بن صخر رضي الله عنه .. فتوضأ .. ثم أقبل فقام عن يسار رسول الله ﷺ.. فأخذ ﷺ بأيديهما جميعًا .. – بكل هدوء – فدفعهما حتى أقامهما خلفه (٥٤)..
وفي يوم كان ﷺ جالسًا .. فاقلبت إليه أم قيس بنت محصن بابن لها حديث الولادة .. ليحنكه ويدعو له ..
فأخذه ﷺ فجعله في حجره .. فلم يلبث الصغير أن بال في حجر النبي ﷺ.. وبلل ثيابه بالبول ..
فلم يزد النبي ﷺ على أن دعا بماء فنضحه على أثر البول (٥٥). وانتهى الأمر.. لم يغضب .. ولم يعبس .. فلماذا نعذب نحن أنفسنا ونصنع من الحبة قبة .. ليس شرطًا أن يكون كل ما يقع حولك مرضيًا لك ١٠٠٪ ..
وإن تجد عيبًا فسدّ الخللا   جل من لا عيب فيه وعلا
بعض الناس يحرق أعصابه .. ويكبر القضايا .. وبعض الآباء والأمهات كذلك .. وربما بعض المدرسين والمدرسات كذلك ..
ولا تفتش عن الأخطاء الخفية .. وكن سمحًا في قبول أعذار الآخرين ..

(٥٣) رواه الطبراني في الأوسط، وأصله في الصحيحين.
(٥٤) رواه مسلم.
(٥٥) رواه البخاري.

خاصة من يعتذرون إليك حفاظًا على محبتهم معك .. لا لأجل مصالح شخصية..

اقبل معاذير من يأتيك معتذرًا ... إن برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أجلك من يعصيك مستترا

وانظر إلى رسول الله ﷺ .. وقد رقي منبره يومًا .. وخطب بأصحابه فرفع صوته حتى أسمع النساء العواتق في خدورها داخل بيوتهن ..!!

ترى ماذا قال؟!

قال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه: لا تغتابوا المسلمين .. ولا تتبعوا عوراتهم .. فإنه من يتبع عورة أخيه .. يتبع الله عورته .. ومن يتبع الله عورته .. يفضحه ولو في جوف بيته»(٥٦) ..

نعم لا تتصيد الأخطاء .. وتتبع العورات .. كن سمحًا ..

كان ﷺ حريصًا على عدم إثارة المشكلات أصلًا ..

في مجلس هادئ مع بعض أصحابه .. صفت فيه النفوس .. واطمأنت القلوب .. قال ﷺ لأصحابه: «ألا لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا .. فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٥٧) ..

لا تعذب نفسك ..

لا تثر على نفسك الغبار ما دام ساكنًا ..
وإن ثار فسدّ أنفك بكُمّك .. واستمتع بحياتك ..

---

(٥٦) رواه الترمذي وهو صحيح.
(٥٧) أخرجه أبو داود والترمذي وفيه مقال.

اعترف بخطئك .. لا تكابر ..

كثير من المشاكل التي ربما تستمر العداوة بسببها .. سنة وسنتين .. وربما العمر كله .. يكون حلها أن يقول أحدهما للآخر: أنا أخطأت .. وأعتذر ..

موعد أخلفته ..

أو مزحة ثقيلة ..

أو كلمة نابية.. سارع إلى إطفاء شرارها قبل أن تضطرم النار بسببها.. أنا آسف .. حقك عليّ .. ما يصير خاطرك إلا طيب ..

ما أجمل أن نتواضع ونسمع الناس هذه العبارات ..

وقعت خصومة بين أبي ذر وبلال .. رضي الله عنهما .. وهما صحابيان .. لكنهما بشر ..

فغضب أبو ذر .. وقال لبلال: يا ابن السوداء ..

فشكاه بلال إلى رسول الله ﷺ ..

فدعاه النبي ﷺ فقال: «أسابيت فلانًا؟».

قال: نعم ..

قال: «فهل ذكرت أمه؟».

قال: من يساب الرجال .. ذُكر أبوه وأمه يا رسول الله ..

فقال ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»..

فتغير أبو ذر .. وقال: على ساعتي من الكِبَر ..؟

قال: نعم ..

ثم أعطاه النبي ﷺ منهجًا يتعامل به مع من هم أقل منه فقال:

«إنما هم إخوانكم.. جعلهم الله تحت أيديكم.. فمن كان أخوه تحت يده.. فليطعمه من طعامه.. وليلبسه من لباسه.. ولا يكلفه ما يغلبه.. فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»..

فماذا فعل أبو ذر رضي الله عنه؟!

مضى أبو ذر حتى لقي بلالا.. ثم اعتذر.. وقعد على الأرض.. بين يدي بلال..

ثم جعل يقرب من الأرض حتى وضع خده على التراب وقال: يا بلال ..

طأ برجلك على خدي (٥٨)..

هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم في حرصهم على إطفاء نار العداوة قبل اشتعالها .. فإن اشتعلت منعوها من الامتداد ..

وقعت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة .. فأغضب أبو بكر عمرَ .. فانصرف عنه عمر مغضبًا .. فلما رأى أبو بكر ذلك .. ندم .. وخشي أن يتطور الأمر .. فانطلق يتبع عمر .. ويقول: استغفر لي يا عمر ..

وعمر لا يلتفت إليه ..

وأبو بكر يعتذر.. ويمشي وراءه حتى وصل عمر إلى بيته.. وأغلق بابه في وجهه.. فمضى أبو بكر إلى رسول الله ﷺ.. فلما رآه النبي ﷺ مقبلا من بعيد.. رآه متغيرًا..

فقال: «أما صاحبكم هذا فقد غامر»..

جلس أبو بكر ساكتًا .. فلم تمض لحظات .. حتى ندم عمر على ما كان منه!! رضي الله عنهم كانت قلوبهم بيضاء ..

عمر أقبل إلى مجلس رسول الله ﷺ .. فسلم وجلس بجانب النبي ﷺ .. وقص عليه الخبر .. وحكى كيف أعرض عن أبي بكر ولم يقبل اعتذاره!! فغضب رسول الله ﷺ .. فلما رأى أبو بكر غضبه .. جعل يقول: والله يا رسول الله.. لأنا كنت أظلم .. أنا كنت أظلم .. وجعل يدافع عن عمر ويعتذر له ..

فقال ﷺ: «هل أنتم تاركون لي صاحبي؟ هل أنتم تاركون لي صاحبي؟

إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا .. فقلتم: كذبت ..

وقال أبو بكر: صدقت» (٥٩) ..

وانتبه أن تكون ممن يصلح الناس ويفسد نفسه .. يدور بها كما يدور الحمار في الرحى ..

فإذا كنت في موضع توجيه أو اقتداء .. كمدرس مع طلابه .. وأب مع أولاده.. أو أم .. فاعلم أنك هنا تحت عين الزبون .. والكل يراقبك .. فاحرص

---

(٥٨) رواه مسلم مختصرًا.

(٥٩) البخاري.

على الانضباط قدر المستطاع .. وكذلك الزوجان مع بعضهما ..

وزع عمر رضي الله عنه ثيابًا على الناس .. فنال كل واحد قطعة قماش تكفيه إزارًا أو رداءً ..

ثم قام يخطب الناس يوم الجمعة .. فقال في أول خطبته: إن الله كتب لي عليكم السمع والطاعة ..

فقام رجل من القوم وقال: لا سمع لك ولا طاعة ..

فقال عمر: لمه؟!

قال: لأنك قسمت علينا ثوبًا .. ثوبًا .. وأنت تلبس ثوبين جديدين .. أي إزارك ورداؤك .. كلاهما نلحظ أنه جديد..

فتلفت عمر في المصلين .. كأنه يبحث عن أحد .. حتى وقعت عينه على ابنه عبد الله بن عمر فقال: قم يا عبد الله بن عمر .. فقام ..

فقال: ألست دفعت لي ثوبك لأخطب به؟

قال: نعم.

فقعد الرجل وقال: الآن نسمع ونطيع ..

وانتهت المشكلة ..

عزيزي لا تعجل عليَّ .. أنا معك أن أسلوب الرجل لما اعترض على عمر .. غير مناسب.. لكن العجب هو من قدرة عمر على استيعاب الموقف.. وإطفاء النار..

وأخيرًا .. إذا أردت أن يقبل الناس منك ملاحظتك .. ونصحك .. أيًا كانوا .. زوجة .. ولدًا .. أختًا .. فكن أنت متقبلا للنصح أصلا .. غير متكبر عنه ..

كان كثيرًا ما يقول لها: اعتنِ بأولادك أكثر .. اطبخي جيدًا .. إلى متى أقول: رتبي غرفة النوم ..

وكانت تردد دائمًا بكل أريحية: أبشر .. إن شاء الله .. أمرك ..

قالت له يومًا – ناصحة –: الأولاد في أيام اختبارات ويحتاجون وجودك بينهم .. فلا تتأخر إذا خرجت لأصحابك ..

فما كاد يسمع منها ذلك حتى صاح بها: لست متفرغًا لهم .. أتأخر أو لا أتأخر .. ليس شغلك .. ليس لك دخل فيَّ!!

فبالله عليك قل لي: كيف تريدها أن تقبل منه نصحًا بعد ذلك؟!

وأخيرًا .. الذكي .. هو الذي يسد الفتحات في جداره حتى لا يستطيع الناس أن يسترقوا النظر .. بمعنى: أن لا تفتح مجالا لشك الناس فيك ..

أذكر أن إحدى الجمعيات الدعوية استدعت مجموعة من الدعاة لعقد محاضرات في ألبانيا .. كان رئيس المراكز الدعوية في ألبانيا حاضرًا الاجتماع ..

نظرنا إليه .. فإذا ليس على خديه شعرة واحدة!!

فنظر بعضنا إلى بعض مستغربًا ..!! فقد جرت العادة أن يكون الداعية ملتزمًا بهدي رسول الله ﷺ معفيًا لحيته .. ولو بعضها .. فكيف برئيس الدعاة؟!

فلما ابتدأ الاجتماع قال لنا ضاحكًا: يا جماعة .. أنا أمرد .. أصلا لا ينبت لي لحية .. لا تعملوا لي محاضرة إذا انتهينا .. تبسمنا وشكرناه ..

وإن شئت فارحل معي إلى المدينة ..

وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد كان معتكفًا في مسجده في ليالي رمضان ..

أقبلت إليه زوجه صفية بنت حيي ﵂ زائرة .. فمكثت عنده قليلا .. ثم قامت لتعود لبيتها .. فلم يشأ النبي ﷺ أن تعود في ظلمة الليل وحدها .. فقام معها ليوصلها .. مشي معها في الطريق .. فمر به رجلان من الأنصار ..

فلما رأيا النبي ﷺ والمرأة معه .. أسرعا!!

فقال ﷺ لهما: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» ..

فقالا: سبحان الله يا رسول الله .. أي: أيُعقل أن نشك فيك أن يكون معك امرأة أجنبية عنك ..!!

فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم .. وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا .. أو قال شيئًا ..» (٦٠) ..

شجاعة ..

ليست الشجاعة أن تصر على خطئك .. وإنما أن تعترف به ..
ولا تكرره مرة أخرى ..

---

(٦٠) متفق عليه.

مفاتيح الأخطاء!

التعامل مع الأخطاء فن .. فلكل باب مفتاح .. وللقلوب دروب ..

إذا وقع أحد في خطأ كبير .. وانتشر خبره في الناس .. وبدأ الناس يترقبون ماذا تفعل؟ فأشغلهم بشيء .. حتى يكون عندك وقت لدراسة الأمر .. حتى لا يتجرأ أحد على مثل فعله .. أو يتعودوا على مثل هذا الخطأ ..

خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة بني المصطلق .. وأثناء رجوعهم .. نزلوا يستريحون .. فأرسل المهاجرون غلامًا لهم اسمه: جهجاه بن مسعود .. ليستقي لهم من البئر ماء.. وأرسل الأنصار غلامًا لهم اسمه: سنان بن وبر الجهني .. ليستقي لهم أيضًا ..

فازدحم الغلامان على الماء .. فكسع أحدهما صاحبه .. أي ضربه على مؤخرته .. فصرخ الجهني: يااا معشر الأنصار ..

وصرخ جهجاه: يااا معشر المهاجرين ..

فثار الأنصار .. وثار المهاجرون .. واشتد الخلاف .. والقوم قادمون من حرب .. ولا يزالون بسلاحهم!!

فانطلق ﷺ .. حتى أطفأ ما بينهم .. فتحركت الأفاعي .. غضب عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين .. وعنده رهط من قومه الأنصار ..

فقال: أو قد فعلوها!! قد نافرونا .. وكاثرونا في بلادنا .. والله ما أعدّنا وجلابيب قريش هذه .. إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك .. وجوّع كلبك يتبعك!!

ثم قال الخبيث: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة.. ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ..

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم .. وقاسمتموهم أموالكم .. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم .. لتحولوا إلى غير داركم ..

وجعل الخبيث يهدد ويتوعد .. والذين عنده من أنصاره المنافقين .. يؤيدونه ويشجعونه ..

كان من بين الجالسين غلام صغير .. اسمه زيد بن أرقم .. فمضى إلى

رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .. وكان عمر بن الخطاب جالسًا عند النبي ﷺ.. فثار .. كيف يجرؤ هذا المنافق على رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب القبيح ..

رأى عمر أن قتل الأفعى أولى من قطع ذيلها .. ورأى أن قتل ابن سلول .. يقضي على الفتنة في مهدها.. ولكن أن يقتله رجل من قومه الأنصار.. أسلم من أن يقتله رجل من المهاجرين ..

فقال عمر: يا رسول الله .. مُرْ به عباد بن بشر الأنصاري فليقتله ..

لكن رسول الله ﷺ كان أحكم .. فهم قادمون من حرب .. والناس بسلاحهم .. والنفوس مشحونة .. وليس من المناسب إثارتهم أكثر ..

فقال ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟!

لا يا عمر .. ولكن آذن الناس بالرحيل ..

كان الناس قد نزلوا للتوَ واستظلوا .. فكيف يأمرهم بالرحيل في شدة الحر والشمس .. ولم تكن عادته ﷺ أن يرتحل في شدة الحر ..

ارتحل الناس .. وبلغ عبدالله ابن سلول أن رسول الله ﷺ.. أخبره زيد بن أرقم بما سمع منه ..

فأقبل ابن سلول إلى رسول الله ﷺ.. وجعل يحلف بالله .. ما قلت .. ولا تكلمت به .. كذب عليّ الغلام ..

كان ابن سلول رئيسًا في قومه .. شريفًا عظيمًا ..

فقال الأنصار: يا رسول الله .. عسى أن يكون الغلام أوهمَ في حديثه .. ولم يحفظ ما قال الرجل ..

جعلوا يدافعون عن ابن سلول ..

والنبي ﷺ يسير على دابته لا يلتفت إلى أحد .. فأقبل إليه سيد من سادة الأنصار .. أسيد بن حضير .. فحياه بتحية النبوة وسلم عليه .. وقال: يا رسول الله .. والله لقد رحت في ساعة منكرة .. ما كنت تروح في مثلها!!

فالتفت إليه ﷺ وقال: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟».

قال: أي صاحب يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبي»..

قال: وما قال؟

قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل»..

فثار أسيد وقال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت .. هو والله الذليل .. وأنت العزيز ..

ثم قال أسيد مخففًا على رسول الله ﷺ: يا رسول الله .. ارفق به .. لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه .. فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا ..

فسكت النبي ﷺ .. ومضى براحلته ..

والناس منهم من يجمع متاعه .. ومنهم من يُرحل راحلته .. وجعلت الحادثة تنتشر .. وصارت أحاديث الجيش ..

لماذا ارتحلنا في هذا الوقت؟..

ماذا قال؟

كيف تعامل معه؟

صدق ابن سلول .. لا بل كذب ..

وبدأت الشائعات تزيد .. والكلام يُزاد فيه ويُنقص ..

واضطرب الجيش .. وهم في طريقهم من قتال .. ويمرون بقبائل أعداء يتربصون بهم ..

فشعر ﷺ أن الجيش بدأ ينقسم .. فأراد أن يشغلهم عن المشكلة .. وعن النقاش فيها .. لأنهم يزيدون أوارها .. ويشعلون الفتنة بين المهاجرين والأنصار .. وصار الناس يترقبون متى ينزلون حتى يجتمع بعضهم إلى بعض ويتحدثوا في الأمر فمشى ﷺ بالناس يومهم ذلك والشمس فوقهم!!

ومشى ومشى حتى غابت الشمس .. فظن الناس أنهم سينزلون للصلاة ويرتاحون .. فلم ينزل إلا دقائق معدودات .. صلوا ثم أمرهم فارتحلوا..

وواصل المشي ليلتهم حتى أصبح ..

ثم نزل فصلى الفجر .. ثم أمرهم فارتحلوا .. ومشوا صباحهم حتى تعبوا .. وآذتهم الشمس .. فلما شعر أن الإرهاق والتعب سيطر عليهم .. فليس فيهم جهد

للكلام .. أمرهم فنزلوا .. فما كادت أجسادهم تمس الأرض.. حتى وقعوا نيامًا .. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عما حدث ..

ثم أيقظهم .. وارتحل بهم .. وواصل حتى دخل المدينة .. وتفرق الناس في بيوتهم عند أهليهم .. وأنزل الله تعالى سورة المنافقين:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٧، ٨] ..

فقرأها رسول الله ﷺ .. ثم أخذ بأذن الغلام زيد بن أرقم .. وقال: «هذا الذي أوفى لله بإذنه».

وبدأ الناس يسبون ابن سلول .. ويلومونه .. فالتفت ﷺ إلى عمر وقال: «أرأيت يا عمر.. لو قتلته يوم ذكرت ذلك.. لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»..

ثم سكت عنه ﷺ .. فلم يتعرض له بشيء ..

وأحيانًا إذا وقع الخطأ أمام الناس، قد تحتاج أن تنكر عليه بأسلوب مناسب .. وإن كان أمام الناس ..

بينما رسول الله ﷺ جالسًا يومًا مع أصحابه .. وكانوا في أيام قحط .. واحتباس مطر .. وقلة زرع ..

إذ أتاه أعرابي فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس .. وضاعت العيال .. ونهكت الأموال .. وهلكت الأنعام .. فاستسق الله لنا .. فإنا نستشفع بك على الله .. ونستشفع بالله عليك ..

فتغير رسول الله ﷺ .. لما سمعه يقول: نستشفع بالله عليك!!

فالشفاعة والواسطة تكون من الأدنى إلى الأعلى .. فلا يجوز أن يقال إن الله يشفع عند خلقه .. بل يأمرهم جل جلاله .. لأنه أعلى وأرفع ..

فقال ﷺ: «ويحك!! أتدري ما تقول»؟!!

ثم جعل ﷺ يقدس الله .. ويردد .. «سبحان الله .. سبحان الله»..

فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه ..

ثم قال: «ويحك!! إنه لا يُستشفعُ بالله على أحد من خلقه .. شأنُ الله أعظم من ذلك .. ويحك!! أتدري ما الله؟!

إن عرشه على سماواته لهكذا .. وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب» [٦١] ..

ولكن إذا وقع الخطأ من الشخص لوحده فكيف يكون التعامل معه؟

أتى رسول الله ﷺ إلى بيت عائشة رضي الله عنها في ليلتها.. فوضع نعليه من رجليه.. ووضع رداءه.. واضطجع على فراشه.. فلبث كذلك.. حتى ظن أن عائشة قد رقدت..

فقام من على فراشه .. ولبس رداءه ونعليه .. رويدًا .. ثم فتح الباب رويدًا .. وخرج .. وأغلقه رويدًا ..

فلما رأت عائشة ذلك .. دخلتها غيرةُ النساء .. وخشيت أنه ذهب إلى بعضه نسائه .. فقامت ولبست درعها .. وخمارها ..

وانطلقت في إثره .. تمشي وراءه .. دون أن يشعر بها ..

انطلق ﷺ .. يمشي في ظلمة الليل .. حتى جاء مقبرة البقيع .. فوقف عندها .. ينظر إلى قبور أصحابه .. الذين عاشوا عابدين .. وماتوا مجاهدين .. واجتمعوا تحت الثرى .. ليرضى عنهم من يعلم السرّ وأخفى ..

أخذ ﷺ ينظر إلى قبورهم .. ويتذكر أحوالهم .. ثم رفع يديه فدعا لهم ..

ثم أخذ ينظر إلى القبور .. ثم رفع يديه ثانية فدعا لهم ..

ثم لبث مليًا .. ثم رفعها فاستغفر لهم ..

وأطال القيام .. وعائشة تنظر إليه من بعيد .. ثم التفت ﷺ وراءه راجعًا ..

فلما رأت ذلك عائشة .. انحرفت إلى ورائها راجعة .. خشية أن يشعر بها ..

فأسرع ﷺ مشيه .. فأسرعت عائشة .. فهرول .. فهرولتْ ..

فأحضرَ – أي جرى مسرعًا – فأحضرت وجرت ..

حتى سبقته إلى البيت فدخلت .. ونزعت درعها وخمارها ..

وأقبلت إلى فراشها فاضطجعت عليه .. كهيئة النائمة ..

ونَفَسُها يتردد في صدرها ..

---

(٦١) رواه أبو داود.

فدخل ﷺ البيت .. فسمع صوت نفسها ..

فقال: «مالك يا عائش .. حشيًا رابية؟!».

قالت: لا شيء!

قال: «لتخبرني .. أو ليخبرني اللطيف الخبير»..

فأخبرته بالخبر .. وأنها غارت عليه .. فانطلقت تنظر أين يذهب ..

فقال ﷺ: «أنت الذي رأيتُ أمامي؟».

قالت: نعم ..

فدفعها في صدرها.. دفعة.. ثم قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله»..

فقالت عائشة: مهما يكتم الناسُ .. يعلمه الله عز وجل ..؟

قال: نعم.

ثم قال ﷺ مبينًا لها خبر خروجه: «إن جبريل عليه السلام .. أتاني حين رأيت .. ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك .. فناداني .. فأخفى منك فأجبته وأخفيته منك .. وظننت أنك قد رقدت .. فكرهت أن أوقظك .. وخشيت أن تستوحشي .. فأمرني أن آتي أهل البقيع فأستغفر لهم»[٦٢] ..

نعم ..

كان ﷺ سهلا ليّنًا لا يكبر الأخطاء ..

بل كان يرددها في الناس ويقول: كما روى مسلم: «لا يفرك مؤمن مؤمنة .. إن كره منها خلقًا .. رضي منها آخر» ..

أي لا يبغضها بغضًا تامًا.. لأجل خلق عندها.. أو طبع يلازمها.. بل يغفر سيئتها لحسنتها.. فإذا رأى خطأها تذكر صوابها.. وإذا شاهد سوءها تذكر حسنها.. ويتغاضى عما يكرهه من خلقها .. وما لا يرضاه من تعاملها..

اضاءة ..

ليس اللوم على من لا يقبل النصيحة ..

وانما على من يقدمها بأسلوب غير مناسب ..

---

(٦٢) رواه النسائي بسند جيد.

فكك الحزمة ..!!

إذا كان الخطأ واقعًا من مجموعة .. فالأصل أن تنصحهم وهم مجتمعون .. ولكن قد تحتاج أحيانًا أن تفكك الحزمة .. أعني .. أن تكلم كل واحد على حدة .. وتنصحه ..

مثال: مررت بمجلس منزلكم .. وسمعت أخاك يتحدث مع أصدقائه – وكانوا ضيوفًا عنده – ويخططون أن يسافروا إلى بلد كذا .. وهذا البلد لا يسلم من يذهب إليه غالبًا من التعرض للمحرمات الكبار..

أردت أن تنصح .. لكن .. كيف؟!

من الأساليب أن تدخل عليهم وتنصحهم بكلمتين .. وتخرج .. لكن نتيجة ذلك قد لا تكون ناجحة كثيرًا .. فما رأيك أن تفكك الحزمة .. وتكسر كل عود على حدة .. كيف؟!

إذا تفرقوا اجلس مع من تظنه أعقلهم .. وقل: يا فلان .. بلغني أنكم ستسافرون .. وأنت أعقلهم .. وتعلم أن هذا البلد لا يسلم المسافر إليه من البلايا والفتن .. وقد يعود مريضًا أو مبتلى ..

فما رأيك أن تكسب أجرهم .. وتقترح عليهم أن يسافروا إلى بلد آخر .. تستمتعون فيه بالأنهار والبحار.. واللعب والأنس .. من غير معصية ..

لا شك أنه إذا سمع منك هذا الكلام بالأسلوب الحسن .. سيقل حماسه إلى النصف .. اذهب إلى آخر .. وقل له مثل ذلك .. ثم قل للثالث مثله .. دون أن يشعر كل منهم بحديثك لصاحبه ..فتجد أنهم إذا اجتمعوا .. وتشجّع أحدهم واقترح تغيير البلد .. وجد من يعاونه .. وتكون قضيت على المنكر بأسلوب مناسب ..

أو لو اكتشفت يومًا أن أولادك يجتمعون في غرفة أحدهم .. وينظرون إلى شريط فيديو خليع .. أو مقاطع (بلوتوث) فيها صور خليعة .. أو نحو ذلك ..

فقد يكون من المناسب أن تنصح كلا منهم على حدة .. لكيلا تأخذهم العزة بالإثم .. هل لهذا شاهد من السيرة؟ نعم ..

لما اشتد الخلاف بين رسول الله ﷺ وبين قريش .. اجتمعت قريش وقاطعت

النبي وجميع أقاربه من بني هاشم .. وكتبت صحيفة أن بني هاشم لا يُشترى منهم .. ولا يباع لهم .. ولا يُزوَّجون .. ولا يُتزوج منهم ..

وحبس النبي ﷺ مع أصحابه في وادٍ غير ذي زرع .. واشتدت الكربة على الصحابة حتى أكلوا الشجر ..

بل مضى أحدهم يومًا ليبول .. فسمع صوتًا تحته .. فنظر فإذا قطعة من جلد بعير .. فأخذها .. وغسلها وشواها بالنار .. ثم فتتها .. وخلطها بالماء .. وجعل يتموّن بها ثلاثة أيام!!

ومضت الشهور عصيبة على بني هاشم والمسلمين فقال ﷺ يومًا لعمه أبي طالب - وكان محبوسًا معهم في الشعب -: «يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش.. فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها.. ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان»..

أي إن دابة الأرضة أكلت صحيفة قريش فلم يبق منها إلا عبارة: باسمك اللهم!!

فعجب أبو طالب وقال: أربُّك أخبرك بهذا؟

قال: «نعم».

قال: فوالله ما يدخل عليك أحد .. حتى أخبر قريشًا بذلك ..

ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش .. إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا.. فهلمّ صحيفتكم.. فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها..

وإن كان كاذبًا .. دفعت إليكم ابن أخي فافعلوا به ما شئتم ..

فقال القوم: قد رضينا .. فتعاقدوا على ذلك .. ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ.. فزادهم ذلك شرًا.. وظل بنو هاشم وبنو المطلب في واديهم.. حتى كادوا أن يهلكوا.. وكان من كفار قريش رجال رحماء.. منهم: هشام بن عمرو.. وكان ذا شرف في قومه.. فكان يأتي بالبعير قد حمله طعامًا.. وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا .. حتى إذا بلغ به فم الشعب .. خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم ..

ومضت الأيام ورأى هشام .. أنه لا طاقة له بإطعامهم كل ليلة .. وهم كثير .. فقرر أن يسعى لنقض الصحيفة الظالمة .. ولكن أنى له ذلك وقريش قد أجمعت عليها .. فاتبع أسلوب تفكيك الحزمة .. فماذا فعل؟

مشى إلى زهير بن أبي أمية.. وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب.. فقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء.. وأخوالك حيث علمت لا يباع لهم ولا يبتاع منهم.. ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟! أما إني أحلف بالله لو كان أخوال أبى الحكم بن هاشم.. - يعنى أبا جهل - وكان أشدهم عداوة للمؤمنين وتعصبًا للمقاطعة -ما ما تركهم على هذا الحال..

قال زهير: ويحك يا هشام.. فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها..

قال هشام: قد وجدت رجلاً..

قال: من هو؟

قال: أنا..

قال زهير: ابغنا ثالثاً..

قال هشام: فاكتم عني..

فذهب إلى المطعم بن عدى.. وكان رجلاً عاقلاً.. فقال له: يا مطعم.. أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف.. وأنت شاهد على ذلك.. موافق لقريش فيه؟!

قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد..

قال: وجدت لك ثانياً

قال: من

قال: أنا

قال: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلت..

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبى أمية..

قال: أبغنا رابعًا..

قال: فاكتم عني.، فذهب إلي أبي البختري بن هشام.. فقال له ما قال لصاحبيه.. فتحمس لذلك.. وقال: وهل تجد أحدًا يعين على هذا؟ قال: نعم..

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك..

قال: أبغنا خامسًا..

فذهب هشام إلي زمعة بن الأسود.. فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم..

فقال له: وهل على هذا الأمر ألذي تدعوني إليه من أحد.

قال: نعم.. فلان وفلان..، فاتفقوا جميعاً على هذا الرأي.. وتواعدوا عند «حطم الحجون» ليلاً بأعلى مكة.. فاجتمعوا هنالك.. وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها..

وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.. ثم تقوموا أنتم فتتكلمون..

فلما أصبحوا غدوا إلى مجالسهم حول الكعبة.. حيث يجتمع الناس ويتبايعون.. وغدًا زهير بن أبي أمية عليه حلة.. فطاف بالبيت سبعاً.. ثم أقبل على الناس وصرخ يا !! أهل مكة أنأكل الطعام..؟ ونلبس الثياب..؟

وبنو هاشم هلكى !! لا يباع لهم ولا يبتاع منهم.. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة..

فصرخ أبو جهل.. وكان في مجلس مع أصحابه.. قال: كذبت.. والله لا تشق..

فقام زمعة بن الأسود وصرخ: بل أنت والله أكذب.. ما رضينا كتابتها حين كتبت.. فالتفت إليه أبو جهل ليرد عليه.. ففاجأه البختري قائماً يقول: صدق زمعة.. لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به..

فالتفت أبو جهل إلى البختري.. فإذا بالمطعم بن عدى يصرخ: صدق زمعة..

صدقتما وكذب من قال غير ذلك.. نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها..

وقام هشام بن عمرو وقال مثل قولهم..، فتحير أبو جهل.. وسكت هنيه ثم قال: هذا أمر قضى بليل.. تشور فيه بغير هذا المكان..

ثم انطلق المطعم بن عدى إلى الكعبة.. وتوجه إلى الصحيفة ليشقها.. فوجد دابة الأرض قد أكلتها.. إلا باسمك اللهم..

كن ذكيا

الطبيب الحاذق يتلمس أولا بأصابعه..

فيختار الموضع المناسب قبل غرز الإبرة..

جلد الذات!!

من الذكريات:

أنا خرجنا مرة للبر.. وكان معنا أبو خالد.. صديق لنا نظره ضعيف جدًا.. كنا نخدمه.. نقرب إليه الماء.. التمر.. القهوة.. وهو يردد: لابد أن أساعدكم.. أريد أن أشتغل معكم.. كلفوني بأي عمل.. ونحن ننهاه عن ذلك..

ذبحنا شاة معنا.. وقطعناها ووضعناها في القدر.. تمهيداً لطبخها.. ولم نشعل النار بعد.. وانشغلنا بنصب الخيمة.. وترتيب الأغراض..

تحركت الشهامة في أبي خالد - ويا ليتها لم تفعل - فقام وتوجه إلي القدر.. فرأى اللحم.. فأدرك أن أول شيء سنفعله هو أن نصب الماء على اللحم..

فتوجه إلي الأغراض في السيارة.. وجعل يتلمس الأغراض.. مولد كهرباء.. أسلاك.. مصابيح.. أربع مطارات بلاستيك فيها ماء.. وبنزين.. وأغراض أخرى.. التقط أقرب مطارة إليه.. وأقبل بها مبتهجاً إلي القدر.. وأفرغ نصفها فيه.. لمحه أحدنا فصرخ به.. لا.. لا.. أبو خالد.. وهو يردد: خلوني أشتغل.. خلوني.. فسحبنا المطارة منه فوراً.. وغرقنا في الضحك الذي يغالبه البكاء..

لأننا اكتشفنا أنها مطارة البنزين وليست مطارة الماء.. !! وتغدينا على خبز وشاي.. لم تفسد الرحلة.. بل كانت من أمتع الرحلات.. ولماذا نعذب أنفسنا بأمر قد انتهى.. ..

وأذكر أيضًا: لما كنت في الثانوية خرجت مع بعض الزملاء في رحلة..

تعطلت بطارية إحدى السيارات.. أقبلنا بسيارة أخرى وأوقفناها أمامها لنوصل ببطاريتها البطارية المتعطلة..

أقبل طارق ووقف بين السيارتين.. وشبك الأسلاك في بطارية السيارة الأولى ثم شبكها في البطارية المتعطلة.. ثم أشار لأحد الشباب.. شغل السيارة.. ركب صاحبنا.. وكان ناقل الحركة (القير) على رقم واحد.. فما إن شغل السيارة حتى قفزت السيارة إلي الأمام وصكت ركبتي بين صدامي السيارتين.. ووقع على الأرض مصابًا..

وصاحبنا في السيارة يردد: أشغل مرة ثانية؟!!

أبعدنا السيارتين.. وساعدنا طارق على المشي.. كان يعرج ويتألم من ركبتيه بشدة.. لكنه أعجبني أنه لم يزد ألمه بصراخ أو سب.. أو توبيخ.. بل ابتسم وأظهر الرضا..

وما فائدة الصراخ؟ والأمر قد انتهى.. وصاحبنا أدرك خطأه..

إذا أردت أن تستمتع بحياتك.. فاعمل بهذه القاعدة:

لا تهتم بصغائر الأمور..

نحن أحياناً نعذب أنفسنا.. ونجلدها.. ونضيق ونتألم.. والألم لا يحل المشكلة..

افرض أنك: دخلت إلى حفل عرس.. وقد لبست ثوباً حسناً.. ووضعت فوق رأسك غترة وعقالاً.. حتى صرت أجمل من العريس!!

وبدأت تصافح الناس واحداً واحداً.. وفجأة أقبل طفل من ورائك.. وتعلق بطرف غترتك.. وسحبها فسقطت الغترة والعقال.. والطاقية.. وصار شكلك مضحكاً.. كيف تتصرف؟

كثير منا يتعامل مع هذه المشكلة بأسلوب هو ليس حلا لها.. يركض وراء الصغير.. يصرخ.. ويسب.. ويلعن.. والنتيجة: أنه حقق ما كان يريده الطفل من جذب إنتباه.. وضجة.. وأضحك الناس عليه.. وربما صوره بعضهم وصار بلوتوثا يتناقلونه..!!

أنت هنا - حقيقة - لا تعذب الطفل إنما تعذب نفسك.. .

أو افرض أنك.. لبست ثوباً جديداً.. ربما لم تسدد قيمته بعد.. وذهبت إلى شركة لتتقدم عن وظيفة.. مررت بأحد الأبواب كان مدهوناً بالطلاء للتو.. وبجانبه لوحة تحزيرية لم تنتبه لها..

وفجأة مسحت نصف الطلاء بثوبك.. وصفق عامل الطلاء يصرخ بك سابًا غضبًا.. كيف تتعامل مع هذه المشكلة؟ نحن في كثير من الأحيان أيضًا نتعامل معها بأسلوب ليس حلا لها.. نثور.. نسب العامل.. لم لم تضع لوحة واضحة.. فيرد عليك بغضب.. وقد تكون النتيجة أن تتلطخ بتراب الأرض أكثر مما تلطخت بطلاء الباب!!

على رسلك.. هل تدرى أنك بتصرفك هذا تعذب نفسك.. وتجلد ذاتك..

وقل مثل ذلك لو: تزينت وذهبت خاطباً.. فمرت بك سيارة وأنت خارج من البيت.. ورشت عليك من ماء كان مجتمعاً على الأرض.. هل ستعذب نفسك فتصرخ وتزعق بالسيارة وركابها.. وهى قد ولتك ظهرها؟

وكذلك.. لا داعي لأن نتذكر دائماً الآلام التي مستنا في حياتنا..

محمد ﷺ مرت به لحظات حزينة في حياته.. حتى جلس يوماً مع زوجه الحنون عائشة رضي الله عنها.. في لحظة ساكنة.. فسألته:

هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أحد؟

مرت تلك المعركة في ذاكرة النبي ﷺ.. آآه.. ما أقصى ذلك اليوم..

يوم قتل فيه عمه حمزة وهو من أحب الناس إليه..

يوم وقف ينظر إلي عمه وقرة عينه.. وقد جدع أنفه.. وقطعت أذناه.. وشق بطنه.. ومزق جسده.. يوم كسرت أسنانه ﷺ وجرح وجهه.. وسالت منه الدماء..

يوم قتل أصحابه بين يديه.. يوم عاد ﷺ إلى المدينة.. وقد نقص سبعون من أصحابه.. فرأى النساء الأرامل والأطفال اليتامى.. يبحثون عن أحبابهم وآبائهم.. آآه..

فعلاً كان ذلك يوماً قاسيًا..

كانت عائشة تنتظر الجواب.. فقال ﷺ: ما لقيت من قومك كان أشد منهم يوم العقبة.. إذ عرضت نفسي.. ثم ذكر لها قصة استنصاره بأهل الطائف وتكذيبهم له.. ورمي سفهائهم له بالحجارة حتى أدموا قدميه[٦٣]..

ومع وجود هذه الآلام في تاريخ حياته ﷺ إلا أنه كان لا يسمح لها أن تنغص عليه استمتاعه بالحياة.. لا تستحق الالتفاف إليها.. وقد مضت آلامها وبقيت حسناتها..

إذن لا تقتل نفسك بالهم.. وكذلك لا تقتل الناس بالهم واللوم..

نحن أحيانًا نتعامل مع بعض المشاكل بأساليب هي في الحقيقة ليست حلا لها..

كان الأحنف بن قيس سيد بني تميم.. ولم يكن ساد قومه بقوة جسد.. ولا كثرة مال.. ولا ارتفاع نسب.. وإنما سادهم بالحلم والعقل..

---

(٦٣) [illegible] القصة كاملة.

حقد عليه قوم.. فأقبلوا إلى سفيه من سفهائهم وقالوا له:

هذه ألف درهم على أن تذهب إلى سيد بني تميم.. الأحنف بن قيس.. فتلطمه على وجهه..

مضى السفيه.. فإذا الأحنف جالس مع رجال.. محتبيًا بكل رزانة.. قد ضم ركبتيه إلى صدره.. وجعل يحدث قومه.. اقترب السفيه منه.. ودنا.. ودنا.. فلما وقف عنده.. مدّ الأحنف إليه رأسه ظانًا أنه سيسرّ إليه بشيء..

فإذا بالسفيه يرفع يده ويلطم الأحنف على وجهه لطمة كادت تمزق خده!!

نظر الأحنف إليه.. ولم يحل حبوته.. بل قال بكل هدوووء:

لماذا لطمتني؟!!

قال: قوم أعطوني ألف درهم على أن ألطم سيد بني تميم..

فقال الأحنف.. آآآه.. ما صنعت شيئًا.. لست سيد بني تميم..!

قال: عجبًا!! فأين سيد بني تميم..

قال: هل ترى ذاك الرجل الجالس وحده.. وسيفه بجانبه؟

وأشار إلى رجل اسمه حارثة بن قدامة.. امتلأ غضبًا وغيظًا.. لو قسم غضبه على أمة لكفاهم..

قال: نعم أراه.. الجالس هناك؟!

قال: نعم.. فاذهب والطمه لطمة.. فذاك سيد بني تميم..

مضى الرجل إليه: واقترب من حارثة.. فإذا عينا حارثة تلتمع شررًا.. وقف السفيه عليه.. ورفع يده ولطمه على وجهه.. فما كادت يده تفارق خده حتى التقط حارثة سيفه.. وقطع يده..!!

وقديمًا قيل: الفائز هو الذي يضحك في النهاية!!

قناعة..

التعامل مع المشكلة بأساليب ليست حلا لها..

يعذبك.. ولا يحل المشكلة!!

مشاكل ليس لها حل

كم ترى من الناس غاضباً وهو يقود سيارته.. وربما ضرب بيديه على مقودها.. وردد: أوووه دائماً زحمة.. زحمة!!

أو قد تراه يمشي في الطريق.. ولا يحتمل أن يكلمه أحد.. بل متضايق أشد الضيق.. ويردد: أوووف حرررر شديييد.. !!

وربما كنت زميلاً له في مكتب واحد.. تبتلى برؤيته كل يوم.. ويشغلك كلما جلس.. يا أخي العمل كثيير.. أوووه إلى متى ما يزيدون رواتبنا؟! ويدخل عابساً.. ويخرج ساخطاً..

وربما أكثر التشكي من آلام بدنه.. أو إعاقة ولده..

باختصار لا بد أن نقتنع جميعاً أننا تواجهنا في حياتنا مشاكل ليس لها حل.. فلابد أن نتعامل معها بأريحية..

قال: السماء كئيبة وتجهما ... قلت: ابتسم، يكفي التجهم في السما!
قال: الصبا ولى! فقلت له: ابتسم ... لن يرجع الأسف الصبا المتصرما
قال: التي كانت سمائي في الهوى ... صارت لنفسي في الغرام جهنما
خانت عهودي بعدما ملكتها ... قلبي فكيف أطيق أن اتبسما
قلت: ابتسم واطرب فلو قارنتها ... قضيت عمرك كله متألما
قال: العدى حولي علت صيحاتهم ... أ أسر والأعداء حولي في الحمى؟
قلت: ابتسم، لم يطلبوك ... لو لم تكن منهم أجل وأعظما!
قال: الليالي جرعتني علقما ... قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنما ... طرح الكآبة خلفه وترنما
أتراك تغنم بالترنم درهما ... أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى ... متلاطم ولذا نحب الأنجما[٦٤]

نعم استمتع بحياتك..

---

(٦٤) أبيات لإيليا أبو ماضي من ديوانه ص٦٥٦.

انتبه أن تكون ظروفك مؤثرة على سلوك.. في عملك.. أولادك.. زملائك.. فما ذنبهم أن يتعذبوا بأمور ليس هم طرفًا فيها.. ولا يملكون حلها؟

لا تجعلهم إذا رأوك.. أو ذكروك.. ذكروا معك الهم والحزن..

لذا نهى ﷺ عن النياحة على الميت.. والصراخ.. وشق الجيب.. وحلق الشعر.. و.. لماذا؟ لأن التعامل مع الموت يكون بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.. والدعاء له..

أما الصراخ والعويل فلا ينفع شيئًا.. سوى أنه يقلب متعة الحياة إلى أحزان.. مشى المعافى بن سليمان مع صاحب له..

فالتفت إليه صاحبه عابسًا وقال: ما أشد البرد اليوم؟
فقال المعافى: استدفأت الآن؟
قال: لا..
قال: فماذا استفدت من الذم؟ لو سبحت لكان خيرًا لك..
ما أحسن فهمه وأحكمه..

عش حياتك..

لا تنقب عن المشكلات.. ولا تدقق في صغائر الأمور..
وإنما استمتع بحياتك

لا تقتل نفسك بالهم

كان سعد أحد طلابي في الجامعة.. غاب أسبوعاً كاملا.. ثم لقيته فسألته: سلامات.. سعد..؟

قال: لا شيء كنت مشغولاً قليلاً..

كان الحزن واضحاً عليه.. قلت: ما الخبر؟

قال: كان ولدي مريضاً.. عنده تليف في الكبد.. وأصابه قبل أيام تسمم في الدم.. وتفاجأت أمس أن التسمم تسلل إلي الدماغ..

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. اصبر.. وأسأل الله أن يشفيه.. وان قضى الله عليه بشيء.. فاسأل الله أن يجعله شافعاً لك يوم القيامة..

قال: شافع؟ يا شيخ.. الولد ليس صغيراً..

قلت: كم عمره؟

قال: سبع عشر سنة..

قلت: أسأل الله أن يشفيه.. ويبارك لك في إخوانه..

فخفض رأسه وقال: يا شيخ ليس له إخوان.. لم أرزق بغير هذا الولد.. وقد أصابه ما ترى..

كان حاله مؤثراً.. لكني تجلدت وقلت له: سعد بكل اختصار.. لا تقتل نفسك بالهم.. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

ثم خففت عن مصابه وذهبت.. نعم لا تقتل نفسك بالهم.. فالهم لا يخفف المصيبة..

أذكر أني قبل فترة.. ذهبت إلي المدينة النبوية.. التقيت بخالد..

قال لي: ما رأيك أن نزور الدكتور: عبد الله..

قلت: لماذا ما الخبر؟

قال: نعزيه..

قلت: نعزيه؟!!

قال: نعم.. ذهب ولده الكبير بالعائلة كلها لحضور حفل عرس في المدينة المجاورة.. وبقي هو في المدينة لارتباطه بالجامعة..

وفي أثناء عودتهم وقع لهم حادث مروع.. فماتوا جميعاً.. إحدى عشرة نفساً!!

كان الدكتور رجلاً صالحاً قد جاوز الخمسين.. لكنه على كل حال.. بشر.. له مشاعر و أحاسيس.. في صدره قلب.. وله عينان تبكيان.. ونفس تفرح وتحزن..

تلقى الخبر المفزع.. صلى عليهم.. ثم وسدهم في التراب بيديه..

إحدى عشر نفساً..

صار يطوف في بيته حيران.. يمر بألعاب متناثرة.. قد مضى عليها أيام لم تحرك.. لأن خلود وسارة اللتين كانتا تلعبان بها.. ماتتا..

يأوي إلى فراشه.. لم يرتب.. لأن أم صالح.. ماتت..

يمر بدراجة ياسر.. لم تتحرك.. لأن الذي كان يقودها.. مااات.. ..

يدخل غرف ابنته الكبرى.. يرى حقائب عرسها مصفوفة.. وملابسها مفروشة على سريرها.. ماتت.. وهي ترتب ألوانها وتنسقها..

سبحان من صبره.. وثبت قلبه.. كان الضيوف يأتون.. معهم قهوتهم.. لأنه لا أحد عنده يخدم أو يعين لعجيب أنك إذا رأيت هذا الرجل في العزاء..

حسبت أنه أحد المعزين.. وأن المصاب غيره..

كان يردد.. إن لله وإن إليه راجعون.. لله ما أخذ وله ما أعطى.. وكل شيء عنده بأجل مسمى..

وهذا هو قمة العقل.. فلو لم يفعل ذلك.. لمات همًّا..

أعرف أحد الناس أراه دائماً سعيداً.. وإذا تأملت حاله وجدت:

وظيفته متواضعة..

بيته مستأجر ضيق.. إيجار..

سيارته قديمة..

أولاده كثيرون..

ومع ذلك كان دائم الابتسامة.. محبوباً.. يعيش حياته..

صحيح.. لا تقتل نفسك بالهم.. ولا تكثر التشكي.. فيملّك الناس..

كرجل عنده ولد معوق.. فيشغلك كلما رآك.. ولدي مريض.. ضائق صدري مسكين ولدي..

فتجد أنك تملّ منه وتود لو تصرخ به قائلا: يا أخي خلاص فهمنا.. .

أو امرأة مع زوجها دائماً تردد عليه: بيتنا قديم.. سيارتنا متهالكة.. ثيابي ليست على الموضة..

ما الفائدة من هذا التشكي إلا بتجديد المواجع..

أفنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن..

وظللت مكتوف اليدين تقول حاربني الزمن

إن لم تقم بالعبء أنت فمن يقوم به إذن

اضاءة..

عش حياتك بما بين يدك من معطيات.. لتسعد

ارض بما قسم الله لك

كنت في رحلة إلي أحد البلدان لإلقاء عدد من المحاضرات..

كان ذلك البلد مشهوراً بوجود مستشفى كبير للأمراض العقلية.. أو كما يسميه الناس "مستشفى المجانين"..

ألقيت محاضرتين صباحاً.. وخرجت وقد بقي على أذان الظهر ساعة..

كان معي عبد العزيز.. رجل من أبرز الدعاة.. التفت إليه ونحن في السيارة..

قلت: عبد العزيز.. هناك مكان أود أن أذهب إليه ما دام في الوقت متسع..

قال: أين؟ صاحبك الشيخ عبد الله.. مسافر.. والدكتور أحمد اتصلت به ولم يجب.. أو تريد أن نمر المكتبة التراثية.. أو..

قلت: كلا.. بل: مستشفى الأمراض العقلية..

قال: المجانين!!

قلت: المجانين..

فضحك وقال مازحًا: لماذا.. تريد أن تتأكد من عقلك..

قلت: لا.. ولكن نستفيد.. نعتبر.. نعرف نعمة الله علينا

سكت عبد العزيز يفكر في حالهم.. شعرت أنه حزين..

كان عبد العزيز عاطفيًا أكثر من اللازم.. أخذني بسيارته إلي هناك.. أقبلنا على مبنى كالمغارة.. الأشجار تحيط به من كل جانب.. كانت الكآبة ظاهرة عليه..

قابلنا أحد الأطباء.. رحب بنا ثم أخذنا في جولة في المستشفى.. أخذ الطبيب يحدثنا عن مآسيهم، ثم قال: وليس الخبر كالمعاينة..

دلف بنا إلي أحد الممرات.. سمعت أصواتاً هنا وهناك.. كانت غرفة المرضى موزعة على جانبي الممر..

مررنا بغرفة عن يميننا.. نظرت داخلها فإذا أكثر من عشرة أسرة فارغة.. إلا واحداً منها قد انبطح عليه رجل ينتفض بيديه ورجليه..

التفت إلى الطبيب وسألته: ما هذا!!

قال: هذا مجنون.. ويصاب بنوبات صرع.. تصيبه كل خمس أو ست ساعات..

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. منذ متى وهو على هذا الحال؟

قال: منذ أكثر من عشر سنوات.. كتمت عبرة في نفسي.. ومضيت ساكناً..

بعد خطوات مشيناها.. مررنا على غرفة أخرى.. بابها مغلق.. وفي الباب فتحة يطل من خلالها رجل من الغرفة.. ويشير لنا إشارات غير مفهومة..

حاولت أن أسرق النظر داخل الغرفة.. فإذا جدرانها وأرضها باللون البني..

سألت الطبيب: ما هذا؟!!

قال: مجنون!!

شعرت أنه يسخر من سؤالي.. فقلت: أدري أنه مجنون.. لو كان عاقلاً لما رأيناه هنا.. لكن ما قصته؟

فقال: هذا الرجل إذا رأى جداراً.. ثارت أعصابه وأقبل يضربه بيده.. وتارة يضربه برجله.. وأحياناً برأسه.. فيوماً تتكسر أعصابه.. ويوماً تكسر رجله ويوماً يشج رأسه.. ويوماً..

ثم خفض الطبيب رأسه حزيناً.. وقال: ولم نستطع علاجه.. فحبسناه في غرفة كما ترى.. جدرانها وأرضها مبطنة بالإسفنج.. فيضرب كما يشاء.. ثم سكت الطبيب ومضى أمامنا ماشيًا..

أم أنا وصحبي عبد العزيز.. فظللنا واقفين نتمتم: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به.. ثم مضينا نسير بين غرف المرضى..

حتى ممرنا على غرفة ليس فيها أسرة.. وإنما فيها أكثر من ثلاثين رجلا.. كل واحد منهم على حال..

هذا يؤذن..

وهذا يغني..

وهذا يتلفت.. وهذا يرقص..

وإذا من بينهم ثلاثة قد أجلسوا على كراسي.. وربطت أيديهم وأرجلهم.. وهم.. يتلفتون حولهم.. ويحاولون التلفت فلا يستطيعون.. تعجبت وسألت الطبيب: ما هؤلاء؟ ولماذا ربطتموهم دون الباقين؟

فقال: هؤلاء إذا رأوا شيئاً أمامهم اعتدوا عليه.. يكسرون النوافذ.. والمكيفات.. والأبواب.. لذلك نحن نربطهم على هذا الحال.. من الصباح إلي المساء.. قلت وأنا أدافع عبرتي: منذ متى وهم على هذا الحال؟..

قال: هذا منذ عشر سنوات.. وهذا منذ سبع.. وهذا جديد.. لم يمض له إلا خمس سنين!!

خرجت من غرفتهم.. وأن أتفكر في حالهم.. وأحمد الله الذي عافاني مما ابتلاهم..

سألته أين باب الخروج من المستشفى؟

قال: بقي غرفة واحدة.. لعل فيها عبرة جديدة تعال..

وأخذ بيدي إلى غرفة كبيرة.. فتح الباب ودخل.. وجرني معه..

كان ما في الغرفة شبيهًا بما رأيته في غرفة سابقة.. مجموعة من المرضى.. كل منهم على حال.. راقص.. ونائم.. و.. و.. عجبًا ماذا أرى؟؟

رجل جاوز عمره الخمسين.. اشتعل رأسه شيبًا.. وجلس على الأرض القرفصاء.. قد جمع جسمه بعضه على بعض.. ينظر إلينا بعينين زائغتين.. يتلفت بفزع.. كل هذا طبيعي..

لكن الشي الغريب الذي جعلني أفزع.. بل أثور.. هو أن الرجل كان عاريًا تمامًا ليس عليه من اللباس ولا ما يستر العورة المغلظة!!

تغير وجهي.. وامتقع لوني.. والتفت إلى الطبيب فورًا..

فلما رأى حمرة عيني.. قال لي:

هدئ من غضبك.. سأشرح لك حاله.. هذا الرجل كلما ألبسناه ثوبًا عضه بأسنانه وقطعه.. وحاول بلعه.. وقد نُلبسه في اليوم الواحد أكثر من عشرة ثياب.. وكلها على مثل هذا الحال.. فالرجل لا يتحمَل أيَّ قطعة قماش على جسده..

فتركناه هكذا صيفًا وشتاءً.. والذين حوله مجانين لا يعقلون حاله.. خرجت من هذه الغرفة ولم أستطع أن أتحمل أكثر..

قلت للطبيب: دلني على الباب.. للخروج..

قال: بقي بعض الأقسام..

قلت: يكفي ما رأيناه..

مشى الطبيب ومشيت بجانبه.. وجعل يمر في طريقه بغرف المرضى.. ونحن ساكتون.. وفجأة التفت إليّ وكأنه تذكر شيئًا نسيه.. وقال:

يا شيخ.. هنا رجل من كبار التجار.. يملك مئات الملايين.. أصابته لوثة عقلية فأتى به أولاده وألقوه هنا منذ سنتين..

وهنا رجل آخر كان مهندسًا في شركة..

وثالث كان..

ومضى الطبيب يحدثني بأقوام ذلوا بعد عز..

وآخرين افتقروا بعد غنى.. و..

أخذت أمشي بين غرف المرضى متفكرًا.. سبحان من قسم الأرزاق بين عباده.. يعطي من يشاء.. ويمنع من يشاء..

قد يرزق الله الرجل مالاً وحسبًا ونسبًا ومنصبًا.. لكنه يأخذ منه العقل.. فتجده من أكثر الناس مالاً.. وأقواهم جسدًا.. لكنه مسجون في مستشفى المجانين..

وقد يرزق آخر حسبًا رفيعًا.. ومالاً وفيرًا.. وعقلاً كبيرًا.. لكنه يسلب منه الصحة.. فتجده مقعدًا على سريره.. عشرين أو ثلاثين سنة.. ما أغنى عنه ماله وحسبه.. !! ومن الناس من يؤتيه الله صحة وقوة وعقلاً.. لكنه يمنعه المال فتراه يشتغل حمّال أمتعة في سوق أو تراه معدمًا فقيرًا يتنقل بين الحرف المتواضعة لا يكاد يجد ما يسدُّ به رمقه..

ومن الناس من يؤتيه.. ويحرمه.. وربك يخلق ما يشاء ويختار.. ما كان لهم الخيرة..

فكان حَريًّا بكل مبتلى أن يعرف هدايا الله إليه قبل أن يعُدَّ مصائبه عليه..

فإن حرمك المال فقد أعطاك الصحة..

وإن حرمك منها فقد أعطاك العقل..

فإن فاتك.. فقد أعطاك الإسلام..

هنيئًا لك أن تعيش عليه وتموت عليه.. فقل بملء فيك الآن بأعلى صوتك: الحمد لله..

وكذلك كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم..

بعث رسول الله ﷺ.. عمرو بن العاص رضي الله عنه.. جهة الشام.. في غزوة ذات السلاسل.. فلما صار إلى هناك رأى كثرة عدوه..

فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده.. فبعث إليه ﷺ أبا عبيدة بن الجراح.. أميرًا على مدد.. فيه المهاجرون الأولون.. وفيهم أبو بكر وعمر..

وقال ﷺ لأبي عبيدة حين وجهه: «لا تختلفا»..

فخرج أبو عبيدة.. حتى إذا وصل إلى عمرو بن العاص، قال له عمرو: إنما جئت مددًا لي.. وأنا أمير الجيش..

فقال له أبو عبيدة: لا ولكن على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه.. أي: أنا أمير على أصحابي الذين قدموا معي.. وأنت أمير على أصحابك..

وكان أبو عبيدة رجلاً لينًا سهلاً.. هينًا عليه أمر الدنيا..

فقال عمرو: بل أنت مددي..

فقال له أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ.. قد قال لي: «لا تختلفا».. وإنك إن عصيتني أطعتك..

فقال عمرو: فإني أمير عليك.. وإنما أنت مدد لي..

فوافق أبو عبيدة على ذلك.. فتقدم.. عمرو بن العاص رضي الله عنه فصلى بالناس.. وبعد الغزوة.. كان أول من وصل المدينة.. عوف بن مالك رضي الله عنه فمضى إلى رسول الله ﷺ..

فلما رآه.. قال له ﷺ.. «أخبرني».. فأخبره عن الغزوة.. وما كان بين أبي عبيدة وعمرو بن العاص..

فقال ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح»..

نعم.. يرحم الله أبا عبيدة رضي الله عنه..

فكرة..

انظر للجوانب المشرقة من حياتك..

قبل أن تنظر للمظلمة.. لتكون أسعد..

كن جبلا..

في بداية سلوكي في طريق الدعوة.. دعيت لإلقاء محاضرة في إحدى القرى..

استقبلني المسؤول عن الدعوة هناك.. ركبت سيارته.. كانت قديمة متهالكة..

تحدثت معه.. أخبرني أنه حديث عهد بزواج..

ثم اشتكى إليّ من غلاء المهور في قريتهم.. حتى إنه لم يستطع أن يشتري سيارة جديدة.. أو على الأقل أحسن من سيارته.. دعوت له بالتوفيق..

ثم دخلت وألقيت المحاضرة..

وفي آخرها.. قرئت عليّ الأسئلة.. وكان من بينها سؤال عن غلاء المهور.. ففرحت به وقلت: جاءك يا مهنا ما تتمنى!!

وانطلقت أتكلم عن غلاء المهور وتأثيره على الشباب والفتيات.. ثم ذكرت أن رسول الله ﷺ ما زوج بناته بأكثر من خمسمائة درهم.. ثم رفعت صوتي قائلاً: يعني بناتكم يا آل فلان أحسن من بنات النبي ﷺ؟!!

فصرخ رجل مُسنّ من طرف الصف قائلاً: إيش فيهم بناتنا؟

فثار آخر وقال: يتكلم على بناتنا!!

ونهض الثالث جاثيًا على ركبتيه وقال: أووه تتكلم على بناتنا؟!!

كنت في حال لا أحسد عليه..

وكنت في أوائل طريق الدعوة.. وحديث التخرج من الجامعة.. بقيت ساكتًا لم أنبس ببنت شفة..

نظرت إلى الأول لما تكلم وتبسمت..

فلما تكلم الثاني.. نظرت إليه أيضًا وتبسمت..

وكذلك الثالث..

كان بعض الشباب في آخر المسجد يتضاحكون.. وبعضهم قاموا وقوفًا ينظرون..

وكأني بهم يقولون: وقف حمار الشيخ في العقبة[11]..

لما رأوا هدوئي.. هدأوا.. ثم قام أحدهم وقال: يا جماعة.. خلوا الشيخ يوضح قصده..

فسكتوا.. فشكرت له عمله.. ثم اعتذرت وأثنيت عليهم - وعلى بناتهم - ووضحت مرادي..

عند تعاملك مع الناس.. أنت في الحقيقة تصنع شخصيتك.. وتبني في عقولهم تصورات عنك.. يبنون على أساسها أساليب تعاملهم معك.. واحترامهم لك..

تأكد أن الأشجار الثابتة لا تقتلعها الرياح.. مهما اشتدت.. وإنما النصر صبر ساعة..

كلما زاد عقلك.. قل جهلك.. وإذا زاد قدرك.. قل غضبك..

كالبحر لا يحركه أي شيء..

ويا جبل ما تهزك ريح.. !

بل إنك لو استثارك شخص ما.. في مجلس.. أو بيت.. أو قناة فضائية.. أو محاضرة عامة.. فإنك إذا بقيت هادئاً لم تغضب ولم تثر.. مال الناس معك ضده..

كان أبو سفيان بن حرب مقبلاً بقافلة تجارة من الشام.. فخرج إليهم المسلمون لقتالهم.. ففر أبو سفيان بالقافلة.. وأرسل إلى قريش فخرجت بجيش عرمرم.. ووقعت معركة بدر بين المسلمين وقريش.. وانتصر المسلمون..

قتل من كفار قريش سبعون.. وأسر منهم سبعون..

ورجع من تبقى من جيش قريش.. وهم جرحى.. وجوعى..

ثم وصل أبو سفيان بقافلته إلى مكة.. ورأى جيش قريش المهزوم.. كانت مصيبة أهل مكة عظيمة..

فمشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية.. في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر.. فكلموا

[11] «وقف حمار الشيخ في العقبة» مثل: يضرب للشخص الذي يدخل في أمر ثم يصعب عليه الخروج منه.

أبا سفيان ومن كانت له في تلك القافلة من قريش تجارة.. أو مال..

فقالوا: يا معشر قريش.. إن محمدًا قد وَتَرَكم وقتل خياركم.. فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرًا..

ففعلوا..

وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.. فخرجت قريش.. بحدها وحديدها.. وجدها وأحابيشها..

وخرج معها من تابعها من بني كنانة وأهل تهامة..

وخرجوا معهم بالنساء لئلا يفر الرجال من القتال..

خرج أبو سفيان بزوجته هند بنت عتبة..

وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته أم حكيم بنت الحارث..

وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة..

فأقبل الكفار.. حتى نزلوا على شفير الوادي مقابل المدينة..

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ.. استشار أصحابه.. ما رأيكم؟ نبقى في المدينة فإذا دخلوها علينا.. قاتلناهم..

فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بـ«أحد».. وَرَجَوْا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر..

فما زالوا برسول الله ﷺ حتى دخل بيته ولبس أداة الحرب.. ثم خرج إلى الناس.. فلما رأوه ﷺ متهيئًا للحرب ندموا.. وأحسوا أنهم أكرهوه على الخروج.. وقالوا: يا رسول الله أقم في المدينة إن شئت.. فالرأي رأيك..

فقال لهم: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»..

فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل جبل أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدرًا بقدوم العدو عليهم..

وقالوا: قد ساق الله علينا أمنيتنا..

ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: «مَنْ رجل يخرج بنا على القوم من كثب – أي من قريب – من طريق لا يمر بنا عليهم»؟

فقال رجل من بني حارثة بن الحارث اسمه أبو خيثمة: أنا يا رسول الله.. فسلك به في أرض بني حارثة وبين أموالهم ومزارعهم.. حتى سلك به في مال لرجل اسمه: مربع بن قيظي..

وكان رجلاً منافقًا ضرير البصر.. فلما سمع حس رسول الله ﷺ .. ومن معه من المسلمين.. قام يحثي في وجوههم التراب.. ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل في حائطي..

ثم أخذ الخبيث حفنة من التراب في يده.. ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك..

فابتدره الصحابة الكرام.. وهجموا عليه مؤدّبين..

فقال النبي ﷺ: «لا تقتلوه.. فهذا الأعمى.. أعمى القلب.. أعمى البصر.. »

ومضى رسول الله ﷺ .. ولم يلتفت إلى ذلك المنافق لأنه ﷺ كان رزينًا حكيمًا عاقلاً لا يلتفت إلى السفهاء.. ولا تثور أعصابه للتافهين.. نعم..

لو كل كلب ألقمته حجرًا لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

والكلاب تنبح.. والقافلة تسير..

قناعة..

الرياح لا تحرك الجبال.. لكنها تلعب بالرمال.. وتشكلها كما تشاء..

لا تلعنه .. إنه يشرب خمراً .. !!

أكثر الناس الذين نخالطهم مهما بلغ أحدهم من السوء.. إلا أنه لا يخلو من خير وإن كان قليلاً.. فلو استطعنا أن نعثر على مفتاح الخير لكان حسنًا..

اشتهر عن بعض المجرمين.. أنه كان يسطو على بيوت الناس ويسرق أموالهم.. لينفق بعضها على ضعفاء وأيتام!! أو يبني بها مساجد!!

أو كالتي ترى أيتامًا جوعى فتزني لتحصل مالاً تسد به جوعهم..

بنى مسجداً لله من غير حله فكان بحمد الله غيرَ موفق

كمُطعمة الأيتام من كدّ عرضها لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

وكم من حامل سكين ليطعن بها.. فاستعطفه طفل أو امرأة فرق قلبه.. وألقى سكينه عنه..

إذن عامل الناس جميعًا بما تعلم فيهم من خير.. قبل أن تسيء الظن بهم..

نبينا وقرة أعيننا محمدﷺ .. بلغ من خلقه أنه كان يلتمس المعاذير للمخطئين..

ويحسن الظن بالمذنبين.. .

وكان إذا قابل عاصيًا ينظر فيه إلى جوانب الإيمان قبل جوانب الشهوة والعصيان.. ما كان يسيء الظن بأحد.. يعاملهم كأنهم أولاده وإخوانه..

يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه..

كان رجل في عهد النبيﷺ قد ابتلي بشرب الخمر.. فأتوا به يومًا وقد شرب خمرًا إلى رسول اللهﷺ فأمر به فجُلد..

ثم مرت أيام.. فشرب خمرًا.. فجيء به أخرى فجلد..

ومرت أيام.. ثم جيء به قد شرب خمرًا.. فجلد..

فلما ولى خارجًا.. قال رجل من الصحابة: لعنه الله.. ما أكثر ما يؤتى به!!

فالتفت إليهﷺ .. وقد تغير وجهه فقال له: «لا تلعنه.. فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»[٦٥] ..

---

(٦٥) متفق عليه.

فإذا تعاملت مع الناس فكن عادلاً.. اذكرالخير الذي فيهم.. وأشعرهم أن شرَهم لم يجعلك تنسى خيرهم.. فهذا يقربهم إليك..

فن..

قبل أن تبدأ في نزع شجرة الشر في الآخرين..
ابحث عن شجرة الخير واسقها..

إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.. !!

ما دمت مُلزمًا فاستمتع..

هكذا كنت أقول لشاب أصيب بمرض السكر.. فكان يشرب الشاي من غير سكر.. ويتأسف لحاله..

كنت أقول له: هل إذا تأسفت وحزنت أثناء شربك الشاي.. هل تنقلب المرارة حلاوة؟!..

قال: لا..

قلت: ما دمت ملزمًا.. فاستمتع..

أعني أن الدنيا لا تأتي دائمًا على ما نحب..

وهذا يقع في حياتنا كثيرًا..

سيارتك قديمة.. مكيف لا يشتغل.. مراتب ممزقة..

ولا تستطيع حاليًا تغييرها..

ما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع..

تقدمت للدراسة في الجامعة، فقبلت في كلية لا ترغب في الدراسة فيها.. حاولت تعديل الحال فلم تستطع..

فاضطررت لمواصلة الدراسة.. وأكملت سنتين وثلاثة.. فما الحل؟

فما دمت ملزمًا فاستمتع..

تقدمت لوظيفة فلم تقبل.. وقبلت في أخرى.. وبدأت دوامك فيها..

فما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع..

خطبت فتاة فرفضت وتزوجت آخر.. ما الحل؟ ما دمت ملزمًا فاستمتع..

كثير من الناس يجعل الحل هو الاكتئاب الدائم.. والتأفف من واقعه.. وكثرة التشكي إلى من عرف ومن لم يعرف! وهذا لا يَرُدّ إليه رزقًا فاته.. ولا يعجل برزق لم يكتب له..

إذن ما الحل؟ إذا لم يكن ما تُريد فأرد ما يكون..

فالعاقل هو الذي يتكيف مع واقعه كيفما كان.. ما دام لا يستطيع التغيير إلى الأحسن..

أحد أصدقائي كان يشرف على بناء مسجد.. فضاقت بهم النفقة.. فتوجهوا إلى أحد التجار للاستعانة به في إكمال البناء..

فتح لهم الباب.. جلس معهم قليلاً.. وأعطاهم ما تيسر..

ثم أخرج دواء من جيبه وجعل يتناوله..

قال له أحدهم: سلامات.. عسى ما شر!!

قال: لا.. هذه حبوب منوِّمة.. منذ عشر سنين لا أنام إلا بها..

دعوا له.. وخرجوا..

فمروا على حفريات وأعمال طرق عند مخرج المدينة.. وقد وضع عندها أنوار تعمل بمولد كهربائي قد ملأ الدنيا ضجيجًا..

ليس هذا هو الغريب..

الغريب أن حارس المولد هو عامل فقير قد افترش قصاصات جرائد.. وناام.

نعم.. عش حياتك.. لا وقت فيها للهمّ.. تعامل مع المعطيات التي بين يديك..

خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة فقلّ طعامهم.. وتعبوا.. فأمرهم.. أن يجمعوا ما عندهم من طعام.. وفرش رداءه.. وصار الرجل يأتي بالتمرة.. والتمرتين.. وكسرة الخبز.. وكلها تجتمع فوق هذا الرداء..

ثم أكلوا.. وهم مستمتعون.. ربما لم يشبع منهم أحد.. لكنه على الأقل أكل ما يسد به رمقه.. والجود من الموجود..

لمحة..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه..
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

نختلف ونحن إخوان!

ذُكر أن الشافعي رحمه الله تناظر يومًا مع أحد العلماء حول مسألة فقهية عويصة.. فاختلفا.. وطال الحوار..

حتى علت أصواتهما.. ولم يستطع أحدهما أن يقنع صاحبه..

وكأن الرجل تغير وغضب.. ووجد في نفسه..

فلما انتهى المجلس وتوجها للخروج.. التفت الشافعي إلى صاحبه.. وأخذ بيده وقال: ألا يصح أن نختلف ونبقى إخوانًا..

وجلس بعض علماء الحديث يومًا.. عند الخليفة.. فتكلم رجل في المجلس بحديث..

فاستغرب العالم منه.. وقال: ما هذا الحديث!! من أين جئت به؟ تكذب على رسول الله ﷺ؟

فقال الرجل: بل هذا حديث.. ثابت..

قال العالم: لا.. هذا حديث لم نسمع به.. ولم نحفظه..

وكان في المجلس وزير عاقل.. فالتفت إلى العالم وقال بهدوء: يا شيخ.. هل حفظت جميع أحاديث النبي ﷺ..؟

قال: لا..

قال: فهل حفظت نصفها؟

قال: ربما..

فقال: فاعتبر هذا الحديث من النصف الذي لم تحفظه..

وانتهت المشلكة..

كان الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك صاحبين لا يفترقان.. وكانا عالمين زاهدين..

مضت الأيام فخرج عبد الله بن المبارك للقتال والرباط في الثغور.. وبقي الفضيل بن عياض في الحرم يصلي ويتعبد..

وفي يوم رق فيه القلب.. وأسبلت الدمعة.. كان الفضيل جالسًا يتعبد في الحرم.. فاشتاق لصاحبه ابن المبارك وتذكر اجتماعهما في مجالس الذكر.. فكتب الفضيل إلى ابن المبارك كتابًا يدعوه فيه إلى المجيء والتعبد في الحرم.. والاشتغال بالذكر وقراءة القرآن..

فلما قرأ ابن المبارك الكتاب.. أخذ رقعة وكتب إلى الفضيل:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

ثم قال:

إن من عباده من فتح الله له في الصيام.. فيصوم ما لا يصومه غيره..

ومنهم من فتح له في قراءة القرآن..

ومنهم من فتح له في طلب العلم..

ومنهم من فتح له في الجهاد..

ومنهم من فتح له في قيام الليل..

وليس ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه..

وما أنا عليه.. ليس بأفضل مما أنت عليه..

وكلانا على خير.. وهكذا انتهى الخلاف بينهما بهدوء.. هكذا ببساطة كلانا على خير.. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾..

وهكذا كان منهج الصحابة..

اجتمع الكفار وتألبوا لحرب المسلمين في المدينة.. وجاؤوا في جيش لم تشهد العرب مثله كثرة وعتادًا..

فحفر المسلمون خندقًا لم يستطع الكفار أن يتجاوزوه لدخول المدينة..

فعسكر الكفار وراء الخندق..

وكان في المدينة قبيلة بني قريظة.. وهم يهود يتربصون بالمؤمنين.. فأقبلوا إلى الكفار يمدونهم.. ويعيثون في المدينة فسادًا ونهبًا.. وقد انشغل المسلمون عنهم بالرباط عند الخندق..

ومضت الأيام عصيبة.. حتى أرسل الله على الكفار ريحًا وجنودًا من عنده فتمزق جيشهم..

وانقلبوا خائبين.. يجرون أذيال هزيمتهم في ظلمة الليل..

فلما أصبح رسول الله ﷺ .. انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة.. ووضع المسملون السلاح.. ورجعوا إلى بيوتهم.. ودخل رسول الله ﷺ بيته.. ووضع السلاح واغتسل..

فلما كانت الظهر.. جاءه جبريل.. فنادى رسول الله ﷺ .. من خارج البيت.. فقام رسول الله ﷺ فزعًا..

فقال له جبريل عليه السلام: «أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟».

قال: «نعم».

قال جبريل: «ما وضعت الملائكة السلاح بعد.. وما رجعت الآن إلا من طلب القوم.. طلبناهم حتى بلغنا حمراء الأسد».. -يعني قريشًا لما فارقوا المدينة راجعين إلى مكة.. -سارت الملائكة وراءهم تطردهم لتبعدهم عن المدينة..

ثم قال جبريل: «إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة.. فإني عامد إليهم فمزلزل بهم»..

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس:

«من كان سامعًا مطيعًا.. فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»..

فتسابق الناس إلى سلاحهم.. وسمعوا وأطاعوا.. ومضوا إلى ديار بني قريظة.. فدخل عليهم وقت العصر وهم في الطريق..

فقال بعضهم: لا نصلي العصر إلا في بني قريظة..

وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرد منا ذلك.. يعني إنما أراد الإسراع إليهم..

فصلوا العصر وأكملوا مسيرهم.. وأخرها الآخرون.. حتى وصلوا بني قريظة.. فصلوها..

فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدًا من الفريقين..

ثم حاصر النبي ﷺ بني قريظة.. حتى نصره الله عليهم..

فتأمل كيف كانوا يختلفون وهم إخوان لا يؤدي خلافهم إلى فساد النفوس أو الشقاق والخصومات..

صدقني.. إذا تعاملت مع الناس بهذه الأريحية والهدوء.. وسعة الأفق.. أحبَّك الناس.. ودخلت قلوبهم.. وأحبك قبل ذلك الله جل وعلا.. فالخلاف شرّ..

وجهة نظر..

ليست الغاية أن نتفق.. ولكن الغاية أن لا نختلف..

الرفق.. إلا زانه..

يتكرر على ألسنتنا كثيرًا عندما نعجب بشخص ما.. أن نصفه قائلين:

فلان رزين.. فلان ثقيل.. فلان راكد..

وإذا أردنا مذمة شخص قلنا: فلان عجول.. فلان خفيف..

أما رسول الله ﷺ فيقول: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه» (٦٦)..

هل تستطيع تحريك طن الحديد بأصبع؟

نعم: إذا أحضرت رافعة.. ثم ربطته برفق.. وأحكمت ربطه.. ثم رفعته.. فإذا تعلق في الهواء.. حركه بأصغر أصابعك..

اتفق صديقان على أن يتقدما لرجل لخطبة ابنتيه.. كانت إحداهما أكبر من الأخرى..

قال أحدهما للآخر: أنا آخذ الصغيرة.. وأنت تأخذ الكبيرة..

فصاح صاحبه: لاااا.. بل أنت خذ الكبيرة.. وأنا آخذ الصغيرة..

فقال الأول: طيب.. أنت تأخذ الصغيرة.. وأنا آخذ التي أصغر منها..

قال: موافق.. !!

ولم يدرك أن صاحبه ما غير قراره.. سوى أنه غير أسلوب الكلام برفق..

وفي الحديث: «إذا أراد الله بأهل بيت خيرًا أدخل عليهم الرفق.. وإذا أراد الله بأهل بيت شرًا.. نزع منهم الرفق» (٦٧)..

وفيه: «إن الله رفيق يحب الرفق.. ويعطي على الرفق ما لا يعطي على ما سواه» (٦٨)..

الرفيق.. الهين اللين.. محبوب عند الناس.. تطمئن إليه النفوس.. وتثق فيه.. خاصة إذا صاحب ذلك وزن للكلام.. وقدرة على التعامل الرائع..

---

(٦٦) رواه مسلم.

(٦٧) رواه أحمد وهو صحيح.

(٦٨) رواه مسلم.

من أشهر علماء الحنفية الإمام أبو يوسف القاضي.. هو أشهر طلاب أبي حنيفة..

كان أبو يوسف في صغره فقيرًا.. وكان أبوه يمنعه من حضور درس أبي حنيفة.. ويأمره بالذهاب للسوق للتكسب.. كان أبو حنيفة حريصًا عليه.. وإذا غاب عاتبه..

فاشتكى أبو يوسف يومًا إلى أبي حنيفة حاله مع والده.. فاستدعى أبو حنيفة والد أبي يوسف وسأله: كم يكسب الولد كل يوم؟

قال: درهمين..

قال: أنا أعطيك الدرهمين.. ودعه يطلب العلم..

فلازم أبو يوسف شيخه سنين..

فلما بلغ أبو يوسف سن الشباب.. ونبغ على أقرانه.. أصابه مرض أقعده.. فزاره أبو حنيفة.. وكان المرض شديدًا متمكنًا منه.. فلما رآه أبو حنيفة حزن.. وخاف عليه الهلاك..

وخرج وهو يكلم نفسه قائلاً: آآه يا أبا يوسف.. لقد كنت أرجوك للناس من بعدي!!

ومضى أبو حنيفة يجر خطاه حزينًا إلى حلقته وطلابه..

ومضت يومان.. فشُفي أبو يوسف.. واغتسل ولبس ثيابه ليذهب لدرس شيخه.. فسأله من حوله: إلى أين تذهب؟

قال: إلى درس الشيخ..

قالوا: إلى الآن تطلب العلم؟ أنت قد اكتفيت.. أما بلغك ما قال فيك الشيخ؟

قال: وما قال؟!

قالوا: قد قال: كنت أرجوك للناس من بعدي.. أي أنك قد حصّلت كل علم أبي حنيفة.. فلو مات الشيخ اليوم جلست مكانه..

فأعجب أبو يوسف بنفسه.. ومضى إلى المسجد ورأى حلقة أبي حنيفة في ناحية.. فجلس في الناحية الأخرى.. وبدأ يُدرس ويفتي!

التفت أبو حنيفة إلى الحلقة الجديدة.. فسأل: حلقة من هذه؟

قالوا: هذا أبو يوسف..

قال: شُفي من مرضه؟!

قالوا: نعم..

قال: فلم لم يأت إلى درسنا؟!

قالوا: حدّثوه بما قلت.. فجلس يدرس الناس واستغنى عنك..

ففكر أبو حنيفة كيف يتعامل مع الموقف برفق.. وجعل يتأمّل، ثم قال: يَأبى أبو يوسف إلا أن نُقشّر له العصا!!

ثم التفت إلى أحد طلابه الجالسين وقال: يا فلان.. اذهب إلى الشيخ الجالس هناك.. يعني أبا يوسف.. فقل له: يا شيخ.. عندي مسألة.. فسيفرح بك ويسألك عن مسألتك.. فما جلس إلا ليُسأل!!

فقل له: رجل دفع ثوبًا له إلى الخياط ليقصره.. فلما جاءه بعد أيام يريد ثوبه جحده الخياط.. وأنكر أنه أخذ منه ثوبًا.. فذهب الرجل إلى الشرطة فاشتكاه فأقبلوا واستخرجوا الثوب من الدكان..

والسؤال: هل يستحق الخياط أجرة تقصير الثوب أم لا يستحق؟

فإن أجابك وقال: يستحق.. فقل له: أخطأت..

وإن قال: لا يستحق.. فقل له: أخطأت..

فرح الطالب بهذه المسألة المشكلة.. ومضى إلى أبي يوسف وقال: يا شيخ.. مسألة..

قال: ما مسألتك؟

قال: رجل دفع ثوبًا إلى خياط..

فأجاب أبو يوسف على الفور قائلاً: نعم يستحق الأجرة.. ما دام أتم العمل..

فقال السائل: أخطأت..

فعجب أبو يوسف.. وتأمل في المسألة أكثر.. ثم قال: لا.. لا يستحق الأجرة..

فقال السائل: أخطأت..

فنظر أبو يوسف إليه.. ثم سأله: بالله من أرسلك.. فأشار إلى أبي حنيفة وقال: أرسلني الشيخ..

فقام أبو يوسف من مجلسه.. ومضى حتى وقف على حلقة أبي حنيفة وقال: يا شيخ.. مسألة.. فلم يلتفت أبو حنيفة إليه..

فأقبل أبو يوسف حتى جثى على ركبتيه بين يدي الشيخ..

وقال بكل أدب: يا شيخ.. مسألة..

قال: ما مسألتك؟

قال: تعرفها..

قال: مسألة الخياط والثوب؟

قال: نعم..

قال: اذهب وأجب.. ألست شيخًا..

قال: الشيخ أنت..

فقال أبو حنيفة في جواب المسألة:

ننظر في مقدار تقصير الخياط للثوب.. فإن كان قصره على مقاس الرجل.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل كاملاً..، ثم بدا له أن يجحد الثوب.. فيكون قام بالعمل لأجل الرجل.. فيستحق عليه الأجرة..

وإن كان قصره على مقاس نفسه.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل لأجل نفسه.. فلا يستحق على ذلك أجرة..

فقبل أبو يوسف رأس أبي حنيفة.. ولازمه حتى مات أبو حنيفة.. ثم قعد أبو يوسف للناس من بعده.. فما أجمل الرفق ومعالجة الأمور بهدوء..

فلو استعمل الزوجان الرفق مع بعضهما.. وكذلك الأبوان.. والمديرون.. والمدرسون.. لزالت أكثر المشاكل والخصومات..

نحن مطالبون بالرفق دائمًا.. في سواقة السيارة.. في التدريس.. في البيع والشراء..

وإن كان المرء قد يحتاج الشدة أحيانًا.. حتى في النصح.. وهذا هو الحكمة في النصيحة.. وهي وضع الأمور في مواضعها..

وقد كان غضبه ﷺ دائمًا – إن غضب – في الأمور الدينية.. فما غضب رسول الله ﷺ لنفسه قط.. إلا أن تنتهك حرمة من محارم الله..

قابل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا رجلاً من اليهود.. فأطلعه اليهودي على كلام في التوراة.. فأعجبه.. فأمره فنسخه له..

ثم جاء عمر بهذه الصحيفة من التوراة إلي رسول الله ﷺ.. فقرأها عليه.. فلاحظ النبي ﷺ أن عمر معجب بما معه.. وأن التلقي عن الديانات السابقة.. إن فتح المجال له.. اختلط ذلك بالقرآن.. والتبس

وكيف يفعل عمر ذلك.. وينسخ.. ويكتب.. دون استئذان النبي ﷺ !!

فغضب ﷺ.. وقال: «امتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! أي شاكون في شريعتي.. ثم قال: والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية..

لا تسألوهم عن شيء.. فيخبروكم بحق فتكذبوا به.. أو باطل فتصدقوا به.. والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»(٦٩)..

نعم.. نحن نقول الرفق.. الرفق.. لكن لابد من العنف أحياناً والغضب.

ومن مواقف الغضب والصرامة أنه..

في أوائل بعثة النبي ﷺ.. كان ﷺ يأتي عند الكعبة وقريش في مجالسهم..

ويصلي.. ولا يلتفت إليهم..

وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى.. وهو صابر.. وفي يوم.. اجتمع أشرافهم في الحجر.. فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما

صبرنا عليه من هذا الرجل قط..

سفه أحلامنا..

وشتم آباءنا..

وعاب ديننا..

وفرق جماعتنا..

وسب آلهتنا..

وصرنا منه على أمر عظيم..

فبينما هم في ذلك.. إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن..

---

(٦٩) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وهو حسن.

ثم مر بهم طائفاً بالبيت.. فغمزوه ببعض القول.. فتغير وجه رسول الله ﷺ.. لكنه رفق بهم.. وسكت عنهم.. ومضى..

فلما مر بهم الثانية.. غمزوه بمثلها.. فتغير وجهه أيضاً.. فسكت عنهم.. ومضى في طوافه.. فمر بهم الثالثة.. فغمزوه بمثلها..

فرأى أن الرفق لا يصلح مع أمثال هؤلاء.. فوقف عليهم وقال: «اتسمعون يا معشر قريش!! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح».. ثم ظل الرسول القائد البطل ﷺ واقفاً أمامهم..

فلما سمع القوم هذا التهديد.. الذبح.. وهو الصادق الأمين.. انتفضوا.. حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع.. حتى أن أشدهم عليه ليتلطف معه..

وصاروا يقولون: انصرف أبا القاسم راشدًا.. فما كنت جهولاً..

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم..

نعم..

إذا قيل: حلم، قل: فللحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وإن كان المتتبع لسيرة النبي ﷺ يجد أنه كان يُغلب الرفق دائمًا.. انتبه!! ليس الضعف والجبن.. وإنما الرفق..

ومن مواقف الرفق:

أنه بعد وقعة بدر بشهر..

أراد أبو العاص زوج زينب النبي ﷺ أن يرسلها إلى المدينة عند أبيها.. فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة.. ورجلاً من الأنصار وأمرهما بالتوجه إلى مكة.. والانتظار في موقع قريب من مكة على طريق المدينة..

فقال: «كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها فتأتياني بها.. فخرجا مكانهما..

فأمرها أبو العاص زوجها بالتجهز.. فبدأت في جمع متاعها.. فبينما هي تتجهز.. لقيتها هند بنت عتبة.. زوجة أبي سفيان..

فقالت: يا ابنة محمد.. ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟

فخافت زينب وخشيت أن تكون هند تريد بها كيدًا..

فقالت: ما أردت ذلك..

فقالت: أي ابنة عم.. إن أردت أن تفعلي.. فإن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك.. أو بمال تتبلغين به إلى أبيك..

فإن عندي حاجتك فلا تضطني مني.. أي لا تخجلي.. فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.. .

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل.. ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك.

فلما أتمت زينب جهازها.. . خشي زوجها أن يخرج بها بنفسه فتكتشف قريش خروجها.. فأمر أخاه كنانة بذلك.. فقدم إليها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرًا.. فركبته وأخذ قوسه وكنانته.. ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها.. فرآها الناس.. وتحدث بذلك رجال من قريش.. كيف تخرج بنت محمد إليه وقد فعل بنا ما فعل في بدر؟..

فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بمكان اسمه ذو طوى.. وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود.. فروعها بالرمح وهي في الهودج..

فقيل: إنها كانت حاملاً ففزعت.. وطرحت ولدها..

وأقبل الكفار يتسابقون إليها.. معهم السلاح.. وهي ليس معها إلا أخو زوجها كنانة..

فلما رأى كنانة ذلك.. وبرك على الأرض.. ثم نثر كنانته وصف رماحه بين يديه..

ثم قال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا.. وكان راميًا..

فتكركر الناس عنه وتراجعوا.. وأخذوا ينظرون إليه من بعيد.. لا هو يقدر على الذهاب.. ولا هم يجترئون على الاقتراب منه..

حتى بلغ أبا سفيان أن زينب خرجت إلى أبيها..

فأقبل في جلة جمع من قريش.. فلما رأى كنانة قد تجهز بنبله.. ورأى القوم قد استوفزوا لقتاله..

صاح به وقال: يا أيها الرجل.. كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك.. فكف نبله..

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه.. فقال: إنك لم تصب.. خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية..

وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا في بدر.. وما دخل علينا من محمد.. قتل أشرافنا ورمّل نساءنا..

فإذا رآك الناس.. وتسامعت القبائل.. أنك خرجت بابنته علانية.. على رؤوس الناس من بين أظهرنا.. سيظنون أن ذلك عن ذل أصابنا..

وأن ذلك ضعف منا ووهن.. ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة.. وما لنا من ثأر عليها..

ولكن ارجع بالمرأة.. حتى إذا هدأت الأصوات.. وتحدث الناس أن قد رددناها.. فسُلّها سرّا.. وألحقها بأبيها..

فلما سمع كنانة ذلك.. اقتنع به.. وعاد بها..

فأقامت ليالي في مكة.. حتى إذا هدأت الأصوات.. خرج بها ليلة من الليالي فمشى بها.. حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه.. فقدما بها ليلاً على رسول الله ﷺ..

فتأمل كيف كان أبو سفيان رفيقًا.. وكيف استطاع أن يمتص غضب كنانة.. ويمنع مقتلة ربما يقتل فيها بنت رسول الله ﷺ..

هذا.. وأبو سفيان في ذلك الوقت كافر.. فما بالك بالمسلمين..

وحي..

ما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه..

بين الحي.. والميت..

كان ثقيلاً على الناس.. على زملائه..

جيرانه..

إخوانه..

حتى على أولاده..

نعم.. كان ثقيل الدم.. طالما سمعهم مرارًا يقولون: يا أخي ما عندك مشاعر!!

لم يكن يتفاعل معهم أبدًا..

أتاه ولده يومًا فرحًا مستبشرًا.. يلوّح بدفتر الواجب وقد وقّع المدرس فيه كلمة «ممتاز».. لم يلتفت الأب إليه.. وإنما قال: طيب.. عادي.. والله لو أنك جايب شهادة الدكتوراة!!

كان المنتظر غير ذلك.. طالب عنده في الفصل.. كان خفيف الدم.. لاحظ ثقل الدرس (والمدرس!!) فلطف الجو بنكتة أطلقها.. فلم تتحرك تعابير وجه المدرس وإنما قال: تستخف دمك؟!

كنت أتمنى أن يكون تصرفه مع الطالب غير ذلك..

دخل إلى البقالة.. فقال له العامل البسيط: الحمد لله.. جاءتني رسالة من أهلي..

لم يتفاعل..

هلا سأل نفسه لماذا أخبره أصلاً.. والله ما أخبره العامل المسكين إلا ليشاركه فرحته..

زار أحد زملائه.. فوضع له القهوة والشاي.. ثم دخل البيت وجاء بطفله الأول حديث الولادة.. قد لفه في مهاده.. ولو استطاع أن يلفه بجفون عينيه لفعل.. ثم وقف به بين يديه وقال: ما رأيك في هذا البطل؟

فنظر إليه ببرود.. وقال: ما شاء الله.. الله يخلي لك إياه..

ثم رفع فنجان الشاي ليشرب.. كان المنتظر أن يتفاعل أكثر.. يأخذ الغلام بين يديه.. يقبله.. يمدح جماله.. وصحته.. لكن صاحبنا كان (غبيًا)..

عندما تتعامل مع الناس.. قس الأمور بأهميتها عندهم.. لا عندك أنت.. فكلمة «ممتاز» بالنسبة لولدك أغلى عنده من شهادة الدكتوراة.. وهذا المولود عند صاحبك أغلى عنده من الدنيا.. كلما رآه ودّ أن يشق قلبه ويسكنه فيه.. أفلا يستحق منك حُبك لصاحبك أن تشاركه ولو بعض شعوره..

أحيانًا يكون بعض الناس متحمسًا لشيء معين فتحمس معه.. لا تكن جاف المشاعر.. عديم الأحاسيس.. بل جامل.. وتفاعل وتظاهر بالسرور.. أو الحزن.. أو الدهشة.. لا تكن ميتًا..

لذلك تجد الذين لا يتفاعلون مع الناس يشتكي أحدهم دائمًا: لماذا أولادي لا يحبون (السوالف) معي..

فنقول: لأنهم يحكون لك النكتة فلا تتفاعل!!

ويروون قصصهم في مدارسهم .. وكأنهم يكلمون جدارًا.. فلا ينشطون للجلوس معك.. ولا الحديث..

حتى لو ذكلر لك شخص قصة.. أنت تعرفها.. فلا مانع من التفاعل معه..

قال عبد الله بن المبارك: والله إن الرجل ليحدثني بالحديث وأنا أعرفه من قبل أن تلده أمه فأسمعه منه.. وكأني أول مرة أسمعه..

ما!!! أجمل هذه المهارة..

قبيل معركة الخندق..

عمل المسلمون في حفر الخندق حتى أحكموه.. وكان من بينهم رجل اسمه جعيل.. فغيره النبي ﷺ إلى: عمرو.. فكان الصحابة يشتغلون.. ويعملون.. ويرددون قائلين:

سماه من بعد جُعيل عمرًا   وكان للبائس يومًا ظهرًا

فكانوا إذا قالوا: عمرًا.. قال معهم رسول الله ﷺ: عمرًا..

وإذا قالوا: ظهرًا.. قال لهم: ظهرًا.. فيتحمسون أكثر..

ويشعرون أنه معهم..

ولما أقبل الليل عليهم اشتد البرد.. واستمروا يحفرون.. فخرج عليهم رسول الله ﷺ.. فرآهم يحفرون بأيديهم راضين مستبشرين.. فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدًا

فقال مجيبًا لهم:

«اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»..

ويستمر تفاعله معهم.. طوال الأيام..

فسمعهم مرة وقد علاهم الغبار.. وهم يرددون:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

فكان يرفع صوته متفاعلاً معهم قائلاً: «أبينا.. أبينا»..

وكان ﷺ إذا مازحه أحد تفاعل معه.. وضحك وتبسم..

دخل عليه عمر رضي الله عنه وهو ﷺ غضبان على نسائه.. وذلك لما أكثرن عليه مطالبته بالنفقة..

فقال عمر في نفسه: لأضحكن رسول الله ﷺ. ثم قال: يا رسول الله.. لو رأيتنا وكنا معشر قريش.. نغلب النساء..

فكنا إذا سألت أحدنا امرأته نفقة قام إليها فوجأ عنقها.. فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم.. فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.. فتبسم النبي ﷺ..

ثم زاد عمر الكلام.. فازداد تبسم النبي ﷺ..

وتقرأ في أحاديث أنه تبسم حتى بدت نواجذه.. فما أعظم من أدبه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.. ثم قال لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾..

وكان ﷺ يتعامل مع أنواع من الناس بعضهم لا يقدرون التعامل الراقي.. ولا يتفاعلون معه.. بل ينغلقون ويتعجلون.. ومع ذلك كان يصبر عليهم..

كان ﷺ.. يومًا نازلاً بموضع يقال له «الجعرانة» بين مكة والمدينة.. ومعه بلال.. فجاءه ﷺ أعرابي يبدو أنه كان قد طلب من النبي ﷺ حاجة فوعده بها ولم تتيسر بعد.. وكان الأعرابي مستعجلاً.. فقال: يا محمد.. ألا تنجز لي ما وعدتني؟

فقال له ﷺ، متلطفًا: «أبشر»..

أبشر.. ما أجمل الكلمة.. وهل هناك كلمة أرق منها.. !!

لكن الأعرابي لم يتفاعل ولم يجامل.. وإنما صاح بكل صلافة: قد أكثرت علي من أبشر!

فغضب النبي ﷺ من عبارته.. لكنه كتم غيظه.. والتفت إلى أبي موسى وبلال وكانا جالسين بجانبه..

فقال: رد البشرى فاقبلا أنتما.. فاستبشرا.. وقالا: قبلنا البشرى يا رسول الله.. ثم دعا ﷺ بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه..

ثم قال: اشربا منه وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا..

أي أبشرا ببركة هذا الماء.. فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به وهما فرحان مستبشران.. وكانت أم سلمة رضي الله عنها قريبة منهم.. جالسة وراء ستار.. فأرادت أن لا تفوتها البركة.. فنادت من وراء الستر:

أفضلا لأمكما.. أي أبقيا لها منه.. فأفضلا لها منه طائفة وأرسلاه إليها.. فأخذته وفعلت به ما أمر به النبي ﷺ(٧٠)..

إذن كان حبيبنا وقرة أعيننا رسول الله ﷺ لطيف المعشر.. أنيس المجلس.. متحملاً.. لا يعمل قضية وخلافًا من كل شيء..

جلس ﷺ يومًا مع عائشة.. فأخذت تحدثه بأحاديث نساء..

وهو يتفاعل معها..

وهي تفصل الكلام وتطيل.. وهو على كثرة مشاغله يستمع ويتفاعل ويعلق.. حتى قضت حديثها..

فما هي القصة التي حدثته بها؟

---

(٧٠) متفق عليه.

حدثته أنه جلست إحدى عشرة امرأة – في أيام الجاهلية – فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا.. فجعلن يتذاكرن أزواجهن بما فيهم ولا يكذبن!! فماذا قلن؟!

قالت الأولى:

زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعر..

لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى..

(تشبه حال زوجها بالجبل الوعر الذي وضعوا فوقه لحم جمل كبير غير جيد.. فلا يحرص أحد على الوصول إليه لصعوبة صعود الجبل.. واللحم أيضًا رديء جدًا لا يستحق التعب لأجله.. أي: لسوء خلقه.. وأنه يتكبر.. مع أنه ليس عنده ما يتكبر بسببه فهو بخيل فقير)..

قالت الثانية:

زوجي لا أبث خبَرَه..

إني أخاف أن لا أذره..

إن أذكره أذكر عجَرَه وبجَرَه..

أي: زوجها كثير العيوب.. وتخشى إذا ذكرت ما فيه أن يبلغه ذلك فيطلقها.. وهي متعلقة به بسبب أولادها..

لكنها لم تمدحه فإن له عجر وبجر!!

والعُجَر: أن تنعقد العروق في الجسد حتى تصير منتفخة.. فتؤلم..

والبُجَر: انتفاخ عروق في البطن.. !!

قالت الثالثة:

زوجي العَشنق..

إن أنطق أطلق..

وإن أسكت أعلق..

وهو على حد السنان المُذلق..

أي: زوجها طويل قبيح.. سيئ الخلق.. ولا يتسامح معها بل على مثل حد السيف!!

فهي مهددة بالطلاق كل لحظة.. لا يحتمل كلامها..

ومتى اشتكت إليه شيئًا طلقها..

ولا يعاملها معاملة الأزواج.. فهي عنده كالمعلقة لا متزوجة ولا مطلقة..

قالت الرابعة:

زوجي كـ لَيلِ تهامة..

لا حَرٌ ولا قرٌ..

ولا مخافة ولا سآمة..

(من المعلوم أن ليل تهامة لا رياح فيه ولا غبار فيطيب لأهله..

فوصفت زوجها بجميل العشرة.. واعتدال الأخلاق.. فلا أذى عنده)..

قالت الخامسة:

زوجي إن دخل فَهِد..

وإن خرج أسِد..

ولا يسأل عما عَهِد..

(أي: إذا دخل بيته صار كالفهد وهو الحيوان المعروف وهو كريم نشيط.. وإذا خرج من البيت وخالط الناس فهو أسد لشجاعته.. وهو أيضًا سمحٌ لا يدقق في السؤال عما يأخذه أهله أو يصرفونه..)

قالت السادسة:

زوجي إن أكل لفّ..

وإن شرب اشتف..

وإن اضطجع التف..

ولا يولج الكفّ.. ليعلم البثّ..

(أي: إن زوجها يكثر الأكل حتى يلفه لفًا فلا يبقي لهم شيئًا.. والشراب يشفه شفًا.. يشربه كله..

وإذا نام التف باللحاف ولم يدع لزوجته شيئًا..

وإذا حزنت لم يقرب كفه إليها أو يلاطفها ليعلم سبب حزنها..)

قالت السابعة:

زوجي غياياء أو عياياء (أي غبي!!) طباقاء (أحمق!) كل داء له دواء (جميع العيوب فيه!)

إن حدثته سبك.. (لا يقبل حديثًا ولا مؤانسة. بل يسب ويلعن دومًا)..

وإن مازحته شجك (ضرب رأسك فجرحه!)..

أو فلك (ضرب الجلد فجرحه)..

أو جمع كُلاًّ لك.. (يضرب كل المواضع الرأس والجسد!)..

قالت الثامنة:

زوجي.. المَس مس أرنب.. (أي ناعم رقيق)..

والريح ريح زرنب.. (وهو نبات طيب الرائحة)..

وأنا أغلبه.. والناس يغلبُ.. (أي سهل معها ينصاع لما تريد.. لكنه بطل يغلب الناس وشخصيته أمامهم قوية)..

قالت التاسعة:

زوجي رفيع النجاد.. (بيته واسع مفتوح للضيوف)..

عظيم الرماد.. (كثير إشعال النار استقبالاً للضيوف وطبخًا لهم)..

قريب البيت من الناد.. (المجلس الذي يجلس فيه مع أصحابه وهو النادي قريب من بيته لحرصه على أهله)..

لا يشبع ليلة يُضاف.. (لا يأكل كثيرًا عند الناس)..

ولا ينام ليلة يخاف.. (إذا كان هناك خطر بالليل من عدو أو غيره.. يظل مستيقظًا يحرس ويراقب)..

قالت العاشرة:

زوجي مالك.. وما مالك؟!..

مالك خير من ذلك.. له إبل كثيرات المبارك..

قليلات المسارح..

وإذا سمعن المزهر.. أيقن أنهن هوالك..

زوجها اسمه مالك.. مهما وصفته لن تحيط بأوصافه الجميلة.. إبله دائمًا

قريبة منه وقل ما تسرح أي تذهب للرعي.. لتكون جاهزة دائمًا للحلب منها ونحرها للضيوف.. وإذا سمعت الإبل صوت المزهر.. أي: السكين تُحد وتجهز.. علمت أنه سيهلك بعضهن ذبحًا للضيوف)..

قالت الحادية عشرة:

زوجي أبو زرع؟! (اسمه أبو زرع).. فما أبو زرع؟!

أناسَ من حُلي أذُني.. (ألبسها الحلي والذهب)..

وملأ من شحم عضدي.. (سمنت عنده)..

وبجَحني فبجحت إلى نفسي.. (مدحني حتى أعجبت بنفسي)..

وجدني في أهل غنيمة بشِقٍ.. (كان أهلها فقراء لا يملكون إلا غنيمات)..

فجعلني في أهل صهيل وأطيط.. (نقلها إلى بيت فيه خيل وإبل)..

ودائس ومنق (أي: دواب كثيرة)..

فعنده أقول فلا أقبّح.. (تتكلم بما شاءت ولا ينتقد كلامها)..

وأرقد فأتصبح.. (تشبع نومًا إلى الصباح.. لكثرة الخدم)..

وأشرب فأتقنح.. (جميع الأشربة عندها.. تروى منها)..

أمُ أبي زرع؟ فما أم أبي زرع؟!

عكومها رداح.. (سمينة جميلة)..

وبيتها فساح.. (بيتها واسع)..

ابن أبي زرع؟ فما ابن أبي زرع؟!

مضجعه كمَسَل شَطبة.. (ينام نومًا رفيقًا في مكان صغير بأدب)..

ويشبعه ذراع الجفرة.. (لا يأكل كثيرًا)..

بنت أبي زرع؟! فما بنت أبي زرع؟!

طوعُ أبيها وطوع أمها.. وملء كسائها.. (مستترة)..

وغيظ جارتها.. (تغار جاراتها من جمالها ولذة عيشها)..

جارية أبي زرع؟!

فما جارية أبي زرع؟!

(الخادمة؟!)

لا تَبُثّ حديثنا تبثيثا.. (لا تنشر أسرار البيت)..
ولاتنفث ميرتنا تنفيثا.. (لا تبدد طعام البيت وتعبث به)..
ولا تملأ بيتنا تعشيشا.. (لا تهمل البيت فيمتلأ بالأوساخ)..

ثم قالت:

خرج أبو زرع والأوطاب تمخض.. (خرج من بيته يومًا في وقت ربيع)..
فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين.. (رأى امرأة جالسة حولها طفلان جميلان قويا البنية)..
يلعبان من تحت خصرها برمانتين.. (يلعبان بثدييها)..
فطلقني ونكحها.. (أعجبته.. فطلق أم زرع وتزوجها!!)..
فنكحت بعده رجلاً سريًا.. (تزوجت أم زرع رجلاً كريمًا)..
ركب شريًا.. (ركب خيلاً سابقًا)..
وأخذ خطيًا.. (أخذ السيف)..
وأراح علي نعمًا ثريًا.. (أكرمها وأهداها لأنه ثري)..
وأعطاني من كل رائحة زوجًا.. (أكثر لها من الأطياب ويعطيها اثنين من كل شيء لتستعمل وتهدي إن شاءت)..
وقال: كُلي أمّ زرع.. وميري أهلك.. (أهدي لأهلك وأعطيهم)..
ثم قالت وهي تحكي شوقها إلى زوجها الأول أبي زرع:
فلو جمعت كل شيء أعطانيه.. ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.. (سبحان الله لا يزال قلبها معلقًا بأبي زرع.. !! ما الحب إلا للحبيب الأول)..

انتهت القصة.. كانت حكاية طويلة لإحدى عشرة امرأة.. فيما ترى.. كم استغرقت من وقت النبي ﷺ وهو يستمع إليها من حبيبة قلبه ورفيقة دربه.. أم المؤمنين.. عائشة رضي الله عنها..

كان ﷺ يستمع بكل إنصات وتفاعل وإظهار للعجب والاستمتاع إلى عائشة وهي تحدثه.. ولم يُظهر لها ضجرًا ولا مللاً.. مع تعبه وكثرة مشاغله.. وتراكم همومه..

حتى إذا انتهت عائشة من حديثها.. قال ﷺ متفاعلاً معها.. وإظهارًا لها أنه

فهم القصة وأدرك مغزاها.. وأنها لم تكن تحدثه بالقصة وهي في وادٍ وهو في وادٍ آخر.. قال لعائشة: كنت لك كأبي زرع لأم زرع..

إذن.. اتفقنا على أهمية إظهار اللطف والاهتمام بالناس..

فإذا جاءك ولدك متزينًا بثوب جميل.. ما رأيك يا أبي؟.. تفاعل معه.. قل سبحان الله.. ما هذا الجمال؟..

ابنتك..

زوجتك..

ولدك..

زميلتك..

كل من تخالطهم كن حيًّا متفاعلاً..

قال لك – مثلاً -: أبشرك أن الوالد شُفي من مرضه..

فلا تقل: أصلاً.. متى مرض؟!! وإنما قل الحمد لله.. أسأل الله أن يجمع له بين الأجر والعافية سررتني سرك الله..

أو قال: أخي خرج من السجن.. فلا تقل: والله ما دريت أصلاً أنه دخل السجن.. وإنما تفاعل.. قل: الحمد لله هذا خبر مفرح.. والله يديم سعادتكم..

وأخيرًا.. يا جماعة.. التشجيع والتفاعل ينفع حتى مع الحيوانات..

قال أبو بكر الرقي: كنت بالبادية.. فوافيت قبيلة من قبائل العرب.. فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه.. فرأيت في الخباء (الخيمة) عبدًا أسود مقيدًا بقيد.. ورأيت جمالاً قد ماتت أمام البيت..

وقد بقي منها جمل وهو ناحلٌ ذابل كأنه ينزع روحه..

فقال لي الغلام: أنت ضيف.. ولك حق.. فتشفع فيّ إلى مولاي.. فإنه مكرم لضيفه.. فلا يرد شفاعتك في هذا القدر.. فعساه يحل القيد عني..

فسكتُّ عنه.. ولم أدر ما جُرْمُه..

فلما أحضروا الطعام.. امتنعت.. وقلت: لا آكل.. ما لم أشفع في هذا العبد..

فقال السيد: إن هذا العبد قد أفقرني.. وأهلك جميع مالي..

فقلت: ماذا فعل؟!

فقال: إن له صوتًا نديًا طيبًا.. وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال.. فحمّلها أحمالاً ثقالاً.. وكان ينشد الأشعار ويلحّنها ويحدو بها.. حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته..

فلما حطت أحمالها.. ماتت كلها.. إلا هذا الجمل الواحد.. ولكن أنت ضيفي.. فلكرامتك قد وهبته لك.. ثم قام وأطلق الغلام من قيده..

قال أبو بكر: فاشتقت إلى سماع هذا الصوت.. فلما أصبحنا أمرته أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك.. لينشط الجمل للعمل..

فانطلق الغلام بصوت حسن.. فلما رفع صوته.. سمعه الجمل فهام وهاج ونسي نفسه.. حتى قطع حباله..

ووقعت أنا على وجهي من حسن الصوت.. فما أظن أني سمعت قط صوتًا أطيب منه[٧١]..

فإذا كانت الحيوانات تتفاعل مع الصوت الحسن فيزداد حماس العبد فيُحسن صوته.. ويتغنى.. فما بالك بالآدميين..

طور نفسك بالتدريب..

كن حيًا لا ميتًا.. تفاعل بكلامك.. بتعبيرات وجهك..
حتى يأنس الآخرون بك..

---

(٧١) إحياء علوم الدين ٢/٢٧٥.

اجعل لسانك عذبًا..

لا تخلو حياتنا من مواقف نحتاج فيها إلى تقديم توجيهات ونصائح للآخرين.. نقدمها إلى الولد.. الزوج.. الصديق.. الجار.. الأبوين..

تختلف نهايات النصائح.. باختلاف بداياتها..

أعني إن كانت البداية بأسلوب مناسب.. ومدخل لطيف.. انتهت كذلك.. وإن كانت بأسلوب جاف.. ومدخل عنيف.. انتهت كذلك..

عندما ننصح الناس.. فنحن في الواقع نتعامل مع قلوبهم.. لا أجسادهم.. لذلك تجد بعض الأبناء يتقبل من أمه النصح ولا يتقبل من أبيه.. أو العكس..

والطلاب يتقبلون من مدرس.. دون الآخر.. وأول البراعة في النصيحة.. أن لاتكثر منها وتدقق على كل صغير وكبير.. حتى لا يشعر الآخرون أنك مراقب لحركاتهم وسكناتهم.. فتثقل عليهم..

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وإن استطعت أن تقدم النصيحة على شكل اقتراح.. فافعل..

مثال: قدمت زوجتك طعامك إليك.. وقد تعبت في صنعه وإعداده.. ولكنه مالح.. فلا تقل: أوووه.. . ما هذا الطعام؟..

أعوذ بالله!!

وضعت علبة ملح كاملة!!

لا.. وإنما قل: لو قللت الملح في الطعام لكان أحسن..

وكذلك لو رأيت ولدك متسخ الملابس.. فقدم النصيحة على شكل اقتراح.. لأن الناس لا يحبون تلقي الأوامر.. فقل: لو تغير ملابسك بثياب أجمل..

ولو تأخر طالب عن مدرسته.. قل: لو ما تتأخر عن مدرستك مرة أخرى.. أفضل.. استعمل هذه الأساليب دائمًا: ما رأيك لو فعلت كذا..

أقترح عليك كذا وكذا..

فهذه الأساليب الرقيقة أحسن من قولك.. يا قليل الأدب..

كم مرة قلت لك..

أنت ما تفهم..

إلى متى أعلمك؟!!

اجعله يحتفظ بماء وجهه.. ويشعر بقيمته حتى وهو مخطئ..

أتدري لماذا؟

لأن المقصود علاج أخطائه لا الانتقام منه أو إهانته..

يعني يا جماعة.. بالعبارة الصريحة: لا أحد يحب أن يتلقى الأوامر..

وانظر إلى المنهج النبوي في ذلك..

أراد ﷺ يومًا أن يوجه عبد الله بن عمر للتعبد بصلاة الليل.. فما دعاه وقال: يا عبد الله قم الليل..

وإنما قدم النصيحة على شكل اقتراح.. وقال: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»..

وفي رواية قال: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان.. كان يقوم الليل فترك قيام الليل»..

بل إن استطعت أن تلفت نظره إلى الأخطاء من حيث لا يشعر فهو أولى..

عطس رجل عند عبد الله بن المبارك.. فلم يقل الحمد لله..

فقال عبد الله: ماذا يقول العاطس إذا عطس؟

قال: الحمد لله..

فقال عبد الله: يرحمك الله ..

وكان رسول الله ﷺ كذلك..

كان إذا انصرف من صلاة العصر.. دخل على نسائه واحدة واحدة.. فيدنو من إحداهن.. ويتحدث معها..

فدخل على زينب بنت جحش.. فوجد عندها عسلاً.. وكان ﷺ يحب العسل والحلواء.. فأخذ يأكل منه ويتحدث معها.. فاحتبس عندها أكثر ما كان يحتبس عند غيرها..

فغارت عائشة وحفصة.. وتواصتا من دخل عليها تقول له: أجد منك ريح

مغافير.. وهو شراب حلو يشبه العسل.. ولكن له رائحة سيئة..

وكان ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح من بدنه أو فمه.. لأنه يناجي جبريل.. ويناجي الناس..

فلما دخل على حفصة.. سألته ماذا أكل؟

فقال: شربت عسلاً عند زينب..

فقالت: إني أجد منك ريح مغافير..

فقال: لا بل شربت عسلاً.. ولن أعود له..

ثم قام ودخل على عائشة.. فقالت له عائشة مثل ذلك..

ومضت الأيام.. وكشف الله له القضية كلها..

وبعد أيام.. أسرّ إلى حفصة رضي الله عنها حديثًا.. فأظهرته..

فدخل عليها يومًا.. وعندها الشفاء بنت عبد الله.. وكانت صحابية تتعلم الطب.. وتعالج الناس..

فأراد ﷺ أن يلفت نظر حفصة إلى خطئها معه بأسلوب غير مباشر.. ليكون أرفق وأحسن.. فماذا فعل؟

فقال ﷺ للشفاء: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة!!

ورقية النملة كلام كانت نساء العرب تقوله.. يعلم كل من سمعه أنه كلام لا يضر ولا ينفع..

ورقية النملة التي كانت تعرف بينهن أن يقال:

العروس تحتفل..

وتختضب وتكتحل..

وكل شيء تفتعل..

غير أن لا تعصي الرجل..

فأراد ﷺ بهذا المقال تأنيب حفصة والتأديب لها تعريضًا.. بأن تردد جملة: غير أن لا تعصي الرجل..

وما أجمل هذه الأساليب في علاج أخطاء الآخرين ليبقى الود في القلوب متينًا لا تهزه الأخطاء ولا تكدره كثرة النصائح..

أحد السلف استلف منه رجل كتابًا.. فرده إليه بعد أيام وعليه آثار طعام.. كأنه حمل عليه خبزًا أو عنبًا..

فسكت صاحب الكتاب..

وبعد أيام جاءه صاحبه يستعير منه كتابًا آخر.. فأعطاه الكتاب في طبق..!!

فقال الرجل: إنما أريد الكتاب.. فما بال الطبق؟!

فقال: الكتاب لتقرأ فيه.. والطبق لتحمل عليه طعامك!!

فأخذ الكتاب.. ومضى.. فقد وصلت الرسالة..

وأذكر أن أحدهم كان يعود إلى بيته ليلاً.. وينزع ثوبه..

يعلقه على الشماعة.. وينام..

فتأتي زوجته.. وتفتح محفظة النقود.. ثم تأخذ الصرف الموجود.. من فئة الريال.. والخمسة..

فإذا استيقظ صباحًا وذهب إلى عمله.. واحتاج أن يحاسب في بقالة ونحوها.. لم يجد صرفًا..

فتحير الرجل.. ترى أين ذهب المال؟!

فراقبها.. حتى فهم القضية..

فرجع إلى بيته يومًا.. وقد جعل في جيبه ضفدعًا!

ونزع ثوبه كالعادة.. واضطجع كهيئة النائم.. وأخذ يشخر.. وهو يراقب الثوب.. فأقبلت زوجته لتأخذ ما يتيسر.. كالعادة!!

أقبلت إلى الثوب تمشي رويدًا.. أدخلت يدها بهدووء.. فلمست الضفدع.. فتحرك فجأة.. فصرخت: آآه.. يدي.. ففتح الزوج عينيه.. وقال: آآه.. جيبي..

ليتنا نستعمل هذا الأسلوب.. مع جميع الناس.. أولادنا إذا وقعوا في أخطاء.. ومع طلابنا..

نايف أحد الأصدقاء.. كان له أم صالحة.. لا ترضى أن يبقى في البيت صور أبدًا.. لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة..

كان عندها طفلة صغيرة.. عندها ألعاب متنوعة.. إلا الدمى.. العرائس.. كانت الأم تمنعها من شراء الدمى والعرائس وتأذن لها في بقية أنواع الألعاب..

أهدت إليها خالتها دُمية.. عروسة.. وقالت لها: العبي بها في غرفتك.. واحذري أن تراها أمك..

وبعد يومين.. علمت الأم.. فأرادت أن تقدم النصيحة بأسلوب مناسب..

جلسوا على الطعام.. فقالت أم نايف: يا أولاد.. !! من يومين.. وأنا أشعر أن البيت ليس فيه ملائكة!! لا أدري لماذا خرجت.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

والبنت الصغيرة تسمع وهي ساكتة..

وبعد الغداء رجعت الصغيرة إلى غرفتها.. فإذا بين يديها ألعاب كثيرة.. والعروسة من بينها..

فالتقطتها.. وجاءت بها إلى الأم وقالت: ماما.. هذا التي طردت الملائكة.. افعلي بها ما شئت!!

فما أجمل هذه الأساليب ليكون أحدنا مصلحًا لأخطاء الناس.. ناصحًا لهم وفي الوقت نفسه خفيف النفس عليهم غير مضجر ولا ممل لهم..

يعني دع المنصوح يحتفظ بماء وجهه.. ويمكن أن تأكل العسل من غير أن تحطم الخلية..

لا تنصحه كأنه قد كفر بفعله..

بل أحسن الظن به.. واعتبر أنه وقع في الخطأ من غير قصد.. أو من غير أن يعلم..

كانت الخمر في أول الإسلام لم تحرم بعد.. ثم نزل تحريمها على مراحل..

ففي المرحلة الأولى.. بغضهم الله تعالى في الخمر ولم يقطع بتحريمها.. فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾..

ثم في المرحلة الثانية: حرم عليهم شربها قرب وقت الصلاة فقال: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.. فصار الشخص لا يكاد أن يجد وقتًا لشرب الخمر لانشغاله بالصلوات وتتابعها..

ثم في المرحلة الأخيرة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.. فترك كل من كان يشربها شربها وانتهوا عنها..

إلا أن بعض الناس خارج المدينة لم يعلموا بالتحريم القطعي للخمر..

وفي يوم أقبل عامر بن ربيعة.. الصحابي الجليل.. من سفر.. فأهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر.. جرة كاملة مملوءة خمرًا..

ولم يكن النبي ﷺ يشرب الخمر لا في الجاهلية ولا في الإسلام.. لكن الناس كانوا يهدون إليه هدايا أحيانًا لا ليستعملها وإنما ليهديها أو يبيعها..

فكان بعضهم قد يهدي إليه ذهبًا أو حريرًا فلا يلبسه وإنما يه يهديه لزوجاته أو غيرهن..

نظر النبي ﷺ إلى الخمر مستغربًا.. والتفت إلى عامر بن ربيعة.. وقال: «أما علمت أنها قد حرمت؟»..

قال: حرمت؟! لا.. . ما علمت يا رسول الله..

قال: «فإنها قد حرمت»..

فحملها عامر..

فأسر إليه بعضهم بأن يبيعها..

فسمعه النبي ﷺ فقال: «لا.. إن الله إذا حرم شيئًا.. حرم ثمنه»..

فأخذها رضي الله عنه فأهرقها على التراب[٧٢]..

وانتبه أن تمدح نفسك وأنت تنصح.. فترفع نفسك وتسحب المنصوح إلى القاع..

لا أحد يرضى بذلك..

بعض الآباء – مثلاً -.. إذا نصح ولده بدأ يذكر أمجاده.. أنا كنت وكنت.. ولعل الولد يعلم تاريخ والده.. !!

فإذا احتجت أن تضرب مثالاً وأنت تنصح فحاول جاهدًا أن لا تضربه على نفسك فتذكر بطولاتك وأمجادك.. وإنما اضرب المثال بغيرك.. حتى لا يشعر المنصوح أنك تهينه وتمدح نفسك..

باختصار..

«الكلمة الطيبة.. صدقة.. » حديث شريف

---

(٧٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

اختصر.. ولا تجادل..

يقولون: إن الناصح كالجلاد.. وبقدر مهارة الجلاد في الجلد.. يبقى الألم..

لاحظ: أقول: مهارة الجلاد.. لا قوة الجلاد!! فالجلاد العنيف الذي يضرب بقوة.. يتألم المضروب وقت وقوع السياط.. ثم ما يلبث حتى ينساها..

أما الجلاد الأستاذ في صنعته.. فقد لا يضرب بقوة.. لكنه يعلم أين يوقع السوط..

كذلك الناصح.. ليست العبرة بكثرة الكلام.. ولا طول النصيحة.. وإنما بأسلوب الناصح..

فاختصر قدر المستطاع.. إذا أردت أن تنصحه فلا تلق عليه محاضرة.. !!

خاصة إذا كان الأمر متفقا عليه.. كمن تنصحه عن الغضب.. أو شرب الخمر.. أو ترك الصلاة.. أو عقوق الوالدين.. إلخ..

تأملت النصائح النبوية الشخصية المباشرة.. فوجدتها لا تزيد الواحدة منها على سطر واحد.. أو سطرين..

اسمع: «يا علي.. لا تتبع النظرة النظرة.. فإن لك الأولى وليست لك الثانية».. انتهى.. نصيحة باختصار..

«يا عبد الله بن عمر.. كن في الدنيا كأنك غريب.. أو عابر سبيل»..

انتهى.. نصيحة باختصار..

«يا معاذ.. والله إني أحبك.. فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك.. وشكرك.. وحسن عبادتك»..

يا عمر.. إنك رجل قوي.. فلا تزاحمن عند الحجر

وكذلك كان العقلاء بعده ﷺ يختصرون في نصائحهم..

لقي أبو هريرة رضي الله عنه الفرزدق الشاعر فقال: يا ابن أخي إني أرى قدميك صغيرتين.. ولن تعدم لهما موضعًا في الجنة.. يعني فاعمل لها.. ودع عنك قذف المحصنات في شعرك..

وعمر رضي الله عنه.. كان على فراش الموت.. فجعل الناس يدخلون عليه تباعًا يودعونه ويثنون عليه..

وجاء شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ .. وقدم في الإسلام ما قد علمت.. ثم وَليت فعدلت.. ثم شهادة..

فقال عمر: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي..

فلما أدبر الشاب.. فإذا إزاره يمس الأرض.. مسبل أي إزاره تحت الكعبين.. فأراد عمر رضي الله عنه أن يقدم النصيحة للشاب.. فقال: ردوا علي الغلام..

فلما وقف الشاب بين يديه.. قال: يا ابن أخي.. ارفع ثوبك.. فإنه أنقى لثوبك.. وأتقى لربك[٧٣] .. انتهى.. باختصار.. الرسالة وصلت..

واترك الجدال قدر المستطاع..

خاصة إذا شعرت أن الذي أمامك يكابر.. فالمقصود إيصال النصحية إليه لا فتح المناظرة معه.. وقد ذم الله الجدال: (ما ضربوه لك إلا جدلاً)..

وقال ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه.. إلا أوتوا الجدل»..

وقال: «أنا زعيم لبيت في ربض الجنة لمن ترك الجدال وإن كان محقًا»..

أحيانًا يقتنع الشخص بالفكرة.. لكن أكثر النفوس فيها أنفة وكبر.. كما قال تعالى عن فرعون وقومه لما عرفوا الحق وصدقوه بقلوبهم.. لكن منعهم الكبر من اتباعه ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾..

فالغاية عندك أن يعرف المنصوح الخطأ ليتجنبه في المرة القادمة.. وليس الغاية أن تنتصر عليه.. فلستما في حلبة مصارعة..

دخل النبي ﷺ على علي وفاطمة رضي الله عنهما.. ليلاً.. فقال لهما: ألا تصليان.. أي ألا تقوما الليل..

فقال علي: أنفسنا بيد الله.. متى شاء أن يبعثنا.. بعثنا..

فولاهما النبي ﷺ ظهره..

---

(٧٣) البخاري.

ومضى وهو يضرب بيده على فخذه ويقول: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (٧٤)»..

وأحيانًا قد يذكر المنصوح.. كلامًا يعتذر به.. وهو ليس عذرًا مقنعًا لكنه يقول: ليحفظ ماء وجهه..

فكن سمحًا واقبل العذر ولا تتشدد معه..

ولا تغلق عليه الأبواب بل أبقها مفتوحة أمامه وأنت تنصح..

حتى لو تكلم بكلام خاطئ.. فيمكن أن تعالج خطأه من حيث لا يشعر.. كأن تثني عليه.. وعلى فهمه وجرأته.. ثم تقول: ولكن.. ثم فند كلامه ورد عليه إن كان خاطئًا..

وجهة نظر..

نبه على الخطأ باختصار.. ولا تلق محاضرة..

---

(٧٤) رواه البخاري.

لا تبال بكلام الخلق..

أعجبتني عبارة رددها ابني عبد الرحمن يومًا..

وأظنه في ذلك السن لم يكن يفقه معناها..

كان يقول: طنّش تعش تنتعش.. !!

تأملت في هذه العبارة وأنا ألاحظ انتقادات الناس.. وآراءهم.. وأحاديثهم.. فوجدت أن الناس في كلامهم وذمهم يتنوعون..

فيهم الناصح الصادق الذي لا يتقن فن النصيحة.. وبالتالي يحزنك بأسلوب نصحه أكثر ما يفرحك..

وفيهم الحاسد.. الذي يقصد حزنك وهمك..

وفيهم قليل الخبرة.. الذي يهذي بما لا يدري.. ولو سكت لكان خيرًا له..

وفيهم من طبيعته الانتقاد أصلاً.. فهو ينظر للحياة بنظارة سوداء..

وقديمًا قيل: لو اتحدت الأذواق لبارت السلع..

ذكروا أن جحا ركب على حمار.. وولده يمشي بجانبه.. فمروا بجمع من الناس.. فقال الناس: انظروا لهذا الأب الغليظ يركب مرتاحًا.. ويدع ولده يمشي في الشمس..

سمعهم جحا.. فأوقف الحمار.. ونزل.. وأركب ولده..

ثم مشيا.. وجحا يشعر بنوع من الزهو.. فمرا بقوم آخرين.. فقال أحدهم: انظروا إلى هذا الابن العاق.. يركب ويدع أباه يمشي في الشمس..

سمعهم جحا.. فأوقف الحمار.. ثم ركب مع ولده.. ليتقيا كلام الناس وانتقاداتهم..

فمرا بقوم.. فقالوا: انظروا إلى هذين الغليظين.. لا يرحمون الحيوان..

فنزل جحا.. وقال: يا ولدي.. انزل..

فنزل الولد وجعل يمشي بجانب أبيه.. والحمار ليس فوقه أحد..

فمرا بقوم.. فقالوا: انظروا إلى هذين السفيهين.. يمشيان والحمار فارغ.. وهل خلق الحمار إلا ليُركب..

فصرخ جحا وجر ولده معه.. ودخلا تحت الحمار..

وحملاه.. !!

ولو أني كنت معهم في ذلك الزمان.. ورأيت جحا وقتها لقلت له:

يا حبيب القلب.. افعل ما تشاء.. ولا تبال بكلام الخلق.. رضا الناس غاية لا تدرك..

ومن الذي ينجو من الناس سالمًا ولو غاب عنهم بين خافيتي نسر

بعض الناس.. لا يفكر في رأيه قبل أن يطرحه..

يأتيك مثلاً بعدما تتزوج.. ويقول.. لماذا تخطب فلانة؟ ولماذا تزوجتها؟

وكأني بك.. تتمنى أن تصرخ في وجهه ويقول: يااا أخي تزوجت.. خلاص.. انتهى الموضوع.. ما أحد طلب منك اقتراحات..

أو يأتيك وقد بعت سيارتك.. فيقول.. ليتك أخبرتني.. فلان كان سيعطيك أكثر.. يا أخي.. بس!! الرجل باع سيارته.. خلاص وانتهى.. لا تشغله بالالتفات وراءه!! وعمومًا..

ليس يخلو المرء من ضد ولو طلب العُزلة في رأس جبل

فلا تعذب نفسك..

تجربة..

قال أحد السلف: من جعل دينه عرضة للخصومات.. أكثر التنقل!!

ابتسم.. ثم ابتسم.. ثم ابتسـ.. ثم ابتـ..

أعرفه منذ سنين..

فهو أحد زملائي في عملي.. على كل حال..

لكن هل تصدق أنني إلى الآن لا أدري هل نبتت له أسنان أم لا!!

دائم التجهم.. والعبوس.. وكأنه إذا ابتسم نقص عمره.. أو قلّ ماله!!

قال جرير بن عبد الله البجلي: مارآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي..

الابتسامة أنواع.. ومراتب..

فمنها البشاشة الدائمة.. أن يكون وجهك صبوحًا مبتهجًا دائمًا..

فلو كنت مدرسًا ودخلت الفصل على طلابك.. فالقهم بوجه بشوش..

ركبت طائرة.. ومشيت في الممر والناس ينظرون إليك كن بشوشًا..

دخلت بقالة.. أو محطة وقود.. مددت له الحساب.. ابتسم..

ولو كنت في مجلس.. ودخل شخص وسلم بصوت عال.. ومر بنظره على الجالسين.. ابتسم..

ولو دخلت على مجموعة.. وصافحتهم.. ابتسم..

وعمومًا:

الابتسامة لها من التأثير الكبير في امتصاص الغضب والشك والتردد.. ما لا يشاركها غيرها.. البطل هو الذي يستطيع التغلب على عواطفه.. ويتبسم.. حتى في أحلك المواقف..

كان أنس بن مالك رضي الله عنه يمشي مع النبي ﷺ يومًا..

والنبي ﷺ عليه بُرد نجراني غليظ الحاشية.. فلحقهما أعرابي..

أقبل هذا الأعرابي يجري وراء النبي ﷺ يريد أن يحلق به.. حتى إذا اقترب منه.. جبذه بردائه جبذة شديدة.. فتحرك الرداء بعنف على رقبة النبي ﷺ..

قال أنس: حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ.. قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته..

فماذا يريد هذا الرجل؟!

لعل بيته يحترق وأقبل يريد معونة..

أو أحاطت به غارة من المشركين.. فأقبل فزعًا يريد نصرة..

اسمع ماذا يريد..

قال: يا محمد.. (لاحظ لم يقل: يا رسول الله)..

قال: يا محمد.. مُر لي من مال الله الذي عندك..

فالتفت رسول الله ﷺ.. ثم ضحك.. ثم أمر له بعطاء..

نعم.. كان ﷺ بطلاً لا تستفزه مثل هذه التصرفات.. ولا يعاقب أو تثور أعصابه على التافهات..

كان واسع البطان.. قويًا يضبط أعصابه..

دائم الابتسامة حتى في أحلك الظروف.. يفكر في عواقب الأمور قبل أن يفعلها.. وماذا يفيد لو أنه صرخ بالرجل أو طرده!

هل سيشفى جرح عنقه! أو يصلح أدب الرجل! كلا..

إذن ليس مثل الصبر والتحمل..

نعم بعض الأمور نثور لها ونغضب.. وعلاجها شيء آخر تمامًا.. نعالجها بالرفق واللين.. والتبسم.. واحسان الظن.. وكظم الغيظ.. وكسب الناس..

وصدق ﷺ لما قال: «ليس الشديد بالصرعة.. إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»..

كان النبي الكريم ﷺ.. يجذب الناس بالتبسم والبشاشة..

خرجو إلى غزوة خيبر.. وفي أثناء القتال.. وقع من حصن اليهود جراب فيه شحم.. قربة كاملة مملوءة سمنًا.. التقطه عبد الله بن مغفل رضي الله عنه وحمله على عاتقه فرحًا ومضى به إلى رحله وأصحابه..

فلقيه الرجل المسئول عن جمع الغنائم وترتيبها.. فجذب الجراب إليه.. وقال: هات هذا نقسمه بين المسلمين..

فتعلق به عبد الله: لا والله.. لا أعطيكه.. أنا أصبته..

قال: بلى.. وجعلا يتجاذبان الجراب..

فمر بهما رسول الله ﷺ.. فرآهما.. وهما يتجاذبان الجراب..

فتبسم ﷺ ضاحكًا.. ثم قال لصاحب المغانم: «لا أبا لك.. خلّ بينه وبينه..» فتركه الرجل في يد عبد الله..

فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه.. فأكلوه..

وأخيرًا.. تبسمك في وجه أخيك صدقة..

قدوة..

وما رآني إلا تبسم!!

الخطوط الحمر..

كان من طلابي في الجامعة..

كان واسع الثقافة..

حريصًا على تكوين علاقات مع الناس..

لكنه كان ثقيل الدم عليهم..

جاءني يومًا.. وقال: يا دكتور.. زملائي يغضبون مني دائمًا.. لا يتحملون مزاحي..

قلت في نفسي: أنا لا أحتملك ساكتًا.. فكيف أحتملك متكلمًا..؟! خاصة إذا كنت تستخف دمك وتمزح.. !

سألته: لماذا لا يحتملون مزاحك؟! أعطني مثالاً..

قال: عطس أحدهم فقلت: الله يلعنك.. (ثم سكتُّ).. فلما غضب.. أكملت قائلاً: يا إبليس.. ويرحمك يا فلان.. !!

آآآه.. ما أثقل مزاحه!!

مسكين كان يظن نفسه بذلك.. خفيف الدم!!

الناس مهما قبلوا مزاحك ومداعباتك.. إلا أنه تبقى هناك خطوط حمراء لا يحبون أن تتعداها.. خاصة إذا كان ذلك أمام الآخرين..

بعض الناس لا يراعي ذلك.. فتجد أنه يعتدي على حاجاتهم..

فمثلاً من باب (الميانة) يأخذ هاتفك الجوال ويتصل به كما يريد..

أو ربما أرسل رسائل من هاتفك الشخصي إلى أشخاص أنت لا ترغب أن يظهر رقم هاتفك عندهم..

أو يأخذ سيارتك بغير إذنك.. أو يحرجك بطلبها حتى تأذن على مضض..

أو تجد مجموعة طلاب يسكنون في شقة واحدة.. يستيقظ أحدهم ليذهب إلى جامعته.. فيجد أن معطفه قد لبسه فلان.. وحذاءه في رجل فلان..

ومن تعدي الخطوط الحمراء أنك.. تجد بعض الناس يُحرج صاحبه بمزحة ثقيلة أو سؤال محرج في مجلس عام..

والشخص مهما بلغ من المحبة لك.. إلا أنه يبقى بشرًا يرضى ويغضب.. ويفرح ويسخط..

لما أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة راجعًا من تبوك.. قدم عليه في ذلك الشهر عروة بن مسعود الثقفي.. وكان سيدًا جليل القدر.. رفيع المكانة عند قومه ثقيف.. فأدرك النبي ﷺ قبل أن يصل إلى المدينة.. فأسلم.. وسأله أن يرجع إلى قومه فيدعوهم إلى الإسلام..

فخاف عليه ﷺ من أذى قومه.. وقال له: «إنهم قاتلوك..»

وعرف ﷺ أن قبيلة ثقيف فيهم نخوة الامتناع.. والصرامة في التعامل.. حتى لو كان مع رئيسهم..

فقال عروة: يا رسول الله.. أنا أحب إليهم من أبكارهم.. وأبصارهم..

وكان محببًا مطاعًا فيهم..

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه.. لعظم منزلته فيهم..

فلما وصل إلى ديار قومه.. رقى على مرتفع وصاح بهم حتى اجتمعوا.. وهو سيدهم..

فدعاهم إلى الإسلام.. وأظهر لهم أنه أسلم.. وجعل يردد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله..

فلما سمعوا منه ذلك.. صاحوا.. وثاروا أن يتركوا آلهتهم.. ورموه بالنبل من كل جهة..

حتى وقع صريعًا ﷺ ..

فأقبل إليه أبناء عمه.. وهو ينازع الموت.. وقالوا: يا عروة: ما ترى في دمك؟ يعني: هل نأخذ بثأرك ونقتل من قتلك؟!

فقال: كرامة أكرمني الله بها.. وشهادة ساقها الله إلي.. فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ .. فلا تقتلوا لأجلي أحدًا.. ولا تأخذوا بثأري من أحد..

فقيل إن النبي ﷺ .. لما بلغه خبر مقتله.. قال فيه: «إن مثله في قومه.. كمثل صاحب ياسين في قومه.. رضي الله عنه..»

فانتبه: الناس لهم أحاسيس مهما بلغت في القرب منهم فلا تجترئ عليهم كثيرًا.. من خلال مزاحك.. أو تعاملك.. ابق بعيدًا عن الخط الأحمر..

لا تجرحهم مهما بلغت منزلتك في قلوبهم.. وإن كانوا في منزلة الأخ والولد.. لذا نبه النبي ﷺ على ذلك.. فنهى عن ترويع المؤمن..

كان ﷺ يومًا يسير مع أصحابه.. وكان كل واحد منهم معه متاعه.. سلاحه.. فراشه.. طعامه.. نزلوا منزلاً.. فنام رجل منهم.. فأقبل صاحبه إلى حبل معه فأخذه.. مازحًا.. فاستيقظ الرجل.. فوجد متاعه ناقصًا.. ففزع.. وأخذ يبحث عن حبله..

فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا(٧٥)..»

وفي يوم آخر..

كانوا يسيرون مع النبي ﷺ في مسير.. فنعس رجل وهو على راحلته.. فغافله صاحبه وانتزع سهمًا من كنانته.. فشعر الرجل بمن يعبث بسلاحه.. فانتبه فزعًا مذعورًا..

فقال ﷺ: «لا يحل لرجل أن يروع مسلمًا(٧٦)..»

ومثله الذي يمزح معك ويظن أنه يسرك وهو يضرك بل يملأ قلبك فزعًا وغمًا..

فيراك أوقفت سيارتك عند بقالة - مثلاً - وهي تشتغل فيأتي ويقودها ويذهب بها بعيدًا.. ويوهمك أنها سرقت.. مازحًا.. قد يجاملك صاحبك ويضحك أحيانًا على مزحة مروعة.. لكنه متألم..

ولربما صبر الحليم على الأذى   وفؤاده من حره يتأوه
ولربما شكل الحليم لسانه   حذر الكلام وإنه لمفوه

وجهة نظر..

كل ما زاد عن حده.. انقلب ضده..

وكم مزحة انتهت شجارًا!!

---

(٧٥) رواه أبو داود (صحيح).
(٧٦) رواه الطبراني وغيره ورجاله ثقات.

حفظ السر..

اشتهر قديمًا..

كل سر جاوز الاثنين.. شاع..

ومن اللطائف أن أحدهم سئل: من الاثنين؟ فأشار إلى شفتيه.. وقال: هذان!!

خلال أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت من عمري.. لا أذكر أني همست في أذن أحد من الناس بسر.. واستأمنته إياه.. إلا قسم أيمانًا مغلظة أن سري في بئر ليس لا قاع!!

ولا أذكر أن أحدًا منهم صار صريحًا.. وقال بعدما سمع سري: يا محمد.. اسمح لي لا أستطيع أن أكتمه..

بل كل شخص تحدثه بسرك يضرب بيده صدره.. ويقول: والله لو وضعوا الشمس في يميني.. والقمر في شمالي.. أو السيف على رقبتي.. على أن أخبر بسرك.. ما أخبرت!!

ثم إذا اطمأننت ووثقت.. وكشفت له أسرارك.. تصبر شهرين أو ثلاثة.. ثم حدث به.. فلا يزال سرك يتناقل حتى يصلك.. وأنت المخطئ ابتداءً سرك لا ينبغي أن يجاوز شفتيك..

لا تكلف الناس ما لا يطيقون..

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه   فصدر الذي يستودع السر أضيق

جربت كثيرًا من الناس.. فوجدتهم كذلك.. والمشكلة أنك تأتيهم على سبيل الاستشارة.. فيشيرون عليك.. ثم يفضحون سرك.. فيسقطون من عينك.. ويصبحون من أبغض الناس إليك..

ومن أعجب ما في التاريخ:

أنه قبل معركة بدر.. لما سمع النبي ﷺ.. بقافلة قريش مقبلة من الشام وأراد قتالها.. خرج ﷺ إليها مع أصحابه.. فلما شعر بهم أبو سفيان قائد القافلة.. استأجر رجلاً اسمه ضمضم بن عمرو الغفاري.. وقال اذهب وأخبر قريشًا بالخبر.. فانطلق ضمضم مسرعًا إلى مكة..

كان وصوله مكة يحتاج أن يسير أيامًا.. وأهل مكة لا يدرون عنه شيء من ذلك.. وفي ليلة من الليالي رأت عاتكة بنت عبد المطلب في منامها.. رؤيا أفزعتها..

فلما أصبحت بعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب.. فقالت له:

يا أخي.. والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني.. وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة.. فاكتم عليّ ما أحدثك.. ولا تحدث به أحدًا..

قال لها: نعم.. وما رأيت؟

قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير.. حتى وقف بوادي «الأبطح».. ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث.. ! (أي: اذهبوا أيها الغادرون إلى مواضع موتكم خلال ثلاثة أيام!)..

قالت: فأرى الناس قد اجتمعوا إليه.. ثم مضى فدخل المسجد والناس يتبعونه.. فبينما هم حوله.. إذ صعد به بعيره فوق الكعبة.. ثم صرخ بمثلها: انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث..

ثم صعد به بعيره على رأس جبل أبي قبيس.. فصرخ بمثلها: انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث..

ثم أخذ صخرة فقذفها من أعلى الجبل.. فأقبلت تهوي من فوق الجبل.. حتى إذا كانت بأسفل الجبل تكسرت وقسمت إلى حصى صغار..

فما بقي بيت من بيوت مكة إلا دخلته كسرة من الصخرة..

فاضطرب العباس وقال: والله إن هذه لرؤيا!

ثم خشي أن تنتشر فيصيبه أذى.. فقال لها محذرًا: وأنت فاكتميها لا تذكريها لأحد..

ثم خرج العباس منشغل البال بأمر هذه الرؤيا.. فلقي الوليد بن عتبة وسط الطريق.. وكان له صديقًا.. فحدثه بالرؤيا.. وقال له: اكتمها.. فلا تخبر بها أحدًا..

فمضى الوليد.. فلقي ابنه عتبة فحدثه بها!!

ثم لم يمض سويعات.. حتى حدث بها عتبة بعض أصحابه.. ثم تناقلها

الناس.. وفشا الحديث بها في أهل مكة.. حتى تحدثت بها قريش في مجالسها..

وفي الضحى ذهب العباس ليطوف بالكعبة.. فإذا أبو جهل جالس في رهط من قريش.. في ظل الكعبة.. يتحدثون برؤيا عاتكة!!

فلما رأى أبو جهل العباس قال: يا أبا الفضل.. إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا..

تحير العباس ماذا يريد منه أبو جهل.. لكنه استبعد أن يسأله عن رؤيا عاتكة..

فقضى العباس طوافه ثم توجه إلى مجلس أبي جهل..

فلما أقبل إليهم العباس وجلس معهم.. قال له أبو جهل: يا بني عبد المطلب.. متى حدثت فيكم هذه النبية؟

قال: وما ذاك؟

قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة..

ففزع العباس وقال: وما رأت؟

قال: يا بني عبد المطلب.. أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟

قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث..

فسننتظر بكم ثلاثة أيام.. فإن يك حقًا ما تقول.. فسيكون..

وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب..

فاضطرب العباس.. وما رد عليه شيئًا.. وجحد الرؤيا.. وأنكر أن تكون رأت شيئًا..

ثم تفرقوا..

فلما دخل العباس بيته.. لم تبق امرأة من بني عبد المطلب.. إلا جاءت إليه غاضبة.. تقول: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم.. ثم قد تناول النساء وأنت تسمع.. أما فيكم حمية..

فاحتمى العباس.. وثار.. وقال: والله.. لئن عاد أبو جهل إلى مثل كلامه.. لأفعلن وأفعلن..

فلما كان اليوم الثالث من رؤيا عاتكة.. ذهب العباس إلى المسجد.. وهو مغضب..

فلما دخل المسجد رأى أبا جهل.. فمشي نحوه يتعرضه ليعود لبعض ما قال فيقع به.. فإذا بأبي جهل يخرج من باب المسجد يشتد مسرعًا.. فعجب العباس من سرعته.. !! فقد كان مستعدًا لخصومة وعراك.. فقال العباس في نفسه: ما له لعنه الله؟! أكل هذا خوفٌ مني أن أشاتمه؟!

وإذا أبو جهل قد سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري الذي أرسله أبو سفيان ليستعين بأهل مكة.. وإذا ضمضم يصرخ في الوادي واقفًا على بعيره.. قد جدع أنف بعيره.. والدم يسيل على وجه البعير..

وقد شق ضمضم قميصه وهو يقول: يا!!! معشر قريش اللطيمة.. اللطيمة.. أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها..

ثم صاح بأعلى صوته: الغوث.. الغوث..

عندها تجهزت قريش وخرجت..

وكان من أمرها في معركة بدر ما كان من الهزيمة والذل..

فتأمل كيف انتشر السر في لمحة عين.. مع قوة الحرص وشدة الاستئمان.. !!

ومن نشر السير أيضًا..

أن عمر ﷺ لما أسلم.. أراد أن ينشر الخبر.. فأقبل إلى رجل منهم.. هو أعظمهم نشرًا للإشاعة.. فقال: يا فلان.. إني محدثك بسر.. فاكتم عني.. !

قال:ما سرك؟

قال:إني قد أسلمت.. فانتبه.. لا تخبر أحدًا..

ثم تولى عنه عمر.. فما كاد يغيب عنه.. حتى جعل الرجل يطوف بالناس ويقول لكل واحد منهم: أعلمت أن عمر أسلم.. !! أعلمت أن عمر أسلم.. !!

عجبًا!! وكالة أنباء متنقلة..

وفي يوم من الأيام بعث النبي ﷺ أنسًا في حاجة.. فمر بأمه.. فسألته.. إلى ماذا أرسلك النبي ﷺ

فقال:والله.. ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

لذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على حفظ الأسرار ليكونوا على قدر المسئولية..

هكذا كان أنس وهو صغير.. في شدة حفظه للسر.. وأنى لك اليوم أن تجد مثل أنس..

قالت عائشة رضي الله عنها: أقبلت فاطمة تمشي.. كأن مشيتها مشية النبي ﷺ .. فقال النبي ﷺ : «مرحبًا بابنتي..» ثم أجلسها عن يمينه – أو عن شماله -..

ثم أسر إليها حديثًا.. فبكت!!

فقلت لها: لم تبكين.. ثم أسر إليها حديثًا.. فضحكت..

فقلت: ما رأيت كاليوم.. فرحًا أقرب من حزن..

فسألتُ فاطمة عما قال لها النبي ﷺ ؟

فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ..

حتى قُبض النبي ﷺ ..

فسألتها؟

فقالت: أسرَّ إلي: «إن جبريل كان يعارضني(٧٧) القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين.. ولا أراه إلا حضر أجلي.. وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي..» فبكيت..

فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة.. أو نساء المؤمنين..» فضحكت لذلك..

فأنت بمقدار حفظك للسر يثق فيك الناس ويفتحون لك قلوبهم.. ويرتفع قدرك عندهم.. ويشعرون أنك أهل للثقة والأمانة..

فعود نفسك أن تمسك أسرارك لنفسك.. وتحفظ أسرار الآخرين..

قالوا..

من عرف سرك أسرك..

---

(٧٧) يعارضه القرآن: يراجع القرآن معه.

قضاء الحاجات..

لما بدأت في دراسة الماجستير.. اطلعت على عدد أوسع من كتب الفرق والطوائف.. من بين هذه المذاهب.. المذهب البراجماتي.. وترجمته بالعربية: المذهب النفعي..

لما تبحرت في دراسة هذا المذهب أدركت لماذا كنا نسمع في أوروبا وأمريكا.. أنه في كثير من الأحيان يهجر الابن أباه.. وإذا قابله في مطعم فكل واحد منهما يحاسب عن نفسه..

فعلاً.. ما دام أني لن أستفيد منك فلماذا أخدمك؟!

لماذا أنفق مالي؟!

وأصرف وقتي؟!

وأبذل جهدي؟! دون مردود مادي يعود علي..

الإسلام قلب هذا الميزان..

فقال الله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾..

وقال ﷺ: «لأن أمشي مع أخي في حاجة حتى أثبتها له.. أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهراً»..

ومن كان في حاجة أخيه.. كان الله في حاجته..

وكان ﷺ يمشي في الطريق فتوقفه الجارية وتقول: لي إليك حاجة.. فيقف معها حتى يسمع حاجتها.. وقد يمضي معها إلى بيت سيدها ليقضيها لها..

بل كان ﷺ يخالط الناس ويصبر على أذاهم..

كان يعاملهم بنفس رحيمة.. وعين دامعة.. ولسان داع.. وقلب عطوف..

كان يشعر أنه هو وهم.. جسدواحد.. يشعر بفقر الفقير.. وحزن الحزين.. ومرض المريض.. وحاجة المحتاج..

انظر إليه ﷺ.. وقد جلس في مسجده يحدث أصحابه.. فإذا به يرى سواداً مقبلاً عليه من بعيد..

نظر إليهم.. فإذا هم قوم فقراء أقبلوا عليه من مُضر.. من قبل نجد..

وكانوا من شدة فقرهم قد اجتابوا النمار..

يعني يملك أحدهم قطعة القماش فلا يجد ثمن الإبرة والخيط.. فيخرق القماش من وسطه ثم يخرج رأسه ويسدل باقيه على جسده..

أقبلوا قد اجتابوا النمار.. وتقلدوا السيوف.. وليس عليهم أزر ولا شيء غيرها.. لا عمامة ولا سراويل ولا رداء..

فلما رأى رسول الله ﷺ الذي بهم من الجهد والعري والجوع.. تغير وجهه..

ثم قام.. فدخل بيته.. فلم يجد شيئًا يتصدق به عليهم..

فخرج.. ودخل بيته الآخر..

وخرج.. يبحث.. يلتمس شيئًا لهم.. فلم يجد..

ثم راح إلى المسجد.. فصلى الظهر.. ثم صعد منبره..

فحمد الله وأثنى عليه.. ثم قال: «أما بعد.. فإن الله عز وجل.. أنزل في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾..

ثم قرأ.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾».. وجعل يتلو الآيات والمواعظ.. ثم صاح بهم.. وقال: «تصدقوا قبل أن لا تصدقوا.. تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة..

تصدق امرؤ من ديناره.. من درهمه.. من بره.. من شعيره..

ولا يحقرن أحدكم شيئًا من الصدقة..»

وجعل يعدد أنواع الصدقات حتى قال: «ولو بشق تمرة..»

فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه.. فناولها رسول الله ﷺ وهو على منبره..

فقبضها رسول الله ﷺ يعرف السرور في وجهه..

وقال: «من سن سنة حسنة.. فعمل بها كان له أجرها.. ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيء.. ومن سن سنة سيئة.. فعمل بها.. كان عليه وزرها.. ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء..»

فقام الناس.. فتفرقوا إلى بيوتهم.. وجاءوا بصدقات.. فمن ذي دينار.. ومن ذي درهم.. ومن ذي تمر.. ومن ذي ثياب..

حتى اجتمع بين يديه ﷺ كومان.. كوم من طعام.. وكوم من ثياب.. فلما رأى ﷺ ذلك تهلل وجهه حتى كأنه فلقة من قمر.. ثم قسمه بين الفقراء.. رواه مسلم .

نعم.. كان ﷺ يدخل إلى قلوب الناس.. بقضاء حاجاتهم.. يصرف من جهده ووقته وماله لأجلهم.. .

لما سئلت عائشة عن حاله ﷺ في بيته.. قالت: كان يكون في حاجة أهله.. أو في مهنة أهله ..

أفلا تجعل من طرق دخولك إلى قلوب الناس.. قضاء حاجاتهم..

احتاج شخص إلى مستشفى.. فأوصلته إليه..

استعان بك في مشكلة فأعنته عليها.. يراك تقضي حاجته.. وتقف معه في كربته.. وهو يعلم أنك لا ترجو من ذلك جزاء ولا شكورًا.. فيحبك ويدعو لك.. ويكون مستعدًا لعونك لو احتجت..

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

رؤية . .

من عاش لغيره فسيعيش متعبًا.. لكنه
سيحيا كبيرًا.. ويموت كبيرًا..

لا تتكلف ما لا تطيق!!

كان صاحبي من خيار الناس.. خلقًا.. ودينًا.. وعقلاً.. كان إمام مسجد بجانب بيته..

لكني كنت أسمع ذمه على ألسنة أناس كثيرين.. كنت أتعجب من ذلك.. ولا أجد له جوابًا..

حتى جاءني يومًا جاره.. وقال: يا شيخ.. صاحبك.. لا يصلي بنا.. ولا معنا!!

قلت: لم؟!!

قال: لا أدري.. لكنه هو الإمام.. ومع ذلك يغيب كثيرًا عن المسجد..

فجعلت ألتمس له الأعذار.. فقلت: لعله مشغول بأمر ضروري.. لعله غير موجود بالبيت..

قال: يا شيخ.. سيارته واقفة عند الباب.. وأنا متأكد أنه في بيته ومع ذلك لا يشهد معنا صلاة الجماعة وهو الإمام!!

جعلت أتقصى السبب لنصح صاحبي.. حتى وجدت السبب..

الرجل بحكم إمامته للمسجد.. يأتي إليه الناس ويلتمسون منه الإعانة في حاجاتهم..

هذا عليه دين يريد أن يبحث له عمن يسدده..

وهذا متخرج من الثانوية ويريد شفاعة لدخول الجامعة..

وهذا مريض يريد إعانته على دخول المستشفى الفلاني..

وهذا عنده بنات كبار ويريد لهن أزواجًا..

وهذا عليه إيجار لبيته لم يسدده..

وهذا أعطاه ورقة استفتاء في طلاق ليذهب بها للمفتي العام..

وهذا..

ويتتابع عليه أصحاب الحاجات وهو رجل عادي ليس له قدرات كبيرة ولا علاقات واسعة.. ولا وجاهة متميزة..

وكان المسكين يغلبه الحياء والخجل من كل أحد.. فلا يقدر أن يعتذر من أحد أبدًا.. بل يأخذ معروض هذا ويعده بسداد دينه..

ويكتب رقم هاتف الثاني.. ويعده أن يقبل في الجامعة..

ويقول للثالث: تعال بعد يومين وتجد ورقة دخول المستشفى جاهزة.. وهكذا دواليك..

فيأتونه على الموعد.. ويعتذر.. ويعطيهم مواعيد أخرى.. حتى صار يتهرب منهم.. ولا يرد على هاتفه.. بل وأحيانًا لا يخرج من بيته.. !!

وصار من يلقاه منهم.. إن وجده.. يسبه ويصرخ به.. ويردد: طيب لماذا تعدني.. لماذا تجعلني أبني الآمال عليك..

والثاني يقول: لم أكلم إلا أنت.. وتركت غيرك لما وعدتني..

لما عرفت حاله.. أيقنت أنه حفر لنفسه حفرة.. ثم تردى فيها..

سمعته مرة يعتذر من أحدهم.. ويقول: آسف.. لم أستطع أن أفعل شيئًا في موضوعك.. وذاك يقول بكل قوة: طيب أنت ضيعت الوقت عليَّ.. ليتك أخبرتني من قبل..

تذكرت عندها قول الحكيم: الاعتذار في البداية خير من الاعتذار في النهاية..

ما أجمل أن يعرف المرء قدراته.. ويتحرك في حدود الدائرة المرسومة حوله.. والله تعالى يربينا على ذلك ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.. ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.. والنبي ﷺ نهى أن يكلف الرجل نفسه ما لا يطيق..

ولقد جربت ذلك بنفسي.. أذكر أني ألقيت محاضرة في أحد المجمعات العسكرية بالرياض.. وبعدها جاءني أحدهم وقال: يا شيخ أريدك في موضوع ضروري جدًا..

قلت: تفضل.. ما هو؟

قال: لا.. ما يصلح أن أذكره الآن.. لا بد أن أقابلك في وقت واسع..

جعل يُعظم حجم الموضوع وأنا أستمع له بلطف..

وقد علمتني الحياة أن أكثر الناس يعطون الأمور أكبر من حجمها.. وصاحب الحاجة مجنون بها حتى تقضى..

قال لي: أظن لك محاضرة غدًا في مدينة كذا.. وهي مدينة على بعد ٢٠٠كم من الرياض..

قلت: صحيح..

قال: سآتي إليك هناك.. وأقابلك بعد المحاضرة..

تعجبت من حرصه..

وفعلاً.. خرجت بعد المحاضرة فخرج الرجل ورائي مسرعًا حافي القدمين.. يحمل ورقة صغيرة في يده.. وقفت معه جانبًا..

قلت: تفضل شكر الله حرصك.. ما حاجتك؟

قال: يا شيخ.. عندي أخ يحمل الشهادة الابتدائية.. وأريدك أن تدبر له وظيفة..

قلت: بس؟!!

قال: بس؟!!

كان الرجل متحمسًا.. ومنظره يثير الشفقة.. ويبدو أن أخاه يمر بظروف صعبة فعلاً..

أيقنت أني لو وعدته سأخلف.. فنحن في زمن لا يكاد حامل البكالوريوس أن يجد وظيفة.. فضلاً عن حامل الابتدائية.. وأن أعرف حدود قدراتي..

كان الموقف محرجًا بالنسبة إليَّ.. وتمنيت لو كان لي من الأمر شيء لأعين ذا الحاجة الملهوف.. لكني – فعلاً – لا أملك له شيئًا..

أردت أن أعتذر بأسلوب عاطفي يناسب حاله وحماسه..

قلت: يا أخي.. والله أتمنى أن أساعدك.. وأخوك أخي.. وأنا أتألم له كما تتألم.. لكني لا أستطيع مساعدتك أبدًا.. أتمنى أن تتكرم علي وتعفيني..

قال: يا شيخ.. حاول..

قلت: لا أقدر..

فناولني الورقة التي في يده.. وقال: طيب.. يا شيخ خذه هذه الورقة فيها أرقام هواتفنا.. إذا وجدت له وظيفة فاتصل بنا..

أدركت أنه يريد أن يربطني بحبل أمل.. وسيظل ينتظر الاتصال.. ويبقي الآمال ويتمنى.. ويمني أخاه..

فقلت: بل دع الورقة معك.. وخذ رقمي أنت.. وإن وجدت أنت له وظيفة فاتصل بي.. لعلي أن أكتب لك شفاعة للمسئول فيها لقبوله..

سكت الرجل قليلاً..

انتظرت أن يودعني..

لكني تفاجأت أنه قال لي: بيض الله وجهك!! والله يا شيخ.. سبق أن كلمت الأمير.. في موضوع أخي منذ سنة.. فأخذ الورقة.. ولم يتصل بي إلى الآن..

ومرة كلمت اللواء.. .. فأخذ الورقة أيضًا.. ولم يتصل ولم يهتم.. هؤلاء أناس ما يهتمون بالضعفاء.. الله ينتقم منهم.. الله..

وبدأ يدعو عليهم.. فقلت في نفسي.. الحمد لله.. لو أخذت الورقة لصرت ثالثهم..

نعم.. الاعتذار في البداية خير من إخلاف الوعد.. ما أجمل أن نكون صرحاء مع الآخرين.. عارفين لحدود قدراتنا..

وهذا ليس خاصًا فقط بحاجات الناس بل حتى الحاجات الصغيرة للزوجة والأولاد..

أحيانًا عند خروجك من البيت.. تصرخ بك زوجتك.. أحضر معك حليبًا.. وسكرًا.. وحفائظ.. وعشاء..

فانتبه.. لا تردد: طيب.. طيب.. وأنت تعلم أنك لا تستطيع.. وإنما اصرخ بها أنت أيضًا وقل: ما أقدر.. !! فهي خير من الاعتذار عند العودة.. ضاق وقتي.. أقفلت المحلات.. نسيت..

وكذلك مع زملائك.. وإخوانك..

أرجو أن تكون الفكرة وصلت..

تجربة..

الاعتذار في البداية.. خير من الاعتذار في النهاية..

من ركل القطة؟!

قبل أن تجيب عن السؤال.. اسمع القصة كاملة:

كان يعمل سكرتيرًا لمدير سيء الأخلاق.. لا يطبق مهارة واحدة من مهارات التعامل مع الناس..

كان هذا المدير يراكم الأعمال على نفسه.. ويحملها ما لا تطيق..

صاح بسكرتيره يومًا.. فدخل ووقف بين يديه..

قال: نعم.. تفضل؟

صرخ به: اتصلت بهاتف مكتبك.. ولم ترد..

قال: كنت في المكتب المجاور.. آسف..

قال بضجر: كل مرة آسف.. آسف.. خذ هذه الأوراق.. ناولها لرئيس قسم الصيانة.. وعد بسرعة..

مضى السكرتير متضجرًا.. وألقاها على مكتب رئيس قسم الصيانة.. وقال: لا تؤخرها علينا..

تضايق الرجل من أسلوب السكرتير وقال: طيب ضعها بأسلوب مناسب..

قال: مناسب.. غير مناسب.. المهم خلصها بسرعة..

تشاتما.. حتى ارتفعت أصواتهما.. ومضى السكرتير إلى مكتبه.. بعد ساعتين أقبل أحد الموظفين الصغار في الصيانة.. إلى رئيسه وقال: سأذهب لأخذ أولادي من المدرسة وأعود .

صرخ الرئيس: وأنت كل يوم تخرج..

قال: هذا حالي من عشر سنوات.. أول مرة تعترض عليّ..

قال: أنت ما يصلح معك إلا العين الحمراء.. ارجع لمكتبك..

مضى المسكين إلى مكتبه متحيرًا من هذا الأسلوب.. وصار يجري الاتصالات يبحث عمن يوصل أولاده من المدرسة للبيت.. حتى طال وقوفهم في الشمس.. وتولى أحد المدرسين إيصالهم..

عاد هذا الموظف إلى بيته غاضبًا.. فأقبل إليه ولده الصغير معه لعبة.. وقال: بابا.. هذه أعطانيها المدرس لأنني..

صاح به الأب: اذهب لأمك.. ودفعه بيده..

مضى الطفل باكيًا يمشي إلى أمه.. فأقبلت إليه قطته الجميلة تتمسح برجليه كالعادة.. فركلها الطفل برجله فضربت بالجدار..

السؤال: من ركل القطة؟

أظنك.. تبتسم.. وتقول: المدير.

صحيح المدير.. لأنه ضغط نفسه حتى انفجر..

لماذا لا نتعلم فنَّ توزيع الأدوار..

والأشياء التي لا نقدر عليها نقول بكل شجاعة.. هذه ليست في أيدينا.. لا نقدر.. خاصة أنك إذا ضغطت نفسك فإن تصرفاتك قد يتعدى ضررها إلى أقوام لم يكونوا طرفًا في المشكلة أصلاً..

وانتبه أن يستثيرك الآخرون.. ويحرجوك فتضطر لإعطاء وعود.. قد لا تستطيع تنفيذها..

انتقل معي إن شئت إلى المدينة.. وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد جلس في مجلسه المبارك.. بعدما انتشر الدين.. ووحد رب العالمين.. جعل رؤساء القبائل يأتون إليه مذعنين مؤمنين.. ومنهم من كانوا يأتون صاغرين حاقدين..

وفي يوم أقبل رئيس من رؤساء العرب.. له في قومه مُلك ومنعة..

أقبل عامر بن الطفيل.. وكان قومه يقولون له لما رأوا انتشار الإسلام: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم..

وكان متكبرًا متغطرسًا.. فكان يقول لهم: والله لقد كنت أقسمت ألا أموت حتى تملِكني العرب عليهم وتتبع عقبي.. فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!!

ثم لما رأى تمكن الإسلام.. وانصياع الناس لرسول الله ﷺ..

ركب ناقته مع بعض أصحابه ومضى إلى رسول الله ﷺ..

دخل المسجد على رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه الكرام.. فلما وقف بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا محمد خالني.. أي قف معي على انفراد..

وكان ﷺ حذرًا من أمثال هؤلاء.. فقال: «لا والله حتى تؤمن بالله وحده..»

فقال: يا محمد خالني..

فأبى النبي ﷺ..

فلا زال يكرر: يا محمد قم معي أكلمك.. يا محمد قم معي أكلمك..

حتى قام معه رسول الله ﷺ..

فاجتر عامر إليه أحد أصحابه اسمه إربد وكان قد اتفق معه على قتل رسول الله ﷺ..

وقال: إني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاضربه بالسيف..

فجعل إربد يده على سيفه واستعد..

فانفرد الاثنان إلى الجدار.. ووقف معهما رسول الله ﷺ يكلم عامرًا.. وقبض إربد بيده على السيف..

فكلما أراد أن يسله يبست يده.. فلم يستطع سل السيف..

وجعل عامر يشاغل رسول الله ﷺ.. وينظر إلى إربد.. وإربد جامد لا يتحرك..

فالتفت ﷺ فرأى إربد وما يصنع..

فقال: «يا عامر بن الطفيل.. أسلم..»

فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟

فقال ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم..»

قال عامر: أتجعل لي الملك من بعدك إن أسلمت؟

لم يشأ النبي ﷺ أن يعد عامرًا بوعد قد لا يتحقق.. فكان صريحًا جريئًا معه..

وقال: «ليس ذلك لك ولا لقومك..»

فخفف عامر الطلب قليلاً..

وقال: أسلم على أن لي الوبر ولك المدر.. أي أكون ملكًا على البادية وأنت على الحاضرة..

فإذا به ﷺ .. أيضًا لا يريد أن يلزم نفسه بوعود.. لا يدري تتحقق أم لا..

فقال: «لا..» عندها غضب عامر وتغير وجهه.. وصاح بأعلى صوته: والله يا محمد.. لأملأنها عليك خيلاً جردًا.. ورجالاً مردًا.. ولأربطن بكل نخلة فرسًا.. ولأغزونك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء..

ثم خرج يزبد ويرعد..

فجعل ﷺ ينظر إليه.. ثم رفع ﷺ بصره إلى السماء وقال:

«اللهم اكفني عامرًا.. واهد قومه..»

خرج عامر مع أصحابه حتى إذا فارق المدينة متوجهًا إلى ديار قومه عازمًا على تجهيز جيش لغزو المدينة..

تعب من المسير.. وظهر عليه الإرهاق واحتاج إلى مكان يرتاح فيه.. فصادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية وكانت في خيمة لها.. وكانت امرأة فاجرة.. يذمها الناس ويتهمون من دخل بيتها بالفجور والسوء..

فلم يجد مأوى آخر.. فنزل عن فرسه مضطرًا ونام في بيتها.. فأخذته غُدّة وانتفاخ في حلقه كما يظهر في أعناق الإبل فيقتلها.. ففزع واضطرب.. وجعل يتلمس الورم ويقول: غدة كغدة البعير.. وموت في بيت سلولية!!

أي: لا موت يشرف.. ولا مكان يشرف..

كان يتمنى أن يموت في ساحة قتال.. بسيوف الأبطال.. فإذا به يموت بمرض حيوانات.. في بيت فاجرة!!

تبًا.. للذل والمهانة..

فأخذ يصيح بأصحابه: قربوا فرسي..

فقربوه.. فوثب على فرسه.. وأخذ رمحه.. وصار يجول به الفرس.. وهو يصيح من شدة الألم.. ويتحسس عنقه بيده ويقول: غدة كغدة البعير.. وموت في بيت سلولية..

فلم تزل تلك حاله يدور به فرسه.. حتى سقط عن فرسه ميتًا..

تركه أصحابه.. ورجعوا إلى قومهم..

فلما دخلوا ديارهم.. أقبل الناس إلى إربد يسألونه: ما وراءك يا إربد؟

فقال: لا شيء.. والله لقد دعانا محمد إلى عبادة شيء.. لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله سبحان الله.. تعالى الله.. ما أجرأه على الله!!

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له ليبيعه.. فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما..

وأنزل الله عز وجل في حال عامر وأربد: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ٨: ١٤]..

نعم.. لا تلتزم إلا بما تثق أنه يمكنك الوفاء به.. بعون الله..

قام ﷺ مرة خطيبًا في الناس.. فتكلم عن الآخرة وأحوالها.. ثم رفع صوته قائلاً: «يا فاطمة بنت محمد.. سليني من مالي ما شئت.. فإني لا أغني عنك من الله شيئًا..»

وأخيرًا.. مع التأكيد على أهمية عدم الالتزام بالشيء إلا وأنت قادر عليه.. إلا أنه ينبغي عند الاعتذار أن نستعمل أسلوبًا ذكيًّا..

فمثلاً: جاء إليك رجل لتبحث لأخيه عن وظيفة.. لأن أباك مسؤول كبير.. أو أخاك.. أو أنت.. ووجدت أنك لا تستطيع خدمته..

فاعتذر بأسلوب يحفظ ماء وجهه ويجعله يشعر أنك تشاركه الهم.. قل – مثلاً: يا فلان.. أنا أشعر بمعاناتك.. وأخوك أعتبره أخي.. ولئن كان إخواني خمسة فهو السادس.. لكن المشكلة أنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا الآن.. فاعذرني.. وأسأل الله أن يوفق أخاك..

مع ابتسامة لطيفة.. وتعبيرات وجه مناسبة..

فكأنك بهذا الرد الجميل قضيت له ما يريد.. أليس كذلك..؟

كن صريحًا مع نفسك.. جريئًا مع الناس..
واعرف قدراتك والتزم بحدودها..

التواضع..

كنت في مجلس فيه عدد من الوجهاء..

فتحدث أحد من رآه استغنى! وقال في أثناء حديثه:

ومررت بأحد العمال.. فمد يده ليصافحني.. فترددت ثم مددت يدي وصافحته..

ثم قال بشيء من الغرور: مع أني لا أعطي يدي لأي أحد!!

ما شاء الله يقول: لا أعطي يدي لأي أحد..

أما رسول الله ﷺ.. فكانت الأمة المملوكة الضعيفة.. تلقاه في وسط الطريق.. فتشتكي إليه من ظلم أهلها.. أو كثرة شغلها.. فينطلق معها إلى أهلها ليشفع لها.. وكان يقول:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».. كم سمعنا الناس يرددون: يا أخي.. فلان متكبر.. فلان «شايف نفسه».. ويبغضونه بسبب هذا الخلق ويذمونه..

وتسأله: لماذا لم تستعن بجارك في كذا؟

فيقول: فلان متكبر علينا.. ما يعطينا وجه!!

آآآه كم هم مبغوضون أولئك الذين يتكبرون على الناس.. ويعاملونهم باستعلاء.. كم هو منبوذ.. ذاك الذي يطغى أن رآه استغنى..

ذاك الذي يصعر خده للناس ويمشي في الأرض مرحًا..

ذاك الذي يتكبر على العمال.. والخدام.. والفقراء..

يتكبر عن محادثتهم.. ومصافحتهم.. ومجالستهم..

لما دخل ﷺ مكة فاتحًا.. جعل يمر بطرقات مكة..

التي طالما أوذي فيها.. واستهزئ به..

كم سمع في طرقاتها.. يا مجنون.. ساحر.. كاهن.. كذاب..

وهو اليوم يدخلها قائدًا عزيزًا.. ممكنًا.. قد أذل الله أهلها بين يديه..

فكيف كان شعوره وهو داخل؟

قال عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى «ذي طوى».. وقف على راحلته معتجرًا بقطعة بُرد حمراء.. وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله.. حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.. حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمس واسطة الرحل..

وقال أنس رضي الله عنه:

دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعًا..

وقال ابن مسعود: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فكلمه في شيء.. فأخذته الرعدة..

فقال ﷺ: هون عليك.. فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد «اللحم المجفف»..

وكان ﷺ يقول: «أجلس كما يجلس العبد.. وآكل كما يأكل العبد..» نعم..

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

من تواضع لله رفعه.. وما زاد الله عبدًا بالتواضع إلى عزًا..

العبادة الخفية ..

قبل عشر سنوات.. في أيام ربيع.. وفي ليلة باردة كنت في البر مع أصدقاء..

تعطلت إحدى السيارات.. فاضطررنا إلى المبيت في العراء.. أذكر أنا أشعلنا نارًا تحلقنا حولها..

وما أجمل أحاديث الشتاء في دفء النار..

طال مجلسنا فلاحظت أحد الإخوة انسل من بيننا..

كان رجلاً صالحًا..

كانت له عبادات خفية.. كنت أراه يتوجه إلى صلاة الجمعة مبكرًا.. بل أحيانًا وباب الجامع لم يفتح بعد.. !!

قام وأخذ إناءً من ماء.. ظننت أنه ذهب ليقضي حاجته..

أبطأ علينا..

فقمت أترقبه..

فرأيته بعيدًا عنا.. قد لف جسده برداء من شدة البرد وهو ساجد على التراب.. في ظلمة الليل.. وحده..

يتملق ربه ويتحبب إليه.. كان واضحًا أنه يحب الله تعالى.. وأحسب أن الله يحبه أيضًا..

أيقنت أن لهذه العبادة الخفية.. عزًّا في الدنيا قبل الآخرة..

مضت السنوات..

وأعرفه اليوم.. قد وضع الله له القبول في الأرض.. له مشاركات في الدعوة.. وهداية الناس..

إذا مشى في السوق أو المسجد.. رأيت الصغار قبل الكبار يتسابقون إليه.. مصافحين.. ومحبين..

كم يتمنى الكثيرون من تجار.. وأمراء.. ومشهورين.. أن ينالوا في قلوب الناس من المحبة مثل ما نال.. ولكن هيهاات..

أأبيت سهران الدجى..وتبيته نومًا! وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي؟

نعم.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾.. أي: يجعل الله لهم محبة في قلوب الخلق..

إذا أحبك الله جعل لك القبول في الأرض..

قال ﷺ: إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل.. فقال: إني قد أحببت فلانًا فأحبه..

فيحبه جبريل..

ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه.. فيحبه أهل السماء..

قال: ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض..

فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾..

وإذا أبغض الله عبدًا.. نادى جبريل: إني أبغضت فلانًا فأبغضه..

فيبغضه جبريل..

ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضه..

فيبغضه أهل السماء.. ثم تنزل له البغضاء في الأرض[٧٨]..

آآآه.. ما أجمل أن تعيش على الأرض.. تأكل وتشرب.. وتنام.. والله ينادي باسمك في السماء (إني أحب فلانًا فأحبوه)..

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: من استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل..

والعبادة الخفية أنواع.. منها:

الحفاظ على صلاة الليل.. ولو ركعة واحدة وترًا كل ليلة.. تصليها بعد العشاء مباشرة.. أو قبل أن تنام.. أو قبل الفجر.. لتكتب عند الله من قوام الليل..

قال ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر.. فأوتروا يا أهل القرآن..»

ومنها:

السعي في الإصلاح بين الناس.. بين الزملاء المتخاصمين..

بين الجيران.. بين الزوجين..

---

(٧٨) رواه البخاري ومسلم، واللفظ له.

قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟».

قالوا: بلى..

قال: إصلاح ذات البين.. وفساد ذات البين هي الحالقة[٧٩].

ومنها:

الإكثار من ذكر الله.. فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره..

وفي الحديث.. قال ﷺ «ألا أنبئكم بخير أعمالكم.. وأزكاها عند مليككم.. وأرفعها في درجاتكم.. وخير لكم من إعطاء الذهب والورق.. وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم..؟

قالوا: بلى.. وما ذاك يا رسول الله؟

قال: ذكر الله عز وجل[٨٠]»..

ومنها: صدقة السر.. فصدقة السر تطفئ غضب الرب..

كان أبو بكر ﷺ إذا صلى الفجر خرج إلى الصحراء.. فاحتبس فيها شيئًا يسيرًا.. ثم عاد إلى المدينة..

فعجب عمر ﷺ من خروجه.. فتبعه يومًا خفية بعدما صلى الفجر.. فإذا أبو بكر يخرج من المدينة ويأتي على خيمة قديمة في الصحراء.. فاختبأ له عمر خلف صخرة..

فلبث أبو بكر في الخيمة شيئًا يسيرًا..

ثم خرج..

فخرج عمر من وراء صخرته ودخل الخيمة.. فإذا فيها امرأة ضعيفة عمياء.. وعندها صبية صغار..

فسألها عمر: من هذا الذي يأتيكم..

فقالت: لا أعرفه.. هذا رجل من المسلمين.. يأتينا كل صباح.. منذ كذا وكذا..

قال: فماذا يفعل؟

---

(٧٩) رواه أحمد وغيره (صحيح).

(٨٠) رواه أحمد والترمذي وغيرهما (صحيح).

قالت: يكنس بيتنا ويعجن عجيننا.. ويحلب داجننا.. ثم يخرج..

فخرج عمر وهو يقول: لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر.. لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر..

ولم يكن عمر رضي الله عنه بعيدًا في تعبده وإخلاصه عن أبي بكر..

فقد رآه طلحة بن عبيد الله خرج في سواد الليل.. فدخل بيتًا ثم خرج منه ودخل بيتًا آخر.. فعجب طلحة.. ماذا يفعل عمر في هذه البيوت؟!

فلما أصبح طلحة ذهب إلى البيت الأول.. فإذا عجوز عمياء مقعدة.. فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟

قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا.. يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى..

فخرج طلحة وهو يقول: ثكلتك أمك يا طلحة.. أعثرات عمر تتبع؟

وخرج عمر مرة رضي الله عنه إلى ضواحي المدينة.. فإذا برجل عابر سبيل نازل وسط الطريق.. وقد نصب خيمة قديمة.. وقعد عند بابها.. مضطرب الحال..

فسأله عمر: من الرجل؟

قال: من أهل البادية.. جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله..

فسمع عمر أنين امرأة داخل الخيمة.. فسأله عنه؟

فقال الرجل: انطلق رحمك الله لحاجتك..

قال عمر: هذا من حاجتي..

فقال: امرأتي في الطلق – يعني تلد – وليس عندي مال ولا طعام ولا أحد..

فرجع عمر إلى بيته سريعًا..

فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنها وعن أبيها: هل لك في خير ساقه الله إليك؟

قالت: وما ذاك؟!

فأخبرها بخبر الرجل..

فحملت امرأته معها متاعًا.. وحمل هو جرابًا فيه طعام.. وقدرًا وحطبًا.. ومضى إلى الرجل..

ودخلت امرأة عمر على المرأة في خيمتها.. وقعد هو عند الرجل..

فأشعل النار.. وأخذ ينفخ الحطب.. ويصنع الطعام.. والدخان يتخلل لحيته..

والرجل قاعد ينظر إليه.. فبينما هو على ذلك.. إذ صاحت امرأته من داخل الخيمة.. يا أمير المؤمنين.. بشر صاحبك بغلام..

فلما سمع الرجل.. كلمة «أمير المؤمنين».. فزع وقال: أنت الخليفة عمر بن الخطاب..

قال: نعم..

فاضطرب الرجل.. وجعل يتنحى عن عمر..

فقال له عمر: ابق مكانك..

ثم حمل عمر القدر.. وقربه إلى الخيمة وصاح بامرأته أم كلثوم.. أشبعيها.. فأكلت المرأة من الطعام..

ثم أخرجت باقي الطعام خارج الخيمة.. فقام عمر فأخذه فوضعه بين يدي الرجل.. وقال له: كل.. فإنك قد سهرت من الليل..

ثم نادى عمر امرأته فخرجت إليه..

فقال للرجل: إذا كان من الغد.. فائتنا نأمر لك بما يصلحك..

فرحم الله عمر.. تواضع.. وعبادة خفية.. والغاية كسب محبة الله..

وكان علي بن الحسين ﵄.. يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل.. فيتصدق بها.. ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب..

فلما مات وجدوا في ظهره آثار سواد..

فقالوا: هذا ظهر حمّال.. وما علمناه اشتغل حمالاً..

فانقطع الطعام عن مائة بيت في المدينة.. من بيوت الأرامل والأيتام.. كان يأتيهم طعامهم بالليل..

لا يدرون من يحضره إليهم.. فعلموا أنه هو الذي كان يحمل الطعام إلى بيوتهم بالليل وينفق عليهم.

وصام أحد السلف عشرين سنة.. يصوم يومًا ويفطر يومًا.. وأهله لا يدرون عنه..

كان له دكان يخرج إليه إذا طلعت الشمس ويأخذ معه فطوره وغداءه..

فإذا كان يوم صومه تصدق بالطعام..

وإذا كان يوم فطره أكله..

فإذا غربت الشمس.. رجع إلى أهله وتعشى معهم..

نعم.. كانوا يستشعرون العبودية لله في جميع أحوالهم..

هم المتقون.. والله يقول:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾..

فاطلب محبة الخالق.. وهو يتكفل بزرع محبتك في قلوب خلقه..

إضاءة..

ليس الغاية أن تكون ظواهر الآخرين تحبك..

إنما الغاية أن تحبك بواطنهم أيضًا..

أخرجهم من الحفرة..

ألم يقع مرة أن أحرجك شخص في مجلس عام بكلمة جارحة..

أو ربما سخر منك.. بأي شيء وإن كان صغيرًا.. بلباسك أو كلامك.. أو أسلوبك . فظهر الإحراج على وجهك.. وامتقع لونك..

فدافع عنك شخص ما.. فشعرت بامتنان عظيم له.. لأنه كأنما أمسك بطرف ثوبك عندما دفعك غيرك إلى هاوية..

مارس هذه المهارة مع الآخرين.. وسترى لها تأثيرًا ساحرًا..

لو دخلت على شخص وأقبل ولده يحمل طبقًا فيه طعام.. لكنه استعجل قليلاً.. فكاد أن يقع الطبق على الأرض.. فانطلق الأب عليه ثائرًا.. يصرخ به قائلاً: لماذا العجلة؟ كم مرة أعلمك؟..

فاحمرَّ وجه الولد واصفرَّ..

فقلت أنت: لا.. بل فلان بطل.. رجل.. ما شاء الله عليه يحمل كل هذا لوحده.. ولعله استعجل لأن فيه أغراض أخرى أيضًا..

الله أي امتنان سيشعر به الغلام لك..

هذا مع الصغار.. فما بالك مع الكبار..

لو أثنيت على زميل في اجتماع.. بعدما صبوا عليه وابلاً من اللوم..

أو أثنيت على أحد إخوانك.. بعدما انكب أفراد الأسرة عليه معاتبين..

شاب أحرجه شخص بسؤال أمام الناس: بشر يا فلان.. كم نسبتك في الجامعة؟!

بالله عليك.. هل هذا سؤال يسأله عاقل أمام الناس؟!!

فانقلب وجه الشاب متلونًا..

فأنقذته قائلاً بلطف: لماذا يا أبا فلان تسأله عن نتيجته في الجامعة؟ هل ستزوجه؟!! أو عندك وظيفة له؟ أو.. فضحكوا ونُسي السؤال..

أو: لو عاتبه على دنو معدله الدراسي.. فقلت: يا أخي لا تلمه.. تخصصه صعب..

لكن سيكون أفضل في الفصل القادم إن شاء الله..

كسب محبة الناس فرص يقتنصها الأذكياء..

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.. يمشي مع النبي ﷺ.. فمرا بشجرة فأمره النبي أن يصعدها ويحتز له عودًا يتسوك به..

فرقي ابن مسعود وكان خفيفًا.. نحيل الجسم.. فأخذ يعالج العود لقطعه..

فأتت الريح فحركت ثوبه وكشفت ساقيه.. فإذا هما ساقان دقيقتان صغيرتان.. فضحك القوم من دقة ساقيه..

فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟!..

من دقة ساقيه؟!

والذي نفسي بيده إنهما أثقل في الميزان من أحد[٨١]..»

فماذا سيكون شعور عبد الله بن مسعود.. بعدما ضحك الناس منه.. ثم دافع عنه النبي ﷺ وأثنى عليه..

وجهة نظر..

كسب محبة الناس فرص يقتنصها الأذكياء..

(٨١) رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما (صحيح).

الاهتمام بالمظهر..

كان أبو حنيفة جالسًا يومًا بين طلابه في المسجد يدرس..

وكان به ألم في ركبته وقد مد رجله.. واتكأ على جدار..

في هذه الأثناء.. أقبل رجل عليه لباس حسن.. وعمامة حسنة.. ومظهر مهيب..

كان وقورًا في مشيته.. جليلاً في خطوته..

أفسح له الطلاب حتى جلس بجانب أبي حنيفة..

فلما رأى أبو حنيفة مظهره.. ورزانته.. ورتابة هيئته.. استحى من طريقة جلسته وثنى رجله.. وتحمل ألم ركبته لأجله..

استمر أبو حنيفة في درسه والرجل يسمع..

فلما انتهى من الدرس.. بدأ الطلاب يسألون..

فرفع ذلك الرجل يده ليسأل..

التفت إليه الشيخ.. وقال: ما سؤالك؟

فقال: يا شيخ.. متى وقت صلاة المغرب؟

قال: إذا غربت الشمس.. !!

قال: وإذا جاء الليل والشمس لم تغرب.. فماذا نفعل؟!

فقال أبو حنيفة: آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه..

ومد رجله كما كانت..

وسكت عن هذا السؤال المتناقض!!.. إذ كيف يأتي الليل والشمس لم تغرب؟!!

يقولون إن النظرة الأولى إليك تكوّن في ذهن المقابل أكثر من ٧٠٪ من تصوره عنك..

ويبدوا أنه عند التأمل ستجد أن النظرة الأولى تكون أكثر من ٩٥٪ عنك.. حتى تتكلم.. أو تعرّف نفسك فتزيد النسبة عند ذلك أو تقل..

ولو مشيت في ممر في مستشفى أو شركة وبجانبك شخص عليه ثياب حسنة..

وعليه وقار في مشيته.. لرأيت أنك - ربما لا شعوريًا - إذا وصلت إلى باب في الممر التفت إليه وقلت له: تفضل.. طال عمرك!!

ولو ركبت سيارة أحد أصدقائك فرأيتها فوضى..

هنا فردة حذاء مرمي..

وهنا ورق شاورما..

وهنا منديل..

وأشرطة كاسيت متناثرة..

لكونت فكرة عن الشخص مباشرة أنه فوضوي.. غير مبال بالترتيب..

وكذلك في لباس الناس.. ومظهرهم العام..

والذي أعنيه هنا هو الاهتمام بالمظهر لا الإسراف في اللباس.. أو السيارة.. أو الأثاث.. أو غيرها..

كان رسول الله ﷺ يعتني بهذه النواحي كثيرًا..

فكان له حلة حسنة يلبسها في العيدين والجمعة..

وكانت له حلة يلبسها في استقبال الوفود.. كان يعتني بمظهره ورائحته.. وكان يحب الطيب..

قال أنس رضي الله عنه:

كان رسول الله ﷺ.. أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ.. إذا مشا تكفأ..

وما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ..

ولا شممت مسكًا ولا عنبرًا أطيب من رائحة النبي ﷺ..

وكانت يده مطيبة كأنما أخرجت من جؤنة عطار..

وكان ﷺ.. يعرف بريح الطيب إذا أقبل..

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ لا يرد الطيب ..

وكان ﷺ أحسن الناس وجهًا.. كان وجهه مستنيرًا كالشمس..

وكان إذا سُر استنار وجهه.. حتى كأن وجهه قطعة قمر..

قال جابر بن سمرة:

رأيت رسول الله ﷺ في ليلة مضيئة مقمرة.. فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ

والى القمر.. وعليه ﷺ حلة حمراء.. فإذا هو عندي أجمل من القمر..

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر المسلمين بمراعاة المظهر..

عن أبي الأحوص عن أبيه رضي الله عنه.. قال: أتيت النبي ﷺ وعليَ ثوب دون (أي رديء)..

فقال ﷺ: «ألك مال؟»

قلت: نعم..

قال: من أي المال؟

قلت: من الإبل والبقر والخيل والرقيق..

فقال ﷺ: «فإذا آتاك الله مالاً.. فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته..»

وقال ﷺ: «من أنعم الله عليه نعمة.. فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

أتانا رسول الله ﷺ.. زائرًا في منزلنا فرأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره.. فقال: «أما كان يجد هذا ما يُسكن به شعره؟»

ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة فقال: «أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟»..

وقال: (من كان له شعر فليكرمه)..

وكان يحرص على حسن السمت.. وجمال الشكل.. واللباس.. وطيب الرائحة..

وكان يردد في الناس قائلاً: «إن الله جميل يحب الجمال»[٨٢]..

تجربة..

النظرة الأولى إليك تطبع في ذهن المقابل ٧٠٪ من تصوره عنك..

---

(٨٢) رواه مسلم.

الصدق..

أذكر أني كنت أراقب على الطلاب يومًا في قاعة الامتحان.. وكان الامتحان يوم خميس..

ومع أن يوم الخميس هو إجازة أصلاً إلا أننا اضطررنا أن نجعل فيه امتحانًا لزحمة المواد الدراسية..

بعد مضي بضع دقائق من بداية الامتحان.. أقبل أحد الطلاب متأخرًا.. كان المسكين يبدو عليه الاضطراب الشديد..

قلت له: عفوًا.. أتيت متأخرًا ولن أسمح لك بدخول الامتحان.. فبدأ يرجوني أن أسمح له..

قلت: ما الذي أخرك؟!

قال: والله يا دكتور.. راحت علي نومة!!

أعجبني صدقه.. وقلت: تفضل.. فدخل وامتحن..

بعده بدقائق أقبل طالب آخر..

قلت: ما أخرك؟

قال: يا دكتور والله الطريق زحمة..

تعرف أن الناس في الصباح يخرجون جميعًا لأعمالهم..

هذا ذاهب لجامعته..

وهذا لشركته..

وهذا..

وجعل يعدد عليَّ ليقنعني أن الطريق زحمة.. ونسي المسكين أن اليوم إجازة للموظفين.. وربما ليس في الطرق إلا طلابنا!!

قلت له: يعني الشوارع زحمة.. والسيارات تملأ الطرق؟

قال: إي والله يا دكتور.. سبحان الله.. كأنك كنت معي!!

قلت: يا شاطر!! إذا أردت أن تكذب فاضبط الكذبة.. يا أخي اليوم خمييس.. يعني عطلة.. ما فيه أعمال.. ولا موظفون.. من أين جاءت الزحمة؟!!

قال:آه يا دكتور.. نسيت.. «بنشر علي الكفر».. أي تعطلت إحدى إطارات السيارة.. فوقفت لإصلاحها.. !!

كان المسكين مضطربًا متورطًا.. فضحكت ودخل ليمتحن.. نعم..

ما أقبح أن يكتشف الناس أنك تكذب عليهم..

الكذب ينفر الناس عنك.. ويفقدك المصداقية عندهم.. ويجعلهم لا يثقون فيك..

فلو وقعت لأحدهم مشكلة.. لن يشكوها إليك.. ولو تكلمت بشيء لن يسمعوه بتقبل..

ما أقبح الكذب..

قال ﷺ: يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب(٨٣).

وسئل ﷺ.. فقيل له: يا رسول الله.. أيكون المؤمن جبانًا؟

فقال: نعم..

فقيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟

فقال: نعم..

فقيل: أيكون المؤمن كذابًا؟

فقال: «لا»(٨٤).

وقال عبد الله بن عامر رضي الله عنه:

دعتني أمي يومًا.. ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا..

فقالت: ها.. تعال أعطيك..

فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟»

قالت: أعطيه تمرًا..

فقال لها: «أما إنك لو لم تعطي شيئًا.. كتبت عليك كذبة»(٨٥).

وكان ﷺ إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة.. لم يزل معرضًا عنه..

---

(٨٣)رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

(٨٤)مالك في الموطأ وهو مرسل.

(٨٥)رواه أبو داود (حسن).

في كثير من الأحيان يندفع بعض الناس إلى الكذب.. لأجل إظهار أنفسهم بصورة أكبر من الحقيقة..

فتجده يكذب في بطولات يؤلفها..

ومواقف يخترعها..

أو يزيد في القصص.. ليملحها..

أو يدعي أشياء عنده.. وهو كاذب.. فيتشبع بما لم يعط..

أو تجد الكذاب يعد ويُخلف..

أو يتورط بأمور.. فيختلق أعذارًا متنوعة.. وسرعان ما يكتشف الناس كذبه فيها..

وقف الإمام الزهري أمام السلطان.. فشهد على شيء..

فقال السلطان: كذبت..

فصاح الزهري: أعوذ بالله.. أنا أكذب!! والله لو نادى منادٍ من السماء: إن الله أحلّ الكذب.. لما كذبت.. فكيف وهو حرام!!

حقيقة . .

خدعوك فقالوا: كذبة بيضاء.. لأن الكذب لونه أسود..

الشجاعة

قال لي بعدما خرجنا من الوليمة:

تصدق كنت أعرف اسم الصحابي الذي ذكرتم قصته.. ولم تتذكروا اسمه..

قلت: عجبًا!! لماذا لم تذكره!.. وقد رأيتنا متحيرين؟!

خفض رأسه وقال: خجلت أن أتكلم..

قلت في نفسي: تبًّا للجُبن..

وآخر كان يدرس معي في السنة الأخيرة من الثانوية..

التقيت به يومًا في ذلك الحين فقال لي:

قبل يومين دخلت الفصل.. فرأيت الطلاب واجمين.. والمدرس جالس على كرسيه.. بدون شرح..

جلست وسألت الذي بجانبي: ما الخبر؟!

قال: زميلنا عساف مات البارحة.. رحمه الله..

كان في الفصل عدد من أصدقاء عساف..

تاركون للصلاة..

والغون في عدد من المحرمات..

كان تأثير الخبر عليهم واضحًا.. حدثتني نفسي أن ألقي عليهم كلمة وعظية أحثهم فيها على الصلاة.. وبر الوالدين.. وإصلاح النفس..

قلت له: ممتااااز.. هل فعلت؟

قال: بصراحة.. لا.. خجلت..

سكتُّ.. وكظمت غيظي وأنا أقول في نفسي: تبًّا للجُبن؟!!

امرأة تسألها: لماذا لم تصارحي زوجك بالموضوع؟

فتقول: أستحي!! خفت أن يتضايق مني!! خفت أن يهجرني.. خفت..

تبًّا للجبن!

شاب تسأله: لم لم تخبر أباك بالمشكلة قبل أن تتفاقم؟!

فيقول: أخاف.. ما أتجرأ.. أو ربما رفع أحدهم ضغطك بقوله: أستحي أن أبتسم.. أخجل أن أثني عليه.. أخاف أن يقول الناس: فلان يجامل.. يستخف دمه..

أسمع هذه التصرفات كثيرًا.. فأتمنى أن أصرخ فيهم: يا جبنا!!!ء.. إلى متى؟!

الجبان لا يبني مجدًا.. هو صفر على الشمال دائمًا.. إن حضر مجلسًا تلحف بجبنه ولم يشارك برأي.. أو ينطق بكلمة..

وإن ذكروا نكتة ضحكوا وعلقوا.. أما هو فخفض رأسه وتبسم..

وإن حضر اجتماعًا.. لم ينتبه أحد لوجوده..

والأعظم من ذلك إن كان أبًا.. أو زوجًا.. أو مديرًا.. أو حتى زوجة أو أمًّا..

الناس يكرهون الجبان.. وليس له قدر.. فعود نفسك على الشجاعة في الإلقاء.. الشجاعة في النصح..

الشجاعة في تطبيق مهارات التعامل مع الناس..

وجهة نظر..

عود نفسك ودربها.. وإنما النصر: صبر ساعة..

الثبات على المبادئ..

كلما كانت شخصية الشخص أقوى.. وثباته على مبادئه أشد.. كان أهم في الحياة..

أحيانًا يكون من مبادئك عدمُ أخذ الرشوة.. مهما ملحوا أسماءها.. بقشيش.. هدية.. عمولة.. فاثبت على مبدئك..

زوجة يكون من مبادئها.. عدمُ الكذب على زوجها.. مهما زينوه لها.. تمشية حال.. كذب أبيض.. فلتثبت على مبادئها..

من المبادئ..

عدم تكوين علاقات محرمة مع الجنس الآخر..

عدم شرب الخمر..

شخص لا يدخن.. جلس مع أصحابه.. ليثبت على مبادئه..

الشخص الثابت على مبادئه وإن انتقده أصحابه أحيانًا.. واتهموه بعدم المرونة.. إلا أن مشاعرهم الداخلية تؤمن أنها أمام بطل..

فتجد أن أكثرهم يلجأ إليه عند الشدائد.. أو ليستشيره في مشاكله الشخصية.. ويشعر بأهميته أكثر من غيره..

وليس هذا خاصًا بأحد الجنسين دون الآخر.. بل الرجال والنساء في ذلك سواء.. فاثبت على مبادئك ولا تقدم تنازلات.. عندها سيرضخ الناس لها..

لما ظهر الإسلام في الناس جعلت القبائل تفد إلى رسول الله ﷺ..

فجاء وفد قبيلة ثقيف وكانوا بضعة عشر رجلاً.. فلما قدموا أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد ليسمعوا القرآن..

فسألوه: عن الربا والزنا والخمر؟

فأخبرهم أن ذلك كله حرام..

وكان لهم صنم ورثوا عبادته وتعظيمه عن آبائهم.. اسمه «الربة».. ويصفونه بـ«الطاغية»..

وينسجون حوله القصص والحكايات للدلالة على قوته.. فسألوه عن «الربة» ما هو صانع بها؟

فقال ﷺ دون تردد: «اهدموها».. ففزعوا.. وقالوا: هيهات.. لو تعلم الربة أنك تريد أن تهدمها.. قتلت أهلها!!

وكان عمر رضي الله عنه حاضرًا.. فعجب من خوفهم من هدم صنم.. فقال: ويحكم يا معشر ثقيف!! ما أجهلكم!! إنما الربة حجر!! لا يضر ولا ينفع..

فغضبوا.. وقالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب..

فسكت عمر..

فقالوا: نشترط أن تدع لنا الطاغية ثلاث سنين.. ثم تهدمه بعدها إن شئت..

فرأى النبي ﷺ أنهم يساومونه على أمر في العقيدة!! وهي أعظم مبدأ في حياة المسلم.. والتوحيد هو أصل الإسلام.. فما دام أنهم سيسلمون.. فما الداعي للتعلق بالصنم.. !!

فقال ﷺ: «لا»..

قالوا: فدعه سنتين.. ثم اهدمه..

قال: «لا»..

قالوا: فدعه سنة واحدة..

قال: «لا»..

قالوا: فدعه شهرًا واحدًا!!

قال: «لا»..

فلما رأوا أنه لم يستجب لهم في ذلك.. علموا أن المسألة مسألة شرك وإيمان.. لا مجال فيها للمفاوضة!!

قالوا: يا رسول الله.. فتولّ أنت هدمها.. أما نحن فإنا لن نهدمها أبدًا..

فقال ﷺ: «سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها..»

فقالوا: والصلاة.. لا نريد أن نصلي.. فإننا نأنف أن تعلو إست الرجل رأسه!!

يعني: لا يرضون لشدة تكبرهم أن تكون مؤخرة أحدهم وقت السجود أعلى من رأسه!!

فقال ﷺ: «أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك..

وأما الصلاة.. فلا خير في دين لا صلاة فيه.. !!»

فقالوا: سنؤتيكها.. وإن كانت دناءة..

فكاتبوه على ذلك..

وذهبوا إلى قومهم.. ودعوهم إلى الإسلام.. فأسلموا على مضض..

ثم قدم عليهم رجال من أصحاب رسول الله ﷺ لهدم الصنم.. فيهم خالد بن الوليد.. والمغيرة بن شعبة الثقفي..

فتوجه الصحابة إلى الصنم..

ففزعت ثقيف.. وخرج الرجال والنساء والصبيان.. وجعلوا يرقبون الصنم.. وقد وقع في قلوبهم أنه لن ينهدم.. وأن الصنم سيمنع نفسه..

فقام المغيرة بن شعبة.. فأخذ الفأس.. والتفت إلى الصحابة الذين معه وقال: والله لأضحكنكم من ثقيف!!

ثم أقبل المغيرة بن شعبة إلى الصنم.. فضرب الصنم بالفأس.. ثم سقط على الأرض وجعل يرفس برجله..

فصاحت ثقيف.. وارتجوا.. وفرحوا.. وقالوا: أبعد الله المغيرة.. قتلته الربة.. ثم التفتوا إلى بقية الصحابة وقالوا: من شاء منكم فليقترب..

عندها قام المغيرة ضاحكًا..

وقال: ويحكم يا معشر ثقيف.. إنما هي لُكاع (أي: مزحة).. وهذا صنم.. حجارة ومدر.. فاقبلوا عافية الله واعبدوه..

ثم أقبل يهدم الصنم.. والناس معه.. فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا.. حتى سووها بالأرض..

وحي..

«من طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس،

ومن طلب رضاالله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»

صدق رسول الله ﷺ

إغراءات

قرأت أن شابًا مسلمًا في بريطانيا.. اطلع على إعلان لإحدى الشركات حول حاجتها إلى موظفين يعملون في الحراسات..

أقبل إلى اللجنة المختصة بمقابلة المتقدمين.. فإذا جمع كبير من الشباب.. ما بين مسلمين وغير مسلمين..

وكانوا يدخلون إلى لجنة المقابلة واحدًا تلو الآخر..

كلما خرج شخص من المقابلة سأله الواقفون..

عن ماذا سألوك؟

وبماذا أجبت؟

وكان من أهم أسئلة اللجنة لكل متقدم: كم كأسًا تشرب من الخمر يوميًا؟!

جاء دور صاحبنا.. فدخل.. وتتابعت عليه الأسئلة.. حتى سألوه: كم تشرب من الخمر؟

فتردد الشاب.. هل يكذب ويدعي أنه يشرب الخمر كبقية الشباب.. لئلا يقولوا: أنت مسلم متشدد.. أم يصدق ويقول: أنا مسلم والله قد حرم علي الخمر.. فأنا لا أشربها.. بعد تفكير سريع.. عزم على الصدق..

فقال: أنا لا أشرب الخمر..

قالوا: لماذا!! هل أنت مريض؟!

قال: لا.. لكني مسلم.. والخمر حرام..

قالوا: يعني: لا تشربها حتى في عطلة آخر الأسبوع؟!!

قال: نعم.. لا أشربها أبدًا..

فنظر بعضهم إلى بعض متعجبين..

فلما ظهرت النتائج.. فإذا اسمه في أوائل المقبولين..

بدأ عمله معهم.. ومضى عليه أشهر..

وفي يوم لقي أحد المسئولين في تلك المقابلة وسأله: لماذا كنتم تكررون السؤال عن الخمر؟!

فقال: لأن الوظيفة المطلوبة هي في الحراسات.. وكلما توظف فيها شاب.. فوجئنا به يشرب الخمر ويسكر.. فيضيع مكانه.. ويهجم على الشركة من يسرقها..

فلما وجدناك لا تشرب الخمر عرفنا أننا وقعنا على مبتغانا.. فوظفناك هنا!!

ما أجمل الثبات على المبادئ وإن كثرت الإغراءات..

المشكلة أننا نعيش في مجتمعات قل أن تجد فيها من يتمسك بمبادئه..

يعيش من أجلها ويموت من أجلها.. ويثبت على الالتزام بها.. وإن كثرت الإغراءات..

إذا مشيت على المنهج الصحيح.. والتزمت بالصراط المستقيم.. فأصحاب المبادئ الأخرى لن يتركوك..

فعدم قبولك للرشوة يغضب زملاءك المرتشين..

وامتناعك عن الزنا.. يغضب الفاعلين!!

ذُكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس ليلة من الليالي.. يراقب وينظر.. فمر بأحد البيوت في ظلمة الليل.. فسمع فيه أصوات ضحك وعبث وكأنها أصوات رجال سكارى..

فكره أن يطرق عليهم الباب ليلاً.. وخشي أن يكون ظنه خاطئًا.. وأراد أن يتثبت من الأمر..

فتناول كسرة فحم من على الأرض.. ووضع بها علامة على الباب.. ومضى..

سمع صاحب الدار صوتًا عند الباب.. فخرج.. فرأى العلامة.. ورأى ظهر عمر موليًا.. ففهم القصة..

فكان الأصل أن يمسح العلامة وينتهي الأمر.. لكن الرجل لم يفعل ذلك..!!

وإنما أخذ كسرة الفحم وأقبل إلى بيوت جيرانه.. وجعل يرسم على أبوابها علامات!!

وكأنه يريد أن ينزل الناس إلى مستواه.. ليكونوا سكارى مثله.. ولا يريد أن يرتفع إلى مستواهم.. !!

وفي المثل: ودّت الزانية لو أن النساء كلهن زنين..

من التجارب في حياتنا..

أن تجد زوجة كثيرة الكذب على زوجها..

تربت على ذلك..

وتعودت عليه.. فإذا رأت من تنكر عليها.. وتنصحها بالصدق.. حاولت أن تجرها إلى مستنقعها.. فكررت عليها: الرجال ما يصلح معهم إلا كذا.. ما تمشي أمورك معه إلا بالكذب.. فلا تزال بها حتى تتنازل عن مبادئها وتتغير..

أو ربما تثبت.. ولعلها..

وقل مثل ذلك في مسئول حسن الخلق مع موظفيه.. ويرى أن هذا مما يفيد العمل.. ويورث الراحة في قلوبهم.. ويزيد الإنتاج..

فيلقاه مسئول سيء الخلق.. مبغوض من قبل موظفيه.. فيحسده — ربما — أو يريد أن يقنعه بأسلوب آخر في التعامل.. فيقول له:

لا تفعل كذا.. وافعل كذا.. ولا تبتسم.. ولا..

أو صاحب بقالة لا يبيع السجائر.. فيأتيه صاحب له وينصحه يبيع السجائر ليزيد كسبه.. ويوسوس عليه ليقنعه بذلك..

فكن بطلاً واثبت على مبادئك.. وقل بأعلى صوتك: لا!!!!.. مهما أغروك..

وقديمًا حاول الكفار مع رسول الله ﷺ أن يتنازل عن مبادئه.. فقال الله له: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾..

يعني: أن الكفار عباد الأصنام لا مبادئ عندهم أصلاً ليحافظوا عليها.. وبالتالي لا مانع عندهم من التنازل عن مبادئهم..

فانتبه أن يغروك بترك مبادئك..

منهج..

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾

العفو عن الآخرين..

لا تخلو الحياة من عثرات تصيبنا من الناس..

فهذه مزحة ثقيلة.. وتلك كلمة نابية..

وتعد على حاجات شخصية.. خصومة بين اثنين في مجلس..

أو اختلاف في وجهات نظر.. أو آراء..

وبعضنا يكبر الموضوع في نفسه.. وليس عنده استعداد للعفو أو النسيان..

أو ربما يتكبر عن قبول أعذار الآخرين والعفو عنهم..

بعض الناس يعذب نفسه بعدم عفوه.. يملأ صدره بأحقاد تشغله وتعذبه..
ولله در الحسد ما أعدله.. بدأ بصاحبه فقتله..

فلا تعذب نفسك.. هناك أشياء لا يمكن أن تعاقب عليها.. فكن كبيرًا..

انس الماضي.. وعش حياتك..

لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا..

واطمأن الناس.. خرج حتى جاء الكعبة فطاف بها سبعًا على راحلته..

فلما قضى طوافه.. دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة.. ففتحت له فدخلها.. فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم مما كانت قريش تصوره بجهلها وكفرها..

ورأى إبراهيم عليه السلام مصورًا في يده الأزلام يستقسم بها.. فقال ﷺ: «قاتلهم الله.. جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام!! ما شأن إبراهيم والأزلام؟!

ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين..» ثم أمر ﷺ بتلك الصور كلها فطمست..

ثم وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده.. ثم طرحها..

ثم وقف على باب الكعبة.. وقد اجتمع له كل الناس في المسجد من المسلمين والكفار ينظرون إليه..

ثم صلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم.. فاطلع فيها.. ودعا بماء فشرب منها وتوضأ.. والناس يبتدرون بقايا الماء الذي تبقى من أثر وضوئه..

والمشركون يتعجبون من ذلك.. ويقولون: ما رأينا ملكًا قط ولا سمعنا به مثل هذا..

ثم أقبل إلى مقام إبراهيم فأخره عن الكعبة.. وكان ملصقًا بها..

ثم قام ﷺ على باب الكعبة وجعل ينظر إلى الناس – ويا ليتني كنتم معهم – ثم خطب فقال: «لا إله إلا الله.. وحده لا شريك له..

صدق وعده.. ونصر عبده.. وهزم الأحزاب وحده..

ألا كل مأثرة.. أو دم.. أو مال يُدّعى.. فهو موضوع تحت قدمي هاتين.. إلا سدانة البيت.. وسقاية الحاج..»

ثم جعل يقرر بعض الأحكام الشرعية فقال: «ألا وقتيل الخطإ شبه العمد بالسوط والعصا.. ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل.. أربعون منها في بطونها أولادها..» ومضى في خطبة مباركة..

ثم نظر – فدته روحي – إلى رؤوس قريش وساداتها.. فصاح بهم:

«يا معشر قريش.. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية.. وتعظمها بالآباء.. الناس من آدم.. وآدم من تراب».. ثم تلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾..

ثم جعل يتأمل في وجوه الكفار.. وهو في قمة عزه وملكه عند باب الكعبة.. وهم في غاية ذلهم وضعفهم..

في مكان طالما كذبوه فيه.. وأهانوه.. وألقوا الأوساخ على رأسه وهو ساجد..

وكفار قريش اليوم بين يديه.. مهزومين.. أذلاء.. صاغرين..

ثم قال: «يا معشر قريش.. ما ترون أني فاعل فيكم؟»

فانتفضوا.. وقالوا: تفعل بنا خيرًا.. أنت أخ كريم.. وابن أخ كريم..

عجبًا!!

هل نسوا ما كانوا يفعلونه بهذا الأخ الكريم!!

أين سبكم: مجنون.. ساحر.. كاهن؟!

ما دام أخًا كريمًا.. وأبوه أخ كريم!! فلماذا حاربتموه؟!
أين تعذيبكم للمسلمين الضعفاء..
هذا بلال واقف.. وآثار التعذيب لا تزال في ظهره..
وتلك نخلة قريبة قتلت عندها سمية.. وزوجها ياسر..
وهذا ابنهما عمار مع المسلمين يشهد..
اليوم تقولون: أخ كريم؟!

أين حبسكم لهذا النبي الكريم مع المسلمين الضعفاء.. ثلاث سنين في شعب بني عامر.. حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع..؟!!

ما رحمتم بكاء الصغير.. ولا أنين الشيخ الكبير.. ولا حاملاً ولا مرضعًا!!

أين حربكم له في بدر.. وأحد.. وتحزبكم عليه في الخندق؟ واليوم.. هو أخ كريم!!

أين منعكم له من دخول مكة معتمرًا.. لما جاءكم قبل سنين.. وتركتموه محبوسًا في الحديبية.. ممنوعًا من دخول مكة؟

أين صدكم لعمه أبي طالب عن الإسلام وهو على فراش الموت؟
أين..؟
أين..؟

شريط طويييييل من الذكريات المؤلمة يمر أمام ناظريه ﷺ .. وهو ينظر إلى وجوه كفار قريش بين يديه.. ويقلب طرفه في فجاج الحرم.. وربما امتد بصره إلى جبال مكة حول الحرم.. أو إلى شوارعها وطرقاتها.. ليس هو فقط.. بل تمر هذه الذكريات أمام ناظري أبي بكر وعمر..

وعثمان وعلي..
وبلال وعمار..
فكل واحد من هؤلاء.. له مع قريش قصة حزينة..

كان ﷺ يستطيع أن ينزل بهم أقسى أنواع العقوبة.. فهم أعداء محاربون.. معتدون.. خونة..

نعم خونة.. خانوا صلح الحديبية.. واعتدوا..

كانوا مجرمين.. متحيرين.. لا يدرون ماذا سيفعل بهم..

فإذا بهﷺ يدوس على الأحقاد.. ويحلق بهمته عاليًا.. ويقول كلمة يهتف بها التاريخ: «اذهبوا.. فأنتم الطلقاء..»

فينطلقون.. مستبشرين.. تكاد أرجلهم تطير من الفرح..

أحقًا عفا عنا؟!!

ثم يتلفتﷺ ينظر حول الكعبة.. فإذا ثلثمائة وستون صنمًا.. تعبد من دون الله.. عند بيته المعظم.. !!

فجعلﷺ يضربها بيده الكريمة.. فتهوي.. وهو يقول:

«جاء الحق.. وزهق الباطل.. جاء الحق.. وما يبدئ الباطل وما يعيد..»

عدد من كفار قريش العتاة.. البغاة.. الذين لهم تاريخ أسود مع المسلمين.. فروا من مكة قبل دخول النبيﷺ وأصحابه إليها..

منهم صفوان بن أمية.. فإنه فر منها هاربًا.. وقد تحير أين يذهب؟! فمضى إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن..

فلما رأى الناس عفو رسول اللهﷺ .. ونسيانه للماضي الأليم..

جاء عمير بن وهب إلى رسول اللهﷺ فقال: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه.. وقد خرج هاربًا منك.. ليقذف نفسه في البحر.. فأمنه صلى الله عليك..

فقالﷺ بكل بساطة: «هو آمن..»

قال عمير: يا رسول الله.. فأعطني آية يعرف بها أمانك..

فأعطاه رسول اللهﷺ عمامته التي دخل فيها مكة.. حتى إذا رآها صفوان عرفها فوثق في صدق عمير..

خرج بها عمير حتى أدركه.. وهو يريد أن يركب في البحر..

فقال: يا صفوان.. فداك أبي وأمي.. الله.. الله في نفسك أن تهلكها.. فهذا أمان من رسول اللهﷺ قد جئتك به..

فقال صفوان: ويحك.. اغرب عني فلا تكلمني.. فإنك كذاب..

وكان خائفًا من مغبة ما كان فعله بالمسلمين..

فصاح به عمير قال: أي صفوان.. فداك أبي وأمي.. رسول الله..

أفضل الناس..

وأبر الناس..

وأحلم الناس..

وخير الناس..

وهو ابن عمك.. عزه عزك.. وشرفه شرفك.. وملكه ملكك..

قال صفوان: إني أخافه على نفسي..

قال عمير: هو أحلم من ذاك وأكرم..

فرجع صفوان معه.. حتى وصلا إلى مكة.. فمضى به عمير حتى وقف به على رسول الله ﷺ.. فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني..

قال ﷺ: «صدق..»

قال صفوان: أما دخولي في الإسلام.. فاجعلني بالخيار فيه شهرين.. أي: سأبقى في مكة على ديني عبادة الأصنام شهرين.. أفكر خلالها هل أدخل في الإسلام أم لا..

فقال ﷺ: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر..»

ثم أسلم صفوان بعد ذلك.. رضي الله عنه..

ما أجمل العفو عن الناس.. ونسيان الماضي الأليم..

هذا خلق بلا شك لا يستطيعه إلا العظماء.. الذين يترفعون بأخلاقهم عن سفالة الانتقام.. والحقد.. وشفاء الغيظ..

فالحياة قصيرة.. على كل حال.. نعم هي أقصر من أن ندنسها بحقد وضغينة..

حتى في الحاجات الخاصة.. كان ﷺ هينًا لينًا..

قال المقداد بن الأسود رضي الله عنه:

قدمت المدينة أنا وصاحبان لي.. فتعرضنا للناس فلم يضفنا أحد.. فأتينا إلى النبي ﷺ.. فذكرنا له.. فأضافنا في منزل له وعنده أربع أعنز..

فقال ﷺ: «احلبهن يا مقداد.. وجزئهن أربعة أجزاء.. وأعط كل إنسان

جزءًا..»

قال المقداد: فكنت أفعل ذلك..

كان المقداد كل مساء.. يحلب فيشرب هو وصاحباه.. ويبقى جزء النبي عليه الصلاة والسلام.. فإن كان موجودًا شربه.. وإن كان غائبًا حفظوه له حتى يرجع..

وفي ليلة من الليالي.. حلب المقداد الأعنز كما يفعل كل ليلة.. وقسم الحليب أربعة أجزاء.. فشرب هو وصاحباه ثلاثة أجزاء.. وأبقوا جزءًا للنبي ﷺ ليشربه عند عودته..

تأخر النبي ﷺ في المجيء إليهم.. واضطجع المقداد على فراشه.. فقال في نفسه: إن النبي ﷺ.. قد أتى أهل بيت من الأنصار.. فأطعموه.. فلو قمت فشربت هذه الشربة.. فلم تزل به نفسه حتى قام فشربها.. ولم يبق للنبي ﷺ شيئًا..

قال المقداد: فلما دخل في بطني وتقار.. أخذني ما قدُم وما حدث.. وندمتُ..

فقلت: يجيء الآن النبي ﷺ جائعًا.. ظمآن.. فلا يرى في القدح شيئًا.. فيدعو عليَّ.. فسجيت ثوبًا على وجهي.. يعني: من الهم..

فلما مضى بعض الليل.. جاء النبي ﷺ..

فسلم تسليمة تسمع اليقظان.. ولا توقظ النائم.. والمقداد على فراشه.. ينظر إليه..

فأقبل ﷺ إلى إنائه.. فكشف عنه فلم ير شيئًا.. فرفع بصره إلى السماء..

ففزع المقداد.. وقال: الآن يدعو عليَّ.. فتسمع ماذا يقول: فإذا به ﷺ.. يدعو قائلاً: «اللهم اسق من سقاني.. وأطعم من أطعمني..»

فلما سمع المقداد ذلك.. قال في نفسه: أغتنم دعوة النبي عليه الصلاة والسلام.. قام فأخذ الشفرة السكين.. فدنا إلى الأعنز.. ليذبح إحداها.. ليطعم النبي ﷺ.. فجعل يلمسهن ويجسهن ينظر أيتهن أسمن ليذبحها..

فوقعت يده على ضرع إحداهن فإذا هي حافل.. مليئة باللبن.. ونظر إلى الأخرى فإذا هي حافل.. فنظر فإذا هي كلهن حُفل.. فحلب في إناء كبير.. فملأه حتى علت رغوته.. ثم أتى به النبي ﷺ.. فقال: اشرب يا رسول الله..

فلما رأى رسول الله ﷺ كثرة اللبن.. قال: «أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد؟»

فقال: اشرب يا رسول الله..

فقال: «ما الخبر يا مقداد؟»

قال: اشرب ثم الخبر..

فشرب النبي ﷺ ثم ناول القدح للمقداد..

فقال المقداد: اشرب يا رسول الله..

فشرب ثم ناوله القدح..

قال: اشرب يا رسول الله..

قال المقداد: فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روي.. وأصابتني دعوته لما قال: «اللهم أطعم من أطعمني واسق من سقاني..» ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض..

فقال رسول الله: «إحدى سوآتك يا مقداد!»

فقلت: يا رسول الله.. إنك قد أبطأت علينا الليلة.. وكنت جائعًا فقلت في نفسي: لعل رسول الله ﷺ قد تعشى عند بعض الأنصار..

وقص عليه القصة كلها.. وكيف أن الأعنز حلبت في ليلة واحدة مرتين.. على غير العادة!!

فتعجب النبي ﷺ كيف تمتلئ أضرع الأعنز حليبًا بهذه السرعة!! فهي لا يمكن أن تُحلب مرتين في ليلة واحدة!!

فقال: «ما كانت هذه إلا رحمة الله.. ألا كنت آذنتني – أي: أخبرتني قبل أن أشرب – لتوقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها..»

فقال المقداد: والذي بعثك بالحق ما أبالي – أي: ما أهتم – إذا أصبت الرحمة أنت.. وأصبتها معك من أصابها بعدنا من الناس..

وجهة نظر..

الحياة أخذ وعطاء..

فاجعل عطاءك أكثر من أخذك..

الكرم..

قال لهم: «من سيدكم؟»

قالوا: سيدنا فلان.. على أننا نبخله..

فقال: «وأي داء أدوأ من البخل؟!! بل سيدكم الأبيض الجعد فلان..»

هكذا جرى النقاش بين إحدى القبائل وبين رسول الله ﷺ لما أسلموا فسألهم عن سيدهم ليُقِرّه عليهم بعد إسلامهم أو يغيره..

نعم وأي داء أدوأ من البخل..

ما أقبح البخل وما أعرض الناس عنه.. وما أثقله عليهم..

مساكين البخلاء.. تجد أحدهم لا يكاد يقيم في بيته وليمة لأصحابه يتحبب بها إليهم..

ولا يكاد يهدي هدية..

ولا يكاد يعتني بجمال مظهره..

ولا يهتم بزكاء رائحته.. توفيرًا للمال.. ورضًا بالدون..

أما الكريم فهو مفضال على أصحابه..

قريب من أحبابه..

إن اشتاقوا للاجتماع والأنس ففي بيته..

وإن نقص على أحدهم شيء تفضل عليه به..

فيأسر نفوسهم بكرمه..

ويستعبد قلوبهم بإحسانه..

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

وينبغي عند إكرام غيرك أن تكون نيتك حسنة.. للتآلف مع إخوانك المسلمين..

وكسب مودتهم.. والتقرب إلى الله بالإحسان إليهم..

لا لأجل شهرة أو رئاسة أو كسب مديحهم وثنائهم..

قال ﷺ: «أول من تسعر بهم النار ثلاثة..» وذكر منهم رجلاً كان ينفق ليُقال جواد أي: كريم.. فلم يعمل ابتغاء وجه الخالق وإنما ابتغى وجه المخلوق.. رياء وسمعة.. وإليك الحديث كاملاً:

قال سفيان: دخلت المدينة.. فإذا أنا برجل قد اجتمع الناس عليه..

فقلت: من هذا؟

قالوا: أبو هريرة..

فدنوت منه حتى قعدت بين يديه.. وهو يحدث الناس..

فلما سكت وخلا.. قلت: أنشدك الله.. بحق وحق.. لما حدثتني حديثا سمعته من رسول الله ﷺ .. وعلمته..

فقال أبو هريرة: أفعلُ.. لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ .. عقلته وعلمته..

ثم نشغ أبو هريرة نشغة (شهق).. فمكث قليلاً.. ثم أفاق..

فقال: لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ .. وأنا وهو في هذا البيت.. ليس فيه أحد غيري وغيره.. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى.. فمكث بذلك.. ثم أفاق.. ومسح وجهه..

فقال: أفعل.. لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ .. وأنا وهو في هذا البيت.. ليس فيه أحد غيري وغيره..

ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى.. ثم مال خارًا على وجهه.. وأسندته طويلاً.. ثم أفاق..

فقال: حدثني رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة.. نزل إلى العباد ليقضي بينهم.. وكل أمة جاثية..

فأول من يدعو به:

رجل جمع القرآن..

ورجل يقتل في سبيل الله..

ورجل كثير المال..

فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟

قال: بلى يا رب..

قال: فماذا عملت فيما علمت.

قال: كنت أقول به آناء الليل وآناء النهار..

فيقول الله له: كذبت..

وتقول الملائكة له: كذبت..

فيقول الله عز وجل: أردت أن يقال: فلان قارئ..

فقد قيل.. (أي: حصلت جزاءك في الدنيا لأنك مراء بأعمالك تريد ثناء الناس وقد أخذته لأن الناس أثنوا عليك وقالوا: فلان قارئ)..

ويؤتى بصاحب المال فيقول: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟

قال: بلى..

قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟

قال: كنت أصل الرحم.. وأتصدق..

فيقول الله: كذبت..

وتقول الملائكة: كذبت..

ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد..

فقد قيل ذلك..

ويؤتى بالرجل الذي قتل في سبيل الله..

فيقال له: فيم قتلت؟

فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك.. فقاتلتُ حتى قُتلت..

فيقول الله: كذبت..

وتقول الملائكة له: كذبت..

ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء.. فقد قيل ذلك..»

قال أبو هريرة رضي الله عنه: ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة.. أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[86]..

---

(٨٦) رواه الترمذي والحاكم، وهو صحيح.

فإذا أحسنت النية في كرمك فأبشر بالخير..

وأولى من تحسن إليهم ليحبوك ويكرموك.. أهل بيتك.. الأم.. الأب.. الزوجة.. الأولاد..

ثم الأقرب فالأقرب..

ابدأ بنفسك ثم بمن تعول..

وكفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول..

ولا بد من التفريق بين الكرم والإسراف..

مشى رجل في شارع قديم فمر ببيت متهالك.. فإذا فتاة صغيرة قد جلست على عتبة الباب بثياب رثة.. وهيئة فقيرة..

فسألها: من أنت؟

قالت: أنا ابنة حاتم الطائي..

فقال: عجبًا!! ابنة حاتم الطائي الكريم الجواد.. على هذا الحال؟!!

فقالت: كرمُ أبي صيرنا إلى ما ترى!!

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾..

فالكريم ممدوح.. لكن المسرف مذموم.. لذا نهاك الله عن القبض والبسط.. وأمرك بالاعتدال.. أمسك العصا من النصف..

ولا تك فيها مفرطًا أو مُفَرّطًا ‌‌ ‌ ‌ كلا طرفي قصد الأمور ذميم

كان رسول الله ﷺ أكرم الناس.. ولم يكن جشعًا ينظر في مصلحة نفسه ولا يلتفت إلى غيره.. كلا..

قال أبو هريرة رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع.. وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع..

ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه من المسجد.. فمر أبو بكر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني – أي: ليقول لي: اتبعني إلى بيتي -.. فلم يفعل..

ثم مر عمر.. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فمر

فلم يفعل..

كان الصحابة في جوع وحاجة شديدة.. فكان إذا جاء لأحدهم ضيف.. ربما لم يجد له ما يطعمه..

ثم مر بي أبو القاسم ﷺ.. فتبسم حين رآني.. وعرف ما في وجهي وما في نفسي..

ثم قال: «أبا هر..»

قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «الحق..»

ومضى.. فاتبعته.. فدخل بيته.. فاستأذن.. فأذن لي.. فدخلت..

فوجد لبنًا في قدح.. فقال: «من أين هذا اللبن؟»

قالوا: أهداه لك فلان.. أو فلانة..

قال: «أبا هر..» قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «الحق أهل الصفة.. فادعهم لي..»

وأهل الصفة أضياف الإسلام.. فهم قوم يدخلون في الإسلام.. ويتركون ديارهم ويسكنون المدينة.. في المسجد.. لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال..

فكان النبي ﷺ يعطف عليهم.. فإذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا.. وإذا أتته هدية أرسل إليهم.. وأصاب منها وأشركهم فيها..

فساءني ذلك..

وقلت في نفسي: وما هذا اللبن في أهل الصفة!!

كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها.. فإذا جاؤوا.. أمرني.. فكنت أنا أعطيهم.. وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن..

ولم يكن من طاعة الله.. وطاعة رسوله بدّ..

فأتيتهم.. فدعوتهم.. فأقبلوا.. فأذن لهم.. وأخذوا مجالسهم من البيت..

فقال ﷺ: «يا أبا هر..»

قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «خذ.. فأعطهم..»

فأخذت القدح..

فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى.. ثم يرد عليّ القدح..

فأعطيه الآخر.. فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح..

فأعطيه الآخر.. فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح..

حتى انتهيت إلى النبي ﷺ.. وقد روي القوم كلهم..

فأخذ القدح فوضعه على يده.. فنظر إليّ فتبسم..

فقال: «أبا هر..»

قلت: لبيك يا رسول الله..

قال: «بقيت أنا وأنت؟»

قلت: صدقت يا رسول الله..

قال: «اقعد فاشرب..»

فقعدت فشربت..

فقال: «اشرب..» فشربت..

فما زال يقول: «اشرب..» حتى قلت: لا.. والذي بعثك بالحق.. ما أجد له مسلكًا..

قال: «فأرني..» فأعطيته القدح.. فحمد الله وسمى.. وشرب الفضلة[٨٧]..

وللكرم أسرار..

أحيانًا لا تتكرم على الشخص مباشرة.. وإنما تتكرم على من يحبهم.. فيحبك..

زارني أحد الأصدقاء يومًا.. وكان يحمل كيسًا فيه عدد من الحلويات والألعاب.. أظنها لم تكلفه بضعة ريالات.. ناولني إياها وقال: هذا للأولاد.. فرح بها الصغار.. وفرحت بها أنا لأنه أشعرني أنه يحب إدخال السرور على أولادي..

كان أحد السلف عالمًا.. لكنه كان فقيرًا..

فكان طلابه يهدون إليه بين فترة وأخرى أنواعًا من الهدايا.. تمر.. دقيق..

وكان الطالب إذا أهدى إليه.. لم يزل الشيخ مكرمًا له مقبلاً عليه ما دامت

(٨٧) رواه البخاري.

هديته باقية.. فإذا انتهت.. رجع إلى طبعه الأول..

فكر أحد طلابه بهدية يحملها إلى الشيخ.. تكون معقولة الثمن.. وتطول مدة بقائها.. فأهدى إليه كيس ملح..

فالملح ثمنه قليل.. ويطول بقاؤه في البيت لأنه لا يُستعمل منه إلا الشيء اليسير.. فقد يكفي الكيس الواحد لمدة سنة أو سنتين..

ولو استشرتني في هديتين ستهدي إحداهما إلى صديق.. أولاهما زجاجة عطر رائع.. ثمين.. أو ساعة حائطية تكتب عليها إهداءً باسمه.. لاخترت الساعة.. لأنها يطول بقاؤها.. ويراها دائمًا.. وربما يكون ثمنها أقل..

أذكر أن أحد طلابي أهديته ساعة حائطية فيها إهداء باسمه..

تخرج من الكلية.. ومرت السنين..

ثم زرت إحدى المدن لإلقاء محاضرة فتفاجأت به يحضر المحاضرة ويدعوني إلى بيته..

فلما دخلت مجلس الضيوف فإذا به يشير إلى الساعة المعلقة على الحائط.. ويقول: هذه أغلى هدية عندي..

وقد مر على تخرجه سبع سنين..

بقي أن تعلم أن هذه الساعة لم تكلف إلا شيئًا يسيرًا.. لكن قيمتها المعنوية أعلى وأكبر..

وجهة نظر..

كسب قلوب الناس فرص قد لا تتكرر

كف الأذى..

كان الناس يبغضونه.. ما يكاد أحد يسلم من أذاه..

إن سلمت من يده فلن تسلم من لسانه.. وإن فاته أن يجلدك بسوط لسانه في حضرتك فلن يفوته أن يجلدك في غيبتك..

فعلاً.. كان رجلاً مكروهًا.. أثقل على الناس من صُمّ الجبال الراسيات..

وإذا تأملت أحوال الناس فسوف تصل إلى يقين بأنه لا يؤذي غالبًا إلا من كان عنده نعمة تفوق من يقابله..

فالقوي يتجرأ على إيذاء الضعيف.. يدفعه بيده.. أو يركله برجله.. يضرب ويحقر.. فيصير أسدًا عليه لكنه في الحروب نعامة!!

والغني يتعدى على الفقير.. فيهينه في المجالس.. يقاطعه في كلامه..

أما صاحب المنصب والجاه.. فله حظ كبير من ذلك..

وقل مثل ذلك فيمن جعل الله نسبه رفيعًا..

وهؤلاء في الحقيقة.. إضافة إلى بغض الناس لهم.. وتمنيهم زوال عزهم.. وفرحهم بمصائبهم.. هم أيضًا مفلسون..

وانظر إلى رسول الله ﷺ.. وقد جلس مع أصحابه يومًا..

فقال لهم: «أتدرون من المفلس؟»

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..

فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة.. وصيام.. وزكاة..

ويأتي وقد شتم هذا.. وقذف هذا.. وأكل مال هذا.. وسفك دم هذا.. وضرب هذا..

فيعطى هذا من حسناته.. وهذا من حسناته.. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه.. أخذ من خطاياهم فطرحت عليه.. ثم طرح في النار[٨٨]..»

لذا كان يتجنب ﷺ أذى الناس بشتى أشكاله..

---

(٨٨) رواه مسلم.

قالت عائشة رضي الله عنها:

ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده.. ولا امرأة.. ولا خادمًا.. إلا أن يجاهد في سبيل الله..

وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه.. إلا أن ينتهك شيء من محارم الله.. فينتقم لله عز وجل(٨٩) ..

وعمومًا.. من استعمل هذه النعم لأذى الناس أبغضوه.. وقد يبتليه الله في دنياه قبل أخراه.. فيشفي صدورهم..

أذكر أن أحد الأصدقاء من طلبة العلم وحفظة القرآن.. كان رجلاً صالحًا.. يأتيه بعض الناس أحيانًا يقرأ عليهم شيئًا من القرآن كرقية شرعية.. وقد شفى الله تعالى على يده من شاء..

دخل عليه يومًا من الأيام رجل تبدو عليه علامات الثراء..

جلس بين يدي الشيخ وقال: يا شيخ.. أنا عندي آلام في يدي اليسرى تكاد تقتلني.. لا أنام في ليل.. ولا أرتاح في نهار..

ذهبت إلى عدد كبير من الأطباء.. أجروا لي الفحوصات.. عملوا تمارين.. فما وجدت فائدة أبدًا.. الألم يزيد ويشتد حتى انقلبت حياتي عذابًا..

يا شيخ.. أنا تاجر وعندي عدد من المؤسسات والشركات.. فأخشى أن أكون أصبت بعين حاسدة.. أو وضع لي أحد الأشرار سحرًا..

قال الشيخ:

قرأت عليه سورة الفاتحة.. وآية الكرسي.. وسورة الإخلاص والمعوذتين..

لم يظهر عليه تأثر!!

خرج من عندي شاكرًا.. رجع إليّ بعد أيام يشكو الألم نفسه..

قرأت عليه.. ذهب ورجع.. وقرأت عليه.. لم يظهر عليه أي تحسن..

قلت له لما اشتد عليه الألم:

قد يكون ما أصابك هو عقوبة على شيء فعلته.. من ظلم أحد الضعفاء.. أو أكل حقوقهم..

---

(٨٩) رواه مسلم.

أو ظلمت أحدًا في ماله فمنعته حقه.. أو غير ذلك.. فإن كان هناك شيء من ذلك فسارع إلى التوبة مما جنيت.. وأعد الحقوق إلى أهلها.. واستغفر الله مما مضى..

التاجر لم يرق له كلامي.. وقال – بكبر -: أبدًا.. ما ظلمت أحدًا.. ولم أعتدِ على شيء من حقوق الناس.. وأشكرك على نصيحتك..

وخرج.. مرت أيام وغاب الرجل عني.. خشيت أن يكون وجد عليَّ في نفسه.. ولكن لا عليَّ فهي نصيحة أسديتها إليه..

تفاجأت به يومًا في مكان ما.. لقيني فأقبل إليَّ مسلمًا مسرورًا..

سألته: هاه.. ما الأخبار؟

قال: الحمد لله.. الآن يدي بخير.. بغير طب ولا علاج!!

قلت: كيف؟

قال: لما خرجت من عندك.. جعلت أفكر في نصيحتك.. وأستعيد شريط ذكرياتي في ذهني.. وأفكر!!

ترى هل ظلمت أحدًا؟!

هل أكلت حق أحد؟!

فتذكرت أني قبل سنوات لما كنت أبني قصري.. كان بجانبه أرض رغبت في ضمها إليه ليكون أجمل.. كانت الأرض ملكًا لامرأة أرملة توفي زوجها وخلف أيتامًا..

أردتها أن تبيع الأرض فأبت.. وقالت: وماذا أفعل بقيمة الأرض.. بل تبقى لهؤلاء الأيتام حتى يكبروا.. أخشى أن أبيعها ويتشتت المال..

أرسلت إليها مرارًا لشرائها.. وهي تأبى علي ذلك..

قلت: فماذا فعلت؟

قال: انتزعت الأرض منها بطرقي الخاصة..

قلت: طرقك الخاصة!!

قال: نعم.. علاقاتي الواسعة.. ومعارفي.. استخرجت ترخيصًا ببناء الأرض وضممتها إلى أرضي..

قلت: وأم الأيتام؟!!!

قال: سمعت بما حصل لأرضها فكانت تأتي وتصرخ بالعمال الذين يعملون لتمنعهم من البناء.. وهم يضحكون منها يظنونها مجنونة..

وفي الواقع أنني أنا المجنون ليس هي..

كانت تبكي وترفع يديها إلى السماء.. هذا ما رأيته بعيني.. ولعل دعاءها في ظلمة الليل كان أعظم..

قلت: هاه.. أكمل..

قال: رحت أسأل وأبحث عنها.. حتى عثرت عليها.. فبكيت واعتذرت.. ولا زلت بها حتى قبلت مني تعويضًا عن تلك الأرض.. ودعت لي وسامحتني..

فوالله ما إن خفضت يديها.. حتى دبت العافية في بدني..

ثم أطرق التاجر برأسه قليلاً.. ثم رفعه وقال: ونفعني دعاؤها - بإذن الله - نفعًا عجز عنه طب الأطباء..

قالوا..

نامت عيونك والمظلوم منتبه　　　يدعو عليك وعين الله لم تنم

لا للعداوات..

تجد أن الناس عند التعامل معهم لهم طبائع..
منهم الغضوب ومنهم البارد..
ومنهم الذكي ومنهم الغبي..
والمتعلم والجاهل..
ومنهم حسن الظن وسيئ الظن.. و:
من عامل الناس لاقى منهم نصبًا فــإن سوســهم بغــي وطغيــان
فالظالم يغفل عن ظلمه ويرى أنه أعدل الناس..
والغبي يرى أنه أذكى الناس..
والأخرق السفيه.. يرى أنه حكيم زمانه!!
أذكر لما كنت شابًا – وأظنني لا أزال كذلك –
أعني لما كنت في أوائل الدراسة الثانوية.. أقبل علينا ضيف ثقيل.. لا أدري هل أكمل دراسته الابتدائية أم لا؟ لكن الذي أجزم به أنه يقرأ ويكتب..
وكنت مشغولاً وقت دخوله بمسألة شرعية لم أجد لها جوابًا..
وضعت له ما يوضع للضيف من قرى.. ثم تناولت الهاتف وجعلت أكرر الاتصال بالشيخ الإمام عبد العزيز بن باز – رحمه الله – لسؤاله عنها.. لم أجد الشيخ..
رآني صاحبي منشغلاً إلى هذا الحد.. فسألني: بمن تتصل..
قلت: بالشيخ ابن باز.. عندي استفتاء مهم..
فبادرني قائلاً بكل ثقة: سبحان الله!.. ابن باز.. وأنا موجود؟!!
تجد من الناس كثيرين كذلك.. فتحمل ثقلهم.. وعاملهم بلطف.. واكسبهم..
حاول بقدر استطاعتك أن لا تكسب عداوات فلم تبعث عليهم وكيلاً..
أنقذ ما يمكن إنقاذه.. ولا تعذب نفسك..

خاطرة..

الحياة أقصر من أن تشغلها باكتساب عداوات

اللسان.. ملك!!

تأملت فيما يحدث التباغض والشقاق بين الناس.. ويجعل بعضهم أثقل من الجبل على الآخرين.. فلا يحبون رؤيته ولا مجالسته.. ولا السفر معه.. ولا حضور وليمة هو مدعو إليها.. وجدت أن أكثر ما يوصل الشخص إلى هذا المستوى البغيض هو اللسان..

فكم من خصومات وقعت بين إخوان.. وأزواج.. وبسبب مسبة أو غيبة أو شتم..!!

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم.

نحن نستطيع أن نوصل أفكارنا للآخرين بأساليب حسنة.. فلماذا نلجأ للأساليب القبيحة؟!

ذُكر أن ملكًا معظمًا رأى في منامه أن أسنانه تساقطت.. فاستدعى أحد المعبرين.. وقص عليه الرؤيا وسأله عن تعبيرها؟!

فتغير المعبر لما سمعها.. وجعل يردد: أعوذ بالله.. أعوذ بالله..

فزع الملك وقال: ما تعبير رؤياي؟!

فقال المعبر: تمضي عليك السنين.. ويموت أولادك وأهلك جميعًا.. وتبقى في ملكك وحدك..

فصاح الملك.. وغضب.. وسب ولعن.. وأمر بالمعبر أن يسحب ويجلد..

ثم دعا بمعبر آخر.. وقص عليه الرؤيا.. وسأله عن تعبيرها.. فابتهج ذاك المعبر.. وتبسم.. وأظهر البشاشة.. وقال: أبشر.. خير.. خير.. أيها الملك..

قال الملك: ما تعبير الرؤيا؟

قال المعبر: هذا معناه: أنك سيطول عمرك جدًا.. حتى تكون آخر أهلك موتًا.. وتبقى طول عمرك ملكًا..

فاستبشر الملك وأمر له بالأعطيات.. وبقي راضيًا عليه.. ساخطًا على الآخر!!

مع أنك لو تأملت لوجدت أن التعبيرين متماثلان متطابقان.. لكن الأول عبّر بأسلوب، والآخر عبر بأسلوب آخر..

نعم.. اللسان سيد من السادات..

وفي الحديث.. قال ﷺ:

«إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان.. فتقول: اتق الله فينا.. فإنما نحن بك.. فإن استقمت استقمنا.. وإن اعوججت اعوججنا»(٩٠)..

نعم.. والله إنه لسيد..

سيد في خطبة الجمعة..

وسيد في الإصلاح بين الناس..

وسيد في التسويق..

وسيد في المحاماة..

ولا يعني هذا أنه إذا فقده الإنسان.. انتهت حياته.. كلا بل صاحب الهمة يبقى بطلاً فقد من قدرات..

لم يكن أبو عبد الله يختلف كثيرًا عن بقية أصدقائي.. لكنه - والله يشهد - من أحرصهم على الخير.. له عدة نشاطات دعوية من أبرزها ما يقوم به أثناء عمله.. فهو يعمل مترجمًا في معهد الصم البكم..

اتصل بي يومًا وقال:

ما رأيك أن أحضر إلى مسجدك اثنين من منسوبي معهد الصم لإلقاء كلمة على المصلين..

تعجبت!! وقلت: صمٌ يلقون كلمة على ناطقين؟

قال: نعم.. وليكن مجيئنا يوم الأحد..

انتظرت يوم الأحد بفارغ الصبر..

وجاء الموعد.. وقفت عند باب المسجد أنتظر.. فإذا بأبي عبد الله يقبل بسيارته.. وقف قريبًا من الباب.. نزل ومعه رجلان..

أحدهما كان يمشي بجانبه.. والثاني قد أمسكه أبو عبد الله يقوده بيده..

نظرت إلى الأول فإذا هو أصم أبكم.. لا يسمع ولا يتكلم.. لكنه يرى..

والثاني أصم.. أبكم.. أعمى.. لا يسمع ولا يتكلم ولا يرى..

---

(٩٠) رواه أحمد والترمذي وهو حسن.

مددت يدي وصافحت أبا عبد الله.. كان الذي عن يمينه – وعلمت بعدها أن اسمه أحمد – ينظر إلي مبتسمًا.. فمددت يدي إليه مصافحًا..

فقال لي أبو عبد الله – وأشار إلى الأعمى -: سلم أيضًا على فايز..

قلت: السلام عليكم.. فايز..

فقال أبو عبد الله: أمسك يده.. هو لا يسمعك ولا يراك..

جعلت يدي في يده.. فشدني وهزَّ يدي..

دخل الجميع المسجد..

وبعد الصلاة جلس أبو عبد الله على الكرسي وعن يمينه أحمد.. وعن يساره فايز..

كان الناس ينظرون مندهشين.. لم يتعودوا أن يجلس على كرسي المحاضرات أصم..

التفت أبو عبد الله إلى أحمد وأشار إليه.. فبدأ أحمد يشير بيديه.. والناس ينظرون.. لم يفهموا شيئًا.. فأشرت إلى أبي عبد الله.. ليترجم لنا.. فإشارات أحمد لا يفهمها إلا الصم.. أو من كان متعلمًا للغة الصم فاقترب إلى مكبر الصوت وقال:

أحمد يحكي لكم قصة هدايته.. ويقول لكم.. ولدت أصم.. ونشأت في جدة.. وكان أهلي يهملونني.. لا يلتفتون إلي.. كنت أرى الناس يذهبون إلى المسجد.. ولا أدري لماذا؟!

أرى أبي أحيانًا يفرش سجادته ويركع ويسجد.. ولا أدري ماذا يفعل؟..

وإذا سألت أهلي عن شيء.. احتقروني ولم يجيبوني..

ثم سكت أبو عبد الله والتفت إلى أحمد وأشار له.. فواصل أحمد حديثه.. وأخذ يشير بيديه.. ثم تغير وجهه.. وكأنه تأثر..

خفض أبو عبد الله رأسه.. ثم بكى أحمد.. وأجهش بالبكاء.. تأثر كثير من الناس.. لا يدرون لماذا يبكي؟..

واصل حديثه وإشاراته بتأثر.. ثم توقف..

فقال أبو عبد الله: أحمد يحكي لكم الآن فترة التحول في حياته.. وكيف أنه عرف الله والصلاة بسبب شخص في الشارع عطف عليه وعلمه..

وكيف أنه لما بدأ يصلي شعر بقدر قربه من الله..

وتخيل الأجر العظيم لبلائه.. وكيف أنه ذاق حلاوة الإيمان..

ومضى أبو عبد الله يحكي لنا بقية قصة أحمد..

كان أكثر الناس مشدودًا متأثرًا..

لكني كنت منشغلاً!!

أنظر إلى أحمد تارة.. وإلى فايز تارة أخرى..

وأقول في نفسي.. ها هو أحمد يرى ويعرف لغة الإشارة.. وأبو عبد الله يتفاهم معه بالإشارة..

ترى كيف سيتفاهم مع فايز.. وهو لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم.. !!

انتهى أحمد من كلمته.. ومضى يمسح بقايا دموعه..

التفت أبو عبد الله إلى فايز..

قلت في نفسي: هه؟؟ ماذا سيفعل؟!!

ضرب أبو عبد الله بأصبعه على ركبة فايز.. فانطلق فايز كالسهم.. وألقى كلمة مؤثرة.. تدري كيف ألقاها؟

بالكلام؟ كلا.. فهو أبكم.. لا يتكلم..

بالإشارة؟ كلا.. فهو أعمى.. لم يتعلم لغة الإشارة..

ألقى الكلمة بـ (اللمس).. نعم باللمس..

يجعل أبو عبد الله (المترجم) يده بين يدي فايز.. فيلمسه فايز لمسات معينة.. يفهم منها المترجم مراده.. ثم يمضي يحكي لنا ما فهمه من فايز.. وقد يستغرق ذلك ربع ساعة..

وفايز ساكن هادئ لا يدري هل انتهى المترجم أم لا.. لأنه لا يسمع ولا يرى..

فإذا انتهى المترجم من كلامه.. ضرب ركبة فايز.. فيمد فايز يديه.. فيضع المترجم يده بين يديه.. ثم يلمسه فايز للمسات أخر..

ظل الناس يتنقلون بأعينهم بين فايز والمترجم..

بين عجب تارة.. وإعجاب أخرى.. وجعل فايز يحث الناس على التوبة..

كان أحيانًا يمسك أذنيه.. وأحيانًا لسانه.. وأحيانًا يضع كفيه على

عينيه.. لم نفهم ما يريد حتى ترجم لنا أبو عبد الله.. فإذا هو يأمر الناس بحفظ الأسماع والأبصار عن الحرام..

كنت أنظر إلى الناس..

فأرى بعضهم يتمتم: سبحان الله..

وبعضهم يهمس إلى الذي بجانبه.. وبعضهم يتابع بشغف..

وبعضهم يبكي..

أما أنا فقد ذهبت بعيدًا... أخذت أقارن بين قدراته وقدراتهم.. ثم أقارن بين خدمته للدين وخدمتهم..

الهم الذي يحمله رجل أعمى أصم أبكم.. لعله يعدل الهم الذي يحمله هؤلاء جميعًا..

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

رجل محدود القدرات.. لكنه يحترق في سبيل خدمة هذا الدين..

يشعر أنه جندي من جنود الإسلام.. مسئول عن كل عاص ومقصر..

كان يحرك يديه بحرقة.. وكأنه يقول:

يا تارك الصلاة إلى متى..؟

يامطلق البصر في الحرام إلى متى..؟

يا واقعًا في الفواحش؟

يا آكلاً للحرام؟

بل يا واقعًا في الشرك؟

كلكم إلى متى؟!

أما يكفي حرب الأعداء لديننا.. فتحاربونه أنتم أيضًا!!

كان المسكين يتلون وجهه ويعتصر ليستطيع إخراج ما في صدره.. تأثر الناس كثيرًا..

لم ألتفت إليهم.. لكني سمعت بكاء وتسبيحات..

انتهى فايز من كلمته.. وقام..

يمسك أبو عبد الله بيده.. تزاحم الناس عليه يسلمون..

كنت أراه يسلم على الناس.. وأحس أنه يشعر أن الناس عنده سواسية.. يُسلِّم على الجميع.. لا يفرق بين ملك ومملوك.. ورئيس ومرؤوس.. وأمير ومأمور..

يسلم عليه الأغنياء والفقراء.. والعامة والوجهاء.. والجميع عنده سواء.. كنت أقول في نفسي ليت بعض النفعيين مثلك يا فايز..

أخذ أبو عبد الله بيد فايز.. ومضى به خارجًا من المسجد..

أخذت أمشي بجانبهما.. وهما متوجهان للسيارة.. والمترجم وفايز يتمازحان في سعادة غامرة..

آآآه ما أحقر الدنيا..

كم من أحد لم يُصَبْ بربع مصابك يا فايز ولم يستطع أن ينتصر على الضيق والحزن..

أين أصحاب الأمراض المزمنة.. فشل كلوي.. شلل.. جلطات.. سكري.. إعاقات.. لماذا لا يستمتعون بحياتهم.. ويتكيفون مع واقعهم..؟

ما أجمل أن يبتلي الله عبده ثم ينظر إلى قلبه فيراه شاكرًا راضيًا محتسبًا..

مرت الأيام.. ولا تزال صورة فايز مرسومة أمام ناظري..

فإذا كان فايز نجح في حياته.. وكسب محبة الناس.. وهو أعمى ابكم أصَم.. فما بالك بمن أعطاه الله لسانًا ناطقًا.. وبصرًا نافذًا.. وسمعًا واعيًا؟!

فاستعمل لسانك في كسب الناس.. والتحبب إليهم..

حقيقة..

الإنسان لا لحمه يؤكل.. ولا جلده يلبس..
فماذا فيه غير حلاوة اللسان!!

اضبط لسانك..

إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه..

هكذا حذر النبي ﷺ الناس من إطلاق الكلام على عواهنه.. دون النظر في العواقب..

عدم ضبط اللسان قد يؤدي إلى المهالك..

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

كم من امرأة طلقها زوجها بسبب اللسان..

يختلف معها.. فتردد قائلة له: طلقني.. أتحداك تطلقني.. إن كنت رجلاً طلقني!!

فيأمرها بالسكوت..

يصرخ بها..

ينهرها..

يشتد الأمر بينهما.. فينهدم البناء.. ويطلقها..

لذا أمر ﷺ الشخص إذا غضب أن يسكت.. نعم يسكت.. لأنه إن لم يضبط لسانه.. أرداه في المهالك..

يموت الفتى من زلة بلسانه وليس يموت المرء من زلة الرجل

أذكر أني دخلت قبل فترة في مشكلة بين عائلتين للإصلاح بينهما..

وقصة الخلاف: أن رجلاً عاقلاً كبيراً في السن أظنه قد تجاوز الستين من عمره.. خرج في نزهة صيد مع مجموعة من أصدقائه.. وسنهم جميعاً متقاربة..

دارت بينهم الأحاديث وذكريات الصبا..

ثم تكلموا عن أراض لأجدادهم بالقرية.. فثار خلاف بين اثنين منهم حول أحد الأراضي يملكها أحدهما وادعى الآخر أنا لجدّه!!

اشتد بينهما النقاش حتى قال مالكُ الأرض لصاحبه: والله لئن رأيتك قريبا من أرضي لأفرغن هذا في رأسك..

ثم تناول بندقية الصيد التي بجانبه ووجهها أعلى من رأس صاحبه بمترين أو ثلاثة ثم أطلق منها رصاصة..

ثار الرجلان وكادا أن يقتتلا.. لكن أصحابهما هدؤوهما..

وتفرقوا إلى بيوتهم..

لم يستطع الرجل الذي أطلق عليه الرصاص أن ينام من شدة الغيظ..

طلع عليه الصبح إلا وقد أجمع أن يشفي غيظه من صاحبه.. فحمل سلاحًا من نوع «كلاشينكوف» ومضى يبحث عن صاحبه.. حتى رآه في سيارته عند مدرسة بنات..

كان صاحبه متقاعدًا من وظيفته ويعمل سائقًا لسيارة خاصة لنقل المدرسات.. وقد أوقف سيارته عند باب المدرسة وجلس داخلها ينتظر خروجهن..

وبجانبه مجموعة من السيارات تشبه سيارته كلها مخصصة لنقل المدرسات أو الطالبات..

اختبأ الرجل خلف شجرة بعيدة لئلا يُنتبه إليه.. وكان ضعيف البصر.. ووجه سلاحه إلى السائق الذي بدا من ملامحه أنه صاحبه.. وحاول جاهدًا أن يسدد الطلقة إلى رأسه..

ثم ضغط على الزناد.. ودوى صوت الرصاص وانطلقت ثلاث رصاصات واستقرت في رأس السائق..

ثار الناس واضطربوا.. وفزعت الطالبات.. وارتفع الصراخ.. واجتمع رجال الشرطة.. وأحاطوا بالمنطقة.. والرجل قد هشمت الطلقات جمجمته.. ومات..

أما القاتل فقد توجه بكل هدوء إلى مخفر الشرطة وأخبرهم بالقصة.. وقال: أنا قتلت فلانًا.. والآن قد شفيت صدري فاقتلوني أو أحرقوني أو اسجنوني.. افعلوا ما شئتم..

أدخلوه إلى غرفة التوقيف..

وخرج الضابط لمعاينة مكان الحادث.. فلما اطلع على بطاقة المقتول فإذا المفاجأة الكبرى!!

إذا بالقتيل ليس هو صاحبه الذي أراد أن يشفي صدره منه وإنما هو شخص آخر ليس له دخل بالقضية..

فأقبل الضابط يمشي بسرعة، والرجل المسن المقصود بالقتل يمشي بجانبه.. حتى أدخله مخفر الشرطة وأوقفه أمام الزنزانة.. وقال:

يا فلان! أتدعي أنك قتلت هذا؟! الرصاص أصاب شخصًا آخر!!

فصرخ المسكين وأصابته حالة هستيرية.. ثم أغمي عليه ومكث في غيبوبة أيامًا.. ثم شفي وأدخل السجن وحكم عليه القاضي الشرعي بإقامة حد القتل عليه..

وصدق أبو بكر لما قال: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان..

لا أنسى خبر ذلك الخليفة الذي جلس يومًا مع نديمه.. يضاحكه ويمازحه.. فلعب الشيطان برؤوسهما فشربا خمرًا..

فلما غابت العقول.. وسيطرت أم الخبائث.. وصار الواحد منهما أضل من الحمار.. التفت الخليفة إلى حاجبه وأشار له إلى النديم وقال: اقتلوه..

وكان الخليفة إذا أمر أمرًا لم يراجع فيه..

فانطلق الحاجب إلى النديم وتله برجليه.. وهو يصرخ.. ويستغيث بالخليفة.. والخليفة يضحك ويردد: اقتلوه.. اقتلوه..

فقتلوه.. وألقوه في بئر مهجورة..

فلما أصبح الخليفة.. اشتاق إلى من يؤانسه.. فقال: ادعوا لي نديمي فلان..

قالوا: قتلناه!!

قال: قتلتموه؟!!

من قتله؟!

ولماذا؟

ومن أمركم؟!

وجعل يدافع عبراته..

فقالوا: أنت أمرتنا البارحة.. وأخبروه القصة..

فسكت.. وخفض رأسه متندمًا ثم قال:

رُبَّ كلمة قالت لصاحبها: دعني..

أعود وأقول:

كم من شخص نفَّر الناس عن شخصه.. وبغضهم في نفسه.. وجر إلى نفسه الويلات بسبب عدم ضبطه للسانه..

قال ابن الجوزي:

ومن العجب أن من الناس من يقوى على التحرز من أكل الحرام.. ومن الزنا.. والسرقة.. لكنه لا يقوى على أن يتحرز من حركة لسانه.. فيتكلم في أعراض الناس.. ولا يقدر على منع نفسه من ذلك..

عجيبة . .

الحيوان لسانه طويل ولا ينطق..

والإنسان لسانه قصير ولا يصمت!!

المفتاح..

المدح.. هو مفتاح القلوب..

نعم.. من أجمل مهارات الكلام أن تكون مبدعًا في تعويد نفسك على اكتشاف صواب الآخرين.. ومدحهم والثناء عليهم به.. قبل الانتباه إلى خطئهم..

ويتأكد ذلك عندما تريد أن تنبه شخصًا إلى خطإ ما..

كثير من الناس يرُد النصيحة لا لأجل تكبره عنها.. أو عدم اقتناعه بخطئه..

وإنما لأن الناصح لم يسلك الطريق الصحيح لتقديم النصيحة..

هب أنك ذهبت إلى مستشفى حكومي لعلاج..

فلما أقبلت إلى موظف الاستقبال فإذا وراء الزجاج شاب مراهق يقلب جريدة بين يديه.. وبيده سيجارة.. غير مبال بما حوله..

وإذا شيخ كبير أعمى يقف متعبًا في يده اليمنى طفل صغير.. وفي الأخرى ورقة مراجعة ينتظر أن يحوله الموظف إلى الطبيب..

وإذا بجانبه عجوز كبيرة بيدها طفلة تبكي وقد تمكنت الحمى من جسدها.. وتنتظر أيضًا الموظف أن يفرغ من قراءة أخبار ناديه المفضل ليحولها لطبيب الأطفال..

لما رأيت هذا المنظر ثارت أعصابك – ولا نلومك على ذلك – فصرخت بالموظف: هيه!! أنت جالس في مستشفى أو في... ما تخاف الله؟!!

المرضى يئنون من الألم وأنت تقرأ جريدة!!

لا... وتدخن أيضًا!!

والله عجب.. مثلك ما يربيه إلا شكوى لمدير المستشفى.. أو المفروض أن تفصل من عملك..

وبدأت تقذف هذه العبارات كالبرق عليه..

هب أنه.. لم يرد عليك.. ولم يقابل صراخك بصراخ..

هب فعلاً أنه ألقى جريدته.. وأنهى تحويل المرضى إلى الأطباء..

هل تعتبر نفسك نجحت في حل المشكلة؟!

كلا.. أنت هنا عالجت الموقف لكنك لم تعالج المشكلة.. لأنه وإن استجاب لك الآن إلا أنه سيعود إلى تصرفه المشين غداً وبعد غد..

إذاً كيف أتصرف؟!!

تعال إليه واكظم غيظك..

تعامل مع الموقف بعقل لا بعاطفة..

لا تدع المناظر المؤذية تؤثر في تصرفاتك..

ابتسم، وإن كنت مغضباً، وإن كانت الابتسامة صفراء لا مشكلة، ابتسم، وقل: السلام عليكم.. سيردّ وهو ينظر إلى صورة لاعبه المفضل: عليكم السلام.. انتظر لحظة..

قل أي كلمة تجعله يلتفت إليك.. كأن تقول: كيف الحال؟.. مساك الله بالخير.. سيرفع رأسه - حتماً - إليك ويقول: الحمد لله بخير.. في هذه المرحلة تكون قد قطعت نصف المشوار..

تلطف إليه بأي عبارة تمدحه بها..

قل له مثلاً: تصدق! المفروض أن مثلك ما يعمل في استقبال مستشفى..

سيتغير ويقول: لماذا؟

قل: لأن هذا الوجه المنير إذا رآه المريض زال مرضه فلا يحتاج إلى طبيب..

سيبتسم متعجباً من جرأتك - يا بطل -.. وتنبلج أساريره.. وقد صار الآن مهيئاً لقبول النصيحة..

ويقول: ماذا عندك؟

عندها قل: يا أخي الحبيب! ترى هذا الشيخ الكبير.. وهذه العجوز المسكينة.. ليتك تنهي لهما إجراءات الدخول على الطبيب..

سيتناول أوراقهما.. ويحولهما للطبيب.. ثم يتناول ورقتك.. فإذا انتهى منك وسلمك الورقة..

فقل له: سبحان الله!.. هذه أول مرة أراك ومع ذلك فقد دخلت إلى قلبي.. لا أدري كيف!!

والله إنك أحب إليّ من آلاف الناس.. (وفعلاً أنت صادق فهو مسلم أحب إليك حتمًا من ملايين الكفار)..

سيفرح ويشكر لك لطفك..

فقل: وعندي كلمات أود أن تسمعها لكني أخاف أن تغضبك..

سيقول: لا.. لا.. تفضل..

عندها قدم له النصيحة..

أنت قد من الله عليك بهذه الوظيفة.. وفي واجهة المستشفى.. وأنت قدوة لغيرك.. فليتك تتلطف قليلاً مع المراجعين.. وتهتم بهم.. لعل دعوة صالحة ترفع لك في ظلمة الليل من فم عجوز عابدة... أو شيخ زاهد..

أجزم أنه سيخفض رأسه وأنت تتكلم.. ويردد: أشكرك.. جزاك الله خيرًا..

وكذلك استعمل هذه الأساليب مع كل شخص تعالج سلوكه..

مثل: شخص يتهاون بالصلاة..

أو أب يهمل بناته فيتكشفن.. ويتساهلن بالحجاب..

أو شاب عاق لوالديه..

لأجل أن يقبلوا منك لا بد أن تمارس المهارات المناسبة..

نعم.. استخدم العبارات اللطيفة في إصلاح خطأ الآخر.. كن مؤدبًا.. محترمًا لرأيه.. قل له: أنا ما أنصحك إلا لأني أعلم.. أنك تقبل النصح..

وفي التنزيل العزيز يقول الله: ﴿إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً..﴾.

وقد كان المربي الحكيم ﷺ يستعمل طرقًا ومهارات تجعل من يعدل سلوكهم لا يملكون إلا أن يقبلوا منه..

أراد ﷺ يومًا أن يعلم معاذ بن جبل ذكرًا يقوله بعد الصلاة..

فأقبل إلى معاذ وقال: يا معاذ!.. والله إني أحبك.. فلا تدعن في دبر كل

صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..

بالله عليك.. ما علاقة المقطع الأول من الكلام «والله إني أحبك»..

بالمقطع الثاني «لا تدعن أن تقول: اللهم أعني على ذكرك»؟!

قد يكون الأنسب لقوله: إني أحبك أن يقول بعدها وأريد أن أزوجك ابنتي -- مثلاً -- أو أعطيك مالاً.. أو أدعوك إلى طعام..

ولكن أن يتبع خبر المحبة تعليمه ذكرًا من أذكار الصلاة.. !! فهذا يحتاج إلى تأمل..

أتدري ما موقع قوله: «والله إني أحبك»؟ إنه التهيئة لقبول النصيحة.. بمشاعر صادقة.. فإذا ارتاحت نفس معاذ واستبشر، أعطاه النصيحة..

وفي موقف آخر..

قبض ﷺ يد عبد الله بن مسعود بيده اليمنى، ثم وضع يده اليسرى فوقها، كنوع من العطف والتهيئة، ثم قال: «يا عبد الله!... إذا جلست في التشهد فقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته...

حفظها عبد الله ووعاها..

ومضت السنين ومات رسول الله ﷺ..

فكان عبد الله يفخر بذلك ويقول: علمني رسول الله ﷺ التشهد وكفي بين كفيه.. وفي يوم آخر لاحظ ﷺ أن عمر رضي الله عنه إذا طاف بالكعبة وحاذى الحجر الأسود..

زاحم الناس وقبله.. وكان صلبًا قوي البدن.. وربما زاحم الضعفاء..

فأراد ﷺ أن يقدم له نصيحة.. فقال -- على سبيل التهيئة لقبول النصيحة - «يا عمر! إنك رجل قوي.. فرح عمر بهذا الثناء..»

فقال ﷺ : «فلا تزاحمن عند الحجر..»

ومرة أراد أن ينصح ابن عمر بقيام الليل.. فقال: «نِعم الرجل عبد الله لو كان يقوم الليل..»

وفي رواية قال: «يا عبد الله! لا تكن مثل فلان.. كان يقوم الليل.. فترك

قيام الليل..

نعم.. كان ﷺ يستعمل هذا الأسلوب الرائع مع جميع الناس.. ومع الوجهاء خاصة..

في بداية بعثة النبي ﷺ.. كان الناس ما بين مقبل ومدبر..

وكان رجل في المدينة اسمه: سويد بن الصامت وكان رجلاً شريفًا في قومه.. عاقلاً شاعرًا.. يحفظ كلام الحكماء.. حتى قيل: إنه كان يحفظ كل ما روي عن لقمان الحكيم..

حتى بلغ من إعجاب الناس به أنهم كانوا يسمونه: الكامل..؛ لِجَلده وشعره.. وشرفه ونسبه..

وهو الذي يقول:

ألا ربَّ من تدعو صديقًا ولو ترى ... مقالته بالغيب ساءك ما يفري
مقالته كالشهد ما كان شاهدًا ... وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبتري عقب الظَّهر
تبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغلِّ والبغضاء بالنظر الشزر

قدم سويد بن الصامت يومًا إلى مكة حاجًا.. أو معتمرًا..

فتحدث الناس بدخوله مكة.. وأقبلوا لرؤيته..

فسمع النبي ﷺ به فأقبل عليه.. فدعاه إلى الله.. وإلى الإسلام.. وجعل يحدثه بالتوحيد والرسالة وأنه نبي يوحَى إليه قرآن.. وأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى.. فيه عبر وأحكام..

فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟!

فقال له رسول الله ﷺ: ما الذي معك؟!

قال: معي مجلة لقمان – يعني: حكمة لقمان..

فلم يعنفه ﷺ أو يحقره.. مع أنه يضاهي كلام الله بكلام البشر -.. وإنما تلطف معه..

وقال ﷺ: اعرضها علي..

فشرع سويد يقرأ ما يحفظ من كلام لقمان وحكمه..

ورسول الله ﷺ يستمع إليه بكل هدوووء..

فلما انتهى سويد..

قال ﷺ له: «إن هذا لكلام حسن..»

ثم قال - مشوقًا لسويد -: «والذي معي أفضل من هذا.. قرآن أنزله الله تعالى علي.. هو هدى ونور..» ثم تلا عليه رسول الله ﷺ القرآن.. ودعاه إلى الإسلام.. وسويد يستمع منصتًا..

فلما فرغ ﷺ من كلامه.

ظهر على سويد التأثر.. وقال: إن هذا لقول حسن..

ثم انصرف سويد عن النبي ﷺ.. ولا يزال متأثرًا بما سمع.. فقدم المدينة على قومه.. فلم يلبث أن وقع قتال بين قبيلتي الأوس والخزرج.. وكان من قبيلة الأوس فقتلته الخزرج..

وذلك قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة..

ولا يُدرى هل أسلم أم لا؟ وإن كان رجالٌ من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم..

فتأمل في تعامله ﷺ معه.. وكيف ملكه بأخلاقه ولم يعنف عليه..

باختصار..

أسرف في المديح.. واقتصد في النقد..

الرصيد العاطفي

تصورات الناس عنا نحن الذين نصنعها..

فلو لقيك شخص في السوق فعبس في وجهك..

ثم لقيك في بقالة... فعبس في وجهك أيضًا..

ثم صادفته في عرس.. فلقيك عابسًا!!

لرسمت عنه صورة قاتمة في مخيلتك.. فإذا رأيت صورته أو سمعت اسمه في مكان تبادر إلى ذهنك ذاك الوجه العابس...

أليس كذلك؟!

ولو لقيك شخص بابتسامة في موقف..

ثم ابتسم في لقاء آخر.... وثالث...

لانطبع في ذهنك... عنه صورة مشرقة..

هذا فيمن لا يكون بينك وبينه علاقة دائمة وإنما هي لقاءات عابرة..

أما الأشخاص الذين نلقاهم دائمًا كزوجة وأولاد.. وزملاء في مكتب.. وجيران في حارة.. فإن تعاملنا معهم لن يكون بأسلوب واحد دائمًا..

نعم هم سيروننا ضاحكين لطيفين.. لكنهم حتمًا سيروننا تارة غاضبين.. وتارة عابسين.. أو مخاصمين.. أو شاتمين.. لأننا بشر..

وبالتالي فإن محبتهم لنا تتحدد على حسب طغيان حسناتنا عندهم أو سيئاتنا.. أو قل: تتحدد محبتهم لنا بحسب مقدار الرصيد العاطفي الذي في حسابنا عندهم..

كيف؟!

عندما يقع لك موقف جميل مع إنسان فإنك تضيف إلى سجل ذكرياته ذكرى جميلة عنك..

أو بعبارة أخرى تفتح لك في قلبه حسابًا تودع فيه محبة لك واحترامًا.. ثم تتولى بعد ذلك زيادة رصيدك العاطفي أو السحب منه..

فكل ابتسامة تقابله بها.. تزيد من رصيدك العاطفي عنده.. وكل هدية.. تزيد رصيدك العاطفي.. وكل مجاملة.. تزيد رصيدك العاطفي..

وكل إهانة تقع منك له.. أو مسبة.. أو شتم.. فإنك تسحب من رصيدك العاطفي..

وبالتالي..

إذا كان رصيدك العاطفي عنده كثيرًا.. ووقعت يومًا ما في موقف أغاظه فسحبت من رصيدك العاطفي مقدارًا معينًا..

فإن هذا لن يؤثر كثيرًا لأن رصيدك العاطفي عنده كثير..

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

أما إن لم يكن عنده لك رصيد عاطفي وجعلت تسحب من الرصيد وليس فيه شيء أصلاً.. فإن حسابك عنده سيكون بالناقص!!

وبالتالي قد يقع في قلبه لك كره.. أو استثقال.. لأنك تسحب من رصيدك العاطفي ولا تودع..

ألم تسمع يومًا عن زوجة طلقها زوجها.. فإذا سئلت عن سبب الطلاق قالت: السبب تافه.. طلب مني الذهاب معه لزيارة أخته فرفضت.. فغضب وجعل يسبني ويشتمني، ثم طلقني!!

ولو تأملت بذكاء في سبب الطلاق.. لما وجدت السبب هو هذا الموقف التافه.. وإنما هذا الموقف هو القشة التي قصمت ظهر البعير!!

فقد ذُكر أن رجلاً كان له جمل، جلد قوي.. فأراد سفرًا.. فجعل يحمل متاعه عليه.. ويربطه على ظهره.. والجمل متماسك حتى كوم على ظهره ما يحمله أربعة جمال..

فبدأ البعير يهتز من ثقل الحمل والناس يصيحون بالرجل: يكفي ما حملت عليه.. فأخذ حزمة من تبن وقال: هذه خفيفة وهي آخر المتاع.. فلما طرحها على ظهره سقط البعير على الأرض.. فصارت قصته مثلاً..

وقيل: قشة قصمت ظهر بعير!!

ولو تفكرت لرأيت أن القشة مظلومة فليست هي التي قصمت ظهر البعير

وإنما انقصم ظهر البعير بسبب تراكمات كبار، صبر البعير على أولها.. وصبر.. وصبر.. حتى لم يطق صبرًا.. فانقصم ظهره بشيء صغير..

وهكذا المرأة التي طلقها زوجها.. أجزم أن السبب ليس هو تركها زيارة أخته فحسب.. وإنما تراكمات قبله.. من:

عصيان لطلباته.. عدم تحقيق لرغباته.. عدم تحببها إليه..

تكبرها عليه.. عدم احترام رأيه.. فهي تسحب دومًا من رصيدها العاطفي عنده دون أن تودع فيه شيئًا.. وتجرح ولا تداوي..

وهو يحتمل ويحتمل.. حتى جاء هذا الموقف فقصم ظهر البعير..

ولو أنها اعتنت بكثرة الإيداع في رصيدها العاطفي.. من:

حسن لقاء له..

وتغنج ودلال..

وتحبب إليه..

وممازحة وخفة ظل..

وعناية بطعامه ولباسه..

واحترام لرأيه..

لصار رصيدها العاطفي كبيرًا.. وملكت مليارات حبّ في قلبه.. وبالتالي لن يضر لو وقع موقف سحبت به من رصيدها العاطفي.. لأن سيئتها ستغوص في بحر حسناتها..

وقل مثل ذلك في الطالب المشاكس الذي يقع منه موقف صغير فيغضب المدرس غضبًا شديدًا.. وقد يضربه ويطرده من الفصل.. و..

ثم يقول الطالب – مشتكيًا- : زميلي فلان يقع في أخطاء أكثر منّي.. ولا يعاتبونه..

أما أنا فما فعلت شيئًا هي مجرد نكتة أطلقتها من غير استئذان..

ولا ينتبه إلى أن هذه النكتة هي القشة التي قصمت ظهر البعير.. لأنه يجرح ولا يُداوي..

قل مثله في زملاء تخاصموا.. أو جيران تنازعوا..

إذًا.. نحن نحتاج دائمًا إلى أن نودع في قلب كل واحد نلقاه رصيدًا عاطفيًّا..
الزوج يتحين الفرص ليودع في قلب زوجته.. ويسجل نقاطًا أكثر وأكثر..
والزوجة تحتاج أيضًا..
والولد يحتاج أن يودع في قلب والده..
والمدرس مع طلابه.. والأخ مع أخيه..
بل حتى المدير مع من هم تحت إدارته.. يحتاج إلى ذلك..

باختصار..

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع



الساحر..

الكلام ببلاش.. يا أخي سمعنا كلمة حلوة..

هكذا بدأت المسكينة تعاتب زوجها..

صحيح هو ما قصر معها في طعام ولا لباس.. ولكنه لم يكن يسحرها بمعسول الكلام..!!

ويجمع العقلاء أن أهم صفات البائع الماهر أن يكون ساحرًا في كلامه.. فيردد:

من عيوني..

تفضل..

خل الحساب علينا..

تعبك راحة..

وتزيد قيمة البائع كلما زادت عباراته جمالاً.. فإن أضاف إلى حسن العبارة جودة في وصف السلعة.. وقدرة على إقناع الزبون بالشراء.. صار قد اكتسب نورًا على نور..

ويجمع المجربون أن: من أهم صفات السكرتير أن يكون لسانه عذبًا.. وعباراته حلوة.. فيطرب الأسماع بقوله: سَمْ.. أبشر.. نحن (خدّامينك)..

وربما شغفت زوجة بزوجها حبًا.. وهو كثير البخل، قليل الجمال.. لكنه يسحرها بعباراته..

أذكر أن شابًا مراهقًا كان مغرمًا بمغازلة الفتيات.. وكان له قدرة عجيبة على الإيقاع بهن.. وكم من مسكينة صارت متيمة بحبّه.. عالقة بشراكه.. ومن العجب أنه لم يكن يملك سيارة فارهة يغريهن بركوبها.. ولم تكن جيبه مليئة بالمال؛ ليغدق عليهن الهدايا.. ولا تظنن أنه أوتي وسامة أو جمالاً.. كلا.. فإني أسأل الله لك أن لا تبتلى بالنظر إلى وجهه!!

لكن فكّيه كانا يحتضنان لسانًا.. لو كلّم به حجرًا لغلقه.. أو شَعْرًا لحلقه.. ولو غمسه في نهر لدفقه.. أو واسى به عاشقًا لصعقه..

فكان يصطاد الفتيات بلسانه اصطيادًا.. بل يسحرهن سحرًا..

وحديثها السحر الحلال لو أنه ... لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ... ود المحدث أنها لم توجز

ومن نظر في السيرة والتاريخ رأى عجبًا..

أقبل يومًا إلى رسول الله ﷺ ثلاثة رجال سادة في قومهم..

قيس بن عاصم..

والزبرقان بن بدر..

وعمرو بن الأهتم..

وكلهم من قبيلة تميم..

بدؤوا يتفاخرون..

فقال الزبرقان: يا رسول الله.. أنا سيد تميم.. والمطاع فيهم.. والمجاب فيهم.. أمنعهم من الظلم.. وآخذ لهم بحقوقهم..

ثم أشار إلى السيد الآخر عمرو بن الأهتم.. وقال: وهذا يعلم ذاك..

فأثنى عمرو عليه قائلاً: والله يا رسول الله.. إنه لشديد العارضة.. مانع لجانبه.. مطاع في ناديه..

ثم سكت عمرو.. ولم يبالغ في الثناء..

كان الزبرقان ينتظر ثناءً طويلاً.. لكن عمرو اختصر..

فغضب الزبرقان.. وودَّ لو أن عمرًا زاد في الثناء.. وظن أنه حسده على سيادته..

فقال الزبرقان: والله يا رسول الله.. لقد علم ما قال.. وما منعه أن يتكلم به إلا الحسد..

فغضب عمرو.. وقال: أنا أحسدك؟!! فوالله إنك لئيم الخال.. حديث المال.. أحمق الموالد.. مضيَّع في العشيرة..

والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً.. وما كذبت فيما قلت آخرًا.. لكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمتُ.. وغضبت فقلتُ أقبح ما وجدت.. ووالله لقد صدقت في الأمرين جميعًا..

فعجب ﷺ من سرعة حجته.. وقوة بيانه.. ومهارات لسانه..

فقال: «إن من البيان لسحرًا.. إن من البيان لسحرًا[٩١]..»

فكن مبدعًا في مهارات لسانك.. فلو:

قال لك: ناولني القلم..

قل: من عيوني.. تفضل..

ولو قال.. لكن يا فلان عندي طلب.. فقل:

اطلب عيوني.. سَمْ..

أريد منك خدمة: تفضل.. خدمنا أناسًا ما يساوون أثر رجليك..

مارس هذا الأسلوب الذي يدغدغ المشاعر.. مع أمك..

نعم أسمعها كلمات رقيقة لينة..

مع أبيك.. زوجتك.. أولادك.. زملائك.. فهذا الأسلوب لا يخسرك شيئًا.. وتسحر به الآخرين.. وتزيل ما في نفوسهم..

وانظر إلى حال الأنصار رضي الله عنهم بعد معركة حنين..

الأنصار الذين قاتلوا مع النبي ﷺ في بدر..

ثم قتلوا في أحد..

وحوصروا في الخندق..

ولا زالوا معه يقاتلون ويُقتلون.. حتى فتحوا معه مكة.. ثم مضوا إلى معركة حنين..

ففي الصحيحين:

أن القتال اشتد أول معركة حنين.. وانكشف الناس وتفرق الجيش عن رسول الله! وكان جيش الطائف قويًا.. فإذا الهزيمة تلوح أمام المسلمين..

فالتفت ﷺ إلى أصحابه.. فإذا هم يفرون من بين يديه!!

فصاح بالأنصار.. «يااا معشر الأنصار..

فقالوا: لبيك يا رسول الله.. وعادوا إليه.. وصفّوا بين يديه.. ولا زالوا يدفعون العدو بسيوفهم.. ويفدون رسول الله ﷺ بنحورهم.. حتى فر الكفار وانتصر المسلمون..

---

(٩١) رواه الحاكم في المستدرك، وفيه مقال وأصله في الصحيحين.

وبعدما انتهت المعركة.. وجمعت الغنائم بين يدي النبي ﷺ.. أخذوا ينظرون إليها..

وكل واحد منهم يتذكر أولاده الجوعى.. وأهله الفقراء.. ويرجو أن يناله من هذه الغنائم شيء يوسع به عليهم..

فبينما هم على ذلك..

فإذا برسول الله ﷺ.. يدعو الأقرع بن حابس، وكان حديث عهد بالإسلام، فهو ما أسلم إلا قبل أيام في فتح مكة.. فيعطيه مائة من الإبل..

ثم يدعو أبا سفيان ويعطيه مائة من الإبل..

ولا يزال يقسم النعم.. بين أقوام من أهل مكة..

ما بذلوا بذل الأنصار..

ولا جاهدوا جهادهم..

ولا ضحوا تضحيتهم..

فلما رأى الأنصار ذلك.. قال بعضهم لبعض: يغفر الله لرسول الله.. يعطي قريشًا ويتركنا.. وسيوفنا تقطر من دمائهم!!

فلما رأى سيدهم سعد بن عبادة رضي الله عنه ذلك.. دخل على رسول الله ﷺ..

فقال: يا رسول الله.. إن أصحابك من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم..

فعجب ﷺ وقال: «وما ذاك؟!!»

قال: لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت.. قسمت في قومك -يعني أهل مكة-.. وأعطيت عطايا عظامًا.. في قبائل العرب.. ولم يكن في الأنصار منه شيء..

فقال ﷺ: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟»

قال: يا رسول الله.. ما أنا إلا امرؤ من قومي..

شعر النبي ﷺ أن الأمر يحتاج إلى علاج يدخل القلوب لا الجيوب..

فقال: «فاجمع لي قومك..»

فلما اجتمعوا.. أتاهم رسول الله.. فحمد الله وأثنى عليه..

ثم قال: «يا معشر الأنصار.. مقالة بلغتني عنكم؟

قالوا: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا وأما ناس منا حديثة أسنانهم

فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!!

فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار.. ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟!..»

قالوا: بلى ولله ورسوله.. المنة والفضل..

قال: «ألم تكونوا عالة فأغناكم الله.. وأعداءً فألف بين قلوبكم؟!..»

قالوا: بلى ولله ورسوله.. المنة والفضل..

ثم سكت رسول الله ﷺ.. وسكتوا..

وانتظر.. وانتظروا..

فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار..

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله.. ولله ولرسوله المنة والفضل..

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم.. فلصَدَقتم ولصُدِّقتم..»

«لو شئتم لقلتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك..

ومخذولاً فنصرناك.. وطريدًا فآويناك.. وعائلاً فواسيناك..»

ثم بدأ ﷺ يهز المشاعر.. ويحرك القلوب.. فقال: «يا معشر الأنصار!.. أوجدتم على رسول الله في أنفسكم.. في لُعَاعة من الدنيا.. تألفت بها قومًا ليسلموا.. ووكلتم إلى إسلامكم.. إن قريشًا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة - يعني ما أصاب قريشًا من قتل وحرب في فتح مكة-.. وإني أردت أن أجبرهم.. وأتألفهم..

«ألا ترضون يا معشر الأنصار.. أن يذهب الناس بالشاة والبعير.. وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟!»

«لو سلك الناس واديًا أو شعبًا.. وسلكت الأنصار واديًا أو شعبًا.. لسلكت وادي الأنصار.. أو شعب الأنصار..»

«فوالذي نفس محمد بيده.. إنه لولا الهجرة.. لكنت امرأً من الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار.. وأبناء الأنصار.. وأبناء أبناء الأنصار..»

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم.. وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا..

ثم انصرف رسول الله وتفرقوا..

فيااالله العجب.. ما أروع نبينا ﷺ..

بل إنك بالعبارات الجميلة تستطيع أن تخدر الناس أحيانًا.

ذكر أنه كان في صعيد مصر رجل غني متسلط اشتهر باسم: «الباشا» كان يملك فدادين من المزارع.. كان متغطرسًا يمارس أصناف الإذلال على المزارعين الصغار.. دار الزمان دورته فأصاب أرضه ما أتلفها..

فأصبح فقيرًا بعد غنى.. كسيرًا.. جاع أولاده وهو ليس عنده مصدر يتكسب منه.. ولا يعرف صنعة غير الزراعة.. لكن أرضه تالفة..

فخرج يبحث عن عمل.. أي عمل..

أقبل على مزرعة لأحد الفلاحين الضعفاء الذين ذاقوا من إذلاله قديمًا.. دخل عليه.. وقال بكل مذلة: هل أجد عندك عملاً.. أقطف الثمر.. أو أنقي الحبوب.. أو أقلم الأشجار.. أو..

فثار المزارع في وجهه وقال: أنت تعمل عندي!! أنت المتكبر المتغطرس.. الحمد لله أن استجاب دعاءنا عليك وأذلك.. ثم طرده من بستانه..

مضى يجر قدمي خيبته.. حتى دخل بستانًا آخر.. فإذا بفلاح له معه ذكريات أليمة.. فطرده كما طرده الأول..

مضى الباشا (!!) المسكين لا يلوي على شيء.. ولا يريد أن يرجع إلى أولاده خاليًا.. مر على مزرعة لفلاح ثالث.. فدخل ليجرب حظه معه..

رآه الفلاح فانبهر.. وقد ذاق أيضًا من إذلاله من قبل..

قال الباشا: أنا أبحث عن عمل.. أولادي جوعى..

فأرد الفلاح أن يذله.. وأن ينتقم منه بأسلوب ذكي..

فقال له: أهلاً أيها الباشا!! نوّرت بستاني!! من مثلي اليوم! الباشا الكبير يدخل أرضي!! أنت الباشا الكبير.. أنت الباشا الوجيه!! أنت.. وجعل يخدره بهذه العبارات.. حتى صار الباشا منومًا تنويمًا مغناطيسيًا!!

ثم قال الفلاح: مرحبًا وأهلاً.. عندي عمل.. لكني لا أدري هل يناسبك أم لا؟

قال الباشا: وما هو؟

قال: اليوم سوف أحرث الأرض.. وعندي محراث يجره ثوران.. ثور أبيض وثور أسود.. والثور الأسود اليوم مريض ولا يستطيع أن يعمل.. والثور الأبيض لا يطيق

جر الحراثة وحده.. فأريدك أن تقوم اليوم بوظيفة الثور الأسود.. فأنت قوي أيها الباشا.. أنت قائد.. أنت رئيس.. تسير في الأمام دائمًا..

توجه الباشا بكل كبرياء إلى الحراثة.. ووقف بجانب الثور الأبيض.. أقبل المزارع إليه وبدأ بالثور الأبيض وربطه بالحبال ليجر المحراث..

ثم توجه إلى الباشا وهو يردد قائلاً: يا أحسن باشا في العالم.. يا قوي.. يا بطل.. والباشا يتلفت في زهو..

ثم ربط الحبال في كتفي الباشا.. وركب هو على الحراثة معه السوط!!

وصاح: امش.. وضرب ظهر الثور فتحرك.. وتحرك الباشا يجر المحراث..

والفلاح يردد: جميل يا باشا.. ممتاز يا ملك..

ويضرب ظهر الثور.. ويصيح: أقوى يا باشا.. أحسن يا باشا!!

والباشا المسكين لم يتعود على ذلك.. لكنه كان يجر بكل قوته.. من الصباح حتى غابت الشمس.. وكأنه غائب العقل..

فلما انتهى.. فك الفلاح عنه الحبال.. وهو يقول: والله شغلك جميل يا باشا.. هذا أحسن يوم مر علي يا باشا..

ثم ناوله بضعة جنيهات.. ومضى الباشا إلى بيته..

دخل على أولاده.. وقد تقرحت كتفاه.. وسالت الدماء من أسفل قدميه.. والعرق يغرق ثيابه.. و.. لكنه لا يزال منتشيًا مخدرًا..

سأله أولاده: هاه.. هل وجدت عملاً؟!

فقال - بكل بفخر -: نعم.. أنا الباشا.. كيف لا أجد عملاً!

فقالوا: فماذا اشتغلت؟!

فقال: اشتغلت.. هاه!! اشتغلت!! وبدأ يصحو من تخديره..

ويدرك ما أصابه..

سكت قليلاً ثم قال: اشتغلت ثورًا!!!

قرار..

اختر أطيب الكلام كما تختار أطيب الثمر..

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال!!

من أصعب اللحظات أن يقصدك صاحب حاجة.. ثم يرجع خائبًا غير مقضية حاجته..

نعم قضاء حاجات الناس طاعة عظيمة..

ولو لم يكن فيها إلا قوله ﷺ: «لئن أمشي مع أخي في حاجة حتى أثبتها له، أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهرًا»[٩٢] لكفى في فضلها..

لكن بعض الحاجات يصعب قضاؤها..

فليس كل من طلب منك أن تسلفه مالاً قدرت على إعطائه...

ولا كل من طلب منك مرافقته في سفر قدرت على تلبية طلبه.. ولا كل من طلب حاجة معك كقلم أو ساعة أو غيرها.. استطعت إعطاءها له..

والمشكلة أن أكثر الناس إذا لم تلبّ حاجاتهم وجدوا عليك في أنفسهم.. وقد يذمونك في المجالس ويتهمونك تارة بالبخل.. وتارة بالأنانية.. وتارة..

إذًا ما العمل؟!

كن ماهرًا في الخروج من الموقف.. فإذا طلب منك أحد شيئًا ولم تستطع قضاءه فعلى الأقل رده بعبارات جميلة.. كما قال:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

فلو علم شخص بأنك ستسافر إلى مدينة معينة.. فجاءك وقال: أريدك أن تشتري لي حاجة من المدينة التي أنت مسافر إليها..

وأنت لا رغبة لك في قضاء حاجته لأي سبب..

فكيف تجيب؟

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال..

قل له: والله يا فلان أتمنى أن أخدمك بعيوني.. وأنت أحب إلي من أناس كثير.. لكني أخشى أن يضيق وقتي.. وعندي بعض الظروف تمنعني من إحضارها.. و..

---

(٩٢) رواه الطبراني وهو حسن.

ولو دعاك إلى وليمة وأردت أن تعتذر وخشيت أن يجد في نفسه عليك.. فقدم مقدمات.. قل – مثلاً – أنا ما أعتبرك إلا كواحد من إخواني.. وأنت من أغلى الناس إلى قلبي.. لكني مشغول الليلة..

وأنت لم تكذب فقد يكون شغلك هذا جلسة مع أولادك.. أو قراءة في كتاب.. أو نوم!! فهي كلها أشغال..

وقد كان نبينا وقرة أعيننا محمد ﷺ يملك الناس بأخلاق يأسر بها قلوبهم..

انظر إليه عليه السلام.. وقد جلس مع أصحابه الكرام.. فحدثهم عن البيت الحرام.. وفضل العمرة والإحرام.. فطارت أفئدتهم شوقًا إلى ذاك المقام..

فأمرهم بالتجهز للرحيل إليه.. وحثهم على التسابق عليه..

فما لبثوا أن تجهزوا.. وحملوا سلاحهم وتحرزوا..

فخرج ﷺ مع ألف وأربعمائة من أصحابه.. مهللين بالعمرة ملبين.. يتسابقون إلى البلد الأمين..

فلما اقتربوا من جبال مكة.. بركت القصواء – ناقة النبي عليه السلام –.. فحاول أن يبعثها لتسير.. فأبت عليه..

فقال الناس: خلأت القصواء.. -أي عصت-..

فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء.. وما ذاك لها بخلق.. ولكن حبسها حابس الفيل» -يعني فيل أبرهة لما أقبل به مع جيش من اليمن يريد هدم الكعبة فحبسهم الله عن ذلك-..

ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطّة يعظمون فيها حرمات الله.. إلا أعطيتهم إياها..

ثم زجر ناقته فوثبت..

فتوجه إلى مكة.. حتى نزل بالحديبية قريبًا من مكة..

فتسامع به كفار قريش.. فخرج إليه كبارهم ليردوه عن مكة.. فأبى إلا أن يدخلها معتمرًا..

فمازالت البعوث بينه وبين قريش تتوالى..

حتى أقبل عليه سهيل بن عمرو.. فصالح النبي ﷺ على أن يعودوا إلى المدينة.. ويعتمروا في العام القادم..

ثم كتبوا بينهم صلحًا عامًا.. وفيه:

اشترط سهيل.. أن لا يخرج من مكة مسلم مستضعف يريد المدينة.. إلا رُدَّ إلى مكة.. أما من خرج من المدينة وجاء إلى مكة مرتدًا إلى الكفر.. فيُقبل في مكة!!

فقال المسلمون: سبحان الله!! من جاءنا مسلمًا نرده إلى الكافرين!! كيف نرده إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟!

فبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم.. شاب يسير على الرمضاء.. يرفل في قيوده.. وهو يصيح: يا رسول الله..

فنظروا إليه.. فإذا هو أبو جندل ولد سهيل بن عمرو.. - وكان قد أسلم فعذبه أبوه وحبسه..-

فلما سمع بالمسلمين.. تفلت من الحبس وأقبل يجر قيوده.. تسيل جراحه دمًا.. وتفيض عيونه دمعًا.. ثم رمى بجسده المتهالك بين يدي النبي ﷺ.. والمسلمون ينظرون إليه..

فلما رآه سهيل.. غضب!! كيف تفلت هذا الفتى من حبسه!.. ثم صاح بأعلى صوته:

هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ..

فقال ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد..

قال سهيل: فوالله إذًا لا أصالحك على شيء أبدًا..

فقال ﷺ: فأجزه لي..

قال: ما أنا بمجيزه لك..

قال ﷺ: بلى فافعل..

قال: ما أنا بفاعل..

فسكت النبي ﷺ.. فقد كان بأبي هو وأمي حريصًا على تقريب قريش إلى الإسلام قدر المستطاع... ولم يشأ أن يجعل مشكلة مسلم واحد تعطل صلحًا

كاملاً..

وقام سهيل سريعًا إلى ولده يجره بقيوده.. وأبو جندل يصيح ويستغيث بالمسلمين..

يقول: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا.. ألا ترون ما قد لقيت من العذاب.. ولا زال يستغيث بهم حتى غاب عنهم..

والمسلمون تذوب أفئدتهم حزنًا عليه..

فتى في ريعان الشباب.. يُشدد عليه العذاب.. وينقل من العيش الرغيد - إلى البلاء الشديد.. وهو ابن سيد من السادات.. طالما تنعم بالملذات.. وتلذذ بالشهوات..

ثم يجر أمام المسلمين بقيوده.. ليعاد إلى سجنه وحديده.. وهم لا يملكون له شيئًا..

مضى أبو جندل إلى مكة وحيدًا.. يسأل ربه الثبات على الدين.. والعصمة واليقين..

أما المسلمون فقد رجعوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.. وهم في حنق شديد على الكافرين.. وحزن على المسلمين المستضعفين..

ثم اشتد العذاب على الضعفاء في مكة.. حتى لم يطيقوا له احتمالاً..

فبدأ أبو جندل.. وصاحبه أبو بصير.. والمستضعفون في مكة.. يحاولون التفلت من قيودهم..

حتى استطاع أبو بصير رضي الله عنه أن يهرب من حبسه.. فمضى من ساعته إلى المدينة.. يحمله الشوق ويحدوه الأمل.. في صحبة النبي ﷺ وأصحابه..

مضى يطوي قفار الصحراء.. تحترق قدماه على الرمضاء..

حتى وصل المدينة.. فتوجه إلى مسجدها..

فبينما النبي ﷺ في المسجد مع أصحابه.. إذ دخل عليهم أبو بصير.. عليه أثرُ العذاب.. ووعثاءُ السفر.. وهو أشعث أغبر..

فما كاد يلتقط أنفاسه حتى أقبل رجلان من كفار قريش فدخلا المسجد.. فلما رآهما أبو بصير.. فزع واضطرب.. وعادت إليه صورة العذاب.. فإذا هما

يصيحان:

يا محمد.. رده إلينا العهدُ الذي جعلت لنا..

فتذكر النبي ﷺ عهده لقريش أن يرد إليهم من يأتيه من مكة.. فأشار إلى أبي بصير.. أن يخرج من المدينة.. فخرج معهما أبو بصير..

فلما جاوزا المدينة.. نزلا لطعام.. وجلس أحدهما عند أبي بصير.. وغاب الآخر ليقض حاجته..

فأخرج القاعد عند أبي بصير سيفه.. ثم أخذ يهزه.. ويقول مستهزئًا بأبي بصير: لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يومًا إلى الليل..

فقال له أبو بصير: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا..

فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به.. ثم جربت..

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه.. فناوله إياه!

فما كاد السيف يستقر في يده.. حتى رفعه ثم هوى به على رقبة الرجل فأطار رأسه..

فلما رجع الآخر من حاجته.. رأى جسد صاحبه مُفرقًا.. مجندلاً ممزقًا.. ففزع.. وفرَّ حتى أتى المدينة.. فدخل المسجد يعدو..

فلما رآه ﷺ مقبلاً.. فزعًا.. قال: لقد رأى هذا ذعرًا!

فلما وقف بين يديه ﷺ صاح من شدة الفزع.. قُتِل والله صاحبي.. وإني لمقتول..

فلم يلبث أن دخل عليهم أبو بصير.. تلتمع عيناه شررًا.. والسيف في يده يقطر دمًا..

فقال: يا نبي الله.. قد أوفى الله ذمتك.. قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم.. فضمني إليكم..

قال ﷺ: «لا..»

فصاح أبو بصير بأعلى صوته.. قال: أوْ.. يا رسول الله.. أعطني رجالاً أفتح لك مكة..

فأعجب النبي ﷺ بشجاعته.. لكنه لا يستطيع أن ينفذ له طلبه فبينه وبين أهل مكة عهد.. لكنه ﷺ أراد أن يرده بلطف.. فليسعد النطق إن لم يسعد الحال..

التفت ﷺ إلى أصحابه وقال مادحًا لأبي بصير:

«ويل أمه!! مسعّر حرب لو كان معه رجال..»

فكانت هذه الكلمات بمثابة التخفيف والاعتذار من أبي بصير..

وظل أبو بصير واقفًا عند باب المسجد ينتظر إذن النبي ﷺ له بالمكوث في المدينة..

لكنه ﷺ تذكر عهده مع قريش فأمر أبا بصير بالخروج من المدينة.. فسمع أبو بصير وأطاع..

نعم.. وما حمل في نفسه على الدين.. ولا انقلب عدوًا للمسلمين..

فهو يرجو ما عند الحليم الكريم.. من الثواب العظيم.. الذي من أجله ترك أهله.. وفارق ولده.. وأتعب نفسه.. وعذب جسده..

خرج أبو بصير من المدينة.. فاحتار أين يذهب.. ففي مكة عذاب وقيود.. وفي المدينة مواثيق وعهود.. فمضى إلى سيف البحر على ساحل البحر الأحمر.. فنزل هناك.. في صحراء قاحلة.. لا أنيس فيها ولا جليس..

فتسامع به المسلمون المستضعفون بمكة.. فعلموا أنه باب فرج انفتح لهم.. فالمسلمون في المدينة لا يقبلونهم.. والكفار في مكة يعذبونهم..

فتفلت أبو جندل من قيوده.. فلحق بأبي بصير..

ثم جعل المسلمون يتوافدون إليه في مكانه.. حتى كثر عددهم.. واشتدت قوتهم.. فجعلت لا تمر بهم قافلة تجارة لقريش.. إلا اعترضوا لها..

فلما كثر ذلك على قريش.. أرسلوا إلى النبي ﷺ يناشدونه بالله أن يضمهم إليه..

فأرسل النبي ﷺ إليهم أن يأتوا المدينة..

فلما وصل إليهم الكتاب.. استبشروا وفرحوا.. لكن أبا بصير كان قد نزل به مرض الموت.. وهو يردد قائلاً:

ربي العلي الأكبر من يَنْصُر الله فسوف يُنصَرْ.. فلما دخلوا عليه وأخبروه أن النبي ﷺ أذن لهم بسكنى المدينة.. وأن غربتهم انتهت.. وحاجتهم قضيت.. ونفوسهم أمنت..

استبشر أبو بصير.. ثم قال وهو يصارع الموت:
أروني كتاب رسول الله ﷺ.. فناولوه إياه..
فأخذه فقبله.. ثم جعله على صدره.. وقال:
أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله..
أشهد ان لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله..
ثم شهق ومات..
فرحم الله أبا بصير.. وصلى على نبي الرحمة وسلم تسليمًا كثيرًا..
ومن الإسعاد بالنطق والسحر بالكلام.. أن تراعي من معك إذا جاملك.. وتتلطف معه.. ذُكر أن امرأة فقيرة اضطجعت بجانب زوجها على فراش عتيق.. في كوخ قديم.. جدرانه مرقعة.. وسقفه من جذوع النخل..
فجالت ببصرها تنظر إلى جدران بيتها.. ثم ركّزت بصرها إلى السقف.. وسرحت بفكرها بعيدًا.. ثم قالت: تدري ماذا أتمنى؟
قال: هاه!! ماذا تتمنين؟
قالت: أتمنى أن نملك بيتًا كبيرًا تسعد فيه مع أولادك.. وتدعو إليه أصدقاءك.. ونملك سيارة فارهة.. ترتاح إذا سقتها..
يزيد راتبك ضعفين حتى تسدد ديونك.. و..
ومضت المسكينة تسرد له بحماس أسباب السعادة التي تتمناها له..
والرجل غارق في أحلام خيبته.. يائس من صلاح حاله.. لا يملك أية مهارة من مهارات الكلام..
فلما تعبت قالت له: وأنت ماذا تتمنى؟!
فنظر إلى السقف طويلاً ثم قال: أتمنى أن ينطلق جذع من هذا السقف ويقع على رأسك فيقسمه نصفين!!

حديث..

سألوه ﷺ: ما أكثر ما يدخل الناس النار؟
فقال: «هذا وهذا..» يعني: الفرج واللسان.

الدعاء..

لا أعني هنا الكلام عن فضل الدعاء.. وآدابه وشروط إجابته.. فهذا ليس له علاقة مباشرة بما نناقشه هنا «مهارات التعامل مع الناس»..

وإنما أعني: كيف تجعل الدعاء مهارة في كسب الناس؟

وأول ذلك أن تدعو الله أيضًا أن يهديك إلى أحسن الأخلاق.. كما كان الحبيب ﷺ يدعو قائلاً: (اللهم لك الحمد.. لا إله إلا أنت.. سبحانك وبحمدك.. ظلمت نفسي.. واعترفت بذنبي.. فاغفر لي ذنوبي.. لا يغفر الذنوب إلا أنت.. اهدني لأحسن الأخلاق.. لا يهدي لأحسنها إلا أنت.. واصرف عني سيئها.. إنه لا يصرف سيئها إلا أنت.. لبيك وسعديك والخير بيديك..)[٩٣].

نعود إلى أصل كلامنا.. كيف تجعل الدعاء مهارة في كسب قلوب الناس..؟

الناس عمومًا يحبون الدعاء لهم.. حتى عند السلام عليهم ولقائهم يفرحون إن دعوت لهم.. فمع قولك: كيف الحال وما الأخبار؟ أضف إليها: الله يحرسك.. الله يجعلك مباركًا.. الله يثبت قلبك..

ولا تكن عبارات دعائك مستهلكة أو اعتيادية مثل: الله يوفقك.. الله يحفظك.. نعم هي دعاء حسن لكن السامع اعتاد عليه حتى لم يعد يرن في أذنه عند سماعه.. وإن قابلت أحدًا معه أولاده.. فادع لهم وهو يسمع.. الله يقر بهم عينك.. الله يجمع شملكم.. الله يرزقك برهم.. ونحو ذلك..

أنا أحكي هذا عن تجربة.. لقد جربته كثيرًا كثيرًا.. فرأيته يسلب قلوب الناس سلبًا..

دعيت في ليلة من ليالي شهر رمضان قبل سنتين إلى لقاء مباشر في إحدى القنوات الفضائية.. كان اللقاء حول أحوال العبادة في رمضان.. وكان انعقاد اللقاء في مكة المكرمة في غرفة بأحد الفنادق مطلة على الحرم..

كنا نتحدث عن رمضان.. والمشاهدون يرون من خلال النافذة التي خلفنا المعتمرين والطائفين خلفنا على الهواء مباشرة..

(٩٣) خرجه أبو عوانة بهذا اللفظ وهو صحيح.

كان المنظر مهيبًا.. حتى إن مقدم البرنامج رق قلبه وبكى أثناء الحلقة..

وكان الجو إيمانيًا.. ما أفسده علينا إلا أحد المصورين!!

كان هذا المصور يمسك كاميرا التصوير بيده.. واليد الثانية فيها سيجارة!! وكأنه يريد أن لا تضيع عليه لحظة من ليل رمضان إلا وقد أشبع رئتيه سيجارًا!!

أزعجني هذا كثيرًا.. وخنقني وصاحبي الدخان..

لكن لم يكن بد من الصبر.. فاللقاء مباشر.. وما حيلة المضطرب إلا ركوبها!!

مضت ساعة كاملة.. وانتهى اللقاء بسلام..

أقبل إلي المصور – والسيجارة في يده – شاكرًا مثنيًا.. فشددت على يده وقلت: وأنت أيضًا أشكرك على مشاركتك في تصوير البرامج الدينية.. ولي إليك كلمة لعلك تقبلها.. قال: تفضل.. تفضل..

قلت: الدخان والسجا..

فقاطعني: لا تنصحني.. والله ما فيه فائدة يا شيخ..

قلت: طيب اسمع مني.. أنت تعلم أن السجاير حرام وأن الله يقول..

فقاطعني مرة أخرى: يا شيخ لا تضع وقتك.. أنا مضى لي أكثر من أربعين سنة وأنا أدخن.. الدخان يجري في عروقي.. ما فيه فاائدة.. كان غيرك أشطر!!

قلت: يعني ما فيه فائدة؟!!

فأحرج مني وقال: ادع لي.. ادع لي..

فأمسكت يده وقلت: تعال معي..

قال: إلى أين؟

قلت: تعال ننظر إلى الكعبة..

فوقفنا عند النافذة المطلة على الحرم.. فإذا كل شبر فيه مليء بالناس.. ما بين راكع وساجد.. ومعتمر وباك.. كان المنظر فعلاً مؤثرًا..

قلت: هل ترى هؤلاء؟

قال: نعم..

قلت: جاؤوا من كل مكان.. بيض وسود.. عرب وأعاجم.. أغنياء وفقراء.. كلهم يدعون الله أن يتقبل منهم ويغفر لهم..

قال: صحيح.. صحيح..

قلت: أفلا تتمنى أن يعطيك الله ما يعطيهم؟.

قال: بلى...

قلت: ارفع يديك.. وسأدعو لك.. وأمّن على دعائي...

رفعت يدي وقلت: اللهم اغفر له.. قال: آمين.. قلت: اللهم ارفع درجته واجمعه مع أحبابه في الجنة.. اللهم...

ولا زلت أدعو حتى رق قلبه وبكى.. وأخذ يردد: آمين.. آمين...

فلما أردت أن أختم الدعاء.. قلت: اللهم إن ترك التدخين فاستجب هذا الدعاء، وإن لم يتركه فاحرمه منه...

فانفجر الرجل باكيًا.. وغطى وجهه بيديه وخرج من الغرفة...

مضت عدة شهور.. فدعيت إلى مقر تلك القناة للقاء مباشر.. فلما دخلت المبنى فإذا برجل بدين يقبل عليّ ثم يسلم عليّ بحرارة.. ويقبل رأسي.. وينحني على يدي ليقبلها.. وهو متأثر جدًا...

فقلت له: شكر الله لطفك.. وأدبك.. وأقدر لك محبتك.. لكن اسمح لي فأنا لم أعرفك...

فقال: هل تذكر المصور الذي نصحته قبل سنتين ليترك التدخين؟!.

قلت: نعم...

قال: أنا هو.. والله يا شيخ إني لم أدخل سيجارة في فمي منذ تلك اللحظة...

ومادام أني فتحت كتاب ذكرياتي فلأزدك منها.. وما أجمل الذكريات إذا كانت سارة...

في موسم الحج قبل ثلاث سنوات.. ذهبت لإلقاء كلمة في إحدى حملات الحج الكبرى في صلاة العصر.. بعد الكلمة ازدحم الناس يسألون ويسلمون.. حاولت التخلص السريع لارتباطي بمحاضرة بعدهم فورًا في حملة أخرى...

لاحظت من بينهم شابًا يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.. مستح أن يزاحم الناس...

التفتُّ إليه.. ومددت يدي نحوه فصافحني.. ثم سألته في وسط الزحام..: عندك سؤال؟.

قال: نعم...

فجررته إليَّ والناس مزدحمون.. حتى اقترب...

قلت: ما سؤالك؟.

فقال وهو مستعجل: ذهبت لرمي الجمرات.. معي جدتي وأختي.. وكان زحامًا شديدًا .. و.. انتهى من سؤاله.. فأجبته عليه...

شممت منه خلال ذلك رائحة دخان.. فتبسمت وسألته: تدخن؟.

قال: نعم...

قلت: أسأل الله أن يغفر لك.. ويتقبل حجك.. إن تركت التدخين من هذه اللحظة...

سكت الشاب.. كان واضحًا من وجهه أنه تأثر بالكلام...

مضت ثمانية أشهر.. فذهبت لإلقاء محاضرة في إحدى المدن.. أقبلت إلى المسجد.. فإذا شاب وقور ينتظرني عند بابه.. تفاجأت به لما رآني.. يقبل عليَّ متحمسًا ويسلم بحرارة.. لم أعرفه.. لكني بادلته السلام والترحيب...

قال: هل عرفتني...؟

قلت: أشكر لك لطفك.. ومحبتك.. لكني لم أعرفك...

قال: هل تذكر الشاب المدخن الذي قابلته في الحج.. ونصحته بترك التدخين؟.

قلت: نعم.. نعم...

قال: أنا هو.. أبشرك ولله الحمد أني ما وضعت السيجارة في فمي منذ تلك اللحظة.. تركت التدخين.. فصلحت كثير من أمور حياتي...

هززت يده مشجعًا.. ومضيت.. وقد أيقنت أن الدعاء للناس في وجوههم.. وهم يسمعون.. ربما يكون أكثر تأثيرًا من النصح المباشر...

ومثله لو رأيت شابًا بارًا بأبيه.. فقلت له: جزاك الله خيرًا.. الله يوفقك.. الله يجعل أولادك بارين بك...

بلا شك أن هذا الدعاء سيكون دافعًا له أكثر...

كان النبي الكريم.. عليه أفضل الصلاة والتسليم.. مبدعًا في استعمال

الدعاء لدعوة الناس وكسبهم والتأثير فيهم لتقريبهم للدين...

الطفيل بن عمرو كان سيدًا مطاعًا في قبيلته دوس...

قدم مكة يومًا في حاجة.. فلما دخلها.. رآه أشراف قريش.. فأقبلوا عليه.. وقالوا: من أنت؟.

قال:أنا الطفيل بن عمرو.. سيد دوس...

فخافت قريش أن يقابل الطفيل النبي ﷺفيدخل في الإسلام...

فقالوا:إن ههنا رجلاً في مكة يزعم أنه نبي.. فاحذر أن تجلس معه أو تسمع كلامه.. فإنه ساحر.. إن استمعت إليه ذهب بعقلك...

قال الطفيل:فوالله ما زالوا بي يخوفونني منه.. حتى أجمعتُ ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه.. بل حشوت في أذنيَّ كرسفا -وهو القطن- خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا مارّ به...

قال الطفيل:فغدوت إلى المسجد.. فإذا رسول الله ﷺقائم يصلي عند الكعبة.. فقمت منه قريبًا .. فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله...

فسمعت كلامًا حسنًا...

فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب.. ما يخفى عليَّ الحسنُ من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي به حسنًا قبلته.. وإن كان قبيحًا تركته.. فمكثت حتى قضى صلاته...

فلما قام منصرفًا إلى بيته تبعته.. حتى إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: يا محمد.. إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. ووالله ما بَرحوا يخوّفونني منك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك.. وقد سمعت منك قولاً حسنًا.. فاعرض عليَّ أمرك...

فابتهج النبي عليه الصلاة والسلام.. وفرح.. وعرض الإسلام على الطفيل.. وتلا عليه القرآن.. .

فتفكر الطفيل في حاله.. فإذا كل يوم يعيشه يزيده من الله بعدًا..وإذا هو يعبد حجرًا!!.

لا يسمع دعاءه إذا دعاه.. ولا يجيب نداءه إذا ناداه.. وهذا الحق قد تبين له...

ثم بدأ الطفيل يتفكر في عاقبة إسلامه...

كيف يغير دينه ودين آبائه!!...

ماذا سيقول الناس عنه؟!.

حياته التي عاشها!...

أمواله التي جمعها!...

أهله!...

ولده!...

جيرانه!...

خلانه!...

كل هذا سيضطرب...

سكت الطفيل.. يفكر...

يوازن بين دنياه وآخرته...

وفجأة إذا به يضرب بدنياه عرض الحائط...

نعم سوف يستقيم على الدين.. وليرض من يرضِى.. وليسخط من يسخط...

وماذا يكون أهل الأرض.. إذا رضي أهل السماء...

ماله ورزقه بين من في السماء...

صحته وسقمه بيد من في السماء...

منصبه وجاهه بيد من في السماء...

بل حياته وموته بيد من في السماء...

فإذا رضي أهل السماء.. فلا عليه ما فاته من الدنيا...

إذا أحبه الله.. فليبغضه بعدها من شاء.. وليتنكر له من شاء.. وليستهزئ به من شاء...

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

نعم.. أسلم الطفيل في مكانه.. وشهد شهادة الحق...

ثم ارتفعت همته.. فقال: يا نبي الله.. إني امرؤ مطاع في قومي.. وإني راجع إليه وداعيهم إلي الإسلام...

ثم خرج الطفيل من مكة ..مسرعًا إلى قومه .. حاملاً همَّ هذا الدين.. يصعد به جبل.. وينزل به واد.. حتى وصل ديار قومه...

فلما دخلها.. أقبل إليه أبوه.. وكان شيخًا كبيرًا.. كبر سنه واقتربت منيته وهو يعبد الأصنام.. فأراد الطفيل أن يتبع معه أسلوبًا حازمًا يدعوه به إلا الإسلام...

فقال الطفيل: إليك عني يا أبت.. فلست منك ولست مني...

فزع أبوه وقال: ولم يا بني؟.

قال: أسلمتُ وتابعت دين محمد ﷺ..

قال الأب: أي بنيَ ديني دينك...

قال: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك.. ثم ائتني حتى أعلمك مما عُلّمت...

فذهب أبوه واغتسل وطهر ثيابه.. ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم...

ثم مشى الطفيل إلى بيته.. فأتته زوجته مرحبة...

فقال: إليك عني.. فلست منك ولست مني...

قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي...

قال: فرق بيني وبينك الإسلام.. وتابعت دين محمد ﷺ...

قالت: فديني دينك...

قال: فاذهبي فتطهري.. ثم ارجعي إليَّ.. فوّلته ظهرها ذاهبة...

ثم خافت من صنمهم أن يعاقبها في أولادها إن تركت عبادته.. فرجعت إليه وقالت:.

بأبي أنت وأمي.. أما تخشى على الصبية من ذي الشرى..؟.

وذو الشرى صنم عندم يعبدونه.. وكانو يرون أن من ترك عبادته أصابه أو أصاب ولده بأذى...

فقال الطفيل: اذهبي.. أنا ضامن لك أن لا يضرهم ذو الشرى...

فذهبت فاغتسلت .. ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت...

ثم جعل الطفيل يطوف في قومه .. يدعوهم إلى الإسلام بيتًا بيتًا...

يقبل عليهم في نواديهم ...

ويقف عليهم في طرقاتهم...

لكنهم أبوا إلا عبادة الأصنام.. فغضب الطفيل.. وذهب إلى مكة...

فأقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن دوسًا قد عصت وأبت.. يا رسول الله...

فادع الله عليهم...

فتغير وجه النبي عليه الصلاة والسلام.. ورفع يديه إلى السماء.. فقال الطفيل في نفسه: هلكت دوس.. فإذا بالرحيم الشفيق ﷺ.. يقول: « اللهم اهد دوسًا.. اللهم اهد دوسًا.. ثم التفت إلى الطفيل وقال: ارجع إلى قومك.. فادعهم.. وارفق بهم...

فرجع إليهم .. فلم يزل بهم.. حتى أسلموا...

نعم.. ما أحسن قرع أبواب السماء.. ليس مع الطفيل وقومه فقط.. وإنما غيرهم كثير...

كان المسلمون في بداية الدعوة النبوية قلة.. لم يتعدوا ثمانية وثلاثين رجلا...

ألحَّ أبو بكر يومًا على رسول الله ﷺ في الظهور أمام الناس بالدعوة والجهر بالإسلام...

فقال ﷺ: يا أبا بكر.. إنا قليل...

كان أبو بكر رضي الله عنه متحمسًا.. فلم يزل يلحّ على رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا فخرجوا.. يتقدمهم رسول الله ﷺ...

توجهوا إلى المسجد الحرام.. تفرقوا في نواحي المسجد .. كل رجل في عشيرته.. وقام أبو بكر في الناس خطيبًا.. يدعو إلى الإسلام.. ويذم آلهتهم...

ثار المشركون على المسلمين.. فضربهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا.. كان المشركون كثير.. فتفرق المسلمون.. أقبل جمع من المشركين إلى أبي بكر.. وضربوه ضربًا شديدًا.. فوقع على الأرض في شدة الرمضاء...

فدنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة.. فجعل يضربه بنعلين مخصوفين.. ويفركهما على وجهه.. ثم قام على بطن أبي بكر .. حتى سالت الدماء من وجه أبي بكر .. وتمزق لحم وجهه.. حتى ما يعرف فمه من أنفه...

وجاء بنو تيم قبيلة أبي بكر.. يتعادون.. وأبعدوا الناس عن أبي بكر.. وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله.. وهم لا يشكّون أنه ميت.. ثم رجع قومه بنو تيم.. فدخلوا المسجد.. وجعلوا يصرخون في المشركين.. يقولون: .

والله لئن مات أبو بكر رلنقتلن عتبة بن ربيعة.. ثم رجعوا إلى أبي بكر.. وهو مغمى عليه.. لا يدرون.. حي أو ميت!!.

ظل أبو قحافة والد أبي بكر.. مع قومه.. واقفين عند أبي بكر.. يكلمونه.. فلا يجيبهم...

وأمه تبكي عند رأسه...

فلما كان آخر النهار.. فتح عينيه.. فكان أول كلمة قالها: ما فعل رسول الله ﷺ ..؟!.

رضي الله عن أبي بكر...

كان يهيم برسول الله ﷺ حبًا.. يخاف عليه أكثر مما يخاف على نفسه...

كان كل من حوله.. أبوه.. أمه.. قومه.. مشركين.. فغضبوا.. وجعلوا يسبون رسول الله ﷺ .. ثم قاموا.. وقالوا لأم أبي بكر: أطعميه شيئًا أو اسقيه...

فجعلت أمه تلح عليه.. وهو يردد قائلاً: ما فعل رسول الله ﷺ ..؟.

فقالت: والله ما لي علم بصاحبك...

فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب.. فسليها عنه...

وكانت أم جميل مسلمة تكتم إسلامها...

خرجت أمه حتى جاءت أم جميل...

فقالت: ما أعرف أبا بكر .. ولا محمد بن عبد الله.. لكن أتحبين أن أمضي معك إلى ابنك؟.

قالت: نعم...

فمضت معها.. حتى دخلت على أبي بكر...

فوجدته صريعًا دنفًا.. ممزق الوجه.. مرهق الجسد.. فلما رأته أم جميل صاحت.. وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر.. وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم...

التفت إليها أبو بكر بعينين مرهقتين.. وجسد مصاب...

ووجه ممزّق .. وقلب كبير مليء بمحبة الدين.. وقال: فما فعل رسول الله ﷺ...

وكانت أم أبي بكر بجانبها.. فخافت أم جميل أن يُفضَح أمر إسلامها فيؤذوها...

فقالت: يا أبا بكر.. هذه أمك تسمع...

قال: فلا شيء عليك منها...

قالت: أبشر.. فرسول الله ﷺ.. سالم صالح...

قال: فأين هو؟.

قالت: في دار أبي الأرقم...

فقالت أمه: قد علمت خبر صاحبك.. فقم فكُلْ طعامًا.. أو اشرب...

قال: فإن لله على أن لا أذوق طعامًا أو شرابًا.. حتى أرى رسول الله ﷺ بعيني...

فانتظرتا.. حتى إذا هدأ الناس.. خرجتا به يجَر خطاه على الأرض من شدة الإعياء.. فذهبتا به إلى بيت أبي الأرقم.. حتى إذا أدخلتاه على رسول الله ﷺ...

فلما دخل فإذا وجه جريح.. ودماء تسيل.. وثياب ممزقة.. فرآه رسول الله ﷺ.. فأكب عليه النبي ﷺ يقبله.. وأكبَ عليه المسلمون قبلونه...

ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.. حتى ظهر التأثر على وجهه الشريف ﷺ ..

فأراد أبو بكر أن يخفف عليه.. فقال: بأبي وأمي يا رسول الله.. ليس من بأس.. إلا ما نال الفاسق من وجهي...

ثم قال أبو بكر.. وهو البطل الذي يحمل هم الدعوة.. ويحسن استثمار المواقف مهما كان حاله...

كان جريحًا.. جائعًا عطشان.. ومع ذلك.. قال: يا رسول الله.. هذه أمي برة

بوالديها.. وأنت مبارك.. فادعها إلى الله عز وجل.. وادع الله لها.. عسى الله أن يستنقذها بك من النار.. .

فدعا لها رسول الله ﷺ .. ثم دعاها إلى الله عز وجل.. فأسلمت فورًا في مكانها.. كان الدعاء أصلاً من الأصول التي يتعاملون بها...

أسلم أبو هريرة رضي الله عنه.. وبقيت أمه كافرة.. كان يدعوها إلى الإسلام فتأبى.. فدعاها يومًا.. وألح فأسمعته في رسول الله ﷺ ما يكره...

فضاق صدر أبي هريرة بذلك.. وذهب إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي.. فقال:

يا رسول الله.. إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي.. وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره...

فادع الله يا رسول الله أن يهدي أم أبي هريرة إلى الإسلام.. فدعا لها رسول الله ﷺ .. فرجع أبو هريرة إلى أمه.. فلما كان على الباب.. فإذا هو مغلق.. فحركه ليدخل.. فإذا بأمه تفتح له الباب.. وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله...

فرجع أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي من الفرح.. وجعل يقول: أبشر يا رسول الله.. قد استجاب الله دعوتك...

وهدى الله أم أبي هريرة إلى الإسلام...

ثم قال أبو هريرة: يا رسول الله!.. ادع الله أن يحبّبني وأمي إلى عباده المؤمنين.. ويحببهم إلينا...

فقال ﷺ: «اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين.. وحببهم إليهما».. قال أبو هريرة: فما على الأرض مؤمن ولا مؤمنة .. إلا وهو يحبني وأحبه.. (٩٤).

إضاءة...

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

---

(٩٤) رواه مسلم.

الترقيع!!

أحيانًا عند ممارستنا لبعض المهارات مع الآخرين نكتشف بأننا أخطأنا تقدير المهارة المناسبة للشخص.. أو قد نكون وضعناها في غير موضعها...

مثل من رأى شابًا وسيمًا.. فأراد أن يمارس معه مهارة «كن لماحًا» فقال الله:.

ما شاء الله ما هذه الثياب الجميلة والرونق البهي والوجه المسفر...

ثم بدل أن يقول: ما أسعد زوجتك بك.. قال: يا ليتك بنتًا حتى أتزوجك!!.

مزحة ثقيييلة جدًا.. أليس كذلك؟!.

قال أحد الزملاء:

في الجامعة كان لدي طالب بليد لكن الله تعالى عوضه عن بلادته بشيء من الوسامة.. وكان يجلس في آخر القاعة دائمًا.. ويسرح بفكره بعيييييدًا...

كنت أطلب منه دائمًا أن يجلس في الأمام ليتابع.. وهو يتغافل عن ذلك.. كنت أتجنب إحراجه أو إحراج غيره من الطلاب فهم كبار في المرحلة الجامعية..

دخلت يومًا فإذا هو منشغل آخر القاعة كعادته.. فلما جلست على الكرسي قلت له:

يا عبد المحسن.. تعال في الأمام...

فقال: يا دكتور مكاني مناسب وسأنتبه معك...

فقلت: «يا أخي اقترب قليلاً خلنا نشوف خدودك الحلوة» .. التفت بعض الطلاب إليه معلقين .. فانقلب وجهه أحمر...

شعرت أني وقعت في حفرة.. فقلت -مُرقعًا-: «الله يا هي بتنبسط البنت اللي بتتزوجك .. أما هؤلاء فيستعبون ليجدوا من توافق على الزواج بهم!!»...

ثم بدأت في شرح الدرس فورًا دون أن أترك فرصة لأحد ليفكر في الموقف أصلاً...

تبسم الطالب وانبلجت أساريره وجلس في المقدمة...

وإن كانت هذه الأخطاء قد تقع في بداية التدرب على ممارسة المهارات لكنها سرعان ما تزول...

وأحيانًا يكون تصرفك المحرج للآخرين أو المحزن لهم ليس خاطئًا.. لكن الموقف يفرضه علينا.. مثل أن يختلف اثنان من زملائك .. فترى أن الحق مع أحدهما فتقف معه.. وقد تعاتب الآخر...

أو قد يقع ذلك بين اثنين من أولادك أو طلابك أو جيرانك.. أو غيرهم...

فما الحل؟.. هل نسمح لهذه المواقف أن تفقدنا الناس واحدًا تلو الآخر ونحن نتعب في استقطابهم والتحبب إليهم..؟!.. كلا...

إذًا ما التصرف الصحيح؟

الجواب: أنك إذا أحسست أن أحدًا ضاق صدره من كلمة صدرت منك.. أو تضايق من تصرف معين فسارع فورًا إلى مداواة الجرح قبل أن يلتهب.. باستعمال أي مهارة أخرى مناسبة...

كيف؟!. خذ مثالاً...

كانت مكة قبل أن يفتحها المسلمون تحت قبضة كفار قريش .. وكانوا قد ضيقوا على المسلمين المستضعفين فيها.. وسيطروا على أبناء المسلمين الذين هاجروا ولم يستطيعوا أخذ أبنائهم معهم...

فعلاً كانت حال المسلمين عصيبة...

أقبل النبي ﷺ إلى مكة معتمرًا فردته قريش.. وكان ما كان من قصة الحديبية.. وكتب ﷺ بينه وبين قريش صلحًا.. واتفق معهم أن يرجع إلى المدينة من غير عمرة على أن يأتي في العام القادم ويعتمر...

ومضى ﷺ إلى المدينة... وبعد سنة أقبل ﷺ مع الصحابة محرمين ملبين .. ودخلوا مكة.. واعتمروا ولبث ﷺ فيها أربعة أيام...

فلما توجه خارجًا منها إلى المدينة تبعته طفلة صغيرة هي ابنة حمزة رضي الله عنه.. وكان قد قُتل في معركة أحد.. وبقيت ابنته يتيمة في مكة...

أخذت الصغيرة تنادي رسول الله ﷺ .. تقول: يا عم يا عم.. وكان علي رضي الله عنه يسير بجانب النبي ﷺ مع زوجته الصالحة فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ .. فتناولها علي رضي الله عنه فأخذ بيدها وناولها لفاطمة وقال: دونك ابنة عمك.. فحملتها فاطمة...

فلما رآها زيد ﷺ.. تذكر أن رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين حمزة لما هاجر إلى المدينة.. فأقبل زيد ثم وهو يقول: بنت أخي.. أنا أحق بها...

أقبل جعفر وقال: ابنة عمي وخالتها زوجتي.. - يعني: أسماء بنت عميس زوجته .. وأنا أحق بها -...

فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي...

فلما رأى ﷺ اختلافهم.. قضى بها لخالتها ودفعها إلى جعفر ليكفلها.. وقال: «الخالة بمنزلة الأم»...

ثم خشي ﷺ أن يجد علي أو زيد في نفسيهما.. لما نزعها منهما...

فقال مواسيًا لعلي: «أنت مني وأنا منك»...

وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»...

ثم التفت إلى جعفر وقال: «أشبهت خَلقي وخُلقي»...

فانظر كيف كان ﷺ حكيمًا ماهرًا في غسل قلوب الآخرين وكسب محبتهم...

طيب.. ما رأيك أن نعود إلى قصة صاحبنا الذي قال: يا ليتك بنتًا حتى أتزوجك!!

كيف يرقع ما خرق!!

بين يديه عدة أبواب للهرب..

منها أن يدخل في موضوع آخر مباشرة ـ لئلا يترك للسامع فرصة ليفكر في الجملة الجارحة التي سمعها منه ـ

فيقول مثلاً: الله يرزقك حورية أجمل منك.. قل: آمين ..

أو يطرح موضوعًا بعيدًا تمامًا.. كان يسأله عن أخيه المسافر.. أو سيارته الجديدة.. أو نحوها.. لئلا يترك له أو لغيره من السامعين حوله أي فرصة للوقوع في الحرج..

تجربة . .

ليس العيب أن تخطئ إنما العيب أن تصر على خطئك..

انظر بعينين . .

نحن نبدع دائمًا في رؤية أخطاء الناس وملاحظتها.. وربما في تنبيههم عليها .. ولكننا قلما نبدع في رؤية الخير الذي عندهم .. والانتباه إلى الصواب الذي يمارسونه .. لنمدحهم به.. قل ذلك مثلاً في المدرس مع طلابه ..

فكل المدرسين يذمون الطالب البليد المهمل في واجباته .. الكسول المتأخر في الحضور

دائمًا . . لكن القليل منهم من يمدح الطالب المجد . . الذي يحضر مبكرًا وخطه حسن وكلامه جيد ..

كثيرًا ما ننبه أولادنا إلى أخطائهم .. لكنهم يحسنون ولا ننتبه إلاّ قليلاً..

مما يجعلنا أحيانًا نفوت فرصًا كثيرة كنا من خلالها نستطيع أن ننفذ إلى قلوب الناس..

فمن أبدع مهارات الكلام .. أن تمتدح الخير الذي عند الناس..

كان قوم أبى موسى الأشعري لهم اهتمام بتلاوة القرآن وحفظه .. وربما فاقوا كثيرًا من الصحابة في كثرة تلاوته وتحسين الصوت به ..

فراقبوا النبي ﷺ يومًا في سفر. فلما أصبح الناس .. واجتمعوا قال عليه الصلاة والسلام: «أني لا أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل .. وأعرف منازلهم .. من أصواتهم بالقرآن بالليل.. إن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار (٩٥)..»

فكأنك بالأشعريين وهم يستمعون هذا الثناء أمام الناس يتوقدون حرصاً بعدها على الخير ..

وفي ذات الصباح.. لقي النبي ﷺ أبا موسى .. فقال له: لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك .. لقد أوتيت من مزامير آل داود.. فابتهج أبو موسى .. وطار فرحًا.. وقال: لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرًا (٩٦).

---

(٩٥) متفق عليه.
(٩٦) رواه الحاكم بهذا اللفظ وهو صحيح، وأصله في الصحيحين.

نعم كان رسول الله ﷺ لا يكتم مشاعره.. بل يفضي بها إلى أهلها .. فهو كما يقول: للمسيء: أسأت، يقول أيضًا للمحسن: أحسنت..

كان عمرو بن تغلب رجلاً من عامة الصحابة..

لم يتميز بعلم كما تميز أبو بكر ..

ولا بشجاعة كما تميز عمر .. ولا بقوة حفظ كأبي هريرة ..

لكن قلبه كان مملوءًا إيماناً .. وكان ﷺ يلحظ ذلك فيه ..

فبينما كان النبي ﷺ جالسًا يومًا .. إذ جيء إليه بمال فجعل يقسمه بين بعض أصحابه وهو عليه الصلاة والسلام له منهج واضح في قسمة أموال الصدقات .. والغنائم .. أو قسمة ما يأتيه من هدايا .. فلم يكن الأمر عنده جُزافًا .. أو ضبط عشواء .. كلا .. وحاشاه ..

فأعطى رجالاً .. وترك رجالاً ..

فكأن الذين تركهم وجدوا في أنفسهم .. وعَتبوا .. لماذا لم يعطنا؟!..

فلما علم ﷺ بذلك أراد أن يسل ما في القلوب قبل أن يكبر .. فقام أمام الناس .. فحمد الله تعالى، ثم أثنى عليه، .. ثم قال:

«أما بعد .. فوالله إني لأعطي الرجل .. وأدع الرجل .. والذي أدعُ أحبُّ إليَّ من الذي أعطي .. ولكني أُعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع .. وأكلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير .. منهم: عمرو بن تغلب ..»

فلما سمع عمرو بن تغلب هذا الثناء على الملإ .. طار فرحًا ..

وكان يُحدِّث بهذا الحديث بعدها .. ويقول: فوالله ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم [٩٧]!.

وفي يوم آخر ..

أقبل أبو هريرة رضي الله عنه .. فسأل النبي ﷺ.. قائلاً: «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» .. فعلاً سؤال رائع .. أحسن ممّ يشغله ﷺ بسؤاله متى الساعة ..

فقال ﷺ - مشجعًا -: «لقد كنت أظن أن لا أحد يسأل عن هذا قبلك .. لما رأيت من حرصك على العلم .. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة ..

---

(٩٧) رواه البخاري.

من قال:لا إله إلا الله خالصًا من قلبه ..»

وسلمان الفارسي ..

كان من خيار الصحابة .. لم يكن من العرب .. بل كان ابنًا لأحد كبار فارس.. وكان أبوه يحبه ويقربه .. لدرجة أنه كان يحبسه في البيت خوفًا عليه..

أدخل الله الإيمان في قلب سلمان ﷺ ..

خرج من بيت أبيه .. سافر إلى الشام باحثًا عن الحق .. احتال بعض الناس عليه وباعوه إلى يهودي على أنه عبد مملوك .. وحصلت له قصة طويييلة .. حتى وصل إلى رسول الله ﷺ..

فكان النبي ﷺيقدر له ذلك ..

فبينما كان ﷺجالسًا بين أصحابه يومًا .. إذا أنزلت عليه سورة الجمعة .. فجعل ﷺيقرؤها على أصحابه .. وهم يستمعون .. وهو يقرأ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ..

فلما قرأ:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾..

قال رجل من الصحابة:من هؤلاء يا رسول الله؟

فسكت النبي ﷺ..

فأعاد الرجل السؤال .. من هؤلاء يا رسول الله؟.. فلم يرد عليه ..

فأعاد:من هؤلاء يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺإلى سلمان ..

ثم وضع يده عليه وقال: «لو كان الإيمان عند الثريا .. لناله رجال من هؤلاء ..»(98)

وجهة نظر ..

تفاءل وأحسن الظن بالناس ..

وشجعهم .. لينطلقوا أكثر

---

(98)متفق عليه.

فن الاستماع ..

مهارات جذب الناس وكسب قلوبهم متنوعة.. بعضها يكون بفعل الشيء.. وبعضها يكون بتركه.. فالابتسامة تجذبهم.. كما أن ترك العبوس يجذبهم..

والأحاديث الجميلة والنكات واللطائف تجذب الناس .. كما أن الاستماع إليهم والتفاعل مع أحاديثهم .. يجذبهم ..

فما رأيك أن أتكلم معك هنا عن: الهدووووء الجذاب!!

نعم.. بعض الناس لا يتكلم كثيرًا .. ولا تكاد تسمع صوته في المجالس والمتجمعات .. بل لو راقبته في جلسة أو نزهة .. لرأيته لا يتحرك منه إلا رأسه وعيناه .. وقد يتحرك فمه أحيانًا .. لكن بالتبسم .. لا بالكلام!! ومع ذلك يحبه الناس .. ويأنسون بمجالسته .. تدري لماذا؟!

لأنه يمارس الهدووووء الجذاااب..

فن الاستماع له مهارات متعددة .. بل حدثني أحد المهتمين أنه حضر أكثر من خمس عشرة دورة تدريبية في مهارات الاستماع ..!!

قارن بين اثنين: رجل إذا تكلمت بين يديه بقصة وقعت لك .. قاطعك في أولها وقال: وأنا أيضًا وقع لي شيء مشابه ..

فتقول: له اصبر حتى أكمل .. فيسكت قليلاً ..

فإذا انسجمت في قصتك .. قاطعك قائلاً: صحيح.. صحيح .. نفس القصة التي وقعت لي وهو أنني ذات مرة ذهبت ..

فتقول له: أخي انتظر ..

فيسكت .. ثم ما يصبر فيقاطعك قائلاً: عجل .. عجل ..

هذا الأول ..

الثاني .. كان وأنت تتحدث معه أو معهم .. يتلفت يمينًا ويسارًا .. وقد يخرج جهاز هاتفه من جيبه .. ويكتب رسالة أو يقرأ شيئًا من الرسائل .. أو من يدري لعله يلعب بالألعاب الإلكترونية الموجودة فيه!!

أما الثالث .. فيملك مهارات الاستماع .. تجد أنك تتحدث وقد ركز عينيه

برفق ينظر إليك .. وتشعر بمتابعته .. فهو تارة يهز رأسه موافقًا .. وتارة يتبسم .. وتارة يضم شفتيه متعجبًا .. وربما ردد: عجيب .. سبحان الله ..

أي هؤلاء ستكون راغبًا دائمًا في مجالسته .. وتفرح بزيارته .. وتنبلج أساريرك في الحديث معه..؟ لا أشك أنه الأخير ..

إذًا جذب قلوب الناس .. لا يكون فقط بإسماعهم ما يحبون .. بل وبالاستماع منهم لما يحبون!!

أذكر أن أحدالدعاة البارزين ممن أُوتي منطقًا ولسانًا .. كان يتنقل متحدثًا دائمًا .. ما بين منبر جمعة .. وكرسي فتوى .. ومحاضرة في جامعة .. فهو دائمًا يتكلم .. ويتكلم .. ويتكلم ..

وكان الناس يرونه على المنابر والقنوات الفضائية ويحبونه ويرغبون في استماع حديثه ..

إلا زوجته .. فهو معها في البيت دائمًا .. ولا يكاد يستمع منها حديثًا أو قصة .. بل على عادته يتكلم .. ويتكلم ..

كانت كثيرة التذمر منه دون أن ينتبه إلى سبب ذلك .. كل الناس يكرمونه ويمدحونه إلا هي .. فقرر أن يصطحبها معه يومًا إلى إحدى محاضراته لترى ما لم تر ..

قال لها يومًا: ترافقيني؟

قالت: إلى أين؟

قال: محاضرة لأحد الدعاة .. نستفيد منها ..

ركبت معه في سيارته .. مشيا .. وقفا عند المسجد ..

كانت الجماهير غفيرة .. كلهم جاؤوا يستمعون إلى هذا المحاضر الفذ ..

دخلت هي إلى قسم النساء .. ودخل هو وسط جمهرة الناس واعتلى الكرسي وبدأ محاضرته ..

كان الناس ينصتون معجبين .. حتى زوجته يبدو أنها كانت معجبة ..!

انتهت المحاضرة .. خرج إلى سيارته وسط نشوة النجاح .. وأقبلت زوجته وركبت السيارة بجانبه ..

لم يدع لها فرصة.. بدأ يتكلم فورًا عن زحمة الناس.. وجمال المسجد.. و..

ثم سألها: ما رأيك في المحاضرة؟

فقالت: كانت جميلة ومؤثرة .. ولكن .. من المحاضر؟

قال: عجبًا! لم تعرفي صوته!!

قالت: مع زحمة الناس .. وضعف سماعات الصوت لم أنتبه كثيرًا ..

فقال - منتشيًا -: أنا .. أنا المحاضر ..

فقالت: آآآ .. وأنا أقول في نفسي طوال جلوسي: ما أكثر كلامه ..

إذًا .. الاستماع إلى الناس فن ومهارة .. بعض الناس ينسى أن الله جعل لك لسانًا واحدًا وأذنين .. ليستمع أكثر مما تكلم .. وأظنه لو استطاع لقلب المعادلة فجعل لنفسه أذنًا ولسانين .. من شدة محبته للحديث ..

فعوِّد نفسك على الإنصات لكلام الآخرين .. حتى لو كان لك على الكلام ملاحظة .. فلا تستعجل ..

في أوائل بعثة النبي ﷺ .. كان عدد المسلمين قليلاً .. وكان الكفار يكذبونه وينفرون الناس عنه .. ويشيعون أنه ﷺ كاهن وكذّاب .. وربما أشاعوا أنه مجنون أو ساحر ..

في يوم من الأيام قدم إلى مكة رجل اسمه: ضماد .. وهو حكيم له علم بالطب والعلاج .. يعالج المجنون والمسحور ..

فلما خالط الناس سمع سفهاء الكفار يقولون عن رسول الله ﷺ : جاء المجنون .. رأينا المجنون ..

فقال ضماد: أين هذا الرجل؟ لعل الله أن يشفيه على يدي؟

فدله الناس على رسول الله ﷺ ..

فلما لقيه ضماد .. وتأمل في وجه رسول الله ﷺ .. فإذا وجه مشرق وزين .. لكن ضمادًا صرح بما جاء لأجله وقال: يا محمد .. إني أرقي من هذه الرياح .. وإن الله يشفي على يدي من شاء .. فهلم أعالجك ..

وجعل يتكلم عن علاجه وقدراته ..

والنبي ﷺ ينصت إليه .. وذاك يتكلم .. والنبي ﷺ ينصت!!

أتدري ينصت إلى ماذا؟ ينصت إلى كلام رجل كافر جاء ليعالجه من مرض الجنون!!

آآه ما أحكمه ﷺ ..

حتى إذا انتهى ضماد من كلامه .. قال ﷺ بكل هدووووء:

«إن الحمد لله .. نحمده ونستعينه .. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ..

فانتفض ضماد وقال: أعد علي كلماتك هؤلاء .. فأعادها ﷺ عليه ..

فقال ضماد: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات .. فلقد بلغن ناعوس البحر .. فهلمّ يدك أبايعك على الإسلام .. فبسط النبي ﷺ يده .. وأخذ ضماد يخلع عن قلبه ثوب الكفر ويردد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ..

فعلم ﷺ أن له عند قومه شرفًا .. فقال له: وعلى قومك؟ - أي تدعوهم إلى الإسلام -

فقال ضماد: وعلى قومي ..

ثم ذهب إلى قومه هاديًا داعيًا ..

إذن لتكون مستمعًا ماهرًا..

أنصت ..

هز رأسك متابعًا ..

تفاعل بتعابير وجهك كتقطيب الجبين حينًا .. ورفع الحاجبين حينًا آخر .. والتبسم .. وتحريك الشفتين بتعجب ..

وانظر إلى أثر ذلك فيمن يتكلم معك .. سواء كان صغيرًا أو كبيرًا ..

ستجد أنه يركز نظره عليك .. ويقبل بقلبه إليك ..

نتيجة ..

براعتنا في الاستماع إلى الآخرين ..

تجعلهم بارعين في محبتنا والاستئناس بنا ..

فن الحوار ..

ألا تذكر يومًا من الدهر أنك جلست في مكان فاحتد الحوار بينك وبين شخص ما .. فبقي في نفسك عليه بغض أو غضب أيامًا ..

أو لعلك تذكر جدالاً حصل بين اثنين – وقد يكون في قضية تافهة – وأنت تنظر إليهما وقد ارتفعت الأصوات واحمرت العيون .. ثم تفرقا .. واستثقل كل منهما صاحبه بعدها ..

إذًا نحن نتعبُ في جذب بعض الناس إلينا بممارسة مهارات متنوعة .. ثم نفرقهم عنا بموقف لا نحسن التصرف فيه ..

ومن ذلك: عدم إتقان فن الحوار ..

المحاور كالذي يصعد جبلاً وعرًا .. ينبغي أن يعتني بموضع يده وموضع رجله .. فتجد صاعد الجبل ينظر إلى الصخرة التي يريد أن يتعلق بها .. ويفحصها بنظره ويتأمل في قوة ثباتها قبل أن يضع عليها قبضته ..

وكذلك في الصخرة التي يثبت عليها قدمه .. ثم إذا أراد أن يرفع قدمه عن صخرة، نظر إلى الصخرة قبل أن يغادرها خشية أن لا يحسن رفع رجله من عليها فتهوي به ..

لن أطيل عليك الكلام .. فخيره ما قل ودل ..

الدخول في الحوار أو الجدال أمر غير محمود .. ولعلك توافقني أن أكثر من ٩٠٪ من الحوارات والمجادلات غير مفيدة ..

فحاول تجنب الجدال قدر المستطاع ..

ولا تغضب إذا اعترض عليك أحد أو جادلك ..

خذ الأمر بأريحية قدر المستطاع ..

ولا تعذب نفسك بالتفكير في نية المعترض ..

ماذا يقصد .. ولماذا أحرجني أمامهم ..

لا تقتل نفسك بالهم .. تعامل مع الموقف بهدوووء .. فالرياح لا تهز إلا الصخور الصغيرة .. وأنت جبل ..

لما قدم النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا .. بعدما نقضت قريش العهد .. كان ﷺ قد دعا الله أن يعمي عنه قريش .. ليبغتهم .. قبل أن يستعدوا للقتال ..

فلما أقبل النبي عليه الصلاة والسلام .. إلى مكة نزل قريبًا منها .. ولم تعلم قريش بشيء .. ولكنهم كانوا يتوجسون ويترقبون ..

فخرج في تلك الليلة التي نزل فيها النبي عليه الصلاة والسلام .. أبو سفيان في نفر معه يتجسسون الأنباء .. وينظرون هل يجدون خبرًا .. أو يسمعون به .. وجعل النبي عليه الصلاة والسلام .. يترقب الصبح ليُغير على قريش ..

فلما رأى العباس رضي الله عنه .. ذلك .. قال: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة أي: بالقوة .. قبل أن يأتوه فيستأمنوه .. إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ..

فقام العباس .. فاستأذن النبي عليه الصلاة والسلام .. فأذن له ..

فركب على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء .. ومضى يمشي بها ..

وأبو سفيان في أصحابه .. يقترب من معسكر النبي ﷺ وهو لا يعلم أنه هو وينظر إلى نيران المسلمين .. ويقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا .. ما أعظم هذا .. من ترى هؤلاء ..؟

فقال صاحبه: هذه والله قبيلة خزاعة حمشتها الحرب ..

قال: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ..

جعل أبو سفيان يقترب أكثر وأكثر .. حتى وقع في قبضة جمع من حرس المسلمين .. فاقتادوه إلى جهة رسول الله ﷺ ..

فبينما العباس يسير على البغلة .. إذا بأبي سفيان وأصحابه .. قد قبضت عليهم خيل المؤمنين .. فأقبل أبو سفيان فزعًا .. فركب خلف العباس .. وجعل أصحابه يتبعونه فزعين .. والمؤمنون خلفهم ..

فجعل العباس يسرع بأبي سفيان .. إلى رسول الله ﷺ .. وكلما مر بنار من نيران المسلمين .. قالوا: من هذا؟

فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ .. ورأوا العباس عليها ..

قالوا: عم رسول الله ﷺ .. على بغلة رسول الله ﷺ ..

والعباس يسرع بها .. يخاف أن يفطنوا لأبي سفيان .. حتى مر بنار عمر بن الخطاب ﷺ فقال: من هذا؟ وقام إليهم .. فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ..

صاح بالناس قال: أبو سفيان عدو الله! .. الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ..

فمنعه العباس.. ثم ذهب عمر يشتد.. نحو رسول الله ﷺ .. والعباس يسرع بالدابة.. حتى سبقه العباس.. فلما وصل إلى موضع النبي ﷺ .. اقتحم العباس عن البغلة سريعًا..

فدخل على رسول الله ﷺ ..

فدخل عليه عمر .. وجعل يقول: يا رسول الله .. هذا أبو سفيان .. قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ... فدعني فلأضرب عنقه؟ ..

كان أبو سفيان قد فعل الأعاجيب بالمسلمين .. فهو قائد المشركين في معركة أحد .. وقائدهم في معركة الأحزاب ..

وطالما ضيق على المسلمين .. وقتل وعذب .. وها هو الآن في قبضتهم!!

فقال العباس: يا رسول الله .. إني قد أجرته ..

ثم جلس العباس إلى رسول الله ﷺ .. فأخذ برأسه.. وجعل يناجيه في أذنه..

وعمر يردد: يا رسول الله .. اضرب عنقه ..

فلما أكثر عمر في شأنه .. التفت إليه العباس وقال: مهلاً يا عمر! فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب .. ما قلت هذا ..

أي: لو كان من قرابتك .. ما قلت هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ..

فشعر عمر أنه سيدخل في جدال لا يتناسب مع الحال الذي هم فيه .. ثم ما الفائدة المرجوة من النقاش في مسألة لو كان من بني كعب رغب في إسلامه أما من غيرهم فلا يهمه؟!!

قال عمر بكل هدوووء: مهلاً يا عباس .. مهلاً .. فوالله لإسلامك يوم أسلمت .. كان أحب إلي من إسلام أبي الخطاب لو أسلم! لأني قد عرفت أن إسلامك .. كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب ..

فلما سمع العباس رضي الله عنه ذلك سكت ..

انتهى الحوار..

مع أنه كان في إمكان عمر أن يطيله ويزيده .. فيقول: ماذا تقصد؟!! هل تتهم نيتي؟!

هل تعلم ما في قلبي؟! لماذا نثير النعرة القبلية؟!

كلا لم يقل ذلك .. فهم جميعًا كانوا أرفع من أن ينزغ الشيطان بينهم ..

سكت عمر والعباس رضي الله عنهما ..

وأبو سفيان واقف ينتظر أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم فيه بشيء .. فقال صلى الله عليه وسلم: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به .. فذهب به العباس .. إلى خيمته .. فبات عنده .. فلما أصبح أبو سفيان فجر تلك الليلة .. ورأى الناس يجنحون للصلاة ..

وينتشرون في استعمال الطهارة .. قال للعباس: ما بالهم؟

قال: إنهم قد سمعوا النداء فهم ينتشرون للصلاة..

فلما حضرت الصلاة .. وصفوا صفوفًا .. وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر مصليًا بهم ..

ورآهم يركعون بركوعه .. ويسجدون بسجوده .. عجب من شدة الطاعة والاتباع ..

فلما انقضت الصلاة، أقبل عليه العباس .. ليمضي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فقال أبو سفيان: يا عباس! ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه؟

قال: نعم .. والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه ..

فقال أبو سفيان: يا عباس .. ما رأيت كالليلة .. ولا ملك كسرى وقيصر!

فلما دخل به العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال صلى الله عليه وسلم:

«ويحك يا أبا سفيان .. ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

كانت الليلة التي قضاها أبو سفيان بين المسلمين كفيلة بأن تخفف عداوته ..

فقال: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان لي مع الله إله غيره لأغنى عني شيئًا!

فقال ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

كان أبو سفيان صريحًا فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!

أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا!

فقال له العباس: ويحك يا أبا سفيان! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله .. وأن محمدًا رسول الله ..

فسكت قليلاً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فسُر النبي عليه الصلاة والسلام .. سرورًا عظيمًا ..

فقال العباس: يا رسول الله! .. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا ..

فقال ﷺ: «نعم .. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» ..

فأنشد أبو سفيان رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ .. أبياتًا .. يعتذر إليه مما كان مضى منه ..

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدي وأهتدي

هداني هاد غير نفسي ونالني ... مع الله من طردتُ كل مطرد

أصدُّ وأنأى جاهدًا عن محمد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

فقيل إنه حين قال:

ونالني .. مع الله من طردت كل مطرد ..

ضرب رسول الله ﷺ بيده في صدره وقال: «أنت طردتني كل مطرد»..

فكرة ..

ليس الذكاء أن تنتصر عند الجدال ..

وإنما الذكاء أن لا تدخل في الجدال أصلاً ..

اقطع الطريق على المعترضين ..

من أكثر ما يوغر صدور بعض الناس على بعض ما يجنيه اللسان من مفاسد ..

ومن ذلك استعجال بعض الناس بالاعتراض على الحديث ومقاطعة المتكلم دون تروٍّ ونظر .. فيثور عند ذلك جدال عقيم يوغر الصدور ويفسد النفوس ..

لن تستطيع إصلاح جميع الناس وتأديبهم بالآداب الشرعية .. أو تدريبهم على مهارات متميزة ..

ودعنا نتجاوز مرحلة التنظير التي تحلو لبعض الناس أن يدندن عليها دائمًا بقوله: المفروض الناس أن يفعلوا كذا .. والمفروض أن يتعودوا على كذا ..

دعك من هذا .. وأذّ الصلاة على الميت الحاضر – كما يقال ..

أعني أننا ينبغي عند تعاملنا مع الأخطاء ألا ننشغل ببحث ما يجب على الآخرين أن يفعلوه بل ماذا يجب علينا نحن أن نفعله .. عندما تريد أن تتكلم بشيء غريب قد يستعجل الآخرون الاعتراض عليه .. ينبغي لك أن تغلق عليهم أبواب الاعتراض بمقدمات تجيبهم فيها عن أسئلتهم قبل أن يطرحوها .. بل وتزيل بها استغرابهم قبل أن يتكلموا به ..

وبعض الناس يحسن فعلاً أن يغلق الأبواب على المعترض قبل أن يشعره باعتراضه ..

أذكر أن شيخًا كبير السن جلس في مجلس فتكلم عن حادثة خصومة رآها بين اثنين في محطة وقود .. وكيف أن شجارهما زاد واشتد حتى حُملا إلى مخفر الشرطة ..

فقفز أحد الجالسين – من الثرثارين – مشاركًا في القصة فقال: نعم صحيح .. لكن لم يحصل كذا .. وإنما حصل بينهما كذا .. وفلان هو المخطئ ..

وبدأ يذكر تفاصيل لم تحدث ..

فالتفت إليه الشيخ وكأني به يكاد ينفجر .. لكنه تماسك وقال بكل هدوووء: هل حضرت الحادثة بنفسك؟

قال: لا.

قال: فهل حدثك أحد ممن حضروها؟

قال: لا

قال: فهل اطلعت على محاضر التحقيق؟

قال: لا

عندها صاح الشيخ وقال: طيب يا ... كيف تكذبني وأنت لا تدري عنه شيء؟!!

فأعجبتني مقدماته قبل اعتراضه .. ولو أنه اعترض دون أن يذكر مقدمات يغلق بها الأبواب على صاحبه .. لكان لصاحبه مجال واسع للخروج من الموقف ولو بالكذب ..

فنحن أحيانًا نحتاج عندما نريد أن نقرر أشياء أن نقدم بمقدمات نقنع بها المخالفين قبل أن يعترضوا ..

لما خرجت قريش لقتال النبي ﷺ وأصحابه في بدر .. كان بعض العقلاء فيها لا يريدون الخروج .. لكن قومهم أكرهوهم عليه .. فعلم النبي ﷺ بهم .. وتأكد أنهم وإن حضروا المعركة فلن يقع منهم قتال للمسلمين ..

فلما اقترب ﷺ من ميدان المعركة .. أراد أن ينبه أصحابه لذلك .. وأن ينهاهم عن قتلهم .. لكنه يعلم أنه سيقع في قلوب بعض الناس أسئلة:

كيف لا نقتلهم وهم خرجوا لحربنا؟!!

لماذا استثنى هؤلاء بالذات؟!

فقدم مقدمة أزال بها الاعتراضات، ثم ذكر التوجيه .. كيف؟

قام ﷺ في أصحابه وقال: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا ..

انتهى - هذه مقدمة ..

ثم قال: فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله ..

ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ..

ومن لقي العباس بن عبد المطلب .. عم رسول الله ﷺ فلا يقتله .. فإنه إنما خرج مستكرهًا ..

فمضى الصحابة على ذلك .. وبدؤوا يتحدثون في مجالسهم بذلك ..

فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس .. والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف .. فبلغت الكلمة رسول الله ﷺ ..

فالتفت إلى عمر فقال: «يا أبا حفص!» ..

قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص ..

قال ﷺ: «يا أبا حفص! أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟!!» ..

فاستبشع ذلك .. وانتفض .. كيف يرد أبو حذيفة أمر رسول الله ﷺ ؟!! .. أليس مسلمًا؟!!

فصاح عمر قائلاً: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف .. فوالله لقد نافق ..

فندم أبو حذيفة رضي الله عنه .. على ما تكلم به .. وقال: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ .. ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عني الشهادة .. فقتل يوم اليمامة شهيدًا رضي الله عنه ..

نصيحة ..

كن ذكيًّا وتغدّ بهم قبل أن يتعشوا بك!

انتظر .. لا تعترض ..!!

أذكر أن محاضرًا كان يتكلم عن فن الحوار .. فعرض شيئًا من قصة يوسف عليه السلام ..

فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ﴾ .. جعل يتأمل في الحاضرين ثم سألهم:

ودخل معه السجن فتيان؟! أيهما دخل قبل الآخر .. يوسف أم الفتيان؟

فصاح أحدهم: يوسف ..

فصاح آخر: لا .. لا .. الفتيان ..

فانطلق ثالث: لا .. لا.. بل يوسف .. يوسف ..

فاستذكى رابع وقال: دخلوا مع بعض!! وتكلم خامس .. وارتفع اللغط .. حتى ضاع الموضوع الأساسي ..

ويبدو أن المحاضر قصد ذلك .. فجعل يتأمل وجوههم .. والوقت يمضي .. ثم ابتسم ابتسامة عريضة .. وأشار لهم بخفض الأصوات وقال:

وما المشكلة!! دخل قبلهم أو دخلوا قبله!! هل تستحق المسألة كل هذا الخلاف؟!

فعلاً .. لو تأملت واقعنا لوجدت أننا في أحيان كثيرة نكون ثقلاء على الآخرين بكثرة اعتراضنا على ما يقولون فيكون أحدهم متحمسًا في قصة يحكيها ..

ثم يفاجأ بمن يعترض ويفسد عليه متعة الحديث بالاعتراض على أشياء لا تؤثر في القصة شيئًا ..

نعم .. لا تكن ثقيلاً تعترض على كل شيء ..

أذكر أن أخي سعود لما كان طفلاً في السابعة .. دخل المسجد لصلاة العشاء .. ويبدو أنه كان مستعجلاً وتأخر الإمام في المجيء لإقامة الصلاة ..

فلما ضاق بذلك ذرعًا توجه نحو المؤذن وكان شيخًا كبيرًا ضعيف السمع ووقف خلفه ..

ثم قبض على أنفه بيده وقال محاولاً تغيير صوته: أقم الصلاة .. ثم ولى هاربًا!!

أما المؤذن فما كاد يسمع ذلك حتى تحرك ناهضًا ليقيم الصلاة .. فنبهه بعض المأمومين .. فجلس وجعل يتلفت مغضبًا يتمنى رؤية الغلام لعقابه ..

كان موقفًا طريفًا .. لكني لم أورده لطرافته ..

وإنما لأني جلست بعدها في مجلس فذكر أحد الجالسين القصة وقال في أثنائها: وكان سعود مستعجلاً؛ لأنه سيذهب إلى البحر مع أبيه - مع العلم بأن الرياض في صحراء ولا تقع على ساحل بحر - .. فتحيرت هل أفسد عليه قصته وأعترض .. أم أن المعلومة غير مؤثرة في القصة فلا داع للاعتراض واكتساب العداوات .. فآثرت الثاني وسكت ..

وأحيانًا قد تعترض على شيء أنت غير فاهمه أصلاً .. لعل له عذرًا وأنت تلوم..

كان زياد لطيفًا، حريصًا على نصح الناس .. وقف يومًا عند إشارة مرور فإذا به يسمع صوتًا عاليًا لأغان غربية .. تحير من أين هذا الصوت .. وأخذ يتلفت يبحث عن مصدره .. فإذا هو من السيارة المجاورة له ..

وإذا صاحبها قد زاد صوت المذياع إلى أعلى درجاته .. حتى أسمع البعيد والقريب ..

جعل صاحبي يضرب على منبه سيارته ويحاول أن ينبه ذاك الرجل إلى خفض صوت مذياعه ..

لكن الرجل لا يلتفت ولا يرد ..

يبدو أنه لشدة انسجامه مع ما يسمع صار لا يدري عما حوله ..

حاول زياد أن يتبين وجه السائق الذي أسدل غترته على جانبي وجهه .. وبعد جهد رآه فإذا لحيته تملأ وجهه!!

ازداد العجب .. شخص بهذه الهيئة بدل أن يستمع إلى القرآن يستمع الأغاني!! لا.. وبصوت عال أيضًا!!

أضاءت الإشارة خضراء .. ومشى الجميع ..

أصر زياد على مناصحة الرجل فجعل يمشي وراءه .. وقف الرجل عند دكان .. ونزل ليشتري منه حاجة ..

أوقف زياد سيارته وراءه وصار يتأمله وهو يمشي فإذا الثوب قصير .. واللحية تملأ عارضيه .. تسابقت إلى قلبه الوساوس .. أظنه نزل ليخرج الآن بعلبة سجائر!!

خرج الرجل فإذا في يده مجلة إسلامية!!

لم يصبر زياد .. وأخذ ينادي بلطف: يا أخي .. لو سمحت .. هيه .. لم يرد عليه الرجل ولم يلتفت ..

رفع صوته: هيه .. هيه .. لو سمحت .. يا أخي .. اسمع ..

وصل الرجل سيارته وركبها .. ولم يلتفت ..

نزل زياد وقد غضب وأقبل إليه .. وقال: يا أخي .. الله يهديك .. ما تسمع!!

نظر الرجل إليه وابتسم وشغل سيارته .. فاشتغل المذياع مباشرة بصوت مزعج جدًا ..

فثار زياد .. وقال: يا أخي! حرام عليك .. أزعجت الناس ..

فجعل الرجل يزيد ابتسامته .. والأغاني بأعلى صوت .. ثار زياد أكثر .. وجعل وجهه يحمر.. وصار يرفع صوته ليسمعه ..

فلما رأى الرجل أن الأمر وصل إلى هذا الحد .. جعل يشير بيديه إلى أذنيه وينفضهما..

ثم أخرج دفترًا صغيرًا من جيبه مكتوب على أول ورقة منه: أنا رجل أصم لا أسمع ..

فضلاً اكتب ما تريد!!

لمحة ..

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾

فانتبه لا تغلب عجلتك تؤدتك..

قبل نجواكم: صدقة ..

الطلبات الكبيرة تحتاج إلى تهيئة المطلوب منه قبل طلبها .. لئلا يسارع إلى الرفض ..

وهذا عام في الطلبات الشفهية والمكتوبة ..

فلو أردت أن تكتب إلى غني تطلب منه حاجة .. فمن المناسب أن تكتب قبل حاجتك شيئًا من الثناء على جوده وكرمه ومحبته للخير .. ثم بعد ذلك تكتب حاجتك .. ومثله لو أردت حاجة من أبيك أو أخيك ..

أو – من يدري ربما – زوجتك .. يناسب أن تقدم قبلها بمقدمة ..

فلو دعوت نفرًا من أصدقائك إلى مأدبة غداء.. وأردت أن تخبر زوجتك لتعد الطعام وتهيئ البيت .. لناسب أن تقول قبل ذلك .. بصراحة طعامك لذيذ .. جميع أصدقائي يفرحون إذا دعوتهم لأجل أن يأكلوا من عمل يدك..

تصدقين!! لقد أكلت في أرقى المطاعم .. وما ذقت كلذة طعامك أبدًا ..

وبصراحة رأيت البارحة صديقًا لي جاء من سفر .. ومن باب المجاملة قلت له تغدّ معي غدًا .. فتفاجأت به أن وافق ..!!

فدعوت معه بعض الأصدقاء .. فليتك تعملين لنا طعامًا ..

هذا الأسلوب أحسن من صراخك إذا دخلت بيتك: يا فلانة .. فلانة ..

فتجيبك: لبيك .. أنا قادمة .. وهي تظن أنك ستدعوها إلى نزهة ..

فتقول لها: بسرعة .. بسرعة .. المطبخ .. المطبخ .. عندي رجال سيأتون .. لا تتأخري بالغداء .. وانتبهي أثناء إعداده .. و..

ومثله: لو أردت أن تطلب إجازة من مديرك .. أو تخبر أمك أو أباك بخبر ..

وقد قرأت في سيرة النبي الأكرم ﷺ.. ما يدل على ذلك ..

كان النبي ﷺ قد رضع في صغره قريبًا من ديار هوازن.. وكان يرجو أن يسلموا..

فبلغه .. أن هوازن قد جمعت جموعها وتهيأت لقتاله ..

فخرج إليهم .. وقاتلهم ..

فنصر الله نبيه ﷺ عليهم .. فساق الغنائم ..

فأقبل بعضهم إلى رسول الله ﷺ .. وهو نازل بالجعرانة .. وقد قُتل من قُتل من رجالهم .. وقُتل أيضًا من المسلمين رجال .. فهي معركة ..

وكان رسول الله ﷺ جعل النساء والأطفال في مكان ..

فأراد عقلاء من قبيلة هوازن أن يكلموا رسول الله ﷺ ليفك أسر نسائهم وصبيانهم .. فاختاروا رجلاً مفوهًا منهم .. له أسلوب رائع .. ومنطق حسن ..

فقام منهم خطيبهم زهير بن صرد وقدم بمقدمة .. فقال: يا رسول الله! إنما في الحظائر من السبايا خالاتك .. وحواضنك .. اللاتي كن يكفلنك .. ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر .. أو النعمان بن المنذر ..

ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك .. رجونا عائدتهم وعطفهم .. وأنت رسول الله خير المكفولين .. ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زهر

إنا لنشكر آلاء وإن كُفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فأطلق له النبي ﷺ السبايا من النساء والصبيان..

فتأمل: كيف قدم بمقدمة رائعة قبل طلبه.. ذكر فيها رسول الله ﷺ بأيام طفولته في ديار هوازن بني سعد..

ثم استنهض المروءة في رسول الله ﷺ بأننا لو أكرمنا غيرك من الملوك لأكرمنا.. وأنت أولى بالكرم.. فما أجمل ذلك..

وقد أدب الله المؤمنين.. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾(٩٩)..

وكانت العرب.. إذا أرادت أن تستنجد بأحد.. أو تطلب عونه.. أول ما تستفتح قولها بالكلام الحسن والأشعار.. وكذلك لو أرادوا إهانة أحد أو قتاله استفتحوا بالخطب والأشعار.. فتحدث في النفوس ما لا تفعله السيوف..

لما أقبل رسول الله.. يريد العمرة.. خافت قريش..

(٩٩) سورة المجادلة: (١٢).

وكاد النبي ﷺ أن يقاتلهم .. لولا أنهم ألحوا عليه حتى كتب بينه وبينهم .. هدنة لمدة عشر سنوات .. وقف للقتال ..

وكان في صلح الحديبية .. لما كتب .. أنه من شاء من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ..

فتواثبت قبيلة خزاعة وقالوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده ..

وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم ..

وكان بين هذين الحيين دماء وقتال .. واشتدت ضغينة قريش على خزاعة .. لكنهم خافوا أن يصيبوهم بشيء فينتصر لهم النبي ﷺ ..

فلما مضى من هدنة الحديبية .. نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا .. وثبت بنو بكر على خزاعة .. ليلاً بماء يقال له: الوتير .. وهو قريب من مكة .. وطلبوا الإعانة من قريش ..

فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد ..

فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح .. وقاتلوهم معهم ..

ففزعت خزاعة .. وقتل من قتل من رجالهم ونسائهم وذراريهم ..

فلما رأى رجل منهم وهو عمرو بن سالم ما حل بقومه .. ركب بعيره .. وهرب من يد قريش .. حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة .. فدخلها فزعًا .. مصابًا مكروبًا ..

ثم أقبل إلى المسجد .. عليه أثر الطريق ووعثاء السفر .. ووقف بين يدي رسول الله ﷺ .. فقال:

يا رب إني ناشد محمدًا ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم ولدًا وكنا والدًا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرًا أبدًا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيما خسفًا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا

ثم صاح بأعلى صوته قائلاً:

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وجعلوا لي في كداء رصدًا — وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددًا — هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعًا وسجدًا

فلما سمع النبي ﷺ هذا الكلام .. والشعر .. والنداء .. انتفض .. وغضب ..

وقال: «نصرت يا عمرو بن سالم» .. ثم قام .. مسرعًا .. وأمر الناس بالتجهز للخروج للقتال ..

ففزع الناس يتجهزون .. وهم لا يعلمون أين سيكون القتال .. وقد خشي ﷺ أن يخبر بوجهته .. فيصل الخبر إلى قريش .. وسأل الله أن يعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم ..

ورسول الله ﷺ .. قد اشتد غضبه على قريش لخيانتهم .. فكان يتجهز ويقول: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد في العقد ويزيد في المدة».

ثم أقبل نفر من قبيلة خزاعة آخرون إلى رسول الله ﷺ .. فيهم بديل بن ورقاء .. حتى قدموا على رسول الله ﷺ .. فأخبروه بما أصيب منهم .. ومظاهرة قريش لقبيلة بني بكر عليهم ..

فوعدهم النبي ﷺ بالنصر .. وقال لهم: «ارجعوا فتفرقوا في البلدان» .. وخشي أن تعلم قريش بخبرهم معه .. فتقاتلهم .. قبل وصوله إليهم ..

فانصرفوا راجعين إلى ديارهم ..

فلقوا أبا سفيان في موضع بين مكة والمدينة اسمه «عسفان» .. قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ .. يشد ويؤكد العقد المكتوب في الحديبية ويزيد في المدة .. وقد رهبوا أن يكون بلغه ما فعلوا ..

فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء .. خشي أن يكون أقبل من عند رسول الله ﷺ .. وأخبره بخيانة قريش ..

فقال: من أين أقبلت يا بديل؟

فقال بديل: سرت في خزاعة في هذا الساحل في بطن هذا الوادي ..

فسكت أبو سفيان .. فلما جاوزه بديل .. أقبل أبو سفيان إلى مبرك ناقة

بديل .. فأخذ من بعرها ففته بيده .. فرأى فيه نوى التمر .. فعلم أن الناقة كانت بالمدينة ..

فهم الذين يطعمون دوابهم نوى التمر .. فقال أبو سفيان: أحلف بالله لقد جاء بديل من عند محمد ..

ثم مضى أبو سفيان .. حتى وصل المدينة .. فتوجه إلى بيت ابنته أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ .. فلما دخل أقبل ليجلس على فراش رسول الله ﷺ .. فطوته من تحته ..

فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش .. أو رغبت به عني؟

فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس .. فلم أحب أن تجلس على فراشه ..

فعجب منها .. وقال: يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر!

ثم مضى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ .. فقال: يا محمد اشدد العقد وزدنا في المدة ..

فقال ﷺ: «ولذلك قدمت؟ هل كان من حدثٍ قِبَلكم؟!»

ولم يُظهر له النبي ﷺ أنه علم بخيانة قريش ولا أنه علم بقتالهم لقبيلة خزاعة ..

فكأنه يقول لأبي سفيان:

لماذا تجددون العهد وتزيدون المدة.. أليس العهد باقيًا فلماذا يجدد أو يشدد..

قال أبو سفيان: معاذ الله! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل ..

فسكت عنه النبي ﷺ .. فكرر عليه أبو سفيان.. ورسول الله ﷺ لا يجيبه..

فخرج أبو سفيان من عند رسول الله ﷺ ..

وأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: اشفع لي عند محمد .. أن يجدد العقد .. ويزيد في المدة .. أو امنعني وقومي ..

فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله ﷺ .. ولا أمنع أحدًا منه .. وأما أنا

فوالله لو وجدت الذر - صغار النمل - تقاتلكم لأعنتها عليكم ..

فخرج أبو سفيان كسيرًا .. وتوجه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فكلمه .. فقال عمر بن الخطاب: أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟!

بل ما كان من حلفنا جديدًا فأخلقه الله .. وما كان منه مثبتًا فقطعه الله .. وما كان منه مقطوعًا فلا وصله الله!

فلما سمع أبو سفيان ذلك .. تغير وضاق صدره .. فكأنما لُطم .. فخرج أبو سفيان وهو يقول: جُزيت من ذي رحم شرًا ..

فلما يئس مما عندهم دخل على علي ﷺ.. فقال له: يا علي أنت أقربهم بي نسبًا .. فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ ..

فقال له علي: يا أبا سفيان .. إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات على رسول الله ﷺ بجوار .. أي: لا يستطيع أحد منعه عن أحد إن أراد قتاله أو عقوبته .. فهو لا ينطق عن الهوى ..

وأنت سيد قريش .. وأكبرها .. وأمنعها .. فأجر بين عشيرتك .. وامنع نفسك ..

يعني: صح بالناس إني قد منعت نفسي .. ثم الحق بأرضك ..

قال أبو سفيان: أو ترى ذلك يغني عني شيئًا ..

قال: لا .. ولكن هو رأي أراه ..

فخرج أبو سفيان إلى الناس في المدينة ثم صاح .. ألا إني قد أجرتُ بين الناس .. ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد .. ثم ركب بعيره فانطلق إلى مكة ..

فلما أن قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد؟

قال: لا والله لقد أبى علي .. وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قومًا لملك عليهم أطوع منهم له ..

لقد جئت محمدًا فكلمته .. فوالله ما رد علي شيئًا ..

ثم جئت ابن أبي قحافة فوالله ما وجدت فيه خيرًا ..

ثم جئت عمر فوجدته أعدى عدو ..

ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم .. وقد أشار علي بأمر صنعته .. فوالله ما أدري هل يغني عنا شيئًا أم لا؟

قالوا: بماذا أمرك؟

قال: أمرني أن أجير نفسي بنفسي بين الناس ففعلت ..

قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ أي: هل وافق محمد على قبول طلبك الحماية لنفسك .. وألزم أصحابه به؟!

قال: لا..

قالوا: ويحك ما زادك الرجل على أن لعب بك .. فما يغني عنا ما قلت ..

فقال: لا والله ما وجدت غير ذلك ..

فاغتم أبو سفيان .. ودخل على امرأته فحدثها الحديث فقالت: قبحك الله من وافد قوم! فما جئت بخير ..

ولم تمض أيام حتى أقبل رسول الله ﷺ.. إلى مكة فاتحًا ..

بالإشارة يفهم ..

اللقمة الكبيرة تحتاج لمضغ جيد قبل ابتلاعها

ليس مهمًا أن تنجح دائمًا ..

كان فهد يمشي مع صاحبه – العنيد المكابر – في صحراء شاسعة فرأيا شيئًا أسود رابضًا على التراب .. تخفيه الريح تارة وتظهره تارة ..

التفت فهد إلى صاحبه وسأله: تتوقع .. ما هذا؟!

فقال صاحبه: هذه عنز سوداء!!

قال فهد: بل غراب ..

قال صاحبه: أقول لك: عنز .. يعني: عنز ..

قال فهد: طيب نقترب ونتأكد ..

اقتربا .. وجعلا يركزان النظر أكثر وأكثر .. كان واضحًا أن الذي أمامهما غراب!!

قال فهد: يا أخي .. والله غراب ..

هز صاحبه رأسه بكل حزم وقال: عنززززز ..

سكت فهد .. واقتربا أكثر .. فشعر الغراب باقترابهما فطاااار ..

فصاح فهد: الله أكبر .. غراب .. أرأيت إنه غراب .. طار ..

فقال صاحبه: عننننز .. حتى لو طار!!

لماذا أوردت هذه القصة؟

أوردتها لأجل أن أبين:

أن هذه المهارات التي تقدمت فيما مضى من صفحات .. تصلح مع الناس عمومًا .. لكن مع ذلك يبقى أن بعض الناس مهما مارست معه مهارات لا يتفاعل معك ..

فلو مارست معه مهارت اللمح .. فقلت: ما شاء الله ما أجمل ثيابك .. كأنك عريس .. وأنت تتوقع منه أن يتبسم ويشكرك على لطفك .. فإنه لا يفعل ذلك .. وإنما ينظر إليك شزرًا .. ويقول: طيب .. طيب .. لا تجامل .. لا تستخف دمك ..

ونحو ذلك من العبارات السامجة التي تدل على عدم خبرته في التعامل مع الناس ..

ومثله المرأة التي قد تمارس مع زوجها مهارات .. كمهارة التفاعل مثلاً .. فيحكي نكتة باردة ..

فتتفاعل معه ضاحكة .. فيقول: طيب .. لا تغصبي نفسك على الضحك؟!!!

إذا واجهت هذه النوعيات من الناس فاعلم أنهم لا يمثلون المجتمع ..

ولقد جربت هذه المهارات بنفسي .. نعم والله جربتها بنفسي فرأيت آثارها في الناس .. كبارًا وصغارًا .. بسطاء وأذكياء .. وأصحاب مناصب عليا .. وطلابًا عندي في الكلية ..

جربتها ومع أولادي .. فرأيت لها أعاجيب ..

بل جربتها مع مختلف الأجناس والجنسيات .. فرأيت آثارها ..

والله إني لك ناصح ..

باختصار ..

هل أنت جاد في التغيير؟

كن بطلاً وابدأ الآن

أذكر أني ألقيت دورة في مهارات التعامل مع الناس .. كان عبد العزيز من بين الحضور ..

كان تأثره واضحًا .. لاحظته يكتب كل شاردة وواردة ..

مضت أيام الدورة الثلاثة .. وتفرقنا ..

بعدها بشهر ألقيت الدورة نفسها مرة أخرى .. فلما نظرت إلى الحضور .. فإذا عبد العزيز يجلس في الصف الأول!!

تملكني العجب !! لماذا يحضرها مرة أخرى وهو يعلم أني سأعيد الكلام نفسه!!

لما أذن للصلاة وتفرق الطلاب من الصالة .. أخذت يد عبد العزيز ومشيت به جانبًا .. وسألته:

عبد العزيز .. لماذا تحضر مرة أخرى .. وأنت تعلم أني سأعيد الكلام نفسه..!!

والمذكرة التي بين يديك هي نفسها المذكرة السابقة!! والشهادة التي ستحصل عليها هي الشهادة نفسها!! يعني: لن تستفيد شيئًا ..

فقال لي:

تصدق!! والله إن أصحابي وزملائي يقولون لي: يا عبد العزيز أنت تغيرت في تعاملك معنا منذ شهر ..

ففكرت في ذلك فإذا أنا أطبق ما تعلمته من مهارات في الدورة السابقة .. فجئت لأحضر الدورة مرة أخرى لتأكيد ما تعلمته من مهارات ..

إذن ..

إذا كنت جادًا في التغيير فكن بطلاً وابدأ الآآآن ..

فهرس الموضوعات

* * *



تم الجمع التصويري
بدار فتح المجيد
هاتف: ٠١٠٠٨٥٦٧٦٩

مطبعة زهران
16ش الدرديري - الأزهر
تليفون: 554 7 510 2 (202) 002
فاكس: 1 30 40 51 2 (202) 002
208 02 02 (012) 002